
حياة حصار
فيصل حوراني
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

حياةُ حصار

رواية



تأليف: فيصل حوراني

(1)

سبعون يوماً انقضوا منذ بدأت الحرب، خمسة أيام للطريق من الحدود إلى تخوم المدينة، وخمسةٌ وستون منذ أحكم المهاجمون محاصرة هذا الشطر منها. ولأن نهار الأذى ثقيلٌ مثل ليله، فإن الأيام توالت بأثقالها دون فواصل، فاتّصلت المعاناة. وها أنا ذا قد تيقّنتُ عملياً مما عرفته قبل الحصار: الألفةُ هي سلاح الإنسان لمتابعة العيش حتى في أقسى الظروف. الإنسان لا يألف المبهج وحده أو المفيد، بل يألف المؤسي والمؤذي، أيضاً. يعتاد الإنسان على ما هو موجع كما يعتاد على ما هو مريح. ولو قيل لي قبل سبعين يوماً إن البلاء الذي حطّ على المدينة سيستمرُّ كلّ هذه المدّة دون أن يفردَ ناسُها رايات الاستسلام، لما صدّقتُ. أما لو قيل إن الناس سيعتادون على تحمّل هذا البلاء وسيجدون فُرصاً ومزاجاً حتى لاقتناص مسرّات، لحسبتُ القائل في المعتوهين.

الآن، صرتُ مُدرّباً على ابتكار جديد آلفه كلما دمّرت الحربُ قديماً ألفتُه. والآن، صار في الإمكان أن أستخلص مفيداً من هذا الأذى. ودليلي شاخصٌ أمامكم. فقد عزمتُ على أن أصنع من وقائع الحصار الذي امتدّ أكثر مما قدّرتُ روايةً، وشرعتُ في التنفيذ. سأسجّل ما

اشاهده. فإن امكن ان يصير هذا الذي أسجّله هو الرواية المتوخّاة، فبها ونعمتْ، امّا إن تعذّر ان يفي بالفرض، فلا اقلّ من ان يُشكّل مادةً لرواية أنجزها انا، إن قُيّضت لي النجاة، أو ينجزها غيري إن وقع لي ما قد يقع لأيّ إنسان يحيط به هذا الحصار الفتّاك.

في اليوم الذي بدأتُ تسجيل مشاهداتي، صحوتُ قبل انتشار الضوء، كما صرتُ أفعل منذ بدّلت الحرب مواعيد نومي وصحوي. وقتها، كان القصفُ الليلي قد بلغ لحظاته الأخيرة وصار واهناً، حتى انه لم يعد يجتذب انتباهي. وقبل أن يداهمني القصفُ النهاري، ببدايته التي تجيء على الدوام صاخبة، شرعتُ في تنفيذ فقرات طقسي الصباحي المبكر. ومن حجرة نومي، إلى الممرّ، إلى المطبخ، تحسستُ طريقي تحسساً، حتى بلغتُ المجلى حيث تكوّمت الأواني المتروكة بغير جلي. وهممتُ بأن أوقد شمعة لأعثر على غلاية القهوة وسط الكومة، فتذكّرتُ أن غاز ولاعتي نفد وأني استهلكت أمس آخر عود في علبة الكبريت. ولم يعد الأمر أمر العثور على الغلاية، فهذا مما يُمكن تدبُّره حتى في العتمة، بل انضاف تعذُّرُ إيقاد طبّاخ الغاز. وهكذا، صار عليّ أن ابقى بغير قهوة وبغير سيجارة، إلى أن تصحو جارتي التي لا أعرف متى تصحو، فأستعير منها عود ثقاب.

مع الحصار، غاضت أشياء، وشحّت الأشياء الأخرى. فجر

المحاصرون محطة توليد الكهرباء، فغاضت الكهرباء. أوقفوا تدفق الماء، فشح الماء. منعوا وصول الغاز والوقود السائل، فلم يتوفر منه إلا ما يُسَرِبُه تجارُ السوق السوداء بأساليبهم الملتوية. الغذاء شحّ، والدواء، والكساء، وكل شيء. وقد ألفتُ أن أفكّر مع قهوة الصباح والسيجارة الأولى بما ينبغي عمله لتدبّر الحاجات الضرورية. أما وقد أرجئ طقسي الصباحي في ذلك اليوم، فإني أرجأتُ التفكير. فمن الشاقّ أن تهتدي إلى شيء نافع وأنت محاصر ومحروم من القهوة والتدخين كليهما. ومع عجزي عن فعل شيء مفيد، داهمتني الرغبةُ في العودة إلى النوم غير أني غالبتها.

كنا في الرابعة والنصف. وهم يستأنفون القصف النهاري في الخامسة، لا يتقدمون دقيقة ولا يتأخرون. الخامسة بالضبط، كأن محابس راجماتهم المتنوعة مربوطةٌ كلّها إلى عقارب ساعة بيغ بن. ولو أني استسلمت للنوم، فلا بدّ من أهبّ مذعوراً بعد وقت قصير. فقصف النهار تباشره دباباتُهم من البرّ وبوارجُهم من البحر وطائراتُهم من الجو في وقت واحد. وغالباً ما يكون القصف النهاري عشوائياً. ومع القصف العشوائي لا تستطيع أن تحزر أين ستحطّ القذائف التي تقطع نومك. وما من شيء يضمن أن لا تحطّ قذيفةٌ على أمّ رأسك ذاته. وفي كل حال، حتى لو حطّت القذائفُ بعيداً، فإنك لن تنجو من

الضجيج والشميم المخرّش اللذين يغمران المدينة منذ استئناف القصف.

بدل الذهاب إلى السرير، حططتُ جسدي على مقعد متروك بالصدفة قرب باب الشقة أظهره نوزُ الفجر الذي تخلّل الظلام. القربُ من الباب جعلني أركن إلى الأمل في أن ألتقط حركة الجارة في الشقة المقابلة منذ أن تصحو لأخفّ إليها. لكن الرغبة التي غالبتها غلبتني، فغفوتُ على الكرسيّ. ولحسن الحظ، لم يُقدّر لإغفاءتي أن تطول، إذ سرعان ما انتزعني منها طرقٌ على الباب، إن كان ناعماً فقد كان ملحاحاً أيضاً. إنها الجارة، هذه التي لم يكن في شقّتها أحد سواها، والتي تختلق سبباً أو تستثمر أيّ سبب لتجيء إليّ كلما ضاقت بوحدتها. افتقَدتِ الجارةُ، هذه المرة، البنّ، فجاءت تسأل عما إذا كان عندي فائض منه، فحُلّت مشكلتي ومشكلتها معاً: بنّ مني، وأعواد ثقاب منها. ويبدو أن الظفر بالفرج الذي جاء أعجل مما توقعت هو ما انساني أن أستبقي جارتي حيث يمكن أن ندخّن ونتناول القهوة معاً على شرفتي.

قبل الحصار، كانت هذه الجارةُ، بالنسبة لي، هي السيدة طيّان، ليس اكثر، او مسز تيّان، وفق التسمية التي تحبّذ، هي مدرسةُ اللغة الانجليزية، أن تُنادى بها، والتي استخدمتْها هي عندما قدّمت نفسها

لي ولزوجتي أول مرة. وبالرغم من أني عشت بجوار هذه السيدة ثلاث سنوات، فإن صلتي بها لم تتعدّ تبادل تحيات عابرة كلّما التقينا بالصدفة: غود مورننغ، أو غود داي، أو غود ايفننج، إذا كانت هي المبادرة؛ وصباح الخير، أو نهارك سعيد، أو مساء الخير، حين اكون أنا هو المبادر. طيلة هذه المدة، لم أعرف اسم جارتي الأول: لم أهتم أنا بأن أعرفه، ولم تهتم هي بأن أعرف أيّ شيء عنها. بوّاب البناية هو الذي ذكر لي ذات مرّة شيئاً عن السيدة طيّان. فعرفتُ أن جارتي مطلّقةٌ لم تتزوج بعد الطلاق الذي لا يعرف هو متى وقع، وأنها، هي الوافدة إلى المدينة من بلدة بعيدة، اختارت السكن في بنايتنا لأن المكان قريب من المدرسة التي تُدّرس فيها. والبواب أبو طانيوس الذي يعفّ عن ترويج النمائم هو الذي وصف الجارة بأنها سيّدة في حالها، وهو الذي قال، بنبرة من ينصح بعدم الاحتكاك بهذه السيدة، إنها تتجّنب الاختلاط بسكان البناية.

في الحصار، نشأت الحاجات التي أوجبت الاتصال. بدأ الأمر منذ كانت زوجتي معي وكان أبنائي، واستمر بعد رحيل الزوجة عن المدينة المحاصرة وتغيُّب الأبناء عن الشقة، ثم تطورت الصلةُ مع تعدد الحاجات التي توجبها. ولم يلبث أن صار بوسع الجارة أن تطرق بابي في أيّ وقت، مثلما صار بوسعي أن أطرق بابها لأيّ سبب.

نقلتُ قهوتي إلى الشرفة. وجلستُ حيث أجلس كلّ صباح لأستروح النسائم الآتية من جهة البحر قبل أن يخالطها شميم الانفجارات. شربتُ الفنجان الأول. ودخّنتُ السيجارة الأولى. ثمّ صببتُ في الفنجان ما بقي في الغلاّية، وأشعلتُ سيجارتي الثانية. رشفتُ رشفة قهوة ثمّ أخرى. وسحبتُ من السيجارة نفساً ثم آخر. وفيما أنا أهمُّ بالمتابعة، انفلتت الرعود من محابسها الكثيرة دفعةً واحدة، أزيز الصواريخ، ودويّ القنابل، وهدير الطائرات المغيرة، وضجيج الانفجارات وأهوالها، والشميم المخرّش الذي سرعان ما بلغ شرفتي. ولأن هذا كلّه كان متوقعاً، أو لأقل إنه صار مألوفاً، فإنه لم يدفعني إلى مغادرة الشرفة، كما كان يحدث في أيام الحصار الأولى، ولم يوقف ما شرعتُ فيه. وفيما أنا ماضٍ في شرب القهوة والتدخين، تابعتْ أذناي اللتان اطّرد تدريبهما على التمييز بين الأصوات المختلفة العراكَ الذي ترسمُ الأصوات صورته، بين الأسلحة الفتاكة التي تحطُّ قذائفها على المدينة وأصواتها المجلجلة وبين الأسلحة المتواضعة التي يستخدمها المدافعون عنها وأصواتها الكليلة.

كنّا في صيف بيروت 1982، وكان جيش إسرائيل يحاصر الشطر الغربي من المدينة، فيما كان ضبّاطُ هذا الجيش وجنوده والمسؤولون السياسيون عنه يتمتعون بحفاوة اللبنانيين الذين

رحّبوا بهم في الشطر الشرقي. وكان هدف جيش إسرائيل، الهدف الذي تمّ الإفصاحُ عنه دون تزويق، هو الفتك بمنظمة التحرير الفلسطينية واللبنانيين الذين رحبوا بوجود مقاتليها في بلدهم وساندوها. أو، وفق التعبير المتبجح لجنرال المجازر الذي صار وزيراً للدفاع في إسرائيل، كان الهدف المعلن هو بقْرُ بطن المنظمة الفلسطينية واجتثاث أحشائها وأحشاء الأطراف اللبنانية المتحالفة معها. أما الهدف الآخر، المضمرُ، هذا الذي التوى الحديث عنه على ألسنة جنرال المجازر وغيره، فكان إجلاءَ الفلسطينيين عن لبنان، وحملَ حلفائهم اللبنانيين إلى الرضوخ لمشيئة إسرائيل، وتمكينَ اللبنانيين المتعاونين معها من الهيمنة على السلطة في البلد كلّه. وكان ثبات المدافعين عن بيروت، فلسطينييهم ولبنانييهم، حاملي السلاح منهم والعزّل، قد جمّد الجيش المهاجم عند الخطوط التي بلغتها قواته في أيّام الحرب الأولى، أيّ عند ما صارت خطوطَ التماسّ أو خطوطَ الحصار. فتجمّد الوضع كلّه: فارضو الحصار عجزوا عن التقدم؛ والواقعون فيه عجزوا عن دفع محاصريهم إلى وراء. ولم يبق في يد المهاجمين سوى الإمعان في تدمير المدينة المحاصرة والفتك بالموجودين فيها، بأمل أن يرضخوا. أما المدافعون فإن أملهم في النجاة ارتبط بقدرتهم على الثبات إلى أن تضيق دول المحيط ودول العالم الأخرى بحرب الإبادة فترغم

إسرائيل على وقفها.

بهذا وذاك، صرنا في موسم تُمطر السماء فيه صواريخ وقنابل وطلقات رشاشات وبنادق. وصار ثبات الذين لا يُنجّيهم من الإبادة إلا ثباتُهم أسطورةً انداح صداها وتأثيرُها في أربع أرجاء الكرة الأرضية. فحرّكت الأسطورة الماثلة للعيان مشاعر الناس الطيّبين كلّهم، وضيّقت الخناق على الأشرار، وسبّبت لمؤيدي إسرائيل حرجاً لا قبل لهم بمواجهته. بالرغم من القصف، ومن جنونه، مضيتُ في طقسي الصباحي دون تعجُّل. لكأني كنت إزاء فيلم سينمائي معاد يُعرض في فضاء مكشوف، فلا يجتذب من اهتمامي إلا أقلّه، ولا يحول بيني وبين عمل ما أحتاج إلى عمله. وحين أعدتُ الغلاية والفنجان الفارغين إلى المطبخ، كان ضوء النهار غامراً فكشف كومة الأواني غير المجلية. فحضرَت الحاجة إلى الماء، واستحوذ التفكير به على اهتمامي.

سيطر المحاصرون على مصادر الماء وأوقفوا ضخّه إلى المنطقة المحاصَرة. في البداية قلّصوا الضخ، لكنهم انتهوا إلى إيقافه كلية. والحياة التي لا تستمر بغير الماء فرضت منطقها. فحفر الموكّلون بتنظيم الدفاع عن المدينة آباراً حيث تيسرت الفرصُ بين الدور. لكن الآبار لم تنجُ من القصف، فظل الماء شحيحاً وصار يُوزع بتقنين

شديد، إذ لم يكن في المتناول توفير الماء الكافي أو توفير الصهاريج اللازمة لتوزيعه على سكان خمسة وعشرين ألف بناية صغيرة وكبيرة قائمة في المنطقة المحاصرة. عُسْرُ الحال جعل صهريج الماء يجيء إلى شارعنا مرةً كلّ ثلاثة أيام، هذا إذا لم يقع ما يشلّ حركته. وكان عليّ أن أهيّء أواني فارغة تسع حصتي من الماء، فأهبط بهذه الأواني إلى الشارع ثم أصعد بها وهي ممتلئة إلى شقتي في الطابق الخامس.

في يوم التوزيع الأخير، طرأ ما جعلني أغادر الشقة قبل موعد قدوم الصهريج، فحُرِمتُ من حصتي. ولما لم يكن من اللائق أن أطلب من جارتي إشراكي في حصتها الضئيلة، فقد قصرت طلبي على ما يلزم لقهوتي. والمشكلة التي شغلتني في ذلك اليوم الذي أتحدّث عنه تمثّلت في أني محتاج، مرة أخرى، إلى مغادرة الشقة قبل مجيء الصهريج، إذ كان عليّ أن أشارك في أداء مهمة لا أحبّ أن أتخلّف عنها.

طرقتُ باب الجارة بنيّه سؤالها عما إذا كان بإمكانها تزويدي ببعض حصتها. لكن الخجل إزاء التي لا تحصل إلا على حصة شخص واحد أثقل لساني. فتلجلجتُ في عرض مشكلتي. وقبل أن تُفصح اللجلجة عن أي طلب، اقترحتِ الجارة ما رأت أنه أفضل وسيلة. فهي تترك

أوانيها الفارغة عند البواب وتعتمد عليه في نقلها إلى شقتها، وبإمكاني أن أفعل الشيء ذاته. وهي واثقة بأن الرجل الطيّب لن يخذلني. ويحسن أن أنفح الذي يُسعده أن يُسعد الآخرين بغشيشاً يُعينه على تدْبر نفقات أسرته.

كان إيكال الأمر لأبي طانيوس قد خطر ببالي مراراً، لكنني نحيته كل مرة. فالرجل مثقلٌ بالأعباء، وسكان البناية يفرطون في الاتكاء على طيبته، وموزعو الماء يشترطون وجود الساكن بنفسه ليتأكدوا من أنه لم يغادر مسكنه. ثم إني لو أجزتُ لأبي طانيوس أن ينقل الماء إلى شقتي أثناء غيابي فإن عليّ أن أترك له المفتاح. وفي هذا مجازفة أبغضُ الإقدام عليها. فما أكثر ما يتبعثر في الشقة من أوراق وأشياء أخرى لا أحبّذ أن تقع في يد أحد سواي. كان اقتراح الجارة منطقياً، لكنني ترددت في قبوله. والواقع أن ترددي طال.

ألفتُ أن يصل الصهريج إلى شارعنا في منتصف النهار. وكان أمامي أن أمدد بقائي في الشقة حتى الحادية عشرة والنصف، نصف ساعة قبل الموعد المحدد لأداء المهمة، إذا استغنيتُ عن الذهاب إلى مقر عملي. وإذاً، فلأبق. فلعل الصهريج يجيء قبل الموعد المألوف! اعتزامي البقاء لم يُلغ القلق ولم يوهنه. فماذا لو تخليتُ عن واجب الذهاب إلى مقرّ العمل ثم لم يُبكّر موزعو الماء في المجيء، هم

الذين لم يجيئوا قبل الموعد إلا في الأيام القليلة التي انخفضت وتيرة القصف. ألم يشتد القصف زيادة حتى عن المألوف، فما الذي يُطمئنني إلى أنه سيضعف. ماذا لو تبدّد وقتي دون فائدة، لو خسرتُ فرصة الذهاب إلى مقر العمل والماء معاً. صحيح أن الوجود في مقرّ العمل تحوّل مع الحصار الذي عطّل أعمالنا إلى واجب روتيني دافعه هو الحرص على إتباع المألوف وهدفه هو إثبات الوجود. غير أن واجباً له هذا الدافع وهذا الهدف ليس مما تجوز التضحية به في زمن اشتداد الحرص على المألوف والوجود معاً. وإذاً، فلأغادر الشقة المغمورة بالقذارة والفوضى، ولأتكل، كغيري، على أريحية البواب الأريحي!

وبين الحاجة إلى البقاء والرغبة في المغادرة، لم أثبت على قرار.

لو لم أنته إلى أن أصير وحيداً في هذه الشقة، لما صار هذا الشأن البسيط مشكلة مقلقة. أبنائي التحقوا منذ بداية الحرب بمقرات الدفاع عن المدينة وانهمكوا في واجبات الدفاع الكثيرة. أما زوجتي، فلغيابها حكايةٌ يوجعني الخوض في تفاصيلها، ويرغمني الوجع على إيجازها، حكاية هي، في نهاية المطاف، واحدة من حكايات الحرب التي تُبلبل حيوات الناس، حين لا تفتك بها فتكاً، والتي تخترق مألوفهم، وتُبدّل أمزجتهم وسلوكهم.

غطّت الضيق بأثقال الحصار أعصاب ياسمين الحساسة. والتي خشيت أن تتهم بالجبن في مواجهة الأخطار قاومت ضيقها، وأرغمت نفسها على التردد على مقرّ عملها الذي تجعله طبيعته هدفاً للقصف، هي مهندسة الصوت التي تعمل في الإذاعة الفلسطينية. تعرّض المقرّ للقصف، فأجّج القصف الذي جرى وهي خارج المقر هواجس ياسمين، وفاقم عطب أعصابها، فقلّصت عدد المرات التي تذهب فيها إلى العمل وقصّرت مدّة وجودها فيه. غير أن هذا التدبير لم ينفع التي تلاحقها الأخطار المتواترة في كل مكان، في الليل كما في النهار. الخوف إحساس يهيمن عليك من داخلك ويحتلُّ روحك ويشلُّ فعاليتها ويفرض وقعه الثقيل على الجسد كما على الروح، ويشتد الثقل كلّما اشتد رضوخ ضحيته له. ولم يلبث أن كفّت ياسمين عن الذهاب إلى العمل، ثم لم يلبث أن كفّت عن الخروج من المنزل واستوطنت حجرة نومها. لكن هذا لم ينفع هو الاخر، بل إن العزلة شدّدت سطوة الخوف وأجّجت حمّى الهواجس. وما بدا مرضاً روحياً صار مرضاً جسدياً ايضاً، وأبقى ياسمين في سريرها.

انطوت زوجتي على نفسها، وجفّ إحساسها بالتواصل مع الاخرين، حتى مع أبناء زوجها، أبنائي الذين يعيشون معنا، وحتى معي أنا نفسي. وافترست الهواجس عافية ياسمين، وغارت شهيتها، واشتد

تأذيها من كل شيء، حتى من واقع أن أبناء زوجها منهمكون في مقاومة الحصار بينما هي قاعدة. وصارت المأزومة التي تأبى مغادرة سريرها تشك في كل إنسان وكلّ سلوك، حتى فيّ أنا وفي دوافع حدبي عليها ورعايتي إيّاها. وصار من شأن أيّ شيء، عبارة، أو حركة، أو نأمة، أو حتى نسمة أو خاطرة، أن يُهيّج المستكينة لهواجسها، فيسلمها هياجُها إلى ثورة لا يطفئها إلا انطفاء طاقتها وغرقها في البكاء والنحيب.

بهت ألق الحبّ الذي جمعنا منذ ما قبل الزواج، نحن اللذين لم نتزوج إلا قبل سنة واحدة، فقط. ومنذ هيمن الخوفُ على كيان ياسمين كلّه، صار حضوري يُزعجها وكذلك غيابي، وصارت هي تضيق باهتمامي بها كما تضيق بإهمالي إيّاها. ولستُ أظنّ أني أخطأت الفهم؛ فحضوري، شاهداً على الخوف الذي تكتمه ياسمين، صار يزيد معاناتها ويؤجّج خشيتها من أن ينكشف المكتوم. أما غيابي فصار يُبقيها وحدها، فيشتدُّ الخوف وتتضخم الهواجس.

في البداية، خصّصتُ للمأزومة وقتاً كنتُ أقتطعه من وقت مشاغلي الكثيرة. وقد أملتُ في أن تتعافى زوجتي التي نسبتُ ما حلّ بها إلى حقيقة أنها كانت تُواجه الحصار لأول مرّة في حياتها، وراهنتُ على أنها ستتواءم مع الظرف المستجدّ كما تواءم معظم الواقعين فيه.

وفي هذه البداية، أفلحت هي في إخفاء ضيقها بوجودي، حتى وهي لا تستجيب لمحاولاتي التخفيف عنها. لكن ما بدأنا به لم يبق على حاله.

هل تصورت المأزومة أنها تُثقل على زوجها حين تُرغمه حالها على البقاء بجانبها فتصرفه عن واجباته؟ هل هجست بأن ما حلّ بها قد هبّط مكانتها في نظر الزوج فبهَت حبّه إياها؟ هل كانت تبحث بوعي أو بغير وعي عن ذريعة لرفض البقاء في مدينة تكتنفها الأخطار، هي التي تتشبّث بكبريائها وتأبى أن تُقرّ، حتى لنفسها، بأنها خائفة وتائقة إلى مغادرة المدينة؟ كثرة مشاغلي، وطبيعة الظرف، وتكتُّم ياسمين، كلّ هذا لم يُبح لي التأمّل في مثل هذه الأسئلة، فتعذّر أن أهتدي إلى يقين، تماما كما تعذّر أن أفلح في إيقاف التردّي.

عرضتُ على ياسمين بنفسي أن تغادر المدينة المحاصرة وتعود إلى القاهرة حيث ينتظرها عملها الذي تركته منذ انضمّت إليّ في بيروت. هذا العرض واجهته هي بعينين انفتحتا على آخرهما، دون أن تفوه بكلمة. أكانت تلك دهشة ألجمت لسان ياسمين إزاء عرض لم تتوقع أن يصدر عني أنا، أم كانت استنكاراً؟ لم يُقدّم لي ما بثته العينان المفتوحتان إجابة شافية. فتجاهلتُ افتقاري إلى موافقتها، وقلت للتي بقي نظرها موجهاً نحوي فيما شفتاها منطبقتان إن بإمكاني

تدبُّر أمر مغادرتها دون مجازفة بتعريض سلامتها للخطر. فالحاجة أوجدت طرقاً للتسلل إلى خارج الحصار وأدلاء موثوقين يمكن الركون إلى فطنتهم. والإسرائيليون وكذلك المتعاونون معهم من اللبنانيين يغضون النظر، لا يستثنون من غض النظر إلا المقاتلين الفلسطينيين ومن في حكمهم. وليس في جواز سفر ياسمين المولودة في القاهرة ما يظْهر أنها متزوجة من فلسطيني. أصغت ياسمين إلى شروحي دون أن تُظهر أيّ ردّ فعل، ثم انطبقت جفونها قبل أن تنفرج الشفتان عن أي كلمة. انسحابٌ إلى القوقعة تبعته دموع سحّت عبر الجفون المنطبقة، ولا كلام. وأغلب ظني أن التي أصغت إليّ وهي مفتوحة العينين قد فكّرت في العرض واطمأنت إلى شروحي ومالت إلى القبول. غير أنها المكابرة التي عجزت ياسمين، حتى وهي في قاع ضعفها، عن التحرر من أسرها. ولعلّها، أيضاً، خشية ياسمين من أن يضع الافتراق نهاية لعلاقة أحدنا بالآخر، المكابرة والخشية من الانفصال هما، في ظني، اللتان جعلتا ياسمين تُواصل بكاءها الصامت.

قبل أن ينحدر حال ياسمين إلى قاع التأزم، سألتني ذات مرة عن الحد الذي إن بلغه خطر الحصار فسأصحب الأسرة وأغادر. ووجّهت هي نفسها السؤال ذاته لأبنائي. ومن الجميع، تلقت السائلة الباحثةُ

عن ما يطمئنها إجابة لم تطمئن إليها: المغادرةُ غير واردة حتى لو تيسرت، فكيف وهي غير مُيسرة. غيرُ واردٍ اتّباع مصير يُميزنا عن مصير ربعنا. لدينا هنا ما نستطيع أن نفعله، وسنفعله. ولا شك في أن ياسمين أدركت مدى تصميمنا على الثبات وعرفت الدافع: حرصنا على أن يكون لنا ما لناسنا وعلينا ما عليهم. ولئن لم تملك هي الدافع ذاته، فإنها لم تجهل مغزى تشبثنا به: أن تُغادر وحدها يعني أن تفصل مصيرها عن مصير سربنا.

أبنائي ثلاثة، حصد حصار سبق هذا الحصار باثنتي عشرة سنة حياة أمهم، فتوليتُ أنا رعايتهم وحدي، وامتنعت عن الزواج إلى أن تجاوز ثلاثتهم سنّ الطفولة. هم ولد وابنتان. الولد هو الأكبر، جاء إلى الحياة حين كنا، أمه وأنا، مقيمين في دمشق، بلغ العشرين، اسمه ثائر، وهو ضابط مجنّد لأداء الخدمة الإلزامية في جيش التحرير الفلسطيني، جيء به مع وحدته التي كانت تُرابط في دمشق، نجدةً للمدافعين عن بيروت. ورابطت الوحدة على ما صار خطّ التماس حيث يتواجه محاصِرو المدينة والمحاصَرون فيها، وجهاً لوجه. والابنتان توأمتان، كلّ واحدة منهما في السادسة عشرة: غزّة التي وُلدتْ أولاً، ويافا التي ولدت بعد غزّة بساعة واحدة.

الأسماء الثلاثة ليست هي الأسماء التي اخترناها، أمُّهم وأنا، لهؤلاء

الأبناء، بل هي الأسماء الرمزية التي اكتسبوها منذ انضمامهم إلى حركة المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي، ثائر في جيش التحرير، وغزّة ويافا في الدفاع المدني. ولأن كل واحد من الثلاثة سعد بالإسم الرمزي الذي اكتسبه وأحلّه محلّ اسمه الأصلي، فقد توجب على المتصلين بهم أن يدعوهم بالأسماء التي صاروا يفاخرون بها، وانسحب هذا عليّ أنا أيضاً.

دأبت وحدة ثائر على منحه إجازة ساعتين يقضيهما في المنزل، مرة كل أسبوع، هذا، إذا لم يقع ما يُعطّل ظفر الضابط الشاب بالإجازة القصيرة. وكان مركز الدفاع المدني الذي التحقت غزّة ويافا به يمنح الفتاتين إجازة مماثلة. ولئن ضاق الثلاثة في البداية بضآلة الفرصة المتاحة لنا للإلتقاء، فإن الإحساس بالضيق انقلب إلى عكسه منذ تفاقمت حال ياسمين وصارت عاجزة عن إخفاء ضيقها هي بهم. وبمضيّ الوقت، انهمك أبنائي في المهام التي يتولونها، واجتذبهم الجو الجمعي الذي وُجدوا فيه: حيويته، وحميميته، والفرص التي يُوفّرها لإنبات العلاقات الخاصة وتجويد المشاعر الإنسانية والسلوك الفردي وتمتين صلة الناس بعضهم ببعض. ولم يعد الهمّ المتروك في المنزل مما يشغل البال كثيراً.

مع الوقت، مع اشتداد الحصار وثقل الأعباء اللازمة لمواجهته،

اشتدت حاجتي أنا للتفرغ لما أتولاه من مهام، فاشتد بلبالي بين ما هو عام وما هو شخصي، وقويت رغبتي في دفع ياسمين إلى المغادرة، فقوي تشبثها بالبقاء، أو لأقل ما يطابق فهمي لدافعها: إن المكابرة هي التي قويت؛ قوّتها، في نحو خاص، خشيةُ ياسمين أن تكون وراء رغبتي هذه نيّةٌ خبيثة. ومع اطراد بلبالي وبلبالها، راحت ياسمين تذوي أمام ناظريّ: الوجه ذو التقاطيع المنمنمة والسمرة الرائقة صار أقرب إلى وجه مومياء؛ والقامة الممتلئة برواء العافية، القامة التي ميّزتها رشاقة طالما فتنتني، لم يبق منها إلا الجلد الذي غاض رونقُه والعظام التي كادت نتوءاتها البارزة تخترق هذا الجلد. وهنت الحركة. وبهت الحضور. ومحلّ الإشراقة التي كانت تقترن بهذا الحضور وتُشعُّ من الحركة، حلّت كآبةٌ ثقيلة الوقع على روحي. ولم أعد قادراً على احتمال المزيد.

صار حال ياسمين يوجعني. وصارت هي لا تكتفي برفض بقائي إلى جانبها، بل تهتاج إذا بقيت، ولا تهدأ إلى أن أنصرف. كانت التي تبثُّ رغبات متناقضة تتكئ على ذريعة تردّدها على مسمعي: "بقاؤك معي يُبعدك عن ما تحبّه، فانصرف إلى واجباتك"! فإذا رأت أني لا أنصرف للتوّ، كانت تقترب من البوح بما يُمضّها حقاً دون أن تُفصح عن السبب بوضوح: "وجودك يجعلني أحسّ بالمذلّة". واظبت ياسمين

على قول هذا وما يماثله وهي مستلقية على السرير الذي لا تبارحه، وكانت تكرّره إلى أن تداهمها موجة بكاء ونحيب، فتتقلب على بطنها فتنشج وتنوح، فيما هي تتوعّدني وتكرر وعيدها إلى أن انصرف: "ساقتلك واقتل نفسي إذا ظللت تُذلّني".

لم أخطئ تقدير عمق معاناة ياسمين وحاجتها إلى النجاة من هذا الوضع قبل أن يقضي عليها. ولم أغفل حقيقة أنها لن ترفض فرصة النجاة إذا توفّرت لها دون تعريضها إلى الإحساس بالمهانة.

لم يكن منطقياً أن يُقلّص ابنائي انهماكهم في أداء واجبات عامة، لا لشيء إلاّ ليتضاءل إحساس زوجة أبيهم بالنقص، فلم أطلب منهم هذا، حتى بعد أن تذرعت ياسمين بخشيتها على سلامتهم وطلبت أن أعيدهم إلى المنزل. وفي سعيي لإيجاد وسيلة مناسبة لحمل ياسمين على المغادرة، كففتُ عن محاولة إقناعها، وتجنبتُ ذكر المغادرة في أي نحو من الأنحاء. والواقع أني عزمت على تدبّر الأمر بالحيلة، كما يفعل طبيب نفساني استعصى عليه إقناع مريضه بما ينفعه. ولأن الأمر مُلحّ، والحاجة هي أمّ الاختراع وأبوه، فإن الوقت لم يَطُل.

استثمرتُ رفض المأزومة بقائي إلى جانبها، استثمرت، في الواقع،

الذريعة التي تتكئ عليها، فعرضتُ أن تنتقل هي إلى منزل أسرة صديقة لتقيم معها بدل أن تظل في المنزل وحدها. وسوّغتُ العرض بأن وجودها هي مع الأصدقاء سيبيح لي أن أتفرغ لمشاغلي، كما تريد هي، دون أن أقلق عليها، كما أخشى، وسيوفّر لها صحبة طيّبة. كنتُ قد رتبت الأمر مع ربة الأسرة وزوجها، فجاء الاثنان إلى ياسمين وصحباها إلى منزلهما. وكان بين معارف هذه الأسرة سائق محترف يعرف سبل تهريب المغادرين. فأمكن أن تلتقي زوجتي هذا السائق دون أن يبدو لها أن الأمر مُدبّر.

السائق المتواطئ معنا هو الذي زيّن لزوجتي المغادرة. ضمّ الرجل الذي تنتظره مكافأة سخيّة تنضاف إلى أجرته المرتفعة جهده إلى جهد الأسرة، فراح الرفض الذي تتشبث المازومة به يتحلّل أولاً بأول. وفي يوم الذروة، في أخطر أيام الحصار، اليوم الذي انصبّ فيه على غرب بيروت المحاصَر ما زاد عددُه على مئتي ألف قنبلة وصاروخ، غاضت تحفظات الزوجة كلُّها، الحقيقي منها والمفتعل، واستسلمت ياسمين لغواية النجاة. العازمة على المغادرة لم تنم طيلة ليلتها الأخيرة في بيروت. ومع الفجر، أيقظت هي ربّة المنزل وحثّتها على أن تهتف للسائق. فخفّ الذي كان ينتظر إشارة الإذعان إلى التي أذعنت له بأعجل مما توقع، وهو الذي روى لي ما جرى.

طلبت ياسمين من الرجل في يوم مغادرتها أن يصحبها إلى منزلنا، اختارت الوقت الذي تعرف أني أكون خلاله في مقرّ عملي. وبالرغم من تعجّلها، انتقت المغادرة من موجودات المنزل كلّ ما هو عزيز عليها مما يمكن نقله في سيّارة صغيرة، أشياء تخصّها هي وحدها، وأشياء تخصني، وأخرى مشتركة. وحشرت ما انتقته في سيارة السائق وفي سيارتنا. ثم أوجبت على السائق أن يمضي ليشقّ لها الطريق وهي تتبعه. وبخبرته والتزامه أن يُخرجها سالمة، تفنّن الرجل في إتباع سبل الخروج، بالحيلة حيث تنفع الحيل، والرشوة كلّما اقتضى الأمر. "أوصلتها إلى دمشق"، قال المتباهي بأنه أنجز المهمة الخطرة هذه، وأضاف: "كانت السيدة في أتمّ النشاط". ثم فرد قائمة الحساب: أجرته، والرشى التي قال إنه دفعها للإسرائيليين وغير الإسرائيليين، وثمن البنزين الذي اشتراه من السوق السوداء لسيارته وسيارتنا كليهما.

وقتها، استخلصت أنا ما لم يفطن إليه السائق. فسلوك ياسمين أظهر أنها عدّت الفراق نهاية لعلاقتنا، نهاية تُقفل باب العودة إلى ما كان، فهي لم تفرّ إذاً، من الحصار وحده، بل فرّت أيضاً من علاقة سبّبت لها الوقوع فيه. ما استخلصته لم يسؤني، كما أنه لم يُبهجني، أو لأقل: إني لم أنشغل بتفحّص شعوري تجاهه. ولا بأس في أن أقرّ بأننا،

ابنائي وانا، قد احسسنا بشيء من الارتياح: توفرت لنا راحة الضمير، وتحرّرنا من الانشغال في أزمة شخصيّة، الانشغال بها لا يعالجها، وصار بإمكاننا أن ننهمك أكثر فأكثر في المعامع التي تجتذبنا.

وهكذا، بقيتُ في الشقة وحدي منذ أسابيع نسيت عددها، اثنين أو ثلاثة. وشحّ كل شيء في الشقة أكثر مما كان شحيحاً من قبل. وهكذا، أيضاً، ترددتُ في ذلك الصباح الذي بدأت بسرد وقائعه بين البقاء وبين الخروج. واستمر ترددي إلى أن قرصني الجوع. فحزمتُ أمري على المغادرة.

اتبعت نصيحة الجارة فأوكلت أمر الماء إلى البواب. وتوجّهت إلى معهد الدراسات الذي أعمل فيه. توسمتُ ان اجد في المعهد ما آكله. فالموكّلون بشؤون التموين أثناء الحصار كانوا يُحضرون إلى المؤسسات العامة وجبات الطعام مرتين في اليوم، للفطور والغداء، ووجبة للعشاء إن كان عمل المؤسسة مما يستمر في الليل. وحين بلغتُ المقرّ متأخراً عن الموعد المألوف، كان زملاء العمل قد أكلوا ما حُمل إليهم ولم يبق ما يطفئ جوعي. ولكي لا أسبّب حرجاً لأحد، كتمتُ، حقيقة أني جائع، وغاليتُ في الكتمان، وانهمكتُ بنشاط زائد عن العادة في مناقشات الزملاء التي تحتدم حول شتى الشؤون، وافرطت، في التدخين، كما قد يفعل من ظفر لتوّه بوجبة دسمة.

وكما في كل يوم، أمضيت في المقرّ ساعةً حان بعدها موعدُ انصرافي إلى مهمة منتصف النهار.

ترتّب علي أن أشترك في مسيرة ذلك اليوم التي تداعى الأدباء والكتاب والفنانون إلى القيام بها. ألف هؤلاء أن يقوموا بمسيرات كلما اشتدت وطأةُ الحصار وأفرط المحاصرون في الفتك بالمحاصَرين. فكرة المسيرات التي تنطلق في أوقات الحظر اتّقدت منذ بداية الحصار في رأس شاعر فلسطيني من غزّة تتوالى وقداتُ ذهنه التي من هذا النوع دون توقف، خصوصاً في إبّان المعامع الكبيرة. وقدة ذهن الشاعر الغزّي هذه ظهرت أول ما ظهرت في مجلس كنتُ أنا أحد شهوده. والوقدةُ تبعها عرضُ المسوّغات: معنويات الجمهور سلاحٌ فعال لا غنى عنه في مواجهة الحصار، ومن واجب المثقفين أن يعملوا كلّ ما يلزم لشحذ هذا السلاح. ظهور نجوم الثقافة ورموزها علناً في الشوارع في إبّان الخطر سيحدثُ تأثيراً حاسماً. هذه المسوّغات تلقاها مستمعون يعدُّون أنفسهم من النجوم والرموز، فلقيتِ الفكرةُ قبولاً إجماعياً. وانداح صدى هذا القبول في المدينة المحتاجة إلى أي شيء قد ينفع. وتبارى النجوم والمتطلعون إلى النجومية في الاستجابة.

في مقدّمة المتحمسين، برز الشاعران اللذان كانا يتنافسان على

الاستئثار بمركز القمّة في هرم الشعر العربي الحديث. السوريّ الذي تألقت نجوميته منذ عقود وصار يخشى أن يغيض ألقه. والفلسطيني الأصغر سناً من زميله، الذي سطع ألقه مبكراً وراح هو يستخلص من موهبته وثقافته وجهده ما يحتاج إليه كي يفوز في المنافسة. السوريّ اختار العيش في لبنان، حتى لقد نسي كثيرون أنه جاء من بلد آخر، ولم يعد هو يذكر منبته الأصلي إلاّ حين يُضطر إلى ذكره اضطراراً. أما الفلسطيني، فإنه تنقّل على دروب منافي أهله من بلد إلى بلد وانتهى به التنقل إلى بيروت. قمران، تقاسما سماء الشعر، وحفّ بكل منهما، أو بهما كليهما، نجومٌ يظن الواحد منهم أنه أجدر من هذين الشاعرين بشغل القمم. وهؤلاء هم الذين لم يغيبوا عن أي نشاط يشهده أيّ من القمرين. ولم أغب أنا عن أي مسيرة انتظم هؤلاء فيها.

في ثنايا الحماس الزائد، كمنتْ دوافع متعددة فيها، بالطبع، كثير مما هو شخصي، وإن بقي بإمكان ناقد متحذلق أن يستحضر غرامشي ومفهومه لدور المثقف العضوي. ولما كنتُ، مثلي في هذا مثل غيري، بحاجة إلى ما أفعله حتى لا تطّرد أوقات الحصار الثقيلة بغير مفاصل وفواصل، ولأني لستُ ضد غرامشي أو ضد أيّ مفتون بفكره، فإني ألزمتُ نفسي المشاركة في المسيرات المتعاقبة. فعلتُ هذا

بدافع يصعب أن أعرضه بلغة تمجيدية. ثم لم يلبث أن طاب الأمر لي لأسباب شتى، إرضاء الضمير، تأكيد الإحساس بالأهمية والانتماء لسرب المثقفين المرموقين، الالتقاء بالأقران، تحدّي الخطر وما في التحدي من متعة، الاحتياز على حسن السمعة، إتباع مألوف جديد حلّ محلّ ما دمّره الحصار من مألوفي العتيق، وما إلى ذلك مما كنتُ أزعم لأصحابي أن غرامشي لم ينتبه إليه، أنا الذي لم يكن قد قرأ من كتب المفكر المشهور إلا أقلّها.

في منتصف النهار القائظ، التأم الجمعُ تحت جسر الكولا، في محيط المنطقة التي شغلها المقاتلون الفلسطينيون وأسرهم ومكاتبهم إثر إقصائهم عن العاصمة الأردنية. كان القصفُ قد بلغ الذروة التي يجوزُ معها وصفُه بالجنون. أسراب الطائرات المغيرة لا يكاد واحدها يُفرغُ حمولته حتى يظهر الذي يليه. والبوارج المرابطة إزاء الشاطئ بدا كأنّ رماة مدافعها فقدوا السيطرة على عدوانيتهم فأزخوا الأعنّة للمدافع كلّها، إن كان لمدافع البوارج أعنّة. أما الدبابات فبدا أن مدافعها ليس لها في الأساس ما يُلجمُ أفواهها. إزاء هذا الهول، وفّر التجمع تحت الجسر المتين وهمَ الإحساس بالحماية. أما ما لم يكن وهماً فهو ظلُّ الجسر الذي حمى الرؤوس من لهيب الشمس.

اتبعت عادتي، أو لأقل: الفضول الذي يسكنني. فرحتُ أتأمل ما

يجري حولي، من حضر، ومن لم يحضر، كم بلغ العدد، مغزى حضور منتمين لتيار سياسي وغياب آخرين، الرابط بين آخر التطورات وبين دلالة الحضور والغياب، وما إلى ذلك مما تتحرقني الرغبةُ في معرفته. العدد كان وفيراً، ليس أقلّ من مائة وخمسين. والجمع ضمّ منتمين لشتّى التيارات، صغيرها وكبيرها. وشاعرا القمة قدما معاً يصحبهما الشاعر الغزّي. وحين وقف الثلاثة في مركز حلقة واحدة، حسبتُ أن هذا تمّ عن قصد توخاه كلّ واحد منهم: كيلُ العدوان طفح، ولا بدّ من الاتحاد في مواجهته.

منظمو المسيرة اختاروا أن تتوجّه إلى مكتب الأمم المتحدة وأعدّوا رسالةً موجهة إلى الأمين العام للمنظمة الدولية. والواقع أن الربط بين ما يجري وبين كثرة العدد وسعة التمثيل اكتمل لديّ، بعد أن تُلي علينا نص الرسالة فاتضح المطلوب: المفاوضات الجارية لوقف إطلاق النار وفك الحصار تصطدم بعقبة التعنُّت الإسرائيلي، فلا بدّ، إذاً، من تحفيز أوسع ضغط ممكن على إسرائيل كي تُليّن تعنتها، كما لا بدّ من إظهار أقصى درجات التضامن مع المفاوض الفلسطيني الذي يأبى الانصياع للشروط المهينة التي تتمسك إسرائيل بها.

أنباء اليوم السابق أظهرت كيف يتشبّت المفاوض الإسرائيلي بما طلبه منذ البداية: أن يكفّ الفلسطينيون وحلفاؤهم اللبنانيون عن

المقاومــة ويُسـلموا أسـلحتهم لجـيش إسـرائيل، وأن تتـولى هيئةُ الصليب الأحمر الدولية نقل المقاتلين الفلسطينيين إلى خارج لبنان. القيادة المشتركة اللبنانيـة الفلسـطينية أظهرت استعدادها لوقف القتـال إذا كفّت إسـرائيل عن تـدمير المـدينة وأبعدت قواتها عنها. والقيادة الفلسطينية العامة أعلنت استعدادها لإخراج مقاتليها من بيروت إذا وافقت إسرائيل على سحب قواتها من لبنان، على أن يتمّ الخروجُ في نحو لائق يحفظ كرامة المقاتلين من أجل حُرّية وطنهم. فلا صليب أحمر ولا هلال، ولا أيّ جهة خيرية.

الوسيط الأميركي بين المتفاوضين، المعدود إسرائيلياً أكثر من أيّ إسرائيلي، أبى أن يلتقي أيّاً من الفلسطينيين. فهؤلاء، عند الأميركي كما هم عند الإسرائيلي، مخرّبون أو إرهابيون أو أيّ شيء يدرجهم في قائمة المجرمين ويحرمهم الصفةَ التي يستحقونها بما هم مقاومون ضد عدوان. وبإبائه هذا، نتيجة موقفه هذا، قَصَرَ الوسيط الذي مُنحت له مرتبة مبعوث رئيس بلده اتصالاته على أركان الحكومة اللبنانية. فصار هؤلاء الذين ليس لهم في بلدهم حول أو طول، هم من ينقلون إلى قادة المقاومة مطاليب الإسرائيليين التي يوصلها الوسيط، وهم من يعيدون لهذا الوسيط ردّ الفلسطينيين عليها، فينقله هو إلى الإسرائيليين. مفاوضات غير مباشرة، أربع

محطات في الذهاب ومثلها في الإياب. ووقت يتوفر لإسرائيل لعلها تُحقق ما توخته: أن تفتك بالمدينة إلى الحد الذي يُرغم كلّ من فيها على الاستسلام. وهذا هو ما أوجزت الرسالة الموجهة إلى المجتمع الدولي بأسره الضيق الشديد به: لقد طفح الكيل! ولأمر ما، أغلب الظن أنه كان محض صدفة، حدث، لحظة التهيؤ للشروع في السير، أن اشتدّ القصفُ من مصادره كافة، وحطّت قذائف على المنطقة التي كنا فيها، وسقطت واحدة غير بعيد عن الجسر ذاته. هذا التطور المباغت أدى إلى اشتداد تلاصقنا تحت الجسر، ولجم التحرك الذي كان على وشك أن يبدأ.

لم يُظهر أحد أنه مذعور. لكن تيبّس قسمات الوجوه وشى بما استكن تحت الجلود. والصمتُ الذي استحكم بعد انفجار القذيفة القريبة نمّ عما يضطربُ في الأذهان. وأوّل ما اخترق الصمت كان صوت رجل لا أعرفه حضرته هذه الجملة من الآية الكريمة الشهيرة: "ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة" فرددها بصوت مسموع، دون أو يُوجهها لأحد بعينه، فانطلقت الألسنةُ، وتوالت الاقتراحات، وتنوعت: إلغاء المسيرة، تأجيلها، البقاء تحت الجسر وإعلان الاعتصام، التحرك حين يعود القصف إلى وتيرته السابقة.

فيما الجدل مستمر ومحتدم، نقل مراسل إذاعة محلية وقائعه على

الهواء مباشرة. وما أن شاع نبأ وجود البثّ المباشر حتى تبدلت طبيعة الاقتراحات ونبراتُ مطلقيها. ثم لم يلبث أن تقرر البدءُ في السير والتوجه إلى الهدف، أيّاً ما بلغته شدّةُ القصف. طغى صوتُ المتحمسين وخفت صوت المتعقلين. غير أن الحاجة إلى التعقّل لم تغب غياباً كاملاً، بل وجدت تعبيراً حيّياً عنها في هسيس انداح وسط الجمع منذ انفلت من بين عوارض الجسر. وبهدي الهسيس الذي صنعته همسات السائرين بعضهم لبعض، سار هؤلاء متباعدين. وكان المغزى واضحاً: الأمل بتقليص عدد الضحايا لو سقطت قذيفةٌ على المسيرة ذاتها.

وعلى الطريق الممتد إلى ما يزيد عن كيلو متر واحد، مضت المسيرة في البداية بهدوء ودون تعجّل. أما منذ جُنّ الجنون ذاته، على حدّ التعبير الذي أطلقه شاعر لبناني مفتون بتدبيج ما يتصور أنه تعابير مبتكرة، أي حين اشتد القصفُ فتجاوز إيقاعه كلّ مألوف، فإننا وجدنا أنفسنا نُهرول هرولةً، ثم نجري جرياً. وكاد الأمر يتحول إلى تسابق، لولا وجود شاعريّ القمة في المقدمة ومعهما الشاعر الغزّي. لقد أبلغني الجري هذه المقدمة قبل غيري. وهناك، اضطرني حرص الثلاثة على إيقاع لا يبلغ حدّ الجري إلى الكف عن الجري واتباع الإيقاع الذي فرضوه. ولما لم يكن من اللائق أن أسبق أهل القمم، فقد

باريتُ الشاعر الفزّي مبقياً المقدمة لحصاني عربة الشعر، وإن بقيتُ على مقربة شديدة منهما.

هذا الوضع الذي أنشأه الخوف من أن يُهلكنا القَصف العشوائي وخوف بعضنا من أن تكون المسيرةُ ذاتها مستهدفةً هيّأ لي أن أصير بين أوائل من ولجوا المبنى المقصود، حيث السلامة المضمونة بحصانة المقر العائد للمنظمة الدولية. وبهذه الأولوية، لم أحتج إلى المزاحمة كي أصير بين العشرة الذين استقبلهم مدير المكتب وقادهم إلى حجرة عمله التي لم تتسع لسواهم. وبهذا وما يترتب عليه، صرتُ بين الذين تركّزت عليهم آلات التصوير.

أما أهمّ ما جنيته فكان مما لم يخطر على بالي. ففي حجرة المدير، صُفّت على المائدة التي تحلقنا حولها أطباق ضيافة متنوعة، شطائر، وفطائر، وحلويات، وقُدّم لنا الشاي، والقهوة، وعصائر الفاكهة. وكان طبيعياً أن أغفل، أنا الذي فتك به الجوع وألهب الجريُ شهيته، دواعي التأدب، وأن أقبل على الأطايب المفرودة أمامي، وأرسل إلى معدتي بأعجل ما أستطيع ما تقع عليه يداي، وأن لا أتوقف قبل أن أنال كفايتي وزيادة. ولئن عرّضني سلوكي لنظرات لائمة وأخرى ساخطة وجّهها إليّ الشعراء الثلاثة وغيرهم، فإني ظفرتُ بالشبع بأهون السبل وأقلها مخاطرة. الجوع كافر، يقولون، وأغلب ظني أن

هذا صحيح. أما المؤكد فهو أن الجوع يحفز على فعل أفعال لا يُقدم عليها الإنسان إن لم يكن جائعاً.

غني عن البيان اني لم انتبه إلا أقلّ الانتباه للحديث الذي دار حول المائدة، الاحتجاج والرد على الاحتجاج، والتمنيات والوعود، وما إلى ذلك مما لم يعد يجتذبني. وحين تؤجتْ لذائذ وجبتي بتدخين واحدة من السجائر الفاخرة التي قُدمت لنا، تعمدتُ أن أحتفظ بعلبة الكبريت في يدي، وتحيّنت لحظة انشدّ الجميع فيها إلى شيء يقوله المدير، فدسست العلبة الممتلئة بعيدانها في جيبي. أخطأت؟ ربما، فقد كان في المتناول أن اشتري علبة من دكان. فالكبريت، مثله مثل السجائر، لم يشح، لأن حاجة المحاصَرين إلى الإفراط في التدخين مع الاستعداد لتكبّد أيّ ثمن مهما غلا نشّطت تجارة السجائر عبر السوق السوداء، حيث يتبادل التجار على الجانبين المنافع. لكن، تحت القصف، خصوصاً حين يشتدّ، لا تُفتح دكاكين كثيرة، ومن الممكن أن لا اقع أثناء مشاويري الضرورية على واحدة منها. سرقة؟ هل وضع يدك على شيء لم يُكلف أصحابه ما يُعتد به هو سرقة؟ وأي ضير في ما فعلت، ما دام سيوفّر عليّ بحثاً شاقاً وما ينطوي عليه البحث تحت القصف من مجازفة.

والواقع، وهو ما عليّ أن اقرّ به، اني هممتُ بوضع يدي على ولاعة

أنيقة لحظتُ وجودها قريبة مني على المائدة. وما لجم حركة يدي كان خوفي أن تكون الولاعة ملكاً شخصياً للمدير. لقد ظلّت الولاعة اللعينة تُغامزني، فتصرف انتباهي عن ما عداها، وتحثني على دفع يدي نحوها. ومع أن الغواية كانت شديدة، فإني بقيتُ متردداً. أعوزتني الجرأة، فطال ترددي. وكم غبطتُ نفسي على ترددي منذ امتدت يد المدير إلى الولاعة ليشعل سيجارة ثم يضع ولاّعته في جيبه!

مع الزملاء الذين حُشدوا في البهو، غاضت آثار الحرج الذي تلبّسني في مكتب المدير، وغبطتُ نفسي مرة أخرى لأني لم أستسلم لها. ففي البهو، بينما كنّا نتمتع بالأطايب الكثيرة، قُدّم لبقية الزملاء، لكل واحد منهم، فنجان قهوة أو كوبُ شاي أو كأس عصير، ولا شيء غير هذا. وحين أطنب الشاعر الغزّي وهو يستعرض أمام المحتشدين في البهو إيجابيات اللقاء مع المدير، نوّه المفتون باللقاء بكرم الضيافة الذي خصّنا المدير به، فأثار حسد الزملاء وأطلق الشكاوى من شحّ ما قُدّم لهم هم. هنا، دفعني دافع تصعب السيطرة عليه إلى الإدلال بما ظفرتُ به. وأغلب ظني اني اردتُ ان اظهر لمن لاموني انّي لا أستحق اللوم. دفاعي عن سلوكي الشخصي غلّفته بساتر مختلف: "أغرقنا المدير بالفواكه والمعجّنات والحلويات حتى يُخفف سخطنا

عليهم في الأمم المتحدة، هم الذين لم يفعلوا شيئاً لتخفيف أهوال الحرب، أراد للقم أن تدفع النقم، فلم يستحق احترامي". ولكم امتعني ان اهتدى إلى ما يُسوغُ في هذا النحو البريء سلوكاً لم اظلّ بعد ان شبعتُ على يقين من انه كان مسوّغاً.

المتع الصغيرة، وقد توفّرت وسط الأهوال المريعة، عدّلت مزاجي. وبالمزاج المعدّل، رجعتُ إلى المنزل لأتحقّق مما جرى بشأن الماء. ولكم كان أبو طانيوس طيباً! استخلص الرجلُ من ناس الصهريج حصتي من الماء، وتكبد مشقة حملها إلى الطابق الخامس. "حصة لأربعة"، قالها الذي أبهجه ابتهاجي، ووجه إليّ غمزة عين متواطئة: "أنت والأولاد الثلاثة، لم أكذب، لو كذبت لجعلتها خمسة، فهم لا يعرفون أن زوجتك سافرت". كان بواب بنايتنا فخوراً بما أنجزه: "ثمانون ليتراً، ليس هذا كثيراً في الأيام العادية، أما في الحصار، أنت تعرف". ولقد كنت أعرف، حقاً، فقبل الحصار، كنا نستهلك أكثر من هذه الكمية من أجل دوش الصباح وحده ليوم واحد فقط. في الحصار، رؤضنا أنفسنا على تدبّر حاجاتنا كلّها بهذه الكمية لثلاثة أيام. وبلغتُ أنا في هذا المجال رقماً قياسياً، إن جاز احتسابُ أضأل كمية في الأرقام القياسية. وصار بإمكاني أن أنظف جسدي كلّه بما لا يزيد عن عبوة قنينتين سعة الواحدة منهما ليتر ونصف ليتر. ولم

اكن أبدّد الماء الذي استحم به، بل صرت انظّف به أرض الحمام وامسح جدرانه.

مشهد الأواني، الطافحة بالماء أغواني واوهن حساباتي. فأجزتُ لنفسي أن استهلك عبوة قناني ثلاث. فأبلغتِ النظافة مزاجي نروة إشراقه، أو لأقل إنها أعادته إلى ما كان عليه في الأيام الخالية. ووجدتني أتجوّل في الشقة وأنا أتمايل على إيقاع القصف. وبقيت أتمايل وأنا منصرف لترتيب الحجرات وتنظيف الأواني وإعادة كلّ شيء إلى مكانه. والواقع أن الشقة تحررَت من بعض الفوضى التي تسكنها، وأن المطبخ استعاد سمته مطبخاً لأسرة محترمة، حتى وإن بقي خالياً مما يمكن طبخه. وعلى الإيقاع ذاته، فكّرت بأبنائي، سيأتون غداً للاستحمام وتبديل الملابس الداخلية، كما يفعلون كل أسبوع. ولا شك في أن نظافة الشقة ستُمتع ابنتيَ وأخاهما. وسيعرف المنهمكون في أداء شتى الواجبات أن أباهم، المنهمك بدوره في أداء واجبات شتى، قد وجد وقتاً للقيام بأعمال عادية. وسيستنتج الثلاثة أن الأب قادر على الاحتفاظ بتوازنه وسط الزعازع، وسيسعدهم هذا الاستنتاج ويُخفّف قلقهم على عزيزهم المتروك في الشقة وحده. وبيني وبين نفسي، تفكّهتُ: أليس في هذا ما يُعزز الصمود، ألسنا نسمّي قدرتنا على احتمال الظروف القاسية

صموداً. فلم لا نسمي القدرة على استيلاد ما يُبهج حتى في اقسى الظروف صموداً معززاً.

مزاجي المعدّل أسلمني إلى إغفاءة ظفرتُ بها بالرغم من الصخب والحر. وكان من شأن الاغفاءة أن تطول لو لم يخترقها صوت انفجار مريع. وبأذنيّ المدربتين على تمييز الأصوات، قدّرتُ انه انفجار صاروخ حط على مكان غير بعيد.

حرماني من استكمال إغفاءتي جعلني أخالف قراري الاقتصادَ في استهلاك البن. فأعددت لنفسي فنجان قهوة طافحاً بالشراب المنعش، وتعمدتُ أن يكون الشراب قوياً لأستعيد به صحوي الكامل. ولكم اشتهيت أن أتناول قهوتي وأنا جالس على الشرفة كما افعل في الصباح، غير أن لهب الشمس الذي غمر الشرفة انضاف إلى صخب الانفجارات المتواترة في المحيط القريب فجعل جلوسي عليها مجازفةً مضاعفة.

بعد هذا الطقس، امكن ان أخفّ إلى الشقة غير البعيدة التي يلتقي فيها كتّاب الإذاعة الفلسطينية. الشقة التي انتُقيت منذ بدء الحصار لتصير ملاذاً يتوفر فيه الأمان. كان عدد كتّاب الإذاعة قد ارتفع أثناء الحصار، لأن كتاباً متطوعين كثيرين انضموا إلى كتّابها المتفرغين.

والواقع أني كنتُ واحداً من هؤلاء الذين تطوّعوا، وأني ألزمت نفسي ان أكتب حديثاً يومياً أذيعه بصوتي، وعرضت القيام بأي عمل آخر.

تبكيري في الذهاب إلى شقة الإذاعة جلب لي فائدة تجلّت على الفور. فقد ولجتُ الشقة في اللحظة التي تحلّق الحاضرون حول الطعام. ولأن ناس التموين ألفوا أن يخصّوا ناس الإعلام، كما المقاتلين، بأجود الوجبات، فإني تمتّعت بوجبة شهية. فيا لليوم الذي ظفرت فيه بوجبتين كلٌ منهما فاخرة قبل أن ينقضي النهار كله، لكأننا كنّا في يوم سلم، في أهدأ أيّامه الهادئة! وما أسرع ما أنجزتُ عملي اليومي للإذاعة، دون تعثر، لا في الكتابة ولا في قراءة ما كتبت!

ومع حلول المساء، توقف القصف العشوائي، هذا الذي يجعل كلّ مكان وكل إنسان في المدينة مهدداً، وبدأ القصف النوعي الذي يستهدف مواقع بعينها، غالباً ما تكون مخازن تموين أو مقرّات قيادة، أو أماكن تجمّع للمدافعين عن المدينة، أو مستودعات ذخيرة وأعتدة قتال، أو ما هو من هذا القبيل. وفي منطقتنا حيث أقيمُ وأعملُ معظم الوقت، حيث يندر وجود المواقع التي يستهدفها القصف النوعي، صار للأماسي ميزةٌ ظاهرة: الأمان النسبي وانتعاش الحركة، النسبي هو الآخر. وهكذا، أجزتُ لنفسي ان أعود إلى شقتي، وأواصل

الإسراف في استهلاك البنّ، فأشرب فنجان قهوة آخر، قوياً كسابقه، على الشرفة التي بارحها لهب الشمس، وذلك قبل أن أتوجه إلى حيث ينبغي ان أؤدي مهمة يومي التالية.

تواتُر القصف الذي من النوعين والفارق بينهما بلبلا سكان المدينة. الهروبُ من الرمضاء إلى النار سيء مثل الهروب من النار إلى الرمضاء ومثل البقاء في أيّ منهما. غير أن المحاضر، المرغم على تقصّي أضأل الفرص، كان يستثمر الأمان النسبي وسهولة الحركة النسبية، فيخرج من الأماكن التي يحتبسه فيها القصف العشوائي طيلة نهاره. وكان ناس منطقتنا والناس الذين يفدون إليها يسيلون في الشوارع سيلاً مع حلول المساء. وكان يُريحني ان أسلم نفسي للدفق وأمضي في الشوارع مع إيقاع الحركة المتجددة وصخب السائرين الذي يُنسيني صخب الانفجارات. وبغياب الكهرباء وحلول ظلام الليل، كان السائرون في الشوارع يبدون متماثلين. ولما كان الخطر والافتقار إلى ما يزيد عن ضرورات الحياة قد جعلا الناس متساوين، فإن المظاهر التي تُميّز إنساناً عن آخر غابت، وصار من الممكن أن ينضم أيّ إنسان إلى أيّ إنسان آخر أو جماعة وينهمك في ما ينهمك الجميع فيه، دون مقدمات ودون عوائق.

مشواري المسائي انتهى كما كان ينتهي كلّ مرة ببلوغي مقرّ الجريدة

التي أكتب لها منذ بدأ الحصار عاموداً يومياً. هنا، أيضاً، كانوا قد تلقّوا للتو طعام عشائهم، وجبة الإعلاميين المميزة، فتسنّى لي أن أظفر بوجبة فاخرة للمرة الثالثة في يوم واحد. ومع اللقم الشهية ورشفات الشاي، حضرت فكرتي المستجدة عن الصمود المعزّز، فالتقطت موضوع عامودي. ولقد كتبت يومها عاموداً يطفح بالتفاؤل.

(2)

في اليوم التالي، مع قهوة الصباح على الشرفة قبل بدء القصف العشوائي، ومع السيجارة، فكّرتُ في ما أعَده لأبنائي في إجازتهم. سيأتي ثائر من مربضه. وستأتي غزّة ويافا من مركز الدفاع المدني. الزيارة قصيرة، فعليّ أن أستعد لها أتمَ الاستعداد. الماء، أهمَ ما ينبغي تحضيرُه، توفّر. أما ما يمكن طبخه فهذا هو ما انشغلت بالتفكير فيه.

المرابطون على خطوط التماسّ يتلقون وجبات طازجة وساخنة. فلدينا قيادة ما أكثر ما تُهمل اشياء واشياء، إلا انها لا تهمل ما يرفع معنويات المقاتلين. والخبراء الذين يحفون بالقيادة ويتفننون في التدليل على فوائد وجودهم افتوا بأن للوجبة الساخنة مفعول السحر في هذا المجال. فلم تبخل القيادة لا بالمال ولا بالجهد، ولم تتهيّب المجازفة بتعريض موزعي الطعام إلى الخطر مرتين كلّ يوم. وفي مركز الدفاع المدني يُوزّع المتطوعون أنفُسهم الخبز والمآكل المعلّبة على السكان، وتطفح مخازن كلّ مركز بما جُلب إليها، فلا يفتقر ناس المركز إلى ما يأكلونه. وإذاً، فليس بين أبنائي من يجوع. كلّ ما في الأمر أن الابنتين العزيزتين تفتقران إلى الطعام الطازج

الذي يتمتع أخوهما به ويتمتع به أبوهما في بعض الأحيان. والبنتان تتحدثان عن هذا في كلّ زيارة، وتنتقدان القيادة ورجال التموين الذين يُحابون حاملي البنادق والأقلام. من هنا، سيطرت على تفكيري الفكرةُ التي رسمت المطلوب: وجبة ساخنة معدّة من موادّ طازجة، لإسعاد البنتين.

تقصيتُ الفرص المتاحة. لا مشكلة في التضحية بمال كثير لشراء لحم طازج وخضراوات وفواكه طازجة. صحيح أن الإسراف غير محبّذ، خصوصاً في الظرف الذي انتهينا إليه. وصحيح أن من الإسراف دفع الأثمان التي يفرضها المتاجرون بالمواد التي شحّ وجودها. غير أني كنتُ مستعداً لإنفاق أيّ مبلغ من المال لأوفّر لابنتيّ لحظة متعة وسط العناء الذي يُثقلُ عليهما وعلى الجميع. والواقع أني، حتى بهذا، لم أهمل الحساب إهمالاً كليّاً. فالراتبُ الذي أتقاضاه من معهد الدراسات لم يتوقف صرفه لي. وفي ظروف الحصار، ضؤلت فرص الإنفاق، حتى أنهم كفّوا عن جبي فواتير الماء والكهرباء القديمة ذاتها. ومع توقف عنصريّ الحياة هذين، لم نعد بحاجة إلى تسديد فواتير جديدة. ولديّ، إذاً، وفرٌ أستطيع المجازفة بإنفاق قسم منه، دون أن يغيب عن بالي أني قد أصير بحاجة إلى المال إن وقع ما يوقف صرف الراتب.

كنت في ذلك الصباح أول زبون يدخل الملحمة الباريسية، هذه التي تعاملت معها منذ انتقلت إلى بيروت، والتي أقمتُ علاقةً ودية مع صاحبها. وفور دخولي، وقبل أن يظهر صاحب الملحمة، اجتذب نظري كومُ لحم مفرود على المنضدة القائمة في صدر المكان، فتوجهتُ إليه ورحتُ أتفحّصه: "طازج أو غير طازج"؟ تلقى أبو ملحم الذي خفّ إلى الوقوف بجانبي هذا السؤال قبل أن يتلقى ردّي على تحيته. وبعد أن تلقى الردّ على التحية بناء على إصراره، قال الرجلُ إني زبونٌ طيّب وجارٌ، وهو لا يُجيز لنفسه أن يخدعني: "اللحم الذي تراه مجلّد، جليده انفك، لأن محركنا الكهربائي توقف في الليل بعد أن نفد وقوده، فتوقفت الثلاجات. واليوم، لن نحصل على لحم طازج". إجابة أمينة، إلا أنها خيّبت أملي.

أبو ملحم الذي عاين ردّ فعلي تعجّل الجهر بما أعاد الأمل: "سيجيئنا دجاج طازج، ذبح اليوم". وحثّني على تبديل خياري: "دجاج أو لحم، ما الفرق". وإذ انتبه إلى ما شعّ من داخلي، فإن صاحب الملحمة أمعن في الشرح المقوي: على الطريق شحنةٌ قادمة من خارج الحصار، من البقاع البعيد، وللملحمة الباريسية نصيب من الشحنة، وأبو ملحم واثق بأن السائق سيتدبّر أمره مع الحواجز التي على الطريق، سائق أخو أخته، شاطر ومجرّب، كما وصفه الذي استحوذ على اهتمامي

وادرك اني صرتُ مستعداً لتبديل خياري الأول. "وشحنة الدجاج قد تصل في اي لحظة".

تبسّط ابو ملحم في عرض التفاصيل، ربما ليزجي وقت الانتظار، او، ربما، ليهيئني لقبول السعر الذي سيتقاضاه دون أن أتهمه بالمغالاة. فأن يكون السائق بحاجة إلى تدبّر أمره، معناه، كما ينبغي ان افهمه، أن انتظاري قد يطول، ومعناه، ايضاً، أن السائق سيدفعُ رشى لحواجز عديدة. ولكي يطمئن التاجرُ إلى أني فهمت قصده بتمامه، كرّر ما كنت أعرفه: "بين البقاع وبيروت حواجزُ كثيرة للإسرائيليين ولجماعتهم اللبنانيين، وناس الحواجز طمّاعون، أنت عارف".

كنتُ اعرف، ربما أكثر مما يعرف محدّثي. فضبّاط الحواجز وجنودهم، إسرائيليين أو لبنانيين متعاونين معهم، استغلوا حاجات الواقعين داخل الحصار، فصار على سائق كلّ شاحنة أن يقفل العيون ويملأ الجيوب بالرشى. وبمضي الوقت، صار تقديم الرشى عادة لها قوّة القانون. وحدد قانون الرشوة مبالغها كما تُحددّ القوانين العامة الضرائب: مائة دولار عن كل شاحنة تحملُ خضاراً، مائتان عن التي تحمل لحوماً، خمسمائة عن التي تحمل أدوات ومكائن، الف او الفان عن الشاحنة التي يختفي تحت حمولتها البريئة سلاحٌ أو ذخائر، وذلك لكل حاجز.

الأمل في الظفر بشيء طازج أبقاني في الملحمة أطول مما تبيحه لي مشاغلي. وصار علي أن أسمع حكايات أبي ملحم عن نباهة سؤاقي الشاحنات وبراعتهم. ولأني فلسطيني، فإن اللبناني اندفع في مقارنةٍ عقدها هو بين السؤاقين اللبنانيين ونظرائهم الفلسطينيين. الفلسطينيون، عند أبي ملحم، أبرع من اللبنانيين في تمرير الأطعمة، ومتساوون معهم في تمرير المكائن. أما حين يتعلق الأمر بالسلاح، فالفلسطيني لا يُجازفُ بالمرور عبر الحواجز المعادية، فهو قد يخسر حياته للتو، أو قد يُمضي عمره في الأسر، ثمناً للمجازفة. يجلبُ الفلسطينيون السلاح المهرّب عبر الدروب الخالية حين يتيسّرُ لهم هذا، ويعوّلون على اللبنانيين لتمرير السلاح عبر الحواجز، على نفرٍ من اللبنانيين في واقع الأمر ممن لهم صلات بالمهربين المحترفين: "اللبنانيون أبرع منكم في تهريب السلاح لأنهم أجرأ على تدبير الأمور". قالها أبو ملحم عفوَ الخاطر، ثم بدا كمن خشي أن أستاء، فاستدرك: "أنتم على العين والراس. في القتال، تِكْ ثاك، أنتم شاطرون. أما في المسائل التي تحتاج إلى تدبير، أنت فاهم، نحن أشطر".

مع الإمعان فيها، لم تعد مقارنات أبي ملحم تستحوذ على انتباهي. لهذا، بقيتُ صامتاً. ويبدو أن الرجل تصوّر أني مستاء وشاء أن يبدّد

استيالي دون أن يتراجع: "عليك أن تعترف، نحن أشطر منكم في أشياء وانتم أشطر منا في غيرها". المداورة في الكلام، هذه التي لم يكن لها لزوم، وضعت على ثغري ابتسامة. فتصّور الرجل أنه استرضاني، فأمعن في مقارنة أخرى. وفيما أنا مرغم على الاستماع، طاف في ذهني هذا السؤال: أيودّني أبو ملحم حقاً أم يمالئني"؟ ولم أهتمَ بالتيقّن من الإجابة.

"طال الإنتظار". أبديتُ الملاحظة لضيقي بتبديد الوقت دون يقين بأني ساظفر بما أنتظره: فقدّم الذي ربما خشي أن يقع ما يُعيق وصول الشحنة المرتقبة اقتراحاً لا يؤكد اليقين ولا ينفي الشك: "اقض أشغالك، وارجع بعدها، إن وصلت الشحنة قبل رجوعك فسأخبئ دجاجة من أجلك، من كل بدّ"! فقبلتُ الاقتراح بعد أن قبل هو تعديله: "دجاجتان، وليست واحدة، ثلاثة أولاد وأنا، تعرف".

تناولت فطوري مع الزملاء في المعهد وأمضيت فيه ساعة. ثم ذهبت إلى حيث خضتُ دون طائل المساومات الشاقة للحصول على الخضار والفواكة. تخطّت الأسعار كلّ حدّ معقول وولجت عالم اللامعقول ذاته. قال الباعة إن اشتداد القصف رفع الكلفة، كأن القصف لم يكن شديداً من قبل. ولأني عجزتُ عن حمل أي بائع إلى تخفيض السعر، فقد صرفتُ النظر عما كان سيفتك بما ادخرتُه. وفي

الملحمة الباريسية، سلمني أبو ملحم الدجاجتين الموعودتين، ثم قال بنبرةٍ منتخية: "أقدرُ على أن أعطيك ثالثة إن رغبت فيها". ففكرتُ بجارتي وكم ستبتهج لو أهديتها دجاجة. كانت الطزاجة مغويةً، فكانت تُزيّن الإسراف.

تصوّر أبو طانيوس الذي لمحني قادماً من الملحمة أني جئتُ بلحم، واستكبر اللفافة. فلمّا عرف البواب ما جئت به فعلاً، فإنه لم يملك أن يكتم تشهّيه: "من زمان لم آكل دجاجاً، لا طازجاً ولا مجلداً".

وبالرغم من تأدبه الدائم، لم يُفلح الرجل في مقاومة إغراء فك اللفافة. وما أن برزت الدجاجاتُ التي نظّفها أبو ملحم حتى شرع أبو طانيوس في تشممها. لن يُدرك ما الذي فتن الرجل إلا من كابد ما كابدناه أثناء الحصار. فالطزاجةُ حين تحرمك الظروف منها يصير لها أريجٌ أين منه أريج أفتن العطور. أريج الطزاجة يفتن المحروم منها بأشدّ مما يفتنه أيّ أريج.

عزّ عليّ أن أتجاهل ما اشتهاه أبو طانيوس. وفي تلك اللحظات، تذكّرتُ كيف رفض هو المبلغ الذي عرضتُه عليه في اليوم السابق لقاء مساعدته إيّاي في الحصول على الماء. ودون أن أطيل التفكير، تشكّل قراري: البواب أحق بالدجاجة من الجارة. ولكي لا أبقي للذي

عرفته عفيفاً فرصةً للرفض، جذبتُ بيَدَيَ الإثنتين دجاجتين من اللفافة التي كانت بين يديه هو، وأبقيتُ اللفافة له وفيها الدجاجةُ الثالثة، ونصحته: "أطبخوها مع المرق لتحصلوا على ما يكفي الأسرة"! وقبل ان يُظهر الرجلُ المفاجأ بالهدية أيَ رد فعل، تعجّلتُ مبارحته، وتوجّهت نحو باب البناية. وهناك، بلغتني عبارات البواب المقرِّظة، ولاحقتني حتى بعد أن غيّبني الدرج عن نظره. شيء واحد هجستُ به فأقلقني: أن تظهر جارتي التي تعود إلى المنزل في هذا الوقت، فتسمع تقريظ أبي طانيوس المتواصل، فتدرك أني أعطيتُ بواب العمارة ما تظن هي انها أولى به، فأتعرض أنا للحرج.

صعدتُ الأدراج حاملاً الدجاجتين بيديَ كلتيهما وفي ظني أني أفلتُ من هذا الحرج. غير أن ما ظننتُ أني تجنبته كان في انتظاري في الطابق الخامس. فجارتي لم تكن قد غادرت شقتها في ذلك اليوم، بل كانت واقفة على الشرفة. وبهذا، راقبت الجارةُ المشهد الذي جرى تحت بصرها، ثم انتقلت لتقف أمام باب شقتها في انتظار وصولي. وما أن وقع نظر الجارة عليّ وأنا صاعد نحوها بحملي، حتى هتفت بالإنجليزية: "أيّ جار طيبّ أنت" واكملت بالعربية: "شيء جميل أن يحسب الإنسان حساب غيره"! وحين بلغتُها، مدّت هي يديها في حركة من تصورت أني جلبتُ دجاجة من الإثنتين لها، وانتزعت

الدجاجة التي في يدي اليسرى، متعجّلة تخفيف حملي، وقالت بالإنجليزية وهي تتشمم الدجاجة لتتيقن من طزاجتها: "هذا كرم زائد منك".

فاجأني سلوك الجارة، فبُهتُ. وطوقني التقريظ، فلم أجد ما أردّ به، لا بالعربية ولا بالإنجليزية. ويبدو أن المُدرّسة التي جاءت من بلدتها الأنيقة لتعمل في العاصمة في مدرسة فائقة الأناقة قد نسبت صمتي إلى تعبي من صعود الأدراج، فلم تزد على أن أحلت محلّ التقريظ ابتسامةً ممتنةً غمرني شعاعُها إلى أن دخلتُ شقتي.

بقيتْ لي، إذاً، دجاجة واحدة. ولكي لا أنثني عن ما عزمتُ عليه، رجعتُ إلى الملحمة، مؤملاً أن أحصل على دجاجة أخرى، مستعداً لدفع أيّ ثمن. فوجئ أبو ملحم برجوعي، وقال قبل أن يعرف ما جرى إنه أعطى لكلّ من قصده من زبائنه الأثيرين دجاجة واحدة أو إثنتين، وإني الوحيد الذي ظفر بثلاث.

أما بعد أن عرف مؤثري بالثلاث أني فرّطتُ باثنتين منها وأدرك حاجتي إلى الحصول على ما يكفي أبنائي، فإن الرجل انتخى نخوةً مؤجّلة الفائدة: "خيرها في غيرها، سأعطيك في المرة القادمة أربعاً، وليس ثلاثاً فقط، أما الآن فما في اليد حيلة، لم يبق عندي ما أعطيه

لأحد:

تذكّرتُ نصيحتي أنا نفسي لأبي طانيوس عن الدجاجة التي إن طُبخت مع المرق فستوفر لأسرته وجبة كافية. وبهدي هذه النصيحة، غمرتُ الدجاجة الباقية بماء وفير، ووضعتُ الطنجرة التي ثوجّب أن تكون كبيرة على الطباخ. وبانتظار مجيء ثائر والابنتين اللتين ستجلبان الخبز من مركزهما، صممتُ على أن أطبخ رزّاً كثيراً، وأعدّ طبق فتّ كبير، وأتوّج الفتيت والرزّ بلحم الدجاجة. ومنيتُ نفسي بأن يُسعد هذا الطبق أبنائي.

نضج الطبيخ. واقتربت الساعة من الواحدة بعد الظهر، وما من أحد جاء، لا جاء ثائر ولا جاءت أختاه. فصبّرت نفسي، لعلّهم يجيئون متأخرين. لكن الذين انتظرتهم لم يجيئوا حتى بعد أن بلغت الساعة الثانية. أما الذي جاء فهو صديقي زياد. وكان هذا إنساناً أختلف معه حول كلّ شيء تقريباً لكني أستطيبُ صحبته، لأنه، بخلافي، مهذار، ولأن هذره يُطربني. الصديق الذي يعرف أني أرحّب بزيارته في كل وقت جاء دون موعد، ولم يكن بإمكانه إخطاري مسبقاً بقدومه ما دام هاتفي قد كفّ عن الأخذ والعطاء منذ فتك القصفُ بمعظم تمديدات الهواتف. وعليّ أن أقرّ بأن ظهور زياد أسعدني، لأنه فتح لي باب أمل في أن لا يضيع جهدي هباء. فبين أصدقائي، كان زياد

هو الوحيد الذي يتنقّل داخل الحصار بسيارته الخاصة بعد أن شحّ البنزين. والأمل الذي انفتح ارتبط بوجود سيارة فيها بنزين ولها صاحب اريحي.

تعاملت الحواجز مع تهريب البنزين بأقسى مما تعاملت حتى مع السلاح. والبنزين الذي شحّ وجودُه بلغ سعره في السوق السوداء أرقاماً يستصعب دفعها حتى الأثرياء. ولتقليص النفقات، استحوذ القائد العام الفلسطيني نفسه على صلاحية التصّرف بالبنزين، وأجاز صرفه للسيارات التي تحركها حاجات الدفاع والخدمة العامة وحدها. أما الراغب من أصحاب السيارات الخاصة في الحصول على البنزين، فصار عليه أن يظفر بموافقة استثنائية من القائد العام في كل مرة يُثبت حاجته إليه. ولم يكن الاستثناء متيسراً إلا لقليلين من المتصلين بالقائد. والواقع أن أصدقائي تعفّفوا عن المزاحمة، إلا زياد. كان لدى هذا الصديق ما يُسوّغ به حصوله على البنزين المرصود للخدمة العامة: "لستُ أقلّ أهميةً من السياسيين والضباط الذين يصرفُ القائد العام لهم بنزيناً بمقدار ما يطلبون". يقول زياد هذا، ويُدلّ علينا بما يحظى به: "يمنحني البنزين لأني أديبٌ مهمّ، فأنا بين حاملي الأقلام بأهمية القائد بين حاملي البنادق". وغالباً ما يُضيف زياد، نصف جاد ونصف مازح: "القائد يُقدّرني، فهو ليس مثلكم، أنتم

الذين تستهينون بما أكتب". وكان زياد يدرك أننا لن نلومه على استئثاره بما ليس مخصصاً له، ما دمنا محتاجين إلى خدمات سيّارته، وما دام هو لا يضنّ علينا بها.

وقبل أن ينطق بالتحية، بل قبل أن يعبر باب الشقة الذي ملأه بقامته العريضة والمديدة، هتف زياد: "خذني إلى المطبخ، الأنف هو دليل الجائع إلى الطعام، شممتُ الرائحة منذ دخلتُ البناية، وعبقُها هو الذي أعانني على الصعود إلى الطابق الخامس". لم آخذ زائرِي إلى حيث طلب، بل أخذته إلى حجرة مكتبي. وسرعان ما قبل هو بما اقترحته أنا، فرتّبنا خطوتنا التالية كما اشتهيتُ: نأخذ الرزّ والدجاجة ومرقها في السيارة ونتوجّه إلى حيث البنتان، وهناك نُعدُّ طبق الفتّ، ونتناول الغداء، ثم نذهب معاً إلى شقة الإذاعة.

جلستُ بجانب زياد الجالس وراء المقود. وأمسكتُ الطنجرة الكبيرة بيديّ الاثنتين، محاذراً أن تدلق ارتجاجاتُ السيارة المرق. وفيما نحن ماضون على الطرق التي صنع بها القصف المتواتر ما صنعه، وفيما زياد يُحاذر أن تطبّ السيارة في حفرة أو تصطدم بنتوء، ظلّ علي أن أبقي انتباهي مُركّزاً على الطنجرة، حتى لا يرتطم قاعها بأرض السيارة. وهكذا، توجب أن أشيل الطنجرة بثقلها كلّه، حتى بعد أن كَلّ ساعدايِ. كان حالنا أشبه بحال سيّارة تعبر حقول الألغام لا يملك

ركاب السيارة خرائطها. وكان في اضطرار زياد إلى الحذر ما يخالف طبيعته، هو الذي يتباهى، عادةً، بتهوّره، كما يتباهى الإنسان بحكمته، وهو الذي لا يستطيع أن يُركّز انتباهه على شيء واحد لوقت طويل. هذا الوضع وفّر لمحبّ الهذر سبباً ليواصل هذره دون تحرّج، سبباً وجيهاً في واقع الأمر، والزمني ان اصغي دون اعتراض.

وبحرصنا على أن لا يندلق المرقُ وتركيزنا الانتباه على عثرات الطريق، لم ننجذب إلى ما يجري خارج السيارة، إلا حين استوقفنا حاجزٌ طارئ يقف إزاءه مسلحون من القوات الفلسطينية اللبنانية المشتركة. وكان لدى الذين أوقفوا السيارة ما يُنبّهوننا إليه. وبنبرة توخى مسؤول الحاجز أن تكون مؤدّبة وغير مثيرة للفزع، نبّهنا الذي بدا لنا أفتى من أن يتولى أيّ مسؤولية إلى وجود خطر علينا أن نتوقّاه. فعرفنا أن خمس شاحنات مُلغّمة انفجرت تباعاً في الساعات الأخيرة في أماكن متفرقة في المدينة: "إنه العدو، أو هم المتعاونون معه". قال الفتى هذا، بنبرة اجتهد أن يجعلها مهنية، ثم قدّم إيضاحاً: "لا بد من أنهم مرّروا شاحناتهم القاتلة عبر حواجزنا بغطاء ما تحمله من بضائع، ومن غير المستبعد أن تنفجر شاحنات أخرى". وبعد الإيضاح، جاءت التعليمات. فطولبنا بأن نتجنب الوقوف أو إبطاء السرعة قرب أيّ شاحنةٍ متوقفة، خصوصاً إذا كانت تحمل بضائع.

قطع زياد تشكّيه من عثرات الطريق، ثم لم يلبث أن كفّ عن الانتباه إليها. وحلّت على الوجه المكتنز تكشيرةٌ صلّبت قسماته الرخوة. ووجد مدمن التشكّي جديداً يُمعن فيه: "الإسرائيليون وأعوانهم، المجرمون، هؤلاء الذين لا يتورّعون عن قتل الأبرياء بأحطّ الوسائل". ولأن حنق زياد على قاتلي الأبرياء بوسائل منحطّة أسلم السيارة كليّة إلى عثرات الطريق، فإن مرق الطنجرة اندلق وظلّ يندلق عند كلّ مطبّ أو نتوء، فبلّل أرض السيارة أمامي، كما بلّل ساقيّ بنطالي وتسرّب إلى حذائي. ولكي لا أندفع بدوري إلى التشكّي، خصوصاً أن ضرر اندلاق المرق لا يُعدّ شيئاً إذا قورن بما يفعله المجرمون، فإني لجأت إلى السخرية، لعلها تُهدئ صاحبي المهتاج وتوقف تشكّيه الذي لا يسمعه سواي، أنا غير المحتاج إلى سماع ما يُكرّهني بالعدو، "كلامك جعلني أعتقد أنك تعترض على وسيلة القتل، على الأسلوب المنحطّ، وليس على القتل ذاته، فهل كنت ستسامح مُرسلي الشاحنات لو أنهم قتلوا الأبرياء بوسيلة مختلفة".

أخذ زياد بملاحظتي، فَطِن إلى أن ما قاله يُسوّغ فعلاً ما قلتُه أنا، ولم يفطن، على ما بدا لي، إلى أني إنما أسخر، فأجزتُ لنفسي أن أمعن في ما بدأته: "أنت تعدّ نفسك كاتباً مهماً، بدلالة حصولك على البنزين

العزيز، فانتبه لصياغة أقوالك"! أفرغ هو حنقه على قاتلي الأبرياء، بالتشكّي. وافرغتُ انا حنقي، بالسخرية. ولما بقي هو صامتاً، ربما ليهتدي إلى ردّ على ملاحظتي يُفحمني به، فقد قلتُ انا، جاداً هذه المرة: "أنت سائق ماهر، فانتبه إلى مطبّات الطريق، الماء شحيح، فلا تُحوجني إلى تبديده في غسل بناطيلي"! وبهذا، دون أن اقصد أو حتى أدري، وضعتُ في فم زياد بنفسي ما ردّ به عليّ: " تتحدث انت عن إهراق الماء وتشكو شحّه، وتستكثر أن أتحدث أنا عن إهراق دم الأبرياء، أنت وصياغاتك المنطقية! تفو على المنطق"! هدر زياد بهذا، وقذف، فعلاً وليس مجازاً، بصقةً عبر نافذة السيارة، وبدا أن سخطه اشتدّ وشملني، ولم يعد في اليد حمله إلى الحذر. وبالرغم من قصر المسافة التي قطعناها بعد الوقفة عند الحاجز، فإن معظم مرق الطنجرة انتقل إلى ساقيّ بنطالي وغمر حذائي ببركةٍ صغيرة. وقد ظلّت حبيبات الدهن تبرق على سطح هذه البركة حتى بعد أن توقفنا، فكأنها كانت تسخر مني ومن منطقي وتلاحقني بالسخرية.

بدوتُ لمن رأوني بعد خروجي من السيارة في هيئة الخارج لتوّه من مستنقع. زياد نفسه، هو الذي لم ير ما حلّ بي إلا بعد خروجه من السيارة، بدا آسفاً، وغمغم بكلمات اعتذار، وانحنى عازماً على أن يعصر ساقيّ بنطالي. "هذا لن ينفع"، قلتُها بنبرة ودودة، متأثراً بردّ

فعله المؤدب الذي لم أتوقعه، وطلبت منه أن يكفّ عن العصر. ولما لم يستجب زياد لطلبي، فقد استسلمتُ له: "أصلِحْ حالي هنا بقدر الإمكان، وسيصير عليك أن تُعيدني إلى شقتي لأبدّل البنطال قبل ذهابنا إلى شقة الإذاعة".

كنّا إزاء مبنى جديد ضخم، عريض ومرتفع، أقيم وسط حيّ مكتظ بالسكان، دعاه الذي بناه برجاً. أربعة عشر طابقاً. أربعة منها تحت مستوى الأرض وعشرة فوقه. الأربعة السفلى صُمِّمت لتكون مرآباً للسيارات، والعشرة العليا صُمِّمت لأغراض شتى، متاجر، ومطاعم، ومكاتب، وما إلى ذلك. وحين بدأ الحصار، كان بناء البرج قد اكتمل دون أن يُوضع، بعد، في قيد الاستخدام. وبهذا، توفّر للموكّلين بالدفاع المدني مكان مثالي لخدمة الحيّ والأحياء المجاورة. وفّرت الطوابق السفلى مساحات كافية لشتى الخدمات. كما وفّرت ملجأ فسيحاً وحصيناً ضد القصف، ومساحة، فسيحة هي الأخرى، لخزن موادّ التموين والأدوية، ولمستشفى طوارئ أقيم على عجل، وما إلى ذلك. أما الطوابق التي فوق الأرض، فكان من الغباء استخدامها، إذ ما أسهل أن تصير أهدافاً للقصف، وهكذا، نشأ الوضع الذي ينطوي على المفارقة: تحت الأرض حياة دائبة وصاخبة على مدار الساعة؛ وفوق الأرض خواءٌ وموات، على مدار الساعة، أيضاً. نشاطات

متنوعة واكتظاظ وأضواء شموع ومصابيح غاز تحت الأرض، وفراغٌ وسكون، وفي الليل عتمةٌ، فوقها.

تقدمني زياد، ومعه وعاء الأرزّ، نحو المدخل، بقامته التي تهتزّ على إيقاع خطواته المتعجّلة، وخصلات شعره التي تنوس على الإيقاع ذاته. وتبعت أنا صاحبي، مسربلاً بالحرج الذي سببّه المرق، وحاملاً الطنجرة الكبيرة التي لم تعُد ثقيلة كما كانت، محاذراً أن يحدث ما يدلق المرق القليل الباقي فيها. وحين وقف هو مع واقفين عند مدخل البرج، تخطّيته، أو لأقل إني تجنّبت، في الوضع الذي كنتُ فيه، أن أقف مع غرباء. ولأني مضيتُ محنيَ الرأس، فإني لم أفطن إلى وجود ابنتي اللتين تجاوزتهما. لكن صوت غزّة وصوت يافا اللذين بلغاني في وقت واحد حملاني حملاً إلى الالتفات: "إيش هذا اللي حامله"؟ تساءلت غزّة؛ و"إيش اللي بلّلك"؟ قالت يافا. وجرت البنتان نحوي معاً: غزّة بقامتها الرشيقة وسمار بشرتها الذي ورثته عن جدّها، أبي، وشعرها الأسود الطويل الذي تُرسله خلفها فيتموج في شتى الاتجاهات على إيقاع حركتها وتختال هي به؛ ويافا، القامة الرشيقة هي الأخرى، والبشرة البيضاء التي ورثتها عن جدّتها، أمي، والشعر الخروبي الذي تُبقيه قصيراً لتتميّز عن توأمتها.

كل واحدة من البنتين كانت ترتدي بذلة عسكرية أحسنت اختيار

مقاسها. وهذا لم يكن جديداً. أما الجديد فتمثّل في بندقية كلاشينكوف المعلقة على الكتف وجعبة الذخيرة وأمشاطها، اي ما اكتمل به المظهر العسكري لكل من ابنتي. وهذا هو ما استحوذ على انتباهي. وقبل ان افوه بشيء او اقرر التعليق على هذا الذي استجدّ، قالت غزّة: "كنا في نوبة حراسة، تصادف أن حلّت نوبتانا معاً"؛ وأضافت يافا: "طلبنا أن يُفرقوا بيننا في المرات القادمة". ما قالته البنتان لم يكن هو المهمّ، فالمهمّ تجلّى في النبرة الخاصة التي استخدمتاها، كلتاهما، فكأنهما قالتا: رجاء، لا تعليق أمام الاخرين!

ولكنّ لا يأسرني القلق، وجهتُ نظري وركّزت تفكيري على ما يُطمئنني: صغيرتاي فتاتان متألقتان في كلّ ظرف، وعليّ ان اقرّ بأن وجود البندقية والجعبة مع كلّ منهما قد زادهما تألقاً، وليس من حقي، حتى لو قلقتُ، ان اطفئ ما هما فخورتان به. أما موضوع السلاح فإني لم أشر إليه إلا بعد أن خلوت بالبنتين في الركن الذي جُعل مطبخاً. حتى في الخلوة التي انصرفنا خلالها لإعداد الطعام، انتقيتُ كلماتي انتقاء: "أنتما طفلتان، وأنا أعارض تكليف الأطفال ما لا يليق بطفل، السلاح وغيره، ألم نتفق على أن يُطيعني كلٌّ من أبنائي إلى أن يُتمّ السادسة عشر".

كنت قد نسيت أن من كانتا صغيرتين بلغتا هذا العمر؛ نسيتُ، لأن

عيد ميلادهما حلّ أثناء الحصار فيما أنا مشغول بتسفير ياسمين، فسهل أن يغيب عن بالي. وبنسياني، ثمّ باستخدامي الذريعة التي بطل مفعولها، ورّطتُ نفسي، ولم أزد على أن سلحتُ ابنتي بما يُبطل حقي في الاعتراض: "بلغناه، وأنت الذي نسي، فكيف تلومنا بدل أن تلوم نفسك". قالت غزّة عبارتها هذه وفي عينيها نظرةٌ متحدّية؛ فأضافت يافا مع نظرة مُتّهمة: "هل هذا هو العدل الذي تدعو أنت إليه". ولمّا بدا أني أسقط في يدي، فقد أسكتتْ غزّة أختها، مستثمرة واقعة أنها وُلدت قبلها بساعة، واصطنعت نبرة رسمية: "بصفتي الأخت الأكبر، أقول لك، باسمي واسم هذه الصغيرة، إننا سامحناك، ولك أن تقول لنا، حتى وقد تأخر الوقت، كل عام وانتما بخير"! احتضنتني ابنتاي معاً، وضحكنا. وصار عليّ أن أطوي موضوع السلاح واستجيب للمودة التي غمرتني. وقد فعلتُ، طويتُ الموضوع، وتمتعتُ بالمودة الغامرة، وكتمتُ انفعالي، وضمتُ، وفي داخلي، نبت شيء حميم.

تحوّل حمل السلاح إلى موضة تجتذب الصغار مثلما تجتذب البالغين. وتباهت مليشيات كثيرة بالأطفال الذين تلفّهم بالأزياء العسكرية وتُحمّلهم بنادق وتعرضهم على الناس. وقد أفلحتُ أنا، حتى قبل مجيئنا إلى بيروت، في صدّ صغاري عن هذه الموضة. لكن

هذا لم يجعلني على يقين بأني نجحتُ في إقناعهم إقناعاً. فثائر وهو الذي تاق منذ كان طفلاً إلى حمل بندقية كفيره وصددته أنا، آثر بعد أن كبر وملك قرار مصيره أن يؤدي الخدمة العسكرية الإلزامية فور إنهائه الدراسة الثانوية، بدل أن يذهب إلى الجامعة، وقال إن دور الجامعة سوف يأتي بعد أن يُنهي خدمته. وها هما الصغيرتان، ما أن بلغتا السنّ الذي تتحرران فيه من سلطتي الكاملة عليهما، حتى حملتا السلاح. لقد حصلت البنتان منذ صغرهما على التدريب المتاح لأداء شتى خدمات الدفاع المدني والمساعدة الإجتماعية. وما أن بدأت الحرب التي فرضت هذا الحصار، حتى انهمكت غزّة ويافا في ما تدربتا على أدائه، وتقدّمت البنتان في هذا المجال تقدماً أدهشني أنا نفسي. وانتهى الأمر بأن أوكل المركز إلى غزّة مسؤولية تنظيم الإسعافات التي يتولاها مشفى الطوارئ، وصارت يافا هي المسؤولة عن توزيع الخبز، بيعه بسعر التكلفة، أو منحه مجاناً لمن لا يملكون الثمن، للمقيمين في الحيّ والنازحين الذين ألجأتهم الحرب إليه. مع هذا، وبالرغم منه، لم ينطفئ التوق المستكنّ إلى حمل السلاح.

ولأن حديثنا عن السلاح انتهى إلى طيّ التلاوم، وفيما نحن، ثلاثتنا، منصرفون لإعداد الأطباق الأخرى التي ستقدم مع طبق الفت، أفرجت المنضمتان حديثاً إلى حاملي البنادق عن ما كتمتاه مما

عدّتاه سراً. فكلّ من البنتين تلقت، بمعرفة المركز، وتطبيقاً لتوجّه القيادة العامة نحو تأهيل القادرين كلهم للدفاع عن المدينة، تدريباً على السلاح. و"لو احتاجوا إلينا في القتال، فلا تُفاجأ إذا اشتركنا". قالت غزّة هذا، وتبعتها يافا فقدّمت إيضاحاً: "إذا اجتاح جيش إسرائيل المدينة فلن نرضى بأن نكون أقلّ من غيرنا". ولم تُخف أي من البنتين إحساسها بالزهو. حتى أن غزّة وجدت من الضروري أن تُضيف، إلى ما أوضحته أختها، إيضاحاً أحزم: "دُربنا على مواجهة الاجتياح، وإن جازفوا، فلن نكون فقط مثل غيرنا، سنكون أفضل، تذكر هذا ولا تنسهُ كما نسيت عيد ميلادنا. أنت لا ترفض أن ترى ابنتيك بين المتفوقين".

لحظتها، همّت يافا بأن تقول شيئاً وشى بريقُ الانتشاء الذي شعّ من عينيها بأنه مبهج. غير أن الصغيرة تلقت لكزة كوعٍ من أختها. فلم تفه بشيء. ولأن غزّة لاحظت أني التقطتُ حركتها المعترضة، فإنها تعجّلت استرضائي، فانهمكت في إصلاح ما أفسده المرق من بنطالي، وقالت: "سنحكي كثيراً، لكن في ما بعد، تأخرنا على الذين ينتظرون الطعام". وقبل أن يتلاشى بريقُ الانتشاء من عينيها، أسندت يافا رأسها على كتفي، وبدا أن توقها إلى البوح بما في داخلها اشتدّ. وقد مدّت يافا نحو أختها المعترضة نظرة مترجية،

لكنها تلقت، بدل لكزه الكوع، حركة حاجبين معترضة هي الأخرى. وأحجمت يافا ثانية عن قول ما همّت بقوله، لكنها خضّتني بإطراء: "ما أحنّك إذ تُفكر حتى بطعامنا، أنت أحنّ الآباء"!

عبارة يافا هذه التي نلتُ بها مكافأتي سمعها زياد الذي كان لحظتها مقبلاً نحونا، فلم يُفوّت صاحبي الفرصة: "أبوك أحنّ الآباء، ها؟ وعمّك زياد؟ ماذا هو؟ لا شيء؟ طيّب، قسماً بالله العظيم، لو لم أضع بليتريّ بنزين، وأجعل نفسي سواقاً لحضرته، لأكل هو الدجاجة وحده، ولما تذكّر، لا أصحابه، ولا أبناءه، ولا حتى أمّه التي ولدته".

راق المزاج. وانتظمت حلقة آكلين كثيرين حول طبق الفت وما انضاف إليه من أطباق المعلبات. وطاب الحديث. وهنا، عرفتُ ما سهوتُ عن الاستفسار عنه: سببَ تخلّف البنتين عن المجيء إلى المنزل. فتواتُر انفجار الشاحنات ألغى الإجازات جميعها في مراكز الدفاع المدني كلّها. أما على خطوط التماس، فإن محاصريِ المدينة حاولوا مع الفجر اختراق واحد من محاور الدفاع عنها، فصدّهم الرابضون إزاءه، وذلك وفق ما أورده البلاغ الرسمي الفلسطيني اللبناني، أو إن هؤلاء قاموا بمحاولة لجسّ النبض، وفق الرواية الإسرائيلية. وتحوّطاً ضدّ أيّ مفاجأة، أُلغيت الإجازات على خطوط التماس كلّها.

غادرنا، زياد وأنا، المركز ونحن في مزاج جيّد. وقاد صاحبي السيارة في الاتجاه إلى منزلي، فأدركتُ أنه لم ينس حاجتي إلى تبديل البنطلون، الحاجة التي نسيتها أنا نفسي. ومن منزلي، توجهنا معاً إلى شقة الإذاعة. كان هو، بخلافي، يكتب للإذاعة منذ ما قبل الحصار، أما في الحصار فإنه أضاف حديثاً يومياً، يُذيعه، مثلي، بصوته. وبعد أن كتبنا حديثينا وسجلناهما، حملني زياد بسيارته إلى مبنى الجريدة. لم تكن الحركة في الشوارع ناشطة، كما هو المألوف في المساء. وعلى هذا، عقّب زياد، مستعيداً نبرته المتشكّية ومستحضراً ما كنتُ أفكر فيه: "الشاحنات الملغّمةُ هي السبب، لم يكن ينقص غير هذا"! وعند مبنى الجريدة، حيث سنفترق، عرض زياد أن نلتقي بعد ان افرغ من كتابة عامودي، واقترح أن اجيء إليه في فندق الكومودور. كان مندوبو مؤسسات الإعلام الأجنبية الفنية يُقيمون في هذا الفندق الفاخر. وكان من عادتنا أن نتردد على المكان لنتسقّط الأنباء ونبثّ ما نرغب في توزيعه.

رحبتُ باقتراح زياد. وتعجّلتُ مغادرة السيارة، أنا الذي جئت متأخراً عن موعدي المألوف. لكن زياد لم يُفوّت الفرصة: "تنصرف دون تحية، وتبخل حتى بكلمة شكر للذي اشتغل ناقل طبيخ لبنتيك"! كانت النبرةُ مرحة. فأدركتُ أن صاحبي ما زال رائق المزاج. وفهت

بالكلمة السحرية: شكراً، وتركته. بمزاجي الرائق، كتبتُ في ذلك اليوم مقالاً آخر متفائلاً. وبهذا المزاج، جئتُ إلى الكومودور. كنّا نحصل هنا بسهولة على الأنباء التي يجمعها الصحافيون الأجانب ولا تنشرها المؤسسات التي تُشغّلهم. كان الواحد من هؤلاء يُجازِفُ حتى بحياته ذاتها ليجمع أدقَّ التفاصيل وأخطر الأسرار، ويُعد تقريره وهو فخور بما توصل إليه، ويرسله إلى مؤسسته ممنياً نفسه بشتى الأماني، ثم يجد أن مؤسسته ابتسرت ما أرسله فأفرغته من أصدق ما فيه، أو أنها أغفلته إغفالاً كلياً، فكان يغتاظ، وكثيراً ما كان يعالج غيظه بالإفراط في الشرب، وكانت حاجتُه للبوح بما اختزنه وتلقّي التقريظ على جهده تأكل تحفظه ضد البوح، وكنّا نستثمر هذه الحاجة، وما أكثر ما كنّا نحصل عليه حين نستدرج صحافياً إلى التحفُّف من أثقاله!

بحثت عن زياد في البهو الذي وجدته مكتظاً حتى الاختناق، فعثرتُ على صاحبي وسط جمع مشدود إلى شاشة تليفزيون وضعته إدارة الفندق في البهو، لأن الوقت كان وقت الموندىال، ولأن كثيرين ممن يفتقدون الكهرباء في منازلهم يجيئون إلى الأماكن التي تتوفر فيها مولدات خاصة ليشاهدوا المباريات. ولما كنت أنا الآخر مشوقاً لمشاهدة مباراة ذلك المساء، فقد أغفلت الرغبة في تسقُّط الأنباء،

ورفدتُ المحتشدين حول الشاشة. ألم أقل إني كنتُ في مزاج طيّب! وحين اقترح زياد وهو يأخذني إلى منزلي أن نزور معاً في اليوم التالي خطوط التماس، رحبتُ باقتراحه هذا أيضاً. وتفاهمتُ وإياه على أن نزور الموقع الذي تُرابط فيه وحدة إبني ثائر.

وبالرغم من هدير الطائرات التي تفتك بأهدافها المختارة، فإني غفوت في تلك الليلة ما أن تمددتُ على السرير.

(3)

في طقسي الصباحيّ الذي أتعجّل إتمامه قبل بدء القصف النهاري، فرغتُ من إعداد القهوة في المطبخ الذي أبهجتني نظافته، وهممتُ بالتوجـه مع قهوتي إلى الشرفة. لحظتها، أوقفني طرق على باب الشقة. الجارة، فكّرتُ، إذ لا يمكن لأحد سواها أن يطرق بابي في هذا الوقت. عزمتُ على أن أصحّح خطأ اليوم السابق، فأدعو جارتي إلى شرب القهوة معي. ووجدتني أردّد عبارات الترحيب بصوتٍ مرتفع قبل أن أفتح الباب.

لم تكن هي الجارة. وما انتصب أمامي فاجأني؟ كان الطارق المبكر من سكان حيٍّ بعيد ملاصق لأخطر خطّ من خطوط التماس. ولم أكن أتوقع قدوم هذا الشخص، لا في هذا الوقت ولا في أيّ وقت. إنه زميـل عملٍ سـابق فـي معهد الدراسات، يَعُدُّ هو نفسه صديقاً لي، وأخجل أنا من أن أصارحه بأني لا أعدّه كذلك. استقال هذا الزميل، قبل بدء الحصار بوقت قصير، من عمله باحثاً في قسم الدراسات الإسرائيلية في معهدنا. ترك الباحثُ الفلسطيني معهده لا لشيء إلا لأن مـركز إعـلام أنشأته في بيروت دولةٌ نفطيـة عرض عليه راتباً أعلى. ولما لم يكن هذا السلوك مما أحبّذه أو أجيزه، فإن قدوم من

كنتُ قد نسيتُ أمره لم يُشكّل لي مفاجأة سارة. ولأن القادم صحب معه حقيبة ملابس وراديو عتيقاً وبطاريةً كبيرة، فقد استنتجت أنه جاء ليقيم عندي، ولم أسعد بما استنتجته.

قال عبد الرزاق الذي أجلسته معي في الشرفة وأشركته في قهوتي إنه يفهم أن يراني مندهشاً. ثم قدّم الذي لم يدهشني قدومه، فقط، بل غمّني أيضاً، ما تصور هو أنه الإيضاح اللازم لإطفاء الدهشه. فمنذ ارتفاع سعر البنزين، توقف الذي لا يُعدُّ في المسرفين عن استخدام سيّارته. وهذا لم يكن هو السبب الوحيد الذي أبقى ساكن الحيّ البعيد في منزله الملاصق لخط التماسّ الخطير، هو الذي بقي هناك حتى بعد أن بارح سكان الحي جميعُهم منازلهم. "في الحقيقة"، قال المعتاد على اختيار العبارات التي تستر شحّه الشديد، "تَرْكُ المنزل في هذا الظرف عنى المجازفة بأن تتعرض محتوياته للسرقة، أو للاحتراق دون أن يوجد من يُطفئ الحريق، أو...". ولم يكمل العبارة، بل استدرك: "ثم من يدري، فقد يخترق الإسرائيليون دفاعاتنا الهشّة في أيّ وقت". ويبدو أن الذي لا يُحسَبُ في الشجعان توقع أن افهم ما قصده بهذه العبارة. فلما بقيتُ صامتاً ولم يَبْدُ عليّ أني فهمت، فقد اكمل هو: "أنا صاحب اسم معروف لدى الإسرائيليين، عملي في المعهد الذي أنشأته منظمة التحرير الفلسطينية عدوّة إسرائيل،

مقالاتي، كتبي، هم لا يرحمون أحداً". وفي هذا النحو المتقطّع، واصل عبد الرزاق تسويغ سلوكه المتناقض، بقاءه في منزله ثم مغادرته إيّاه، وكيف قاد سيارته بالبنزين المتبقي فيها منذ ما قبل الحصار وحمل الراديو العتيق الذي يُمكن تشغيله بالبطارية الكبيرة وجاء إليّ.

كان في القصة تفصيل أغفل محدّثي ذكره في البداية، لكنه استحضره منذ شعر بأني، بالرغم من تأدّبي، لا أرحّب به. لم يكن هو عازماً على أن يبرح منزله مهما اشتدّ الخطر. وكان قد صدّق ما أعلنته حكومة إسرائيل يوم زعمت أنها لن تذهب عميقاً في اجتياحها أرض لبنان. حتى بعد أن ظهر كذبُ هذا الإدعاء ووصلت قوات إسرائيل إلى محيط بيروت، لم يتوقع المتخصص في الشؤون الإسرائيلية أن تحتاج إسرائيل إلى اكثر من اسبوعين حتى تُحقق أهدافها، ولم يخطر له، حتى في خياله، أن ينقضي شهرٌ وآخر يليهما ثالث دون أن تتحقق هذه الأهداف. كانت زوجةُ عبد الرزاق ومعها الأولاد في زيارة لأهلها في عمان. فوجد الذي بقي وحده نفسه وحيداً في المسؤولية، وهدهد الأمل بأن ينتهي كل شيء في وقت قصير. "لكن الحصار طال، وأمس حاولوا اختراق خطوط التماس بالرغم من المفاوضات الجارية، وقد يكرّرون المحاولة، وما من شيء

يضمن أن لا ينجحوا في محاولة قادمة. لن يتوقفوا ما لم يستسلم المقاومون الفلسطينيون، وأنت تفهم، لا اريد أن اقع في أيديهم". بهذا الهاجس، غادر المحمومُ بوحدته منزله وتوجّه إلى منزل صديق له يسكن غير بعيد عن مسكني: "جئت إليه أمس، في الليل، وكان منزله مزحوماً بمن نزحوا إليه قبلي من معارفه وأقربائه، فاستضافني بقية الليل، وهو الذي وجهني إليك، قال إنك بقيتَ وحدك...".

قطعتُ السرد الذي لم يعد له لزوم. وشئتُ أن أتدارك قلّة لباقتي: "نحن في وقتٍ خطر، والناس بعضُها لبعض". ولم أتمكن من إنشاء عبارة فيها ترحيب صريح. ثقيل ظل، ونهّاز فرص، وبخيل، حطّ عليّ بعد أن ألفتُ وحدتي، فأية صحبة، ومن أين أجيء بعبارة مُرحّبة!

هل فهم عبد الرزاق عبارتي الموؤودة على أنها ترحيبٌ به، أو أنه تظاهر تظاهراً بأنه فهمها على هذا النحو؟ الاحتمالان كلاهما واردان. وهذا، على كل حال، ليس مهماً. المهمّ أن العازم على البقاء، حتى لو جبهتهُ برفضي، قد غالى في إزجاء الشكر لي على ما سمّاه ترحيبي به، واختار من عبارات الشكر ما يوحي بأننا صديقان حميمان. والمهمّ أن الذي أثارني شكرُه بأشدّ مما أثارني حضورُه ذاته قد حرّر نفسه بعد عبارتي من التحرج الذي كان يُكبّله، وأجاز لنفسه أن يُخاطبني دون كلفة": "سقيتني القهوة قبل أن أفطر". فصار عليّ أن أستخرج

من احتياط الاحتياط الذي خبّأته لأيام قد تصير أسوأ بسكويتاً ومربّى فاكهة، وأن ألجم نفسي عن مشاركته الأكل، أنا الذي عزم على أن لا يمدّ يده إلى هذا الاحتياط إلا إذا صار أبنائي أنفسهم في حاجة إليه وانسدت فرص الحصول على أي لقمة. التهم الذي بدا أن جوعه أزمن ما أحضرته كله، وطلب المزيد صراحة: "لن تُبقي صديقك جائعاً في أول أيام زيارته لك"! ولأنه أول الأيام، فإني تحاملتُ على ضيقي، وأحضرتُ المزيد. فعلتُ هذا بحركة متثاقلة، بأمل أن لا يجرؤ هو على أن يطلب أكثر.

بالرغم مما أظهرته، ناهيك بما كتمته، لم تُعوز عبد الرزاق الجرأة: "لم أشبع، طعامكم شهيّ". قالها رافعُ الكلفة، ثم افترّ ثغره عن ما أراد أن تكون ابتسامةً متملقة. لكن، لأن تعابير وجهي عكست ضيقي بأتمّ الوضوح، فإنه لمّ الابتسامة قبل اكتمالها، وقال قاطعاً إلحاحه: "لا بأس، الظرف، أنا فاهم". تلت التراجع لحظةُ صمتٍ لا بدّ من أنه راز خلالها ردّ فعلي. وبعد هذا، أضاف من اكتسى وجهُه إبتسامة متسامحة: "سنعوضها في وجبة الغداء". ثم صمت مرةً أخرى.

واستطرادا في رفع الكلفة، انسحب زائري من الشرفة دون أن يستأذنني، تاركاً لي أن أعيد أنا إلى المطبخ ما استخدمه هو من أدوات، ودخل إحدى حجرات الشقّة دون أن يستشيرني. وكانت تلك

هي حجرة نوم ابني ثائر. ومع حاجتي لمغالبة ضيقي المتزايد الذي صار يوترني، عزمتُ على تنظيف الأواني التي اتسختْ، بأمل أن يُهدئني العمل اليدوي. غير اني تذكّرتُ نقص الماء بعد ان اسرفتُ في اليوم السابق في تنظيف المطبخ. وتذكّرتُ أن غزّة ويافا قالتا إنهما ستجيئان غداً للاستحمام إذا استأنفوا منح الإجازات. ولم استبعد أن يجيء ثائر هو الآخر. وبهذا، تغلبتِ الحاجةُ لحمام أبنائي على الحاجة إلى تهدئة أعصابي المتوترة.

لبثُ في الشقة دون هدف. وفكرت في العودة إلى الشرفة متحدياً القصف، غير اني خشيتُ أن يعود من أتجنبه إليها. فذهبتُ إلى حجرة مكتبي وأغلقت الباب ورائي. وهناك، جلستُ إلى المكتب، ونصبتُ ساعديَ فوقه، ووضعتُ راسي بين راحتيَ، وشرعتُ في تمسيد صدغيَ بأطراف أصابعي، واستنفرتُ إراداتي: عليَ أن ابقى ساكناً لعلي أهدّي توتري. وفيما انا على وشك أن افلح في استعادة الهدوء، تسرّب إليَ من ناحية الحمام صوتٌ لا اظن اني كنتُ سأنتبه إليه لولا حدّة هواجسي التي تشحذُها الخشيةُ من الافتقار إلى الماء. فخففتُ إلى الحمام لأفاجأ بما أفزعني: عبد الرزاق في البانيو مغموراً بالماء ومغطى برغوة الصابون وهو يُغني. تلقيتُ صدمة تُبدّد صبر أعتى الصابرين. ويبدو أن مُسبّب الصدمة كان محظوظاً. فشدّة هذه

الصدمة أسلمتني هي ذاتها إلى ذهول لجم قدرتي على فعل أي شيء. ولم يلبث أن لفّني دوّارٌ كاد يلقيني على الأرض. وكان أن انشغلتُ بمغالبة الدوّار، وسحبتُ نفسي سحباً إلى حجرة نومي، وألقيتُ جسدي إلقاء على السرير. كلّ هذا دون أن يُحسّ الذي بدّد ماءنا الشحيح بشيء سوى متعة الاستحمام في يوم قائظ. وحين ارتفعت عقيرةُ مغنّي الحمام وبلغني صوتُه، عصف الدوار بي كرّةً أخرى، ولكنه كان في هذه الكرّة دواراً نفسياً أخرجني عن طوري، فسمعتُني أجاري مغني الحمام كالملتاث وأغنى أغنيته ذاتها بصوت أشبه بالنحيب. ويبدو أن الممعن في استثارة حنقي قد سمعني فعدّ مجاراتي إيّاه في الغناء علامةَ مودّة. ولم يلبث أن جاء هو إليّ، ملفوفاً بثوب حمامي أنا، وشكرني وحثّني على متابعة الغناء. هذه المرّة، كان من شأن ضيقي أن يفجّرني. ولا أشك في أن وهن جسدي هو وحده ما حماني من الانفجار.

الضيق والوهن أقعداني، فلم أذهب إلى المعهد، ولم أفطر. أحسستني مكتئباً، فبقيتُ في المنزل، أفكّرُ بما يمكن أن أفعله لأكفّ أذى الزائر الثقيل، وأدرك أني لن أفعل شيئاً. ومن حسن حظّي أن حالي هذا لم يستمر طويلاً. جاءت البنتان فجاءت معهما بهجةُ حضورهما وربطةُ خبز طازج ومعلبات مختارة أرسلها قائد المركز تعبيراً عن امتنانه

لزيارتي ولطبق الفتّ الذي صارت له شهرةٌ سببتها ضآلته من جهة، وكثرة من تحلقوا حوله، من الجهة الأخرى. عبد الرزاق تلقّى ابنتيّ باشاً وغالى في وصف الصداقة التي تربطه بي، كما غالى في رفع الكلفة مع الصغيرتين، هو الذي لم يسبق أن التقى أيّ واحدة منهما. وحين عاين الذي لم يُشبعه الفطور ما جلبته غزّة ويافا، تهلّل وجهُه الذي يشعّ بالنظافة، وتصرف هو كأنه من أهل البيت. وبهذا، تصوّرت ابنتاي أن زائر أبيهما هو حقاً واحد من أصدقائه الأثيرين، وأغلب ظنّي أنهما سعدتا بوجوده معي كي لا أعاني الوحدة. وحتى بعد أن عرفت المحتاجتان إلى الاستحمام أن هذا الزائر هو الذي بدّد الماء، فإنهما أظهرتا عدم اهتمام بحرمانهما من حمامهما. وإزاء غيظي، قالت غزّة لتهوّن الأمر إن قيادة المركز أذنتْ للمتطوعين باستخدام مائه، إذا لم يجدوا ماءً في منازلهم. وجارت يافا أختها: "سنستحمُّ ونغسل ثيابنا هناك". وفي هذا الجو، ظفر عبد الرزاق بوجبة أعدّتها المحتفيات بوجوده مع أبيهما، وجبة ما كان له أن يظفر بمثلها لو أن أمره تُرك لي وحدي.

بين حفاوة ابنتيّ بزائري وبين ضيقي أنا به، كنتُ محرجاً. حرجي أنقذني منه طرقٌ صاخبٌ على الباب. وكان زياد هو الطارق. جاء صاحبي من أجل الجولة التي اتفقنا على القيام بها معاً، والتي كنتُ

قد نسيت، أمرها. وبحضور زياد، حلّ المرح الذي يُحوّل المزعجات إلى طرائف: "نفد الماء، أين المشكلة، أليس التيمّمُ بالتراب جائزاً إن غاب الماء، فلم لا تستحمؤن بالتراب".

ضيقي بعبد الرزاق لم يَغِبْ عن فطنة زياد، فهو نفسه لا يُطيق هذا الشخص. لكن زياد راعى وجود الصغيرتين في زيارة قصيرة، فتجنّب أن يشتبك مع الزائر بحضورهما، وصبّر نفسه إلى أن حان موعد عودتهما إلى المركز. ووقتها، هتف الذي خشي أن يرغب عبد الرزاق في مشاركتنا الجولة، قاطعاً عليه الطريق، وحاثاً إياي على المغادرة: "إنهم، هناك، ينتظروننا، انت وأنا، فلا يجوز أن نتأخر". وما ان ضمّتنا سيّارته، هو والإبنتين وانا، حتى انفجر ضيق زياد المحتبس: "امر ابيكما عجيب، كيف يستضيف مخلوقاً لا يقبل احد في المدينة أن يستضيفه".

صَدمتْ ملاحظة زياد ابنتي. فوجدتُني مضطراً لتخفيف الصدمة: "زميل باحث عن الأمان، طرق بابك قبل أن يكتمل صحوك، فهل كنت ستصدّه".

لم يعقّب زياد بشيء، ولعله فطن إلى ما فطنتُ أنا إليه فلم يشأ أن يثقل على العائدتين إلى مهامّهما الثقيلة، لكنه لم يملك أن يمنع نفسه

عن التأفف بصوت مسموع. هنا، سبقت يافا أختها: "أمرك يا أبي عجيب فعلاً، ظننّاه من أصدقائك". فقالت غزّة، موجهة القول لأختها بنيّة أن تُخفّف عني: "حين يتكلم من هم أكبر منك فليس لك إلا أن تسمعي، أبونا أتمّ السادسة عشرة قبلنا بزمان"! وجارى زياد غزّة في تحويل الأمر إلى مزاح: "نغفر له هذه المزة، إذا تعهد أن يُحضر في المرة القادمة أكثر من دجاجة واحدة وأن لا يسكب المرق على أرض سيارتي ويوسّخ بنطلونه".

بعد إيصال البنتين إلى مركزهما، وقد صارت حكاية عبد الرزاق وراءنا، اقترحتُ على زياد أن نُعرّج أولاً على معهدي، واستحضرتُ ما قد يساعد على إقناعه: "نتسقّطُ الأنباء، و...". لكن المتحكّم بالسيّارة لم يُتح لي أن أكمل محاولة إغوائه، بل جهر بالرفض وقدّم مُسوّغه: "ليتر بنزين آخر، لا، الأنباء مبذولة في كل مكان، وأين ستجد الأنباء الساخنة إن لم يكن على خط التماسّ".

في تلك اللحظات، لم يكن إيقاع القصف قد تجاوز المألوف. غير أن حواسّنا المدرّبة التقطت شميماً يثير الهواجس. هذا الشميم استشعرناه كلانا في وقت واحد. فحلّ في السيارة صمتٌ مفاجئ. وأباح لنا الصمتُ أن نتنبه إلى أمر غير عادي: فالقصف يجيء من البرّ والبحر وحدهما، أما الجو فخلا، على غير العادة، من الطائرات.

كنا نقترب من طرف الساحة التي يعلوها جسرُ الكولا والتي تحمل الإسم ذاته. الساحة فسيحة، طرفها الآخر يُفضي إلى منطقة وجود الفلسطينيين. ومع إطلالنا على الساحة، فطن زياد لشيء، فاخترق صمتنا: "هل تعرف عبد الكافي، أقصد على تعرّفتَ عليه شخصياً كما فعلتُ أنا"؟ كان هذا اسماً لمقاتل فلسطيني حديث السن سمع به كل من شهد الحصار. فالشابُ كان رامياً على مدفع مضاد للطائرات، استحوذ على مدفع عتيق من طراز لم يتوفر للمدافعين عن المدينة سواه، ونصب مدفعه منذ بدأت الحرب على طرف الساحة الشهيرة، وأقام هو بجانب المدفع لا يبرحه لا في الليل ولا في النهار، ولا يتوقف عن توجيه قذائفه كلما سمع هدير طائرة، حتى لو لم ير مصدر الهدير.

عازفاً منفرداً كان هذا الذي لا تبلغ قذائفُ مدفعه أيَّ طائرة، استهلك ذخيرة كثيرة، فتوفّر له صناديقُ فارغة صنع منها كوخاً يستظل به ويأوي إليه، كلما منحته الطائرات المغيرة فرصة للراحة. وبمضيِ الوقت، صارت للمدفع العتيق وصاحِبه الشاب وكوخِه الخشبي شهرةً تجتذب المعجبين.

ويبدو أن الطائرات التي ينتقيها الإسرائيليون من بين أحدث ما

تنتجه مصانع السلاح لم تأبه لمدفع عبد الكافي أو للرامي الذي يُبدّد الذخيرة دون طائل، فلم توجّه قذائفها نحوه أبداً. أما عبد الكافي فاعتقد أن الله مهتم بسلامته هو شخصياً، والله هو الذي يُعمي أبصار الطيارين الإسرائيليين ويُصمّ آذانهم فلا يرونه ولا يسمعون صوت مدفعه. هذا الاعتقاد شاع في المدينة المحاصرة المحتاجة إلى الإعتقاد بوجود من يَهتمّ بسلامة أيّ أحد أو شيء فيها، أشاعه ناس آمنوا به حقاً، وآخرون وجدوا فيه ما يُقوّي إرادة الثبات، وعمّمه ناس كثيرون التقطوا طريفاً فتداولوه وجعلوا له ذيولاً وحواشي واستطرادات أكملوا بها أسطورة الحماية التي خصّ الله بها عبد الكافي دون خلقه أجمعين.

تأثير الأسطورة جعل المكان مزاراً وأصدر، بتوقيع القائد العام وعنايته الشخصية، قراراً أباح لعبد الكافي الحصول على ما يحتاج إليه، ليس من القذائف، فقط، بل من الشاي والسكر اللازم له ولزواره، أيضاً. القائد المولع بدلالة الرموز رأى كيف تحوّل الشاب إلى رمز لثبات المدينة وعطف السماء على المحاصرين فيها، فلم يبخل بأيّ شيء يزيد الرمز سطوعاً.

وفي ردّي على سؤال زياد، قلتُ إني لم أتعرّف بعد على عبد الكافي، لكني أعرف مكانته. فباح زياد بما أحضر الحكاية إلى باله: "فرغت

أمس من كتابة قصةٍ بطلها هو هذا الشاب، قصة لم يكتب مثلها عربيٌ قبلي". وعلى عادته، واصل زياد الحكي، دون أن يتأنى ليروز مدى اهتمامي بما حكاه. فالقصة، كما وصفها هو، رمزيةٌ وسيريالية وواقعية في آن واحد، بل هي، كما استطرد زياد، واقعية أسطورية، إن أحببتُ أنا استخدام وصف شائع. وهو لا يعترض على هذا الوصف، لأن الأسطورية، كما وصفها هو، تشمل الرمزية والسريالية معاً، ولا تضيق بهما. "وإذا لم تفهم فسأقربها إلى فهمك، أنت المنشغل بالدارسين والدراسات والمسهتين بالأدباء والأدب، إنها تذكّرك بأسلوب ماركيز الذي اعرف انك قرات له". قذائف عبد الكافي، في القصة التي كتبها زياد، تُربك الطيّارين حتى وهي تُقصّر عن بلوغ طائراتهم. والله، في القصة، يحمي الشاب من انتقام هؤلاء الطيارين، ليس بأن يُعميهم أو يُطرشهم كما يعتقد عبد الكافي، "الله يتدخل بطريقة لم تكن لتخطر على بال ماركيز نفسه". يترك الله، كما هو في قصة زياد، هؤلاء ليوجهوا قذائفهم نحو الشاب ومدفعه، لكنه، وهو القادر على كل شيء، يُوجهها في آخر لحظة بعيداً عنهما، فتسقط القذائف في أماكن خالية دون أن تنفجر، وتغور في داخل الأرض دون أن تُرى.

منذ شرع في حديثه عن قصّته، أوقف زياد السيارة على جانب

الطريق، وأفاض في عرض التفاصيل، دون أن تفلح محاولاتي المتكررة في إيقافه. وهو لم يتوقف من تلقاء نفسه، إلا بعد أن أتمّ عرض التفاصيل كلّها وتفصيل كلّ تفصيل. وبتصوّره أن قصة عبد الكافي استحوذت على اهتمامي، اقترح زياد أن نزور الشاب للتوّ: "نتوقف لدقائق، أعرّفك عليه، ثم نكمل مشوارنا".

ولم ينتظر صاحبُ الاقتراح موافقتي عليه، بل أندفع بالسيارة ناحية المكان، وهو يطلق العنان لزامورها، بأمل أن يجتذب انتباه الشاب إلى قدومنا. لكن عبد الكافي لم يظهر. كان المدفع هناك، أما العازف فلم نره. فتعجل زياد صفّ سيارته بجانب الكوخ المغمور بالظل. وفي هذا الجانب، وقع نظرنا على الشاب ممدداً على الأرض وهو غارق في نوم عميق. فعاود زياد الضغط على الزامور بإيقاع يستهدفُ إيقاظ النائم. فجاء دوري، أنا الذي يعفّ عن إيقاظ أيّ نائم لأيّ سبب: "تنسى أن السماء خالية من الطائرات، صاحبك لن يوقظه إلا هديرُها، أضف هذا إلى قصتك، وإذا جعلت له دلالةً رمزية، فلا تنس أن تجعلها مفهومة للقارئ"!

بدا زياد في هيئة من أسقط في يده، وهمّ بأن يغادر السيارة ليوقظ النائم، غير أني استبقيته بحركة حازمة ووعد: "نزوره في طريق عودتنا حين يكون قد صحا دون إزعاج من كاتب قصّته". فأطلق

صاحبي سيارته بنزق وشى ببرمه: "أردتُ أن تسمع منه بنفسك فتقارن بين الواقع وبين التعبير الأدبي عنه. أنا مستعجل على نشر قصّتي قبل أن يفطن غيري لما فطنتُ له". فقلت، لا لشيء إلا كي أوقف سياقا لن يوقفه هو من تلقاء نفسه: "سأعمل على نشر قصّتك دون مقارنة، وحتى قبل ان اقرأها، وارجو أن يكفيك هذا"! ويبدو أن زياد أدرك لحظتها أني ضقتُ بإمعانه في الحكي على ما لا يجتذبني، ولذا قال بنبرة مسترضية، بدون مقدّمات: "قصتي التالية ستكون عن أولادك، أولاد الفلسطيني المتصل بحلقات القيادة، وهم يحملون السلاح، كما يحمله خلق الله الذين ليس لآبائهم مكانة خاصة، الأولاد الذين يدافعون عن مدينة ليست مدينتهم في وطن ليس وطنهم".

ما قاله زياد أحضر السؤال الذي طالما عنّاني، كيف نسوّغ وجودنا في هذا البلد وما يجلبه لأهله من أذى، الأذى الذي يُلحقه ناس من ناسنا ببعض أهل البلد، والأذى الأوجع الذي تُلحقه إسرائيل بالجميع؟ "أين سرحت"؟ أعادني صوتُ زياد إليه، "اكلمك فتبدو كالمسرنم، هل ازعجك كلامي، تتصور أننا نُسيء لأهل البلد لأننا نُقحمهم في الصراع مع إسرائيل. تصوّرك هذا غلط، غلطٌ كلّه، فنحن لا...". كان من المتعذر حملُ زياد إلى الحكي على ما يشغلني حقاً وليس على ما يتصوّر هو أنه يشغلني. ولكي اقطع سياقاً لا يُفضي إلا إلى جدل

خارج الموضوع، تعجلتُ مقاطعة العازم على المضيّ فيه: "لننشغل بما نحن فيه الآن، فهذا يُناسب أسلوبك في التعاطي مع سطح المسألة الساخن دون عمقها، وإن كان لا يناسب ضيقي أنا بهذا الأسلوب"!

احنق زياد أن اتهمه بالخفة، أو بالسطحية كما قال هو، ولم يشأ المحنقُ أن يفوّتها، بل تشبّث بما قال إنه حقُّه في وضع كلّ ما يلزم من النقاط على كلّ ما هو أمامنا من حروف: "ساعيدك إلى الأوّليّات التي تعرفها وتهمل دلالتها. الفلسطينيون لم يختاروا ترك وطنهم، لم يأتوا إلى لبنان وغيره من أجل النزهة، لم يشأوا أن يستبدلوا وطناً بوطن. إسرائيل، صهيونيؤها إن جاريتك في حرصك على دقّة التسميات، اعتدوا على الفلسطينيين في وطنهم وأخرجوهم منه. وهؤلاء هم الذين منعوا الفلسطينيين من العودة إلى وطنهم، وهم...". ولكي أوقف سيل العبارات التي أحفظها عن ظهر قلب وأستخدمها حين احكي او اكتب، ثم لكي يقتنع زياد باني لا أغفل دلالة ما اعرف، قاطعتُ صاحبي، مرة أخرى، دون استئذان، واستخدمتُ إيقاع صوته، وتلوتُ بهذا الإيقاع العبارات التي كان سيكمل بها ما بدأه: "وهم الذين لم يكتفوا بما فعلوه بالفلسطينيين في 1948، بل لاحقوا الذين بقوا منهم في الوطن كما لاحقوا من لجأوا إلى البلدان

المجاورة، وواصلوا النهب والقتل والإذلال والتوسع، في فلسطين وفي بلدان اللجوء. أرادوا أن ينسى الفلسطينيون ما كان لهم، وشاءوا أن يعاقبوا بلدان اللجوء لأنها لا تفعل ما يحمل الفلسطينيين إلى النسيان، فهو إذاً، كما تريدني أن أفهم، الحاضر المشترك والمصيرُ المشترك والحاجةُ المشتركة إلى مواجهة عدوان متواصل يستهدف الجميع". صمت زياد لبعض الوقت، لعلّه فكّر في ردّ ناجع على مناورتي، لعلّه تأمل ما قلته ليقدّر مدى تطابقه مع ما كان هو سيقوله، وبعدها هتف: "عذاك العيب يا طيّب، الأمر هو هذا بالضبط، ولا حاجة لوجع الضمير"!.

على إيقاع الجدل المحتدم داخل السيارة والقصف المشتدّ خارجها، دنونا من الموقع الذي قصدناه. وبالرغم من أن الشوارع كانت خالية، فإن زياد احتاج لبعض الوقت كي ينتقي موقفاً للسيّارة يحميها من الرمي المباشر القادم من الجهة الأخرى لخطّ التماس. ومن هذا الموقف، سرنا على الأقدام إلى حيث تُرابط وحدةُ ثائر، محاذرين أن يرانا الإسرائيليون أو تطالنا رمايتهم.

كنّا إزاء خندق فسيح بعض الشيء حُفر في موازاة بنايتين سكنيتين متجاورتين خلتا من سكانهما. وكان مقاتلو الوحدة يستخدمون الخندق للرصد والتمترس أثناء الاشتباكات، ويستخدمون الطابقين

الأرضيين في البنايتين للراحة والمبيت وتناول الطعام وخزن العتاد والمؤن. وعلى امتداد الخندق، فوق حافّته التي تواجه المحاصرين، أقيم حاجز حماية من الأكياس المعبأة بالتراب، أبقيت فيه كوى لإطلاق النار. وإزاء الكوى، وقف شبّان مسلحون ببنادق ومناظير. ولأننا توجهنا إلى الخندق مباشرة، فقد كان هؤلاء هم الذين وقع نظرنا عليهم قبل سواهم. والذي ردّ من هؤلاء على تحية زياد المجلجلة، فعل هذا دون أن يلتفت ناحيتنا نحن القادمين من ورائه، وهو الذي تعجّل توجيهنا: "إلى البناية التي خلفي، في الجوّ شيء لا يُطمئن"!

إلى جانب وحدة جيش التحرير الفلسطيني، ضمّ الموقعُ مقاتلين متعددي الجنسية والولاء السياسي، فكان فيه فلسطينيون ولبنانيون ومعهم عربٌ آخرون. وبين رجال جيش التحرير، كما بين غيرهم، وُجد منتمون لشتى الفصائل الفلسطينية والأحزاب اللبنانية المنهمكة في المقاومة، فوُجد، بهذا، يساريون ويمينيون ووسطيون ومستقلون. ومنذ أحتوانا الطابق الأرضي الذي خففنا إليه، توافد عددٌ كبير من هؤلاء للقائنا. ومع أن عينيّ بحثتا بلهفة عن إبني، فإني خجلتُ من ان اسأل عنه هو بالذات، فمن الذي يمكن أن يجهر بما يشي بأيّ تمييز بين شخص وغيره في المكان الذي يخاطر فيه

الجميع بحيواتهم بالتساوي. لكن واحداً من المقاتلين تطوّع بإيضاح: "انهى إبنك نوبة حراسته قبل ساعتين فقط، وهو نائم الآن في البناية الأخرى، فهل تحبّ ان نوقظه"؟ وقبل ان افوه بردّي، انا الذي كنتُ متردداً بين لا ونعم، هتف زياد بنبرةٍ لم تخلُ من الاستهجان: "اهذا سؤال، ايقظوه"!

وكمن لم يقلْ ما قد يحرج، مال زياد على أذني، وهمس بشيء لا صلة له بالموضوع: "الأغلبية هنا من الفتحاويين". ثم بدا أن الذي يَمزجُ في ما يقوله عن "فتح"، الفصيل الفلسطيني الأكبر، بين التشكّي من اتساع حضورها وبين الممالأة قد خشي أن آخذ قوله على محمل واحد فقط، فاستدرَك، بصوت يسمعه الحاضرون: "حتى في مواقع القتال يصُرُّ الفتحاويون على أن يتمتعوا بالأغلبية". فبدا المحتشدون حولنا مفاجئين بتطرق زائرهم المرموق، حتى دون مقدمات، لموضوع لا يشغل بالهم. ولا شك في أن زياد استشعر برودة ردّ الفعل، لكنه، بدل أن يطوي الموضوع، شاء أن يتظرّف، فأضاف بصوت أعلى: "يبدو أن إخواننا الفتحاويين حريصون على أن تتوفر لهم الأغلبية في الجنّة التي يذهب إليها الشهداء، مثلما هي متوفّرة لهم في الجحيم الذي نحن فيه". وإزاء التشكّي كما إزاء الممالأة، التزم الحاضرون الصمت. وكان هذا هو الصمتُ الأريب الذي

أحبّه.

وفي اللحظة التي هممتُ أن اخترق الصمت، أطلّ ثائر على جمعنا. وقبل أن ينلّقني ابني، بل قبل أن أرد على تحيته، جَبَهَهُ زياد بهذا السؤال: "وأنت، يا صاحبي ويا ابن صاحبي، ألست شيوعياً"؟ ثائر الذي يمجّ الكذب لم يُجب، بل ابتسم ابتسامةً بثّت ما شاء أن يوصله إلى سائله: ما الداعي إلى التمييز فيما جميعنا نواجه خطراً لا يستثني أياً منّا. كنت أعرف ما الذي سيجيب ابني به لو أباح لنفسه ممارسة التمييز، وكانت إجابته ستعجبني. غير أن ترفّع الشاب عن الإجابة في ذلك الظرف أعجبني أكثر. وهذا الترفّع هو الذي حرّر الحاضرين من تحرجهم في إبداء مشاعرهم إزاء ما تطرق إليه زياد. وهكذا، انفتح أفقُ الحوار.

توقّع مستقبلونا أن نجيئهم بالأنباء التي لا تبثّها وسائل الإعلام ولا تمليها حاجاتُ طرفٍ أو غيره للدعاية. تاقوا، وقد زارهم كاتب وأديب على صلة بمصادر الأنباء الصحيحة، إلى معرفة ما لا يبوح به القادة والمسؤولون الذين يزورونهم ويحقنونهم بما يضخونه لرفع المعنويات. ولأن موضوع المفاوضات المتعثرة كان هو موضوع الساعة، فإنهم كانوا بحاجة إلى من يُهديهم ما هو يقيني: هل ستنجح المفاوضات أو ستفشل. وبعد أن تحدث كثيرون، أوجز قائد

الوحدة ما يشغل بال الجميع: هل ستتشبث إسرائيل بأن يخرج المقاتلون الفلسطينيون من البلد مذلّين مهانين ويطوي حلفاؤهم اللبنانيون رايات الكفاح؟ على أي شيء تستند القيادة المشتركة حين تتشبث من جانبها بالخروج الكريم، حين تشترط فك الحصار عن المدينة، مقابل الخروج، كما تشترط إعلان إسرائيل موافقتها على الانسحاب من أرض لبنان؟ هل سيظل الموقف هو هو فيما الدمار يتسع والبلد يفقد بنيته التحتية وحيوات ناسه؟

منذ باشر قائد الوحدة حديثه، وجّه الرجل متين البنية صلبُ التقاطيع نظره نحوي، كأنما ليؤكد أنهم يريدون سماع رأيي أنا، وليس رأي زائرهم الآخر. وكنت أنا قد تعلمتُ بالتجربة كم هو دافئ وشيق الحوار الذي يجري مع المقاتلين في مرابضهم، وكم هو مختلف عن الحوار الذي يجري في مكاتب القادة أو مجالس ممتهني الشؤون الفكرية. فهنا، في المرابض، صافٍ أنت يا لبن، الصدقُ كامل، والدوافعُ سافرة، والأفكارُ والأهداف، لا تمويه ولا إدعاء. وقد رحتُ افكّر بهذا وأنا أتهيأ للكلام. ويبدو أن قائد الوحدة ظن أني متردد، وافترض أنه يعرف سبب تردّدي، فشاء ن يحأن يحثّني على تجاوزه: "لا تخف على معنوياتنا، نحن مهيأون لكل احتمال"!

بقوله هذا، نقر الرجلُ العصب الحساس. فمسألة الخروج من البلد

أقرّت، والبنود المتصلة بها جرى الاتفاق عليها. أما ما هو مختلَف عليه فمتصل بتفاصيل البنود. تُغرق إسرائيل المفاوضات باستحضار تفاصيل لا نهاية لها، فتثير خلافات بين الذين من ناسنا يأبهون للتفاصيل والذين لا يأبهون لها. اختلاف المواقف حول التفاصيل لا يُسفِّر الخلاف بين المتعادين وحدهم، بل يُسفِّره، ايضاً وخصوصاً، داخل كلّ طرف. وفي القيادة المشتركة يَدفعُ أعضاءٌ لبنانيون نحو القبول بما هو متيسر ليبرم الاتفاق الذي سيوقف الدمار والمجازر. أما الطرف الفلسطيني فيصرّ على جلاء أدق التفاصيل، لأن هذه التفاصيل هي التي تحدّد طبيعة الخروج: هل هو اندحار المهزومين او هو انتقال مقاتلين من موقع إلى غيره. وهذا هو الاختلاف الذي كان من المتعذر أن أعرضه بصدق ما لم يتوفر الوقتُ الكافي والجوُ الملائم والأمزجةُ المستعدّة لنبش خلفيات كل موقف وتجلياته ونتائجه دون حساسيات. وإذا أطلتُ التفكير، فلأني شئت أن اتيقن من توفر الوقت والظرف والمزاج الملائم. والواقع أن سؤالاً طاف ببالي: ما الذي سيجنيه المحشورون في هذا المربض إذا شغلتهم أنا بما من شأنه أن يُشعل الخلافات حتى بينهم هم أنفسهم؟ ومع اني لم ارضخ لما يمليه هذا السؤال، فإنه ظل ينغزني. ولو تعلق الأمر برغبتي وحدها في تلك اللحظات، لحكيتُ على ما هو متفق عليه وأشرت إلى وجود خلافات في قيد التداول، ولركّزتُ على ما أنا

متأكد من صوابه، وهو أن الإتفاق قادمٌ بأسرع مما يتوقع حتى المتشائمون. لكن ما كانت تبثّه تعابير المحيطين بي لم يأذن لي باتباع هذا الخيار، ولذا، طال تفكيري في ما يمكن قوله، أو لأقل إن ما طال هو صمتي. والذي تكلم فيما أنا صامت كان هو زياد: "الذين صمدوا شهرين ونصف الشهر يمكن أن يصمدوا إلى ما يشاء الله، أنا أعوّل على عزائمكم، أنتم الذين منعوا جيش إسرائيل المتفوق من دخول المدينة". قال زياد، إذاً، ما تجنّب قائد الوحدة أن يسمعه، واظن ان صاحبي اندهش لأن سامعيه لم يُبدوا ايّ تأثر بما قاله. فالواقعون في مرمى الأسلحة المسلطة عليهم ليل نهار يعرفون اكثر مما يعرف ممالئوهم، ويدركون أن ما مدحهم به زائرهم غير دقيق. واظن، ايضاً، ان زياد شعر بالحرج، إزائي أنا بالذات. فلطالما زجرتُ صاحبي ليكفّ عن بيع الماء في حارات السقايين. وكأنما ليؤكّد ظني، هتف هو بتعجّل: "انطق، أخرج جواهرك"! ولعله شاء أن يُظهر اختلاف موقفه عن موقفي، فأضاف بنبرةٍ تتصنع المرح ليبدو مازحاً: "بس، إياك أن تبثّ روح الهزيمة والتخاذل، كعادتك"!

ربما لم يكن ينقصني غير هذا التحدي لأحسم امري واقرر ان ابثّ ما اعرفه دون تحفظ. لكني لم اتمكن، لسوء الحظ او حسنه، من ان ابثّ، وقتها، اي شيء. فقبل ان استوفي النطق بأوّل جملة، ارتج

المكان، رجّته قذيفة حطت على بناية غير بعيدة، في ما بدا انه قصفٌ مركز على المنطقة، فانشغل الجميع بما صار عليهم أن ينشغلوا به. ولأن القذائف تلاحقت بوتيرةٍ أسرع من المألوف، فإن قائد الوحدة اظهر رغبة سافرة في ان ننصرف، زياد وانا، فوراً. "من اجل سلامتكما، فمثل هذا القصف قد يكون بداية لهجوم برّيّ على مواقعنا"، قالها الذي خشي أن نُسيء الفهم. فأضاف زياد: "ومن أجل أن لا نثقل عليكم".

تبيّن أن سيارة زياد تلقت رشقة من قطع الدمار الذي أحدثه القصف فانبعج سطحها عند منتصفه ولحقت بها خدوشٌ كثيرة: "تفضّل، حضرتك، خسرنا البنزين، والآن تصليح السيارة، دون حتى أن نسمع رايك"! كان زياد متماسكاً، وهو قال ما قاله بنبرة من يروي طرفةً وهو منصرف لتفقّد السيارة والتأكد من صلاحيتها للإقلاع. وما أسرع ما بدا عليه الإرتياح، فالإصابات سطحية، والمحرك سليم. وحين درجت السيّارة متجهة من موقعها نحو الطريق، كانت وتيرةُ القصف قد بلغت ذروةً لم أتصور أن فوقها ذروة أشدّ، وكان هدير الطائرات قد تجدد.

هجسنا بأن وتيرة القصف لن تنخفض في وقت قصير. وإذاً، فقد وقعنا في فخ: الخطر خلفنا، وفوقنا، وعلى الأطراف، وهو ممتدٌ

أمامنا، والسيارة ماضية بنا دون أن نعرف ما هو الأسلم، النكوصُ، أم المتابعة، أم التوقف. تعليمات السلامة التي صرنا نحفظها عن ظهر قلب لكثرة ما تُليت علينا تُوجب أن نوقف السيّارة ونتوجّه إلى أقرب ملجأ. فيا للتعليمات التي وُضعت لظرف غير ظرفنا، لمدينة غير هذه المدينة، لتجنّب خطر غير هذا الذي يشملنا من كل جهة! أين يمكن أن تتوفّر الحماية في هذه البنايات التي أقيمت ليسكنها محدودو الدخل حين لم يُفكر أحد بأن الزحف الإسرائيلي في بلاد العرب سوف يبلغها. وكيف يمكن التوجّه إلى ملجأ في مدينة ليس فيها ملاجئ.

فكرتُ في هذا وأنا مدرك أن ليس في اليد إلا إيكال أمر سلامتنا للصدف. وكأنما حزر زياد ما أفكرّ فيه، أو كأنه كان يُفكر فيه مثلي: "أين يتوفّر الأمان حين يكون القصف شاملاً وما من أحد يدري أين ستحطُّ القذائف وعلى رأس من". ولما كنّا متجهين نحو الساحة التي يربض عبد الكافي ومدفعه فيها، فإني تذكّرت الشاب وتصورتُه سعيداً بتجدّد ظهور الطائرات. وحين اقتربنا من الساحة، دقّقت في ما أسمع، فميّزت أذناي أصوات قذائف المدفع، التي تُسمع هادرة حين تقترب منه، ولاحظتُ أن قذائف عبد الكافي لا تتوقف حتى بعد أن تخرج الطائرات من ساحة النظر ويغيض هديرها. قذائف عبد الكافي

هدتني إلى اقتراح: " نتوقف تحت جسر الكولا ونبقى في السيّارة إلى أن ينجلي هذا البلاء". زياد طوّر الاقتراح: "نترك السيّارة تحت الجسر، أما نحن فنخفّ إلى حيث عبد الكافي، نزوره وهو في عزّ الشغل". عرض زياد اقتراحه بنبرة حاسمة كي أفهم أني لا أملك حق الاعتراض عليه. ثمّ أضاف شبه مازح وشبه جاد: "سيحمينا ما يحمي هذا الشاب الأسطورة".

كانت الساحة، مثلها مثل الشوارع التي تصبّ فيها، خالية من السيارات والمارة. وكانت أصوات القصف وحدها هي المسموعة، لا يخترقها إلا صوت المدفع العتيق وزعيق سيارة إسعاف تمرق بين وقت وآخر مسرعةً كأنها في سباق مع الموت. ولئن أحسسنا بوجود الناس المستكينين في منازلهم والمقاتلين المتربصين في مرابضهم، فإننا لم نر من البشر رؤية العين سوى عبد الكافي.

وجدتني إزاء شاب متين الجسد، خفيف الحركة، سريعها، لوّحت شمس الصيف الطويل بشرته القاتمة في الأساس، فصارت أشدّ قتاماً. فكأني كنت إزاء عفريت من عفاريت ألف ليلة وليلة مشتبك مع عفاريت أخرى لا أراها. وفي التعامل مع المدفع، كان الشاب يتصرف كما يتصرف مهني يعشق آلته، بدراية، وانتباه، وحنان. ولم يبد لي أن هذا الشاب يُحسُّ بأن في وضعه ما هو استثنائي. فهو

يتصرف في هذا المعمعان المحتدم بسلاسة من يشتغلُ وهو في منزله وعفويته. وحين دنوتُ من المنهمك في الشغل، اكتشفتُ أن عبد الكافي لا يُوَجه نحو الطائرات قذائفه وحدها، بل يقرن القذائف بشتائم يتفنن في انتقائها؛ يوجه قذيفةً نحو طائرةٍ مقبلة ومعها شتيمة للطيار: "الله يقلع عينك"، ويوجه أخرى نحو طائرة تجاوزته ومعها شتيمة مختلفة: "لتدخل في دبرك ولا تخرج إلا من نافوخك"! كان الشاب يُرسل الشتائم بإيقاع يُجاري إيقاع القذائف، ويقرن الشتم بحركات تجاري الإيقاعين، ولا يكلّ ولا يملّ، لا في الرمي ولا في الشتم.

ولما كان عبد الكافي منهمكاً بكليته في هذا الشغل، فقد تعذّر أن نُدير معه أيّ حوار. بالرغم من هذا، أمل زياد في أن تتوفر الفرصة، أي في أن تكفّ الطائرات عن التحرك في أجواء المدينة، فلم يتعجّل المغادرة. ولكي يُصبّرني، اتبع زياد عادته في المزج بين الهازل والجاد كلما افتقر إلى اليقين، وقال إن خبرة شهور الحصار تظهر أن موقع عبد الكافي هو آمن مكانٍ في المدينة، فلِمَ نغادره. وفي ظل أمانٍ مقتبس من أسطورة، الأمان الذي يصّر صاحبي على استثماره، تسنى لي وقتٌ أطول لمراقبة الشاب، فراقبتُ، خصوصاً لغة جسده وإيماءاتها التي فتنتني، ورحتُ أتعمق سرّ انشداد الشاب بهذا الوله

كله إلى مدفعه. وما استخلصته، أو لأقل إن الراي الذي كونته، نقلته لزياد بعد أن فقد صاحبي الأمل في توفر الفرصة التي تاق إليها، وبعد أن وافق على الابتعاد عن المكان المكشوف والكف عن التعويل على اسطورة.

احتاز عبد الكافي على سلاح، هو الذي نشأ بين أهل قدموا إلى لبنان بعد أن نجوا بالصدفة من المذبحة التي تعرض لها سكان قريتهم الفلسطينية الطنطورة. قال الأهل لابنهم الذي وُلد في المنفى إنهم فقدوا الممتلكات وأرواح الأعزاء والوطن كله، لا لشيء إلا لأن الشعب الفلسطيني، شعبه، افتقر في العام 1948 إلى السلاح اللازم للدفاع عن النفس ضد الغزو الصهيوني لوطنه. وجود السلاح والظرف الذي مكّنه من استخدامه بحرّية وفّر للشاب الإحساس بالأمان الذي افتقر إليه أهله حين افتقروا إلى السلاح، الأمان الذي يُنشط جرأته على فعل ما يفعل. وأن يكون السلاح مدفعاً لقذائفه دويٌ يغمر روح مشغله بنشوةٍ أخاذة خلق في نفس المستحوذ عليه الإحساس بالأهمية والفخار. إنه إحساس خطيب حرم من الخطابة زمناً طويلاً، ثم استحوذ على منبر وأتيح له أن يقول ما يشاء، فشرع في الخطابة، وصار يسمع نفسه، فينتشي بجرس عباراته وطنينها. مثل هذا الخطيب لا ينشغل بغير ما يصدرُ عنه هو، ولا يهمّه أن يكون

ما يقوله نافعاً أو غير نافع، المهمُ أن يكون مسموعاً. "عبد الكافي"، قلت لزياد، "هو هذا الخطيب أو شيء من هذا القبيل، فهو، إذاً، انت، وانا، وكلُنا، حين نشهد معامع يكون لنا فيها دور، فنتصور اننا نصحّح مسار التاريخ، نعيد صنعه، ويغوينا هذا التصور، فنستهين بما عداه".

لم يستسغ زياد رايي، واغلب ظني انه لم يفهم ما قلته فهماً سديداً او انه، في الأساس، لم يُصغِ إليه بإمعان. انعكس برمُ صاحبي في سواقته، هو الذي بقي صامتاً إلى أن تشكّل ردّ فعله في كلمات. وكالعادة، جاء معنى الكلمات بما يبعدنا عن صلب الموضوع: "ما دمتَ تضع جهد عبد الكافي خارج ما هو مطلوب لمقاومة العدوان، فلن تُعجبك قصتي عنه".

ادهشتني هشاشة هذا الرد: شخصنة مسألة لها هذا البعد العام: إيلاء قصة متخيلة حضوراً واقعياً أكثف من حضور الواقع ذاته: اتهامي باني اضع جهد الشاب خارج سياق المقاومة، مع أن تفسيري سلوك الشاب، خصوصاً جراته، هو بالذات ما يضعه في صلب هذا السياق. ولكي أتجنب الجدل الذي لا يفضي إلى أي مكان، كتمتُ دهشتي، ولجاتُ إلى ما لجا محاوري إليه، الحكي خارج الموضوع: "قلتُ لك إني سانشر قصتك دون ان اقراها، اعطني إيّاها، وساقنعهم في الجريدة بنشرها"! وبعد هذا، صمتنا، وبقينا صامتين إلى أن ابلغني

زياد منزلي. وهناك، ودعني صاحبي بكلمات مقتضبة، وناولني الأوراق التي خطّ عليها قصّته، وانصرف.

عند مدخل البناية، استوقفني أبو طانيوس وفي فمه كلام: "لم تقل لي إنك تستضيف زائراً يُقيم معك. جاءني الضيف وطلب أن أدبر له ماء ليستحم، كان بودي أن أخدمه، لكن أنت تعرف".

زعم عبد الرزاق في حديثه إلى البواب أني أنا الذي وجهته ليطلب الماء منه. وكان أبو طانيوس بادي الحرج، فراح يشرح ما أعرفه، ويمعن في الشرح بأمل أن أعذره. ولم يكن ينقصني غيرُ هذا ليغلي مرجلي وأصعد إلى شقتي على سلم الحنق الذي فار. وبحنقي هذا، توجهتُ إلى الذي تلقاني بابتسامة متملقة. وما أن شرع هو في قول شيء، حتى أوقفته، وعاجلته بنبرة، إن لم تكن صاخبة فقد كانت شديدة الحزم: "ليس هنا من هو مُضيف ومن هو ضيف، نحن في ظرف استثنائي فيه من الأثقال ما يهدّ الحيل، وهذا يكفي، وليس من حقك أن تزيد أثقالي". ولم أتوقف إلا بعد أن تخففتُ من الضيق الذي كاد يفلقني.

كانت هذه هي مشاجرتي الأولى مع ضيف يحلُّ في منزلٍ لي منذ صار لي منزل. هل قلتُ مشاجرة؟ الأصوب أن أقول إني قرّعتُ

ضيفي فيما هو صامت والابتسامة المتملقة لا تُفارق ثغره. والواقع اني احسست بشيء من الحرج، بسبب هذا الصمت. اما بعد ان افرغت ما في جوفي وبقي هو صامتاً، فإن حرجي اشتد واخجلني، فبقيت أنا الآخر صامتاً. ثم لم يلبث أن افترقنا دون كلام، هو إلى الحجرة التي يشغلها، وأنا إلى حجرة مكتبي.

في ذلك اليوم، حصدت قذائف المحاصِرين ضحايا كثيرة، اكثر مما حصدت في ايّ يوم سابق، واوقعت دماراً اكبر. لكن الهجوم على خطوطَ التماس لم يخترق اياً منها. وكالعادة، قال الجيش الإسرائيلي إن ما جرى كان مجرّد جسّ نبض روتيني، أما القيادة المشتركة فاكّدت انه كان هجوماً وانه صُدّ. وفيما انا اتابع الأنباء واغالب قلقي على مصير ابني، اقتحم عبد الرزاق عزلتي دون استئذان. شاء الذي احنقني سلوكه أن يسترضيني، فعرض أن يسرد عليّ ما سمعه من محطّات الإذاعة الإسرائيلية التي لا يستمع هو لسواها، غير أني لم اتح لمتملقي الفرصة، لكني تجنبتُ أن اصدّه بقسوة: "أحتاج لراحة قصيرة، فما زال لديّ ما أفعله، وهو كثير".

فـي شـقة الإذاعـة، احتشـد جمع كبير، فتعـددت حلقـات النقـاش وتنوعت الموضوعات، فعرفت الكثير. وفي الجريدة احتشد جمعٌ اكبر واشدّ تنوعاً، وتجمعت الأنباء كلّها، فعرفتُ اكثر. ومقالاى

كلاهما، الذي للإذاعة والذي للجريدة، جعلتهما قصفاً على المعتدين.
ولم يغب عن بالي وأنا أكتب كلاً من المقالين أن ثقلاء الظل من ناسنا يستحقون هم الآخرون بعض القصف. ولو لم أقصف يومها على الجهتين لصعُبَ أن يواتيني النوم.

(4)

بادرني عبد الرزاق بتحية الصباح والابتسامة المتملقة ثابتة على ثغره، حتى كأنها لم تفارقه منذ اليوم السابق. ورددتُ أنا التحية بالاهتمام الذي أوجبه الظرف، إذ من الذي يستطيع أن يتصرف بفظاظة منذ أن يصحو. ولدهشتي التي اكتمل بها صحوي، سعد هو بردّي سعادة طفلٍ سامحته أمّه على خطأ خشي أن لا تسامحه عليه. وجاءت خفّة ردّ فعل صاحبي طريفة، حتى لقد حملتني إلى الابتسام. وإزاء ابتسامي الذي من المؤكد أنه لم يتوقعه، فاضت سعادةُ عبد الرزاق فيضاً، فتوجه نحو الشرفة بخطوات راقصة وهو يردد: "الآن نشرب القهوة على رواق". وبهذا، أظهر هو أنه يتوقع أن أعدّ أنا القهوة، دون مساعدة منه، وأجيئه بها إلى الشرفة، كما يفعلون في أي منزل للضيف الغريب. ولئن ضايقني أن ينسى الملتجئ إلى منزلي ما نبهته إليه قبل يوم واحد فقط، فإني سيطرتُ على ضيقي. ألم نكن في أول النهار، فلماذا أعكّر نهاري من أوّله.

في المطبخ، وجدتُ كوم أواني أُلقيت في المجلى إلقاء دون ترتيب. ورأيت في الكوم علباً فارغة، مما جلبته ابنتاي من مركزهما، أكل هو ما فيها أو شربه ثم لم يُكلف نفسه عناء إلقائها في سلّة المهملات.

يتصور الذين لم يعانوا ما عانيناه أن تعرضك لأذى شديد، كما هو أذى الحصار، يجعلك قادراً على احتمال المزعجات العادية دون أن تتأذى. وهذا غير صحيح حتى حين يبدو انه منطقي. الأذى الشديد يشحذ حسّ التأذي، فيجعلك شديد العطب إزاء أيّ استفزاز مهما ضؤل. وهذا هو ما وقع لي مع امتداد الحصار الذي أعجز عن كفّ أذاه، فصرت شديد التأذي إزاء المزعجات التي تأتي دون أن تكون قدراً لا رادّ له. لكن تواتر الأذى يشحذ، على الجانب الآخر، القدرة على كتم التأذي. هذا، ايضاً، حدث لي. وقد اسعفتني هذه القدرة حين صدمتني دلالةُ الكوم الماثل أمامي في المجلى. أما ما كاد يجعلني ابدأ نهاري، بدل القهوة، بمشاجرة جديدة، فهو ما عاينته بعد هذا. فالذي فرض علي استضافته فرضاً وبدّد الماء المخصص للجميع استهلك، إلى هذا، الماء القليل الذي أحفظه بمثابة الاحتياط كي أشربه إن ظمئت أو أعدّ منه قهوتي حين لا تكون الجارة في شقتها. عثر عبد الرزاق على الإبريق الذي أخبئه في الثلاجة المنطفئة، ولم يُبق فيه قطرةً واحدة، ولم يفته بعد هذا أن يعيد الإبريق الفارغ إلى مكانه، معتزماً، على ما بدا لي، أن ينكر ما فعله.

"صبّر نفسك"! قلتُها لنفسي بصوت مسموع، بإيقاع ملحّن، وصبرتُ نفسي.

قصدتُ الجارة والغلاية معي. ورجعت بالغلاية ملآنة، ووضعتها على الطباخ. فعلتُ هذا بأناةٍ معطياً لنفسي الفرصة كي يبرد حنقي. وعمدتُ إلى ترتيب وضع الأواني في المجلى، لا لشيء إلا لأهدّئ فورة أعصابي. ومن حسن الحظ أني عثرتُ على فناجين لم تتّسخ. فحملت مع الغلاية فنجانين إلى الشرفة، وهناك ملأتهما بالشراب المنعش، دون أن أوجه نظري إلى جليسي، حتى وأنا أضع فنجانه أمامه. وشربنا القهوة ودخنا ونحن صامتان. وفي الصمت، انتبهتُ إلى أن في الجو شيئاً غير عادي، ثم لم يلبث أن ادركتُ ما هو، الصمتُ مطبق على المدينة، القصف النهاري، القصف الشامل، لم يبدأ. لكن القصف الليلي، القصف النوعي، متوقف هو الآخر.

نظرتُ إلى ساعتي وإذ هي قد تجاوزت الخامسة بدقائق كثيرة. الخامسة دون أن يبدأ القصف النهاري؟ أدهشني هذا، فهم لم يخلفوا الموعد من قبل. وأخرجتني الدهشةُ من صمتي: "هل ينوون تبديل موعد القصف"؟ لم أوجّه تساؤلي إلى جليسي بالذات. لكن الذي فرض صمتي عليه أن يصمت وجد ما يُحرّره: "عرفت النبأ أمس في وقت مبكر ثم نمت، ظننتُ أنك، أنت الآخر، عرفت، اتفقوا على وقف إطلاق النار لأربع وعشرين ساعة".

لم يكن هذا هو الاتفاق الأول: ففي أثناء الحصار، اتفقوا، أكثر من

مرّة واحدة، على وقف لإطلاق النار. لكن ما من مرة زاد الوقت عن ساعات قليلة، اثنتين أو ثلاث. أما وقف إطلاق النار لنهارٍ وليلة بطولهما، فهذا ليس بالوقت القصير. وما من شيء سيعيق وصول موزعي الماء اليوم. كنت أتحدث لنفسي. ويبدو أني فهتُ بالعبارة الأخيرة بصوت مسموع. وإذاً، فليسمع عبد الرزاق البقية: "مرّة أخرى أنبه عليك بفصيح العبارة، الماء الذي نحصل عليه للجميع، للأولاد ولي، وليس لك وحدك، لا تنسَ هذا. ولا تنسَ أن النبش في زوايا منزلنا ليس من حقّك، ليس من حقّك استخدام أيّ شيء هنا دون استئذان"!

للحصول على ماء الصهريج، لم أركن للوعد الذي أعطاه عبد الرزاق بالرغم من عباراته الجازمة. ولهذا، عزمتُ على البقاء في المنزل إلى أن يجيء الصهريج. ولما كنتُ بحاجة إلى إفراغ توتري، فقد قررتُ استثمار وقت الانتظار في ترتيب الشقة، وشرعتُ في التحرك للتوّ، متوقعاً أن يخفّ هو إلى المساعدة من تلقاء نفسه، بعد أن سمع منّي ما سمعه. لكن المنشغل بغير ما يشغلني خفّ، في واقع الأمر، إلى الحجرة التي ينام فيها. وسرعان ما دهمني عبر الباب الذي نسي هو إغلاقه صوتُ الإذاعة الإسرائيلية. فصفقتُ الباب لأوصل إلى المعوّل عليّ في كلّ شيء رسالة احتجاج صاخبة. فأوصل الصخبُ إليّ أنا

الآخر رسالة أخرى: صبّر نفسك! أما الذي التقط الرسالة الموجهة إليه فإنه لم يفعل شيئاً سوى انه خفض صوت الراديو.

رتبتُ ما أمكن ترتيبه، وبقي ان اكمل ما شرعت فيه بترتيب الحجرة التي يقبع عبد الرزاق فيها. ولجتُ الحجرَة ناوياً أن أطلب من شاغلها صراحة أن يساعدني. لكنْ ما وقعتُ عليه لجم العبارة التي تشكّلت على لساني. هل رأى أحد حجرةً احتلها خنزيرٌ بزّيٌ وطال مكوثه فيها. رأيت أنا شيئاً من هذا في السينما فقط. وما مثل أمامي كان اقبح. ومن حسن حظي، كما هو من حسن حظ الذي ملأ الحجرة بالفوضى والقذارة، أن طرقاً على باب الشقة، قوياً وملحاحاً، اخترق سمعي في تلك اللحظة. وبين أن ينفجر بخار مرجلي فينحّي غطاءه وبين أن أسيطر على انفعالي، ترددتُ لحظةً كانت هي ما احتجتُ إليه لأتجنب أن انفجر. توقعتُ أن تكون هي الجارة، فلم أشأ أن تشهد السيّدة المهذبة خروجي عن طوري.

بدل الجارة، انتصبت أمامي القامةُ التي طالما استحوذت رشاقتها على إعجابي، وقابلني الوجه الصبيح، والشعر الأسود الذي يُتوّجه، والعينان اللتان تبثان هذا المزيج الأخّاذ من الرفعة والتواضع معاً. إنها قامة لبنى التي احتفظت بمتانة فتوّتها الأولى وهي تقترب من عتبة الأربعين، وإنه الوجه الذي تُشعّ منه حلاوة روحها، الوجه الذي

تغمره كلما لقيتني صاحبته ابتسامتها التي تشي بصدق المودة.

ظهور لبنى حمل إليّ مفاجأة كاملة. فهذه الصديقة كانت حين بدأ الحصار في زيارة لأهلها في عمان وانسدّ سبيل عودتها إلى المدينة التي تعيش فيها. وقبل أن يتنحّى الوقعُ الآسر للمفاجأة السارة، ظهر زياد وهو يستكمل صعود الدرج بجسده الثقيل، فاكتسحت الجلبةُ التي تُلازم زياد أينما كان الدهشةَ التي جمّدتْ حركتي إزاء المفاجأة: "لماذا يسكن أصحابي جميعهم في طوابق مرتفعة، سيحلّ بي ما حلّ بالمتنبي، أبو الطيب برى الحبّ جسده، أما أنا فجسدي يبريه صعود الأدراج، وسيجيء يوم..." تشكّى زياد، ثم لاحظ أن هذا ليس وقته، فقطع تشكّيه بنفسه.

سألت لبنى عما مكنّها من اختراق الحصار. فشاء زياد أن يردّ هو، غير أني منعتُه بحركة من يدي حاسمة الدلالة. وردتْ هي بإيجاز: "جئت مع وفد الفنانين المصريين، عبر دمشق، بنفوذ الوفد وحمايته". فأثار الردّ فضولي. كنتُ قد عرفت ما نشر عن الوفد الذي أعلن أعضاؤه انهم يجيئون إلى بيروت كي يتضامنوا مع المحاصرين فيها. ولأني لم أتوقع حتى في خيالي أن يؤفر مجيء هذا الوفد الفرصة للبنى العزيزة، فإني تلقيتُ أنباء وصوله بقليلٍ من الاهتمام. وفد تتوسط سلطةُ بلده التي تقيم علاقات سلام مع إسرائيل لدى السلطات

الإسرائيلية وتحصل له على إذن باختراق الحصار، ما كان له أن يجتذب اهتمامي، ولا كان لوصوله أن يفتنني: "يرى غيري أن لمجيء الوفد المصري فوائد كثيرة، أما انا فلم اجد فيه ما يزيد عن الدعاية لأعضائه وللذين سهلوا دخوله. والآن أستطيع أن أنوّه بفائدة واحدة: قدومك إلينا معه".

ابنة الباشا هي، كما اعتدنا أن ندعوها كلّما تعمدنا استحضار الفارق بين منزلةِ أسرتها العالية وبين منازل أسرنا، أو هي ابنة السياسي الأردني واسع النفوذ وزوجته اللبنانية فائقة الجمال، كما هو واقع أمرها. فوق هذا، قبله وبعده، حظيت لبنى الأردنية بمنزلة خاصة عند الفلسطينيين. فهي أعطت عمرها لحركة المقاومة الفلسطينية؛ انتظمت في الحلقات السرية الأولى للمقاومة منذ راحت تتشكل في أوائل الستينات. كانت هي آنذاك طالبة في كليتها الجامعية، فالتقت بمن هداها إلى السائرين على الطريق الشاق ثم لم تفارقهم بعد ذلك. وعلى هذا الطريق، تعرفت لبنى على من جمعتها وإياه قصّةُ حبّ تجسّد فيها كلّ ما كان في المقاومة من رومانسية ووعود. ابنة الباشا الأردني وحبيبها الفلسطيني المنحدر من أسرة متواضعة توجا حبّهما بالزواج. وكانت هذه قصة أخرى مدوّية، إن أسخطت الباشا وجعلته يُقاطع ابنته فإنها بثّت في صفوف المقاومين رسالة ذات تأثير

خلاب. غير أن وقت هذا الزواج لم يمتد لأكثر من أسابيع قليلة. فالمقاوم الشاب نُدب لمهمة لم يمنعه من ادائها ان شهر العسل لم يكن قد اكتمل. وكانت تلك واحدة من المهمات الجليلة التي ذاع صيتُها، ليس فقط لأن اداءها تمّ على اكمل وجه، بل، ايضاً، لأن الذي اداها استشهد على يد كمين نصبه الإسرائيليون له وهو على طريق العودة إلى القاعدة التي أنطلق منها. منذ ذلك الوقت، عززت لبنى منزلتها بين المقاومين، ليس بوصفها أرملة الشهيد، بل بقرارين صممتهما معاً في وقت واحد: أن تواصل المشوار الذي بدأته مع المقاومة، المشوار الذي جمعها على مهاد الحب والزواج بالشهيد، وأن لا تتزوج مرة اخرى.

ومع تشبثها بقراريها هذين، تابعت لبنى تقدمها، في الشأن الخاص كما في الشأن العام، أتمّت دراستها الجامعية، وظفرت بالماجستير من جامعة بيروت الأميركية بدرجة أهلتها لأن تصير معيدة في هذه الجامعة، وبدأت جهدها للظفر بالدكتوراه. وفي غضون ذلك، حرصت لبنى التي يُقاطعها أبوها وأقرباؤه على اتّباع ما يبقي سمعتها ناصعة حتى بمقاييس أهلها الذين جافوها. هذا لم يبق بغير تأثير على الباشا الذي انتهى إلى تجديد صلته بالإبنة التي تستحق أن يفخر أبوها بها. وفي زيارتها الأخيرة لعمان، كانت لبنى عازمةً على البقاء مع الأسرة

وقتاً طويلاً، غير أن وقوع الحصار بدّل عزمها هذا. ولأن اختراق الحصار بدا متعذراً، فإن لبنى استنجدت بأبيها ليستخدم صلاته كي يُساعدها على العودة إلى بيروت. وأجهد الأب نفسه كثيراً وهو يحاول ثني ابنته عن اقتحام مخاطر يعرف هو حجمها على وجه اليقين. لكن هوس الانهماك في المهمة كان قد استحوذ على لبنى، ولم يعد في إمكان أحد تحريرُها منه. استسلم الباشا في نهاية المطاف لإلحاف ابنته، فطرق باب السفير الأميركي في عمان، واتصل بمعارفه في حكومة العاصمة المحاصَرة، واستعان بأعلى المراجع في دولته هو. وتلقى الباشا ممن اتصل بهم، كلّهم، وعوداً كان يُهدّئ بها توتر لبنى. لكن كلّ وعدٍ تلقاه الباشا تبعه بعد وقت قصير اعتذارُ الواعد بسبب العجز عن تحقق المطلوب: ملف لبنى لدى أجهزة الأمن الإسرائيلية لا يبيح لأي سلطة في إسرائيل أن تأذن لإبنة الباشا بدخول المدينة التي تؤوي المخربين الفلسطينيين. في إسرائيل الكلمة الأولى والأخيرة في هذا الشأن تملكها الأجهزة الأمنية، وليس بين ذوي النفوذ في إسرائيل من يتحدّى هذه الأجهزة من أجل أردنية أعطت حياتها لأعداء إسرائيل.

"تعقدت الأمور في صورة فظيعة"، قالت لبنى، واصفةً حالها حين راحت مشاعرها تنوس بين وعد لا يتحقق وبين وعد تالٍ لا يتحقق

هو الآخر. لم تعد لبنى قادرة على تصبير نفسها وتحمّل البقاء بعيدة عن مهوى الفؤاد، قال لسان حالها. "اشتد كربي، وساء حالي، وامتنع النوم"، كما وصفت هي هذا الحال. "باختصار...". الاختصار قدّمه زياد بعد أن تعذّر لجمه عن الحكي، توجهت لبنى إلى دمشق الأقرب إلى بيروت من عمان. وهناك، وجدت المشدودة إلى ما يجري في المدينة المحاصَرة معارف كثيرين منشغلين بما يشغلها. ومنذ حلّ الوفد المصري في دمشق في طريقه إلى بيروت، هرعت صديقتنا إلى نجمة نجوم الوفد، وحكت للنجمة حكايتها، وكسبت تعاطف الفنانة ذات النفوذ. وبنفوذ التي يتطلع الجميع إلى استرضائها، أعطت سفارةُ مصر للبنى جواز سفر يحمل إسماً غير اسمها، وادرجتها في قائمة أعضاء الوفد بصفتها صحافية. "وهكذا"، أضاف زياد، "بينما كنّا نحن هنا نتلظّى تحت لهيب الشمس ونار القصف، كانت ابنة الباشا في صحبة الفاتنة سامية حمدي في دمشق في فندق النجوم الخمسة، ثم في سيارة مكيفة الهواء نقلتها وهي معززة ومكرمة إلى بيروت." ولما لاحظ زياد أن وصفه المفخّم لم يُحدث في التأثير الذي توخّاه، فإنه وجه خطابه إلى صاحبة الحكاية: "قولي أنت له، كيف استقبلكم القائد العام فور وصولكم، وأين، ما الذي حكاه لكم، قولي أنت، فهو لا يهتم بحكيي انا"!

وجهت لبنى إليّ نظرة مستفهمة، فقلت، مؤملاً في أن لا نُضيع مزيداً من الوقت: "هذا روته الإذاعات بالتفصيل المملّ". فانتقلت لبنى إلى موضوع آخر: "في الطريق إلى هنا، رأيت الناس في الشوارع كأنهم في يوم عيد. احبّ ان ارى ما حلّ ببيروت وأنا غائبة عنها". فعقب زياد: "الناس فرحانون بوقف إطلاق النار، فرحهم لن يدوم". ويبدو أن التعقيب واءم لهفة لبنى، فوقفتْ متحفزة للخروج: "على هذا، لنبدأ فوراً، قبل أن يفتمّ الناس من جديد". ثم وجهت خطابها إليّ تحثني على الإسراع في الخروج: "بودي أن اسمع منك انت بالذات وصف ما حدث". ولم أجرؤ على الاعتراض، إذ كيف أعترض ولبنى هي التي طلبت!

مرة اخرى، صار عليّ أن اغادر الشقة قبل أن يجيء موزعو الماء. وصار لا بدّ من الاعتماد على الذي كنتُ قد نسيت وجوده ولم ينتبه هو الملتصق بالراديو في الحجرة مغلقة الباب إلى وجود الزائرين. فاستنفرتُ قدرتي على الصبر، ودخلتُ الحجرة المنفّرة، وشرحتُ للمفاجأ بدخولي ما الذي ينبغي عمله للحصول على الماء، ثم خرجتُ من الحجرة بأسرع ما استطعت.

والواقع أن رغبة لبنى أجّجت توقي أنا الآخر لمعاينة ما أصاب المدينة بإمعان. فغياب المواصلات العامة، والافتقار إلى سيارة،

وكثرة المشاغل، تضافروا مع القصف المتواتر، فرسموا لحركتي داخل الحصار دروباً محددة، قليلة في واقع الأمر، وقلّما أتيح لي أن أتخطاها: فكنت، إذاً، مثلي مثل التي غابت عن المدينة، بحاجة إلى أن أرى الكثير. ويبدو أن معظم الذين فاضت بهم الشوارع في ذلك اليوم كان مدفوعاً بالحاجة ذاتها.

حملتنا سيارة زياد، وأمكن أن نقطع بها شارعاً، وبعض آخر، ثم صار من الصعب أن نتقدم. نُدرة السيارات أباحت للسائرين على أقدامهم أن يشغلوا الشوارع، ليس بطولها فقط، بل بعرضها أيضاً. فصعب على السيارة التحرك وسط سيل البشر، وصار ظهورها يثير سخطهم، وصاروا هم يُمطروننا بالتعليقات المحتجّة، والساخرة، والمتهمة أيضاً. فعمدنا إلى وقف السيارة على جانب الشارع، وجُلنا على الأقدام في الجوار. ولأننا لم نجرؤ على الابتعاد عن السيارة التي لا يقف في المنطقة سواها، فقد رجعنا إليها، وتحركنا بها من جديد، فتكررت المزعجات. وكان زياد هو أول من اشتكى: "وقوفٌ وإقلاعٌ وسواقة بهذا البطء، على الأول والثاني دائماً، دقائق أخرى ولن تبقى في سيارتي نقطة بنزين واحدة، وما الذي ينوبنا: سخط الناس وتعليقاتهم المغيظة". وكان أن اقترحت أنا أن نرجع إلى حيث أسكن، "نترك السيارة أمام البناية، ونتجول على الأقدام إلى أن يجد زياد

جديداً يشكو منه".

كنتُ محظوظاً لأني رجعتُ لحظة كان مُوزّعو الماء يهمّون بالانصراف. وما أشد ما اغتبط أبو طانيوس بظهوري الذي لم يتوقعه: "خبطتُ على بابك فلم يرد أحد". وصار علي أنا أن أتدارك الأمر. وإزاء الحاجة الماسة التي تبسّطتُ في شرحها لهم، انتخى موزعو الماء وقبلوا الانتظار إلى أن أجيء بالأواني.

"لم اسمع خبطاً على أي باب، هل قال لك إنه صعد إلى الطابق الخامس، لماذا تُصدّقه هو وتشك فيّ، أنا صديقك، لماذا لا يكون كاذباً". قدّم عبد الرزاق عذراً هشاً وقرنه باتهام شنيع للرجل الطيّب، دون مبالاة. فلما انتبه إلى أني اكظم غيظي وقرأ ما بثته تعابيرُ وجهي ووجهيَ صاحبيّ إزاء سلوكه، فإنه قدّم عذراً مختلفاً: "لعلي غفوتُ وأنا أسمع الراديو، أنا لم أنم كفاية في الليلة الفائتة". نسي الممعن في لامبالاته ما قاله لي في الصباح من أنه نام مبكراً، فذكّرته به، فلم يضطرب: "هو إذاً، على الأغلب، صوتُ الراديو، تعرف، البطارية عتيقة، والصوت يُخشخش".

خشيت لبنى وقوع شجار، فقالت بما يشبه الهمس إن في سكنها الجامعي ماء وكهرباء، وأضافت أن المسبح مفتوح، والمطعم يُقدم

خدماته، وأغوتني: "إنها الجامعة الأمريكية، تعرف، وأنا ابنة الباشا، بإمكانك أن تستفيد من هذا كلّه، بالرغم انك تكره اميركا ولا تحب ايّ باشا"! فاستسلمتُ للغواية. العرض الذي فاق حتى ما كنت أحلم به هدّأني. فأغفلتُ ما كنّا قد عزمنا عليه، وهو ما بدا أن لبنى نسيته فلم أذكرها به. أما زياد فبدا مرتاحاً: "أستطيع، إذاً، ان انصرف، فعليّ أن أتدبّر البنزين للأيام القادمة".

ذهبنا اولاً، إلى معهد الدراسات. أديت أنا الواجب الروتيني. وسلمتْ هي على أصحابها الكثيرين. ظهور لبنى المفاجئ صار هو حدث اليوم، كما وصفه صديق لها. صديق آخر اشتط في الوصف فجعله حدث الحصار. والاحتفال الذي ارتُجل ارتجالاً للحفاوة بمخترقة هذا الحصار صارت له سمةُ المظاهرة: اقتحمت الأردنية المقدامةُ الأخطار دون أن تكون ملزمة بالمجازفة، فاستحقت التكريم.

في المدينة الجامعية، بدا الحال مختلفاً عن حال أيّ مكان آخر في المدينة، أو لأقل إن كل شيء بدا كما كان عليه قبل الحصار: الحدائق، ورودها وأعشابها وأشجارها، وكلّ ما تشي نضارته بوفرة الماء وانتظام العناية، والأبنيةُ المتألقة، والخدمات المألوفة، المنتظمة والفاخرة في واقع الأمر، وحركةُ الغادين والرائحين التي لا تعجُّل فيها ولا اضطراب، وكلُّ ما يُظهر أن الحصار لم يُلقِ أثقاله على

هذا المكان. كانت منطقة الجامعة الأمريكية هذه جزيرة مكتملة البهاء، واحة نضرة وسط الخراب المحيط بها، واحة كبيرة في واقع الأمر، أيضاً. هل قلتُ البهاء؟ عليّ أن أضيف: والأمان. شمل الحصار الجامعة الأمريكية بما هي جزء من غرب بيروت، لكن المحاصِرين تجنبوا توجيه قذائفهم العشوائية وغير العشوائية نحوها وأذنوا لشاحنات بعينها أن تخترق الحصار وتجلب إلى الجامعة كلّ ما لزم لاستمرار مألوفها: الوقود، والمأكولات، والمشروبات، والأدوات، وما إلى ذلك، كلّ ما لزم. ويبدو أن كثيرين ممن حملهم التباهي وحده إلى التطوع لمقاومة الحصار قد انتبهوا إلى مزايا المكان، فانضاف إلى الطلاب والأساتذة المقيمين في المدينة الجامعية وزوارهم مسلّحون يجولون في المنطقة بأسلحتهم اللامعة وهندامهم الأنيق، ويصطنعون حركات وأوجه تعبير مما يتصورن أنها هي اللائقة بهذا الجو. ولأعترف: بعض هؤلاء كان من معارفي، وبينهم من كانوا حتى من الأصدقاء.

وما أن ولجنا، لبنى وأنا، مدخل الكافتيريا المكتظة بمن قدموا لتناول الغذاء، حتى أقبل كثيرون علينا، بعضهم ليسلّم على لبنى، وبعضهم ليسلّم عليّ، وآخرون ليسلموا علينا كلينا. ما أعجب طبيعة الإنسان! يضيق الواحد منا بما يفعله سواه حتى وهو نفسه يفعل الشيء ذاته.

فأنا الذي جئتُ إلى المكان لأتمتع بمزاياه، ضقتُ بوجود الذين جاءوا للغرض ذاته. ولأن لبنى التقطت ردّ فعلي، فإنها تعجّلت تحريري من الحشد الملتفّ حولنا. وما أن فرغنا من تناول الطعام حتى نهضت هي واقفة وقالت على مسمع من المحيطين بنا، بنبرة من يخشى أن يتأخر على موعد ارتبط به: "لم يبق لدينا وقت". والتقطتُ أنا الإشارة فتبعتُ محررتي.

في الشقة الأنيقة المخصصة للمعيدة في الجامعة، طلبتْ لبنى أن اتصرف كأني في منزلي. وفيما هي منصرفة إلى إعداد قهوتنا، استحوذتُ أنا على الحمام. ولقد ظفرت يومها بأول استحمام كامل اتمتع به منذ بدأ الحصار، مغطس، ودوش، وماء دافئ وفير، وترتيب واناقة ونظافة. ومع القهوة فاجأتني مضيفتي الحفيّة بي بما لم أتوقعه: "قابلتُ زوجتك في دمشق". جاءت ياسمين إلى دمشق في ركاب الممثلة المصرية الكبيرة، فعرفتْ أن صديقتنا الأردنية، كما الفت زوجتي أن تدعو لبنى، موجودة في المدينة فالتقتها. وفي اللقاء، بثّت ياسمين شكوى: "حكت أشياء، كيف أقول، أنا أعرفك فلم أصدقها، لكنها تحكي لغيري". يبدو أن ياسمين التي لامها كثيرون لتركها إيّاي أثناء الحصار قد روّجت أشياء تُبرّر فرارها وتجعله فراراً مني وليس من أخطار الحصار. وهذا هو ما حمل التي لا تتدخل عادة

في خصوصيات أصدقائها إلى التطرّق لهذا الموضوع: "أنا قلقة على سمعتك، الحكايا المسيئة يتداولها الناس ويضخمونها". ولكي أوقف ما لا أحبّ المضيّ فيه، عمدتُ إلى تهوين الأمر: "الزوجة المأزومة يمكن أن تقول أيّ شيء، الناس يعرفون هذا، فانسي الحكاية"!

أدركتِ التي لا تُعوزها الفطنةُ رغبتي، واستجابت لها دون لجاجة: "هل ما زلت تُحبُّ الاستماع إلى الموسيقى". حزرتْ هي أني حُرمتُ من هذه المتعة منذ انقطاع الكهرباء، فقدمت العرض الشيّق. لكني كنتُ في تلك اللحظة تواقاً إلى متعة أخرى أتحرّق للظفر بها، متعة لم تفطن هي إليها. كان وقت المونديال قد أوشك على أن يبلغ نهايته، وكانوا سيبثون المباراة قبل الأخيرة، وها هي فرصةُ مشاهدتها قد لاحت حيث توفر الكهرباء والتلفزيون: "أفضّل مشاهدة المباراة".

انشدادي إلى المباراة حتى انتهائها أخرني عن موعدي اليومي في شقة الإذاعة. لكن لبنى المتفهمة دوماً استعارت سيارة زميلة لها، ابنة باشا لبناني كما وصفتها، وأوصلتني بها إلى الشقة. وقبل أن تفارقني، أوصتني التي بلغ صفاء مزاجها تمامه بأن أهيء نفسي لمفاجأة، ستجيء هي ومعها زياد إلي بعد انتهاء عملي في الجريدة: "سنأخذك إلى حيث تنتظرك هذه المفاجأة، ولك أن تعرف منذ الآن أنها ستكون

سارّة:

فرغتُ من أداء واجبي اليومي في شقة الإذاعة بأعجل ما استطعت. وفي الجريدة، التأم الحشدُ المسائي المعتاد، الصحافيون المحترفون، والمتطوعون مثلي، والزوّار. وتُدولت شتى الأنباء، ومُخِضت الآراء الكثيرة، كما في كل مساء. أما الجديد العام فكان مغزى ثبات وقف إطلاق النار بعد موجة القصف الذي اشتد في الأيام الأخيرة، وهل هو دليل على قرب إبرام اتفاق فك الحصار والخروج، أو هو استراحة ستتلوها جولةٌ جديدة. وأما جديدي الخاص فكان هو انهماكي في الجدل بحيوية، أنا الذي كففتُ منذ بعض الوقت عن الانهماك في جدل المجالس. والمقال الذي كتبته بعد هذا أوجز رأيي: لن تُدمّر هذه الحرب منظمة التحرير الفلسطينية، وإذا توجب أن يخرج مقاتلوها من البلد فسيخرجون بنظام وكرامة، وستبقى لهم القدرةُ على مواصلة مشوارهم، تماماً كما حدث في كل مرة أجبروا فيها على الانتقال من مكان إلى مكان آخر.

وفيما أنا أتهيأ لمغادرة الجريدة، عرض رئيس التحرير أن أصحبه إلى سهرة يُقيمها القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية، كما هو اللقب الأول لمن صار رئيس القيادة اللبنانية الفلسطينية المشتركة، أيضاً، احتفالاً بالوفد المصري. أوضح الأستاذ جلال هذا، ثم أضاف أنه تلقى

دعوتين: واحدة باسمه هو، والثانية لمن يختاره هو من كتّاب الجريدة. ويبدو أن رئيس التحرير الذي خصّني دون غيري بهذه المزيّة تصوّر أني سافتن بها. ولعله اراد ان يُكافئني، انا الذي اكتبُ لجريدته دون مقابل. فلما اعتذرتُ عن قبول الدعوة، فإن صاحبي لم يُخف دهشته الشديدة، القائد العام نفسه، وهو من جعلته مقاومة الحصار أسطورة في الثبات أمام قوة متفوقة، وزعماء البلد، ونخبة مثقفيها، وهذا السربُ من فنانات مصر وفنانيها الكبار، وهذه المناسبة التي يرى الأستاذ أنها فريدة، كلّ هذا، فأيّ عذر يمكن أن يُبرر الغياب عنها.

في تعداد مزايا السهرة، اكتسى صوتُ الأستاذ جلال حدّةً وشت بحنقه إزاء رفضي، فأحنقني بدل ان يغويني. انا لم اتوقع أن يتجاوز الأمر تقديم عرض وقبوله أو رفضه. اما وقد جعل صاحبي من مسألة عابرة موضوعاً لجدل حانق، فقد ارغمني على عرض أسبابي. فذكرتُ ارتباطي بموعد مسبق، ورفضي أيّ دعوة ليست موجهة إليّ باسمي. ثم تبسطتُ في شرح السبب الذي أعدّه أهم الأسباب، السبب الذي حملني على ذكره الحماس الزائد للسهرة الذي أظهره الأستاذ جلال: فأنا أبغض التنافق المصري الفلسطيني، هذا الذي يُمارسه ناس من الجانبين ليستروا خللاً في العلاقة بينهما لا يقرّ أيّ منهما بوجوده.

كان بمقدور مُوبدي الفلسطينيين في مصر أن يُقدموا للمحاضَرين دعماً أهم من هذه الزيارة الاستعراضية. "تصوّر" قلتُ للذي استفزّني حنقُه، "لو أن هؤلاء النجوم نظموا اعتصاماً في القاهرة، لو أنهم حثّوا جمهورهم على التحرك ضد حكام بلدهم المتهاونين إزاء ما تفعله إسرائيل، ألم يكن هذا أنفع من مجيئهم بإذن إسرائيلي وفرّ لهم هؤلاء الحكام فرصة الحصول عليه".

جاء صديقاي إلى حيث انتظرتُهما قرب مبنى الجريدة. ومن هناك، توجهنا على الأقدام إلى المكان الذي قال زياد إنه غير بعيد. وقدمت لبنى إيضاحاً: "نحن ذاهبون إلى المدرسة الإنجيلية". فقلتُ، متصوراً أنها لم تعرف، إن الهلال الأحمر الفلسطيني جعل هذه المدرسة التي تحميها هويّتها الدينية من القصف مقراً لإدارته، "فما الذي سنفعله في مدرسة دينية صارت في الحصار مقراً لهلال أحمر". فردّت لبنى، مصرة على الاحتفاظ بسّر المفاجأة، بأن كثيرين غيرنا سيجيئون، ثم أكدت: "عشر دقائق على الأكثر، وستعرف بعدها كلّ شيء، وتُسرّ".

ما عرفته بعد دقائق لم تبلغ العشرة لم يسرّني. فعند مدخل المدرسة الخارجي، وقع نظري على أشخاص من حرّاس القائد العام لا يظهرون مجتمعين إلا حيث يكون هو. "غريب". أظهرت دهشتي قبل أن أفطن لما كان من اليسير أن أفطن له، وأضفت: "القائد العام نظّم

سهرةً للوفد المصري، وحزاسه هنا، فكيف..؟" ولم أحتج إلى إتمام العبارة، إذ كنا قد بلغنا مدخل البناء الرئيسي، فرأيت المرافق الشخصي للقائد العام، فأدركت أن هذه هي، إذاً، المفاجأة.

وسط ضجيج الحشد، لم تنتبه لبنى إلى نبرة العتب في صوتي حين انتقدت إقحامي على السهرة دون استئذاني. ظنّت الصديقة أني أستفهم عن شيء، وردّت على هذا الأساس: "عرفتُ من سامية حمدي أنها تحمل رسالة لك من زوجتك، فوعدتها بأن أجيء بك هذه المساء". حُنقي فاقمه تحسّبي الحرجَ الذي سأعانيه حين يجدني الأستاذ جلال في سهرة رفضتُ أن أصحبه هو إليها وبنيتُ رفضي على حيثيات كثيرة. الحنقُ والتحسّبُ أنبتا قراراً نفذّته فوراً. كان زياد منصرفاً إلى الهذر مع هذا وذاك من معارفه. فاستوقفتُ لبنى المتجهة نحو الصالة، وقلتُ لها على عجل: "تمتعي بالسهرة، أنا ذاهب"!

فقدتُ فرصة العودة إلى منزلي في سيارة زياد. فصار علي أن أعود ماشياً في الشوارع التي تجمّد فيها الظلام. ولأني أفرطتُ في التدخين، فإن عيدان علبة الكبريت نفدت. وحين بلغتُ بنايتي، توجّب أن أتحسس طريقي إلى الطابق الخامس تحسساً. وفي الوضع الذي كنتُ فيه، فقدتُ الإحساس بعدد الطوابق. ولما لم يكن

من اللائق أن أجرّب مفتاحي على غير هدى، فإني لم أجد بَداً من العودة إلى مدخل البناية وتكرار الصعود مع الانتباه إلى العدد.

المزاج الذي رؤقته مُتع نهاريِ عكّرته، إذاً، ملابسات هي في آخر الأمر سخيفة. وبالمزاج المعكر، توجب أن اهتدي في الظلام المطبق إلى فتحه قفل باب الشقة كي أضع فيها المفتاح دون إثارة ضجّة. حرصي الزائد أسقط المفتاح من يدي. وكان من حسن الحظ أن المفتاح لم يسقط على الدرج، بل استقّر على المساحة بين باب شقّتي وباب شقة الجارة. لكن هذا لم يجعل أمر العثور على المفتاح سهلاً. وتوجب أن أبرك على ركبتيِ واتحسس ما حولي بكفّي يديَ كلتيهما. وقد طال التحسّس، وطال معه زحفي على ركبتيَ في شتى الاتجاهات، دون أن يُفصح المفتاح اللعين عن مكان وجوده. ولكثرة ما درت على تلك المساحة الضيقة، فقدتُ الإحساس بالاتجاه، فتوجب عليَ: إلى كل ما توجب من قبل، أن أتحسس بعد كل دورة طريقي إلى بداية الدرج، أو إلى باب المصعد، حتى أتمكن من إعادة تقدير الاتجاه، لأدور بعدها من جديد وافقده مرة أخرى.

في الختام، كان لا بدّ من أن أخبط على الباب، فخبطتُ. وامتد خبطي دهوراً، حتى لقد يئستُ من أن يصحو عبد الرزاق إن كان نائماً أو يخترق الخبط أصوات مذيعيه العبريين إن كان صاحياً. وحين

كدتُ أتخذ قراراً بالذهاب إلى السهرة التي فررت منها، سمعت نأمة واعدةً، وانفتح الباب: عبد الرزاق يُغالب النوم العالق في عينيه، وشمعةً في يديه أكلت الشعلةُ معظمها.

كان عليّ أن أشكر الذي اخترقتُ نومه. غير أنك لا تتعجل أداء واجب لا تتحمس له. وفي لحظة التأني، جبهني ما كاد يُسلمني إلى الإغماء: شموع مشتعلة هنا وهناك وقد كادت شعلها تبلغ قيعانها، وشموع أكثر أكلت الشعل فتائلها فانطفأت.

داهمني دوّار لم يبلغ بي حدّ الإغماء. والدوّار هو ما لجم انفجاري في وجه الذي بدّد هذه المرة احتياطي العزيز من الشموع. فتأنيتُ إلى أن خفّ عصفُ الدوار. وغالبت حنقي وجمجمتُ بكلمة شكر، واتجهتُ نحو الشرفة، وألقيتُ جسدي على مقعدي فيها، بأمل أن تحررني الراحة مما حلّ بي.

"لم أستطع أن أرجع إلى النوم"، قالها عبد الرزاق الذي جاء إلى الشرفة، ثمّ أجلس نفسه قبالتي، ووضع بيننا الشمعة الجديدة المشتعلة التي جلبها. وفي حركة جسده، قرأتُ أن في فم صاحبي كلاماً يوّد إطلاقه لكنه متحرّج. "ما الأخبار"؟ كانت هذه منه فاتحة باهتةً لم تجتذبني، فبقيتُ صامتاً حتى بعد أن كررّ هو السؤال.

ويبدو أن العازم على اجتذابي إلى الكلام ظنّ أني لم أسمعه، فرفع صوته: "سألتك عن الجديد في الأخبار". ولكي أتجنب ما بدا لي أنه يحاول استدراجي إليه، قلتُ لعبد الرزاق بنبرة مقرّعة: "عندك الراديو الذي لا تفارقه، فلِمَ تسألني عن الأخبار". وسواء فطن أو لم يفطن لما يدور في داخلي، فقد قدّم شرحاً: "أتابع البرامج العبرية، أنا أسألك عن أخبار الجانب الذي نحن فيه، الأخبار التي لا توردها الإذاعات". وإزاء هذا الإلحاح، اشتدت رغبتي في تقريع الذي لا يردعه التقريع المبطّن: "لماذا تحبس نفسك في المنزل، ما الذي يمنعك من أن تذهب بنفسك إلى حيث أذهب وتستقصي الأحوال". ويبدو أن هذه هي التي حققت ما أردت. فقد صمت عبد الرزاق لحظات أشتد فيها تململه على الكرسي، ثم وقف: "واضح أنك لا تريد أن نتحادث". بثّ الواقف اعتراضه، ولعله توقع أن أقول أنا شيئاً يُطيّب خاطره، ولما بقيتُ صامتاً فإنه انسحب. وتوقعت أن يجيئني صوت الراديو. لكن راديو عبد الرزاق بقي صامتاً.

(5)

صحوتُ حتى أبكر مما ألفتُ منذ بدأ الحصار. انتزعني من النوم هاجسٌ مداهم: نهارُ وقف إطلاق النار وليلُه الاستثنائيان انقضيا. والقصفُ سيُستأنف في الخامسة. وما دام أن المفاوضات تتركز على اللمسات الأخيرة ذات الدلالات الرمزية الحساسة، فمن المتوقع أن تشتدّ الضغوط فنشهد يومَ قصفٍ آخر بالغ القسوة.

أردتُ أن أوقد شمعة، فتذكرتُ أن عيدان الكبريت نفدت. ولما لم أجد من اللائق أن ألجأ في هذا الوقت إلى الجارة، فإني بقيتُ في فراشي بانتظار أن يتيح لي ضوء الفجر إبصار ما حولي. وحين أجلى الضوءُ بعض العتمة، توجهتُ أول ما توجهتُ إلى المطبخ، ناوياً أن أعالج الفوضى والقذارة اللتين تصورتُ أن نزيل شقتي المهمل قد أحدثهما في اليوم السابق. ولدهشتي، أنا الذي لم أدخل هذا المطبخ حين رجعت إلى المنزل مساء اليوم الفائت، وجدتُ كلّ شيء في مطبخي في مكانه، مرتباً ونظيفاً. ولأني خشيتُ أن يكون عبد الرزاق قد استنفد الماء ليسرّني بالنظافة، فإني تعجلتُ تفقّد الخزّان، فاكتشفتُ أن خشيتي لم تكن هذه المرة في محلها.

وقت الانتظار استثمرته في تجميع بقايا الشموع وحث ما التصق

منها بالأرض والمناضد وحوافّ النوافذ، العمل الذي أعاد تذكيري بما يُضايقني. غير أن انتظاري أن يصير الوقتُ ملائماً لطرق باب الجارة لم يطل. فقد طرقتْ هي بابي قبل أن أتخذ أنا المبادرة. صَحت هي الأخرى مبكرة؛ أيقظها الهاجس ذاته الذي أيقظني؛ وافتقدت السكّر، هي التي تشربُ قهوتها محلّاةً بكثير منه، فجاءت تطلبه. وهكذا، تكرّرت المقايضةُ وظفرتُ أنا بعيدان الكبريت. غير أني لم أفتقر هذه المرة إلى الفطنة التي افتقرتُ إليها في المرّة السابقة: "بودّي أن نشرب القهوة معاً على شُرفتي، إن كان هذا لا يُضايقك". ولأن الرضا الذي شعّ من عينيها قدّم إجابتها قبل أن تفوه بها، فقد أكملتُ: "سأعدّ قهوة لكلينا". لحظتئها، قالت هي: "بسرور"، قالتها بالإنجليزية، ثم وقفت بجانبي أمام طباخ الغاز.

بعد أن قرّب الحصار بيننا، صارت هي تخاطبني باسمي المفرد. أما أنا فقلّما فعلتُ هذا، إذ أني فشلتُ في تبديل عادة مخاطبتها باسمها العائلي. ويبدو أن هذا كان يُضايق السيّدة طيّان، وأغلب ظنّي أنها عدّته تحفظاً مني إزاء رغبتها هي في رفع الكلفة. دعوتي إيّاها إلى مشاركتي القهوة، في توقيتٍ لا يلتقي فيه حتى الأصدقاء الحميمون، شجّع الجارة السعيدة بالدعوة على البوح بما يضايقها. وفيما هي واقفة بإزائي، وقد ركنت كفها على كتفي في حركة

متوددة وأنا أترقب فوران الماء لأضيف إليه البن، وحين خاطبتُها متبعاً عادتي بذكر اسمها العائلي، واجهتني هي بابتسامة عتاب ورجاء: "الستّ طيّان، الستّ طيّان، تجعلني أتصور أنك لا تعرف اسمي، فلتعرفه، أمي وأبي سمياني نورما"! فقلتُ بنبرة توخيتُ أن تجيء مرحة: "صباح الخير يا نورما"، وأمسكتُ يدها المستريحة على كتفي وقربتُها من فمي وطبعتُ على ظاهرها قبلةً توخيتُ أن تكون رشيقة. أردتُ أن أنحّي ضيق العازمة على التقرب مني، دون أن يُلزمني ما أفعله أيّ التزام حدستُ أنها تريده. غير أن ردّ فعل التي غمرتْ وجهها موجةُ فرح عارمة فاجأني؛ فقد احتضنتني احتضان امرأة شبقة، وألصقتْ جسدها بجسدي، وشدتني إليها بذراعين اتضح، بالرغم من نحولهما، أنهما قويان، وتوالت القُبل.

داهمتني على غير توقع رغبةُ امرأةٍ بشبقها، فلم أعرف كيف أتصرف، أأستجيب أم أتمنع. لا شك في أن حركة نورما شاقتني. وأين هو الرجل الذي لا يشوقه أن تشتهيه إمرأةً وتبادر هي إلى إظهار شهوتها. واحتكاك الجسد بالجسد فيما كلانا بملابس النوم هيّج شهوتي أنا المختزنة. لكن، لا الوقت، ولا الظروف، ولا المكان، كانوا مما يأذن بأن تتحرر استجابتي من التحفظات. ومع تحفظات الوقت والظرف والمكان، حضر ما ألزمتُ نفسي إيّاه منذ سنوات؛ فعلى كثرة

ما تنقلتُ من بلد إلى آخر، من مجتمع إلى غيره، من مسكن إلى سواه، فإني حرصتُ في كل مكان على تجنّب إقامةِ علاقةٍ حميمة مع جارة. وحتى حين اشتدت حاجتي مؤخراً إلى ممارسة الجنس وبدأت السعي لاجتذاب إمرأة إلى الفراش، لم يخطر لي أن أدرج السيدّة طيّان في عداد من سعيت لاجتذابهن. أما وقد اتخذتْ هي المبادرة، فقد تنازعني حِسّان: الشهوة المستثارة، والتحسّب الملجم. استسلمتُ للذراعين اللذين يهصران جسدي ويفكّكان تمنعي، ولرحيق الشفتين اللتين تزقانني ما يُوهن التحسّب. لكن فوران ماء الغلاّية الذي أطفأ وقدةَ الغاز أحدث طشيشاً أعادني إلى ما أقيّد نفسي به ووفر لي الذريعة، فتملصتُ من ذراعيّ نورما، وشغلتُ نفسي عنها بمواصلة إعداد القهوة.

في الشرفة، جلستْ نورما على كرسيٍ بجواري وليس قبالتي، فوشى اختيارها هذا بعزمها على الإمعان في ما بدأته. أما انا فعاودني البلبال، وإن تجنبتُ أن أصدم مشاعر الأنثى التي لم تنطفئ شهوتُها. وقبل أن تهتدي التي لا بدّ من أن تُحفظي بلبلها هي الأخرى إلى ما يمكن أن تفعله أو تقوله، اصطخب جوّ المدينة بأصوات الانفجارات التي تلاحقت بوقعٍ ووتيرةٍ غير مسبوقين. ولئن أمكن أن أظل متماسكاً، أنا الذي ألفتُ أن يبدأ القصف النهاري الصاخب وأنا أشرب

القهوة على الشرفة، وأن يظل فنجاني في يدي، فإن نورما ارتعشت وطفح من فنجانها بعضُ ما فيه. وهممتُ أنا بقول شيء يُساعد التي بدا لي أنها تُحاول إخفاء ارتعاشها. لكن صاروخاً أطلقته طائرةٌ مغيرة سبقني واخترق بناية مقابلة لبنايتنا وانفجر داخل شقة كنا نرى شرفتها من شرفة شقتي، فلجم الانفجار ما هممتُ به. وفي اللحظة التي حفزني هذا الانفجار على الوقوف، وقبل أن أستوي واقفاً، كان الجسد الذي لم تُفلح صاحبته في السيطرة على ارتعاشه قد أعادني إلى مقعدي وحطّ في حُضني. وراح ذراعا نورما يتشبثان برقبتي، كأنهما يَنشُدان الحماية. فأحطتُ الملتجئة إليّ بذراعي، متوخياً أن أوفر لها الإحساس بالأمان. هل قلتُ: لها؟ الأصح أن أقول: لنا كلينا.

لم أدر كيف حدث هذا. بل إني لم أحسّ بما جرى إلا إحساساً غامضاً، لكأنه مشهدٌ في حلم انقضى. كنتُ ذاهلاً. واستمر ذهولي لحظات لم أدرك كم امتدت. وما أخرجني من ذهولي في آخر الأمر كان هو صوت عبد الرزاق: "ظننتُ أن بنايتنا هي التي أصيبت". وحين استعدتُ انتباهي، أدركتُ أن زجاج الشرفة تكسر ما عدا زجاج بابها الذي سلم لأن الباب كان مفتوحاً. ورأيتُ كيف اضطرب كل شيء في الشرفة. وكانت نورما ما تزال ترتعش، فنقلتها من الشرفة ومدّدتها

على الصوفا القريبة وقعدتُ على الحافّة بجانبها محاولاً تهدئتها. غير أن الارتعاش اشتد وتحول إلى اهتزازات تتواتر عنيفة وترفع الجسد عن الصوفا وتعيده إليها. أما ما نفع في آخر الأمر فهي موجةُ البكاء التي داهمت المرأة في اللحظة التي ظننتُ أنا أنها استعادت انتباهها، فشجعتها على الاستجابة لدافع البكاء. وأضافتْ هي النحيب. ثم لم يلبث أن تحوّل البكاء والنحيب إلى نهنهة راح إيقاعُها يخفتُ أولاً بأول، وراحت تتخللها عبارات تفوه هي بها. ولم يلبث أن أدركتُ أنا أن نورما تعرف السيدة التي فجّر الصاروخ شقتها وتستفهم عما إذا كنتُ أنا الآخر أعرف هذه السيدة.

كانت سيّدة الأسرة التي تسكن الشقة فلسطينية من معارفي ذات إسم مشهور في قيادة الاتحاد العام للنساء الفلسطينيات، ممّن كنتُ كثيراً ما ألتقيهن في المحافل العامة. وفي محفل ضمنا قبل أسابيع قليلة، قادنا الحكي على الحماية اللازمة للشخصيات الفلسطينية إلى الحديث عما اتخذته هي من تدابير الحماية. فقالت التي لا تغالي عادة في الحديث عن نفسها إنها تعتزم الانتقال من شقتها المعروفة لكثيرين إلى مكان آخر، ولم تأذن بأن يطّرد الحديث حول هذه المسألة. وقتها، لم أكن أعرف أن شقة هذه السيدة قريبة من سكني إلى هذا الحد. ولأني كنتُ بحاجة لقول ما يُهدئ روع نورما، فإني

تبرعتُ بالمعلومة التي لم أكن على يقين من صحّتها: "الشقة خالية، السيدة وزوجها والأولاد غادروها منذ بعض الوقت، عرفتُ هذا منها شخصياً، فاهدئي"! والمدهش ان نورما هدات فعلاً، حتى لقد تصورتُ انها اغفت، فأحضرتُ ما غطيتُها به، أنا الذي انتبه لحظتها فقط إلى غريها، وطلبتُ من عبد الرزاق ان يتجنب إحداث أي ضجيج.

ما قلتُه لنورما لم يطفئ هواجسي انا، ماذا لو أن السيدة عَليّة لم تنتقل إلى المكان الآخر، ماذا لو أنها انتقلت ثم رجعت إلى شقتها في يوم وقف إطلاق النار، لسبب او آخر. تواتر سيارات الإسعاف التي هرعت إلى المنطقة أجج الهواجس. فوجدتني في الشرفة من جديد، محاولاً استخلاص شيء من المشهد الذي أطلّ عليه. فلما رايتُ المسعفين وهم يلجون بحمالاتهم مدخل البناية المنكوبة، فقد اشتدّت ريبتي، ولم يعد في مقدوري ان ألجم قلقي. فوجدتني اتعجل الوصول إلى حيث يمكن ان اتقصى الحقيقة.

كان المسعفون قد فرغوا من إخلاء المصابين الذين أمكن الوصول إليهم. وكانت سيارات الإسعاف قد بدأت حركتها. فتلقيتُ الإجابة من المحتشدين أمام البناية: الشقة التي اخترقها الصاروخ كانت مخلاةً فعلاً. لكن الانفجار لم يُدمّر هذه الشقة وحدها، بل دمّر وعطب شققاً

اخرى في محيطها، فوقها وتحتها وعلى جوانبها. ومن نقلتهم سيارات الإسعاف هم سكان هذه الشقق، قتلاهم وجرحاهم الذين لم تطمر الأنقاض اجسادهم. واحد من المحتشدين، وقد ادرك من لهجتي اني فلسطيني وعاين شدّة فضولي، قال بنبرةٍ اجتهد في ان لا تبدو متذمّرة: "نجت الست عليّه، لكن، أنظر، اربعة شهداء وتسعة جرحى، ولا نعرف عدد الذين تطمرهم الأنقاض، كلهم لبنانيون وكلُّهم ابرياء". وآخر عقّب: "سنعرف العدد بعد أن يجيء ناس الدفاع المدني، لكننا لا نعرف متى يجيئون. فمع هذا القصف المجنون، الدمار يحلّ في كلّ مكان". نجت التي يعني أمرها نورما ويعنيني ونجا اعضاء أسرتها. لكن هذه النجاة لم تحمل لي أيّ مسرة. وكيف يمكن ان أسرّ بنجاة شخص اعرفه هو حين اعلم ان آخرين حوله قد هلكوا!

أمام بنايتنا، كان أبو طانيوس ومن هرعوا لمساعدته قد انهمكوا في تجميع نثار الزجاج الذي حطّمه الإنفجار. وقد تلقاني الرجل بتحية الصباح المألوفة فيما هو منصرف إلى العمل، فكأن شيئاً استثنائياً لم يقع. وقد ابتسم صاحب الوجه الذي تشعّ منه الطيبة، وقال ليطمئنني: "الشكر للربّ، في بنايتنا لم يُصب أحد". ولم يَطِبْ لي لا الشكر ولا المعلومة. غير اني لم ألُمْ احداً، بل جاريتُ البواب حتى لا

أشغله بما يشغل فكري أنا: "في بنايتنا جاءت في الأشياء وليس في الأرواح، الأشـياء يمكن تعويضُها". وكيف ألوم بواب بنايةٍ على ارتياحه لنجاة سكانها مما فتك بسكانٍ في بناية أخرى. ألم يكن معظم المحتبسين في أتون الحصار قد بلغ هذه النقطة. وأنا نفسي، ألم أنته إلى التعامل مع وقائع المأساة، هذه المستمرة منذ ما يقرب من ثلاثة شهور، على أنها وقائع روتينية أوشكت أن تصير مألوفة!

في شقتي، كانت نورما ما تزال غافيةً على الصوفا، وكان تنفسها منتظماً، ما وشى بأنها تجاوزت حالة الهلع التي هزّتها. وكان عبد الرزاق في حجرته مُسلماً أذنيه لمذيعي البرامج العبرية، ولم يصدر عنه ما يشي بأنه أحس بعودتي إلى الشقة. الحال الذي كنتُ فيه وجه خطاي نحو المطبخ مع العزم على إعداد قهوة جديدة، أنا الذي لم يُتح لي أن أتمّ شرب قهوة الصباح. فلما لم أعثر على الغلاية، فقد تذكّرت ما حلّ بالأشياء التي كانت على الشرفة. وهناك، عثرتُ على الغلاية وسط الركام.

كنتُ منهمكاً في إعداد القهوة حين جاء عبد الرزاق إلى المطبخ وفي فمه كلام. متحدث إسرائيلي رسمي أعلن قبل لحظات أن المفاوضات حسمت ما كان مختلفاً عليه. والاتفاق صار على وشك أن يُبرم. قبلت إسرائيل ما كانت ترفضُه، وسيغادر المقاتلون الفلسطينيون المدينة

بزيهم العسكري وبنادقهم، بإشراف دولي تتولاه قواتٌ أميركية وفرنسية تحضرُ إلى بيروت لهذا الغرض. مقابل هذا، ستفك إسرائيل الحصار وتبعد قواتها عن محيط المدينة، بعد أن تعهدت الا تمسّ المؤسسات الفلسطينية المدنية ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين بسوء. تحدّث عبد الرزاق بنبرة من يزفّ بشرى. وكان في جعبة الذي اسعده أن يجد ما يُسعدني به تفاصيل شرع في سردها متبعاً عادته في الإطناب، فطلبتُ منه أن يوجزها، فاستجاب لطلبي: "سيغادر الفلسطينيون على سفن توفّرها دول عدّة. قوّة جيش التحرير وحدها ستغادر إلى دمشق عبر الطريق البّري. أما المغادرون في السفن فستستقبلهم بلادٌ عربية كثيرة أغلبها بعيد".

ولأن عبد الرزاق المفتون بما سمعه لم يكن ليتوقف من تلقاء نفسه، فقد قطمتُ سرده قطماً: "لاحظ كيف اشتد القصف فيما متحدثك الإسرائيلي يعلن أن الاتفاق على وشك الإنجاز"! وشاء هو أن يُعقّب بشيء، غير أني استبقته فيما نظري مركّز على الغلاية التي فار ماؤها: "مع إسرائيل لا يجوز الركون لشيء، لا إلى اتفاق ولا إلى تعهد". فعاجلني المتحرق لقول أيّ شيء: "أميركا وفرنسا وبريطانيا ضمنت الاتفاق". فقلتُ أنا بنبرة من يُتمّ عبارته: "ولا إلى ضمانات".

لم يكن في ما نقله إليّ عبد الرزاق ما يزيد عن ما عرفته أنا في

المساء السابق، سوى التأكيد الإسرائيلي الرسمي للأنباء المتداولة. وهذه الأنباء هي التي تُفسّر اشتداد القصف. عجزت إسرائيل عن اقتحام المدينة دون أن تُجازف بحياة أعداد كبيرة من جنودها. وليس في الأفق ما يُشير إلى أن الذين جاءوا لينبشوا أحشاء منظمة التحرير الفلسطينية قادرون حقاً على الظفر بالنصر الذي توخّوه، النصر الحاسم الذي لا يتحقق لهم إلا إذا ألحقوا بالفلسطينيين وحلفائهم اللبنانيين هزيمة ماحقّة. وهكذا، صار على إسرائيل أن تُعيد الحساب. وها هي ذي الدولة الغازية قد أعلنت الميل إلى القبول باتفاق الخروج وفك الحصار، دون أن تُهلك منظمة الفلسطينيين. وقد هجستُ، بهدي الخبرة المتراكمة، أن تُبرم إسرائيل اتفاقاً لا تبدو معه مهزومة حتى حين لا تبدو منتصرة، وأن تضمر التلكؤ في تطبيقه، بأمل أن تتمكن من تحقيق الهدف السياسي الذي سعت إليه: تنصيب زعيم اللبنانيين المتعاونين معها رئيساً لدولة لبنان. والمرجح أن تُشدّد إسرائيل فتكها بالمدينة لترغم السياسيين اللبنانيين على القبول بصياغة السلطة اللبنانية في نحو يتولى معه رجل إسرائيل اللبناني هذا زعامتها.

كنتُ أفكر في هذا ونحن على الشرفة التي جلسنا وسط ركامها. وفيما صاحبي يُواصل سرد ما سمعه دون أن أولِه أنا كامل اهتمامي،

اخترق ضجيج القصف زامورٌ ملحاحٌ تعرفتُ فيه على زامور زياد. فأطللتُ من الشرفة، فرأيت صديقي واقفاً إزاء سيارته في هيئة من لا يشك بأني ساطل عليه: "لن أصعد خمسة طوابق لا لشيء إلا لأنزلك ولآخذك إليها، هي التي طلبت مني أن أجيء بك". رجوتُ زياد أن نُعرّج في الطريق إلى لبنى على معهدي. لكن المتحكم بحركتي رفض رجائي. ولم يفتقر الرافض إلى حجّة، بل إنه أورد حجتين: إلحاح لبنى على أن يجيء هو بي قبيل أن تنطلق هي إلى مشاغلها؛ وشدة القصف العشوائي التي توجب الاقتصاد في الحركة. فأذعنتُ للرفض دون أن أعلن الإذعان: "حجتك الأولى ضعيفة، والثانية غير دامغة، لكني سأقبلهما إن قبلتَ أنت طلباً أتشبّث به: أن تأخذني لزيارة ابنتي بعد أن نزور لبنى". وكان لديّ أنا الآخر حجتان: "سنحصل هناك على الخبز الذي يلزمنا، ثم إن...". ولدهشتي، لم يُحوجني زياد لعرض حجتي الثانية، بل قاطعني: "قبلت".

بدل لبنى، وجدنا رسالة على الباب تُركت من أجلنا. عزمت هي على أن تعدّ للإذاعة الفلسطينية مقابلات مع المرابطين على خطوط التماس. وعرف صديقنا المشترك سامر، الروائي الأردني الذي ساقته ظروف تشرّده المديد إلى الإقامة في بيروت، ما عزمت عليه لبنى، فاستهواه، وطلب منها أن تشركه في أداء المهمة. رسالة لبنى أبلغت

إلينا أن سامر جاء في سيارة الإذاعة أبكر مما توقعتْ هي، فلم تتمكن من انتظارنا. الساعة لم تكن قد بلغت التاسعة. وإلغاء الموعد اجاز لي أن أكرر رجاء الذهاب إلى المعهد. وقد فعلتُ فلم يعترض زياد هذه المرة. والواقع أني احسنتُ صنعاً. فقد كان القائد العام قد أبلغ إلى مدير معهدنا الذي أنا نائبه أموراً طلب القائد نفسه أن أعرفها أنا أيضاً. بقاء المعهد في بيروت، مثله مثل المؤسسات المدنية الفلسطينية الأخرى، تقرر في الاتفاقات، والدول العظمى الثلاث قدّمت ضماناتها. والقيادة الفلسطينية حصلت على ضمانات أخرى من أطراف لبنانية رسمية وغير رسمية. ولم تبخل القيادة من أجل هذا حتى في تقديم رشوات كبيرة. ولئن أخذ القائد العام الضمانات المتوفرة بعين الاعتبار وعوّل على مفعول الرشوات التي ستتواتر، فإنه لم يُنحِّ الحذر، ولم يستبعد، خصوصاً، أن تضرب إسرائيل بالاتفاق عرض كلّ حائط، إذا أفلحت في إقامة سلطة في البلد متعاونةٍ معها أو خانعةٍ إزاءها.

"وإذاً"؟ تساءلتُ، حاثّاً المدير المولع بعرض التفاصيل على الاكتفاء باللباب. "إذاً"، قال هو قافزاً إلى نهاية الموضوع: "ترك القائد العام لإدارة المعهد، لي ولك بالذات، حق الاختيار بين بقاء معهدنا هنا أو نقله إلى بلد آخر. فإذا قررنا البقاء، فلكل عامل في المعهد أن يختار

لنفسه شخصياً البقاء أو الرحيل". لم نحتج إلى نقاش طويل. فاختيار الرحيل، مع توفر فرصة البقاء، لم يكن يلائم مزاج التحدّي الذي قوّته مواجهة الحصار. وبقاء المعهد في بيروت مهمّ، عمله مهم، ووجوده في حدّ ذاته سيشكل قدوةً للمؤسسات الفلسطينية المدنية الأخرى، الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية، قدوةً يُحتذى بها في أداء المهام الإنسانية في ظروف غير مواتية. وتخيير كل زميلة وزميل بين الرحيل أو البقاء سيُخلّص المعهد من الهيّابين والخرعين ويوفر النواة الصلبة اللازمة للظرف المستجد. هذه النقطة التي ختمتُ بها تلخيص آرائي اجتذبت اهتمام المدير. فاقترح هو أن نبدأ للتوّ في استعراض أسماء الزميلات والزملاء جميعهم لنفرز الصلب عن الخرع والهيّاب، فنعرف من نُشجع على البقاء. وقد طلب المدير أن نبدأ بتقويم شخصيته هو ليُظهر أنه عادل. غير أني، أنا الذي لم يؤخذ بالمناورة الساذجة، أحبطتُ الاقتراح: "لنعط لكل إنسان حق الاختيار، والاختيار ذاته هو الذي سيصنّف صاحبه على هذه الناحية أو تلك، هذا هو النهج السليم"! ولكي أفوت فرصة المحاججة، استحضرتُ الحجة التي أعلم أن مدير معهدنا يعدّها دامغة: "أليست هذه هي تعليمات القائد العام كما سمعتها أنت منه نصاً وروحاً".

برضوخه لاقتراحي، بدأ الأستاذ عوني، وهذا هو اسم المدير، بأن

اعلن انه هو شخصياً قرر البقاء، وسالني عن قراري. ربما كان من اليسير أن تتخذ قراراً ينطوي على المجازفة بتعريض نفسك للخطر. أما اتخاذ قرار بتعريض سواك لأي خطر، فهو شيء مختلف من المؤكد أنه غير يسير. قلت هذا للأستاذ عوني، وذكّرته بأن القائد العام يملك السلطة اللازمة لاستبقاء أيّ واحد منا أو ترحيله. وإذا ترك القائد الأمر للاختيار الشخصي، فلأنه يعلم أن حجم المجازفة كبير، تماماً كما أن الحاجة لبقاء المعهد كبيرة هي الأخرى، ما دام أن نصف مليون لاجئ فلسطيني باقون في لبنان ولا بدّ من عمل كلّ شيء في المتناول لاستبقاء صلتهم بمنظمة التحرير وتنمية ولائهم لها.

قراري الذي أبلغته إلى الأستاذ عوني تأثر بهذا الذي شرحته كله، لكنه تأثر أيضاً بما تشكل في داخلي إبّان الحصار: الاستهانة بالخطر، والتعوّد على العيش في ظله، وإعلاء شأن الثبات في مواجهته. لقد نجوتُ، على ضخامة الخطر الذي أحاط بالجميع. لم أهلك، بالرغم من أن احتمال الهلاك ظل حاضراً في كلّ لحظة. وعلى هذا، قبلت المجازفة. هل قلت: قبلت، الأصوب أن أجهر بما هو حق كله فأقول: لقد سعدتُ بالمجازفة حتى ونحن في أشداق الموت، فلم يرد في البال، حتى من أجل المناقشة، أن انكص بعد أن توفرت ضمانات

عديدة المصادر، إن أمكن أن يُخيّب بعضها الأمل فإن بعضها الآخر لا بدّ من أن ينفع. قلتُ هذا للأستاذ عوني كأنني أقوله لنفسي. ولم أتوقف إلا حين فطن هو إلى أني أفيض في الحكي فيضاً فشاء أن يجعلها واحدة بواحدة، فقاطعني: "تعرف أني أعدّك صوت العقل في المعهد. ما سمعته منك يجعلك صوت العاطفة أيضاً. وهذا، في الظرف الذي نحن فيه، جيّد لمعهدنا". والواقع أني لو تأثرت بصوت العقل وحده، لحكيتُ، أيضاً، على المخاوف التي تعتمل في نفسي والتي لم تكن قليلة، غير أني لم أفعل. لا يُعدّ الأستاذ عوني رجلاً قليل التحسب، غير أنه كان ممن يستطيبون تحدّي الصعاب، وكان حرصُه على حسن السمعة يأسره، ولا شك في أنه وجد في بقائه في الموقع الخطر بعد رحيل الآخرين ما يُعزّز سمعته. وحتى لو كان هذا الإنسان ميّالاً إلى الرحيل، أو لو أن حساباته أقنعته بأنه سيفشل إن بقيِ، لخشيِ أن يُتهم بالجبن إن اختار ما تمليه الحسابات السديدة. مفهوم الشجاعة عند صاحبي هذا كان متماهياً مع مفهوم الثبات في مواجهة الخطر وتحدّيه. وهكذا، حسم هو الأمر: "سيبقى المعهد، وسيبقى فيه الأشدّاء وحدهم ويرحل الخرعون. وإذا نفعت الضمانات فبها ونعمت. أما إذا اعتدى علينا أحدٌ فنحنُ لها"! بهذا، ختم الأستاذ عوني حديثه عن القرار المطلوب، وبه نصب للشجاعة ميزاناً يحكم على كل من يختار الرحيل بأنه خرع.

عَناني حقاً أن يبقى المستعدون للمجازفة، وأن يصدر قرار بقائهم عنهم هم دون إكراه. لكني لم أعدّ الراغب في الرحيل جباناً بالضرورة. وقد حرصتُ على أن نُعيد المناقشة كي لا يُشهر المدير التهمة المهينة في وجوه من يختارون غير ما اخترناه. الشجاعة المطلوبة من عاملين في معهد دراسات هي شجاعة العمل في ظرف غير مواتٍ يغيبُ عنه الذين كانوا يحمونهم، وليست شجاعة المقاتلين المهيئين للعراك بالسلاح أو بالأجساد. وإشهار التهمة المهينة سيحرج بعضهم فيقرر البقاء بدافع الخجل وحده. وبهذا، سنقع في ما نحاول تجنبه، إذ سيبقى جبناء، أليس خجل الإنسان من الإفصاح عن رغبته الحقيقية في مثل هذه الحالة ضرباً من الجبن. وماذا بشأن من ترغمهم الظروف التي استجدت إرغاماً على الرحيل. ماذا عن زميلةٍ في المعهد زوجُها مقاتل يوجب الاتفاق أن يرحل. ماذا عن زميل تحتاج زوجته أو أيّ من أبنائه إلى رعاية خاصة لن تتوفر في الوضع الجديد. قلتُ هذا للمدير. وكان من شأني أن أمعن في المحاجة وإيراد الأمثلة. لكن المولع بالتفاصيل ضاق بإمعاني أنا فيها، فقاطعني مرة أخرى على طريقة واحدة بواحدة: "وإذاً"؟ فقلتُ بدون تردد: "إذاً، نعطي لكل زميلة أو زميل وقتاً كافياً للتفكير قبل اتخاذ القرار، يوماً أو يومين، والأحسن ثلاثة". وشاء هو أن يُعقّب،

فاستبقته: "ثلاثة أيام ليست وقتاً طويلاً، فآمل أن يتسع صدر المدير لصوت العقل، وليس لهدير العواطف وحده"! وهكذا، فعلتُ بالأستاذ عوني ما كان من شأنه هو أن يفعله بالآخرين: فلو اعترض على اقتراحي لجاز أن أتهمه بضيق الصدر، أو بخفة العقل، أو الانسياق وراء العاطفة، أو حتى بالتهم الثلاث معاً.

ما أعجب ما يمكن أن نفعله، خصوصاً في المنعطفات الحادة، وما أكثر ما نوقع أنفسنا في المتناقضات! فأنا، الداعي إلى التروي، كنت قد اتخذت قراري في لحظة. وأنا، المطالب بتوفير وقت كاف لتفحص الظروف واتخاذ القرار في ضوئها، ألزمتُ نفسي البقاء حتى دون أن يخطر لي التفكير في ظروفي. ربما أمكن أن أتباهى بأني اتخذتُ قراراً شجاعاً أنسبه إلى دوافع مجيدة. فما أسهل أن أدّعي لنفسي هذه الفضيلة، وما أعجل ما يُصدقُ الذين يأخذون الأمور بظواهرها ادعائي هذا، فبين هؤلاء كثيرون تفتنهم الظواهر المجيدة! لكن، أهي، حقاً، الشجاعة، أم هو التعود على الاستهانة بالخطر، وهو إيثار ما يجلب حسن السمعة واتّباعُ الرغبة في أن أكون مختلفاً عن الآخرين؟ ألم أميّز بين شجاعة عامل في معهد للدراسات وبين شجاعة المقاتل، فأي شجاعة في أن أختار البقاء حيث ستغرقنا مشاكل لن تُمكننا من العمل؟ هل تأثر قراري السريع بما صرتُ أفكر

فيه منذ حضرت مسألة الرحيل الفلسطيني في المفاوضات، ألم يخطر على بالي المرّة تلو المرة أني مللتُ تواتر الرحيل، أني صرتُ أضيقُ باضطراري لتكرار البدء من جديد، أني قد أفشل هذه المرة في البدء من خانة الصفر أو مما هو قريب منها؟ ألم أعانِ وجع تكرار الانصياع لموجبات الرحيل كلما عنّ لإسرائيل أن تُمعن في ملاحقتنا؟ ولماذا ألفّ وأدور، لماذا لا أبوح بها صريحةً: لقد تعبتُ من تواتر تحطيم مألوفي كلما أمكن أن أكوِّن ما آلفه. تخطّيتُ عتبة الأربعين منذ ثلاث سنوات، ومللتُ، فصرتُ أقلّ حماساً لإعادة التكوين.

فكّرتُ في هذا بينما انصرف الأستاذ عوني إلى إعداد ما سينشره على لوحة الإعلانات بشأن حرّية الاختيار. أما ما فكرتُ فيه وأنا في سيارة زياد، في الطريق إلى ابنتي، فهو مصير الأسرة. ثائر مرتبط بوحدته التي ستغادر إلى سورية وأمامه سنةٌ ليستكمل الخدمة العسكرية الإلزامية. وما دام ابني قد اعتزم أن يتابع تعليمه الجامعي وهو في الخدمة العسكرية، ففي دمشق جامعة تجيز أن ينتسب إليها طلاب غير متفرغين كلياً للدراسة. وفي هذه الجامعة متسع فسيح للعرب غير السوريين، خصوصاً الفلسطينيين منهم. والبنتان لا أشك في أنهما راغبتان في البقاء في بيروت، فقد كوّنتا لنفسيهما وضعاً يصعبُ عليهما أن تخسراه. والمشكلة أن البنتين اكبر من ان اضغط

لحملهما إلى التصرف ضد رغبتهما وأصفر من أن تُتركا للتصرف على هواهما دون مناقشة. بقاءُ البنتين في المدينة التي سيرحل عنها المقاتلون الفلسطينيون ويهيمن عليها النفوذُ الإسرائيلي سَتعرضهما لأخطار أعرف أنا، أكثر مما تعرفان هما، كم ستصير ضخمة. وذهاب البنتين إلى حيث سيذهب أخوهما سيرتّب على غضتيّ التجربة أن تعانيا ما عاناه أبوهما: البداية مما يكاد يكون صفراً أو دون الصفر. وهناك الزوجة، والأزمة التي لم تُحل، والتي لا أعرف كيف ستحل.

"وصلنا"، هتف زياد الذي خالف هذه المرة عادته فبقي صامتاً طيلة الطريق. لم أجد غزّة ويافا في المركز. سألت واحداً من زملائهما عن السبب، فتلقيتُ من الشاب الذي يعرفني إجابة غير شافية. بحثتُ عن قائد المركز ذاته، فلم أتلقَّ إلا الزوغان والإمعان فيه كلما ألحفتُ في الأسئلة. هذا السلوك رابني: "تخفون عني شيئاً ما، وهذا يعني أنه سيء". عندها، اجتذبني قائد المركز الشاب إلى الركن الذي جعله بمثابة مكتب له، وهناك حكى دون تحفّظ. غزّة ويافا قلّصتا مساهمتهما في الخدمة داخل المركز، وخصصتا جلّ الوقت للمساهمة في إنقاذ ضحايا الشاحنات الملغمة التي اشتد تواتر انفجاراتها، وهما الآن منصرفتان إلى العمل في واحد من الأمكنة التي وقع فيها انفجار جديد. ولأن الانفجارات تتوقف في الليل حين يخفّ

الاكتظاظ، فهو يتوقع أن أجد ابنتي في المركز إن جئت بعد انقضاء النهار.

لو سألني الشاب في تلك اللحظة عن مشاعري، لصعب عليّ أن أصفها. الشاب لم يسأل. أما الذي سأل فهو زياد. أصغى صديقي لحديث قائد المركز دون مقاطعة، ثم لم يُعقّب بشيء، بل بقي صامتاً إلى أن حوتنا سيّارته. وحين تكلم، بدأ زياد بالمزاح: "نسيتُ حكاية الخبز الذي أغويتني بأمل الحصول عليه، لا الومك، فأنا نفسي نسيتُها. الآن، ستطلب مني أن آخذك إلى شقة الإذاعة وستغويني بأمل أن نجد فيها ما نأكله". ولم تكن هذه سوى مقدّمة لولوج الموضوع الذي يشغل البال: "هل أنت مستعد لتصف لي شعورك وقد عرفتَ أن ابنتيك العزيزتين تتجولان طيلة النهار وسط المجازر؟ جوابك مهم للقصة التي بدأتُ فعلاً في كتابتها".

كنت مشغولاً بهاجس أعاق تشكل الإجابة على لساني. ويبدو أن زياد عدّ صمتي إحجاماً عن الحديث، لكنه لم يكفّ عن المحاولة: "سأسهّل عليك الوصف، ما يشغل بالك ليس هو قيام ابنتيك بإسعاف ضحايا الانفجارات، هذا أمرٌ أعرف أنك تُقرّه وتشجعه. يشغل بالك ما يتعرض له الذين يجيئون إلى المكان بعد الانفجار، حين يُمكن أن...". وضع صديقي إصبعه على الوجع، فقاطعتُه: "نعم، هذا هو، تعرف،

هم، تعرف، عملوها، وكرّروها".

كان مرسلو الشاحنات الملغمة قد طوّروا أداءهم القاتل، تنفجرُ شاحنةٌ، فيهرع ناس كثيرون إلى مكان الإنفجار ويتجمعون حول الضحايا، فتنفجر شاحنةٌ ثانية أعدّت للفتك بالمتجمعين: "نعم، أنا قلقٌ عليهما، أوشك الحصار على الانتهاء، وقد نجتا من اخطاره، وأنا اخشى أن افقد الغاليتين فيما العدّو يشدّد عدوانه في الوقت الضائع ليكسب نقطةً فاته الحصول عليها". قلتُ هذا لزياد ليس من أجل ما يكتبه، فقصته لم تكن في تلك اللحظة في بالي، قلته لأني كنتُ بحاجة إلى البوح بما يوجعني. البدءُ بالبوح أطلق اللسان: "القلق، نعم، وإن أردتُ كامل الحقيقة، فهو أحساسٌ أوجع من القلق، هو الخوف، وإن شئتَ الدقة، أنا خائف على صغيرتي". لحظتها، تذكرتُ القصة التي يكتبها هو وحاجته إلى شهادتي، فأضفت: "مقابل القلق والخوف هناك الشعور بأن البنتين كبُرتا، وهما تسيران باختيارهما الحرّ على طريق صحيح. سيكبدهما هذا السير معاناة وتضحيات، لكنه يصنع لهما، ولي أنا، أباهما، ما يُفتخرُ به. على جانب آخر، أنا اخشى...".

اصغى زياد إلى بوحي باهتمام، لكنه لم يصبر إلى ان أتمّ جملتي، التي بدا أنه أدرك بقيتها، فقاطعني ليعرض اقتراحاً، أن نسجّل

حديثنا: "نتحاور لنكمل إيضاح فكرة معقدة". لم أدرك أن الذي عرض اقتراحه فيما هو يقود السيارة أراد أن يُسجل الحديث المقترح فوراً، فلم أتعجل الإجابة. ولم ينتظر هو موافقتي، بل شرع لتوّه في تنفيذ اقتراحه، فانعطف بالسيارة وأدخلها أسفل بناية، ثم تعجّل إخراج آلة تسجيل وتأكد من صلاحيتها، ثم أغلق نوافذ السيّارة بأمل تخفيف ضجّة القصف، ثم وجّه إليّ، أنا الذي أذهلني تعجّله فأبقاني الذهول صامتاً، أول أسئلته: "أنت المفكّر الفلسطيني الذي يحث شعبه على الكفاح لتحرير وطنه، وأنت الأب الذي عرف في هذه اللحظة أن ابنتيه الصبيتين تتعرضان لخطر قاتل فيما هما تؤدّيان واجباً عاماً، كيف تصف شعورك، ألا تجد تناقضاً بين تأييد المفكر لأداء الواجب وبين خوف الأب على ابنتيه وهما تؤديانه"؟.

لم أقاطع زياد. تحدث هو بنبرةٍ مفرطةٍ في الجدّية، بينما وجدتُ أنا في وضعنا ما هو، بمعنى ما، هزلي، أو عبثي، أو حتى سُريالي، ففي إبّان حصار بلغ ذروة عدوانيته، في حرّ آب/ أغسطس، في سيارة مقفلة النوافذ ومفتقرة إلى التكييف، وسط ضجيج لا يصدّه أيّ إقفال، في قبو بناية لا نعرف أحداً فيها، وهذه اللهفةُ لإجراء مقابلة مسجلة من أجل إكمال كتابة قصة، وهذا السؤال المفسول بلغة الخطابة والمكبل بالإقحام القسري لمسألة معقدة في قالب مسطّح،

فكيف أستجيب! بدأت إجابتي بأن مددتُ يدي نحو آلة التسجيل وأقفلتها، ثم سألتُ الذي لم ينتبه إلى أن آلته أُقفلت عن اللغة التي يتوقع أن أصف مشاعري بها، أأصفها بلُغة الدراسة الصلدة، أم بلغة الصحافة الهشّة، أم بلغة الأدب التي لا أتقنها. وانتهيتُ بأن رفضتُ الإجابة. رفضي أغاظ زياد. لكن الحريص على إكمال قصته كظم الغيظ وقال: "سنتحاور في وقت آخر"، ثم بقي صامتاً إلى أن بلغنا البناية التي فيها شقّة الإذاعة. وحين غادرتُ أنا السيارة، بقي هو فيها: "تذكرتُ أن عليَّ التزاماً لا بد من أن أؤدّيه"، وانصرف.

في الشقة التي يشتد اكتظاظ الوافدين إليها في أوقات تقديم الطعام، كانوا على وشك أن يفرغوا من تناول الغذاء، فظفرتُ بشيء مما بقي على المائدة. لكني لم أظفر ببقعةٍ هادئة أكتبُ فيها حديثي. فشغلتُ نفسي بحكي لا لزوم له مع الواقفين مثلي، مؤملاً أن يخفَّ الاكتظاظ بمضيِّ الوقت. غير أن مضيَّ الوقت جلب وافدين جدداً. كانت أنباء اقتراب الإعلان عن الاتفاق قد شاعت، وكانت تفاصيل كثيرة قد تسرّبت واختلط فيها الصحيح والمتوهَم. فنشطتْ حركة البحث عن اليقين. ولما شكوتُ أمري لمدير الإذاعة المنهمك في الإجابة على استفسارات المحيطين به، جاء اقتراحُه من فوق الأكتاف: "أنت قادر على الارتجال، غرفة الحمام يمكن إغلاق بابها

لحجب الضجة، وآلةُ التسجيل جاهزة". وفي الوضع غير المريح الذي حُشِرتُ فيه، فيما أنا أمام آلة التسجيل، حضر سؤال زياد والأسئلة التي تنداح منه. ولم أتمكن من مغالبة هذا الحضور الطاغي، فجاء حديثي إجابة على الأسئلة. وحين أذيع الحديث، أنثال عليّ التقريظ. حتى المدير الذي لا يفتنه شيء، والذي لم أسمعه من قبل يُقرّظُ أحداً، خالف طبعه المستهين بغيره: "أصدقُ أحاديثك وأشدّها حرارة". وكانت خلاصة ما قلته هي هذه: التزام الواجب والخوف من تبعاته كلاهما شعور طبيعي ولا تناقض بينهما.

بقيتُ في شقة الإذاعة أطول من المعتاد. وجودي في الحمام اجتذبني إلى ما فاتني الانتباه إليه سابقاً. فالبناية فيها مولّد كهرباء خاص، والقيادة، المعنية بوجود شقة كتّاب الإذاعة في هذه البناية، توفر للمولّد وقوداً لا ينضبُ، فيتوفر الماء الذي يسحبه محرك خاص من بئر ارتوازي حُفر في قبو البناية، ماء لا ينضب. وقد أذنتُ لنفسي أن أتمتع بحمام، فعلتُ هذا دون استئذان. وحين خرجتُ من الحمام مشعاً بأمارات النظافة والانتعاش، لحظ المدير تبدّل حالي، فوجه إليّ نظرة إن لم تُظهر السخط فإنها لم تبثّ الرضا. ولم يقل هذا المدير شيئاً للتو، لكنه انتظر إلى أن فرغت الشقة من معظم زوارها وصرف هو الآخرين وبقي فيها العاملون في الإذاعة وحدهم.

ووقتها، قال الرجل بنبرةٍ لم يحرص على إخفاء ما تنطوي عليه من لوم: "طلب كثيرون غيرك خلال الحصار أن آذن لهم بالاستحمام هنا، لو أذنتُ لأي منهم لما استطعتُ أن أمنع سواه ولتحول مكان العمل هذا إلى حمام عمومي".

تلقيتُ الملاحظة اللائمة صامتاً، لم أحتج، لأن الملاحظة انطوت على ما هو منطقي تماماً. وفيما أنا متجه نحو الباب بنيّة الانصراف، رنّ جرس ملحاح، فتعجلتُ فتح هذا الباب: القائد العام، وهو يدفع بيديه لبنى وسامر كليهما ليدخلا قبله، وخلفه الحراس والمرافقون الذين شغلوا الدرج.

كعادته كلّما التقيته، احتضنني الرجل وغالى في إظهار المودة، وكعادته، أيضاً، وهو الذي يفعل أي شيء ليظهر أن الأخطار المحدّقة به ليست هي ما يشغل باله، طرق الرجلُ للتوّ موضوعاً شخصياً: "أنت هنا، وأجمل الصبايا يبحثن عنك، لبنى اليوم، وأمس سامية حمدي". منذ ترملت لبنى وهي صبية، ظلّت تحظى بمنزلة خاصة لدى القائد الذي يهتم بذوي الشهداء، وهي منزلة تعزّزت بمضيّ السنين، لأن لبنى وسّعت مساهمتها في العمل العام الفلسطيني وحظيت بإعجاب الجميع، الذين عرفوها معرفة شخصية والذين سمعوا بها. وقد التقى القائد العام في ذلك اليوم صدفة بلبنى وسامر فيما هو يقوم بواحدة

من جولاته على مواقع المقاتلين. وكان صديقاي قد فرغا من تسجيل عدد من المقابلات وصار عليهما أن يجيئا بالأشرطة إلى الإذاعة. ولأن القائد الذي يطارده مترصّدوه على مدار الساعة ينتقلُ دون برنامج معروف حتى لمرافقيه، ولأنه يبثّ أثناء تنقله معلومات أو إشارات تُضلّل مترصديه بشأن خطوته التالية، فقد قال الرجل حين عرف وجهة صاحبيَ إنه تائق لزيارة كتّاب الإذاعة وإنه سيأتي غداً أو بعد غد إلى الشقة. ثم لأن الرجل سمع لبنى وهي تقول لسامر إنها تأمل في أن تجدني في الشقة، فإنه حمّلها تحية لي. بعد هذا، حدث أن السيارة التي أوصلت لبنى وسامر إلى حيث كنتُ أنا، وقفت أمام البناية لحظة وصول سيارة القائد العام إلى المكان.

اختار ذو الحضور الطاغي أن يقعد على الأرض في صالون الشقة، واتخذ قعدة مسترخية، فتحلقنا نحن حوله، قاعدين مثله على الأرض، أو جالسين على مقاعد، أو واقفين. ولم يلبث أن عزى الذي تصرف كأنه في منزله راسه، ونزع الحذاء العسكري، وفرد ابتسامة ثغره التي دخل بها الشقة فغمرت وجهه كله، وراح يستعرض بنظرةٍ متودّدة المحيطين به واحداً واحداً. وكأنما ليضمن أن يلتقط كلُّ واحد منّا مغزى سلوكه، قال هو موجهاً الخطاب إلى الجميع: "معكم احسّ بأني واحد منكم أنتم المقاتلين بالكلمة، بالرغم من أني لستُ

مثقفاً مثلكم".

كانت هذه فاتحة لشهية الممالئين. وكان مدير الإذاعة هو السّباق: "القائد العام للثورة هو الأول في كل شيء، فهو أوّل المثقفين، باللغة العسكرية هو المثقف العام". ولأمر ما، ربما لمعرفته أني أضيق بالنفاق، وجه القائد الزائر نحوي نظرةً بدا أنه لن يسحبها قبل أن أقول شيئاً. وصمت الجميع مترقبين هذا الذي سأقوله.

كنتُ أفهمه، قائدنا العام، متصيّدُ مدائح هو، بالرغم من احتيازه على مزايا يستحق أن يُمدح بها دون تصيّد. وكنت أعرف، بالطبع، نفسي، نقّادٌ حادّ اللسان أنا، فإن مدحتُه فسأدرج نفسي بنفسي في خانة المنافقين، وإن انتقدته في هذه الزيارة الخاصة السريعة، فسأبدو متصيّد فرص للانتقاد. ومن حسن حظي أني اهتديتُ إلى ما يمكن أن يقال دون أن يُثقل على حميمية اللقاء: "أنت تعدّنا في المقاتلين مع أننا لا نُقاتل، فلماذا لا نعدّك، أنت المقاتل، في المثقفين". ويبدو أن مدير الإذاعة التقط المعنى الدقيق لعبارتي، المعنى الذي تجنبتُ أن تبرزه ألفاظها، فتعجّل طمسه: "نعم، هو هذا، قلتُه أنا قبلك ويسعدني أنك متفق معي، القائد العام هو المثقف العام". أما لبنى التي خشيتْ أن يغلبني طبعي، فقد تعجلت قطع هذا المسار، ووجّهت الحديث إلى مواضيع أخرى.

وما أن غادرنا الذي لا يُطيل مكوثه في أي مكان حتى اجتذبتني لبنى إلى حديث هامس. وكان لديها ذلك الذي شاءت أن تقوله لي في الصباح. الممثلة المصرية مصرّة على تسليمي، يداً بيد، الرسالة التي حملتها إليّ من زوجتي. ويبدو أن الزوجة المأزومة قالت عني للممثلة أشياء أسوأ حتى مما قالته للبنى، أشياء لم تشأ محدثتي التي لا تلج في النمائم أن تكررها. والممثلة المصرية تتصور أني أتهرّب منها تهرباً لأني مذنب حقاً، وهي تندب نفسها للوساطة، هي التي وعدت زوجتي بأن تتوسط بيننا: "لماذا، إذاً، تترك لمن لها مكانةُ سامية حمدي أن تتصور أن ما قالته زوجتك عنك صحيح". ولأني لم أعط للمسألة كلها الحجم الذي أعطته لبنى، فإني تعمدّت تكرار ما قلته من قبل: "في ظروفها، يمكن لأي زوجة أن تقول عن زوجها أي شيء حتى أسوأ الأشياء". وشئت أن أضيف ما قد يُطمئن المهتمة بسمعتي. غير أن اقتراب أحدهم من الركن الذي كنّا نتهامس فيه لجم لساني، فواعدتُ لبنى على أن نستكمل الحديث في وقت آخر.

وقبل أن نفترق، عرضتْ عليّ معدّة المقابلات العازمة على الاستمرار في إعدادها أن أصحبها أنا الآخر في اليوم التالي في جولتها على خطوط التماس: "سامر وأنا، روائي أردني وكاتب فلسطيني ومحاورةٌ أردنية لبنانية فلسطينية في آن، أنت، ومساعدان لك بدل

واحد، أليس هذا...". والمؤكد أن عرضي أغوى لبنى دون شروح، لكنها رهنت قبولها إياه بقبولي أنا عرضاً منها، أن نلتقي هذا المساء بعد أن أفرغ من عمل الجريدة. ولم تترك هي الهدف ملتبساً: "قد أقنعك بالذهاب معي إلى التي تأبى الذهاب إليها". ولكي ألقاها في المساء دون أن ألتزم ما تتوخاه، قلت: "لماذا لا نلتقي كلانا في الجريدة". وجاريتها في إيضاح هدف اللقاء: "من يدري، فقد أقنع صديقتي الداخلة إلى عالم الصحافة أيضاً بأن تنشر شيئاً في هذه الجريدة"، ثم أضفت: "بودّي أن تتعرفي على رئيس التحرير".

في المساء، طلب الأستاذ جلال من لبنى ما اقترحت عليه أنا قبل أن تنضمّ هي إلينا أن يطلبه: أن تكتب للجريدة مقالات تستقي موضوعاتها من أحاديث المقاتلين الذين تقابلهم. واستجابت هي للطلب دون تردد. فقال المبتهج باستجابتها: "خير البرّ عاجله". وهكذا، اعتزلنا، لبنى وأنا، في حجرة ملحقة بمكتب رئيس التحرير. وكتبت هي مقالها الأول. وكتبت أنا عامودي. وبمزاجي الذي راق، مشيت مع لبنى إلى حيث تُقيم الممثلة المصرية. وحين صرنا عند الباب مع حشد الداخلين والخارجين، قلت للبنى: "سلّمي على الست سامية وقولي لها إني لا أحبّ أن أشغل أحداً، هي أو سواها، بشأني الشخصي"!

وفي منزلي الذي رجعتُ إليه وقد تقدم المساء، كان عبد الرزاق في انتظاري، في هيئة المتلهف على التحدث إلي. ولأني اكتفيتُ بأن ألقيتُ تحية مقتضبة وتوجهت فوراً إلى حجرة مكتبي، فإن الذي بدا أنه انتظرني طويلاً أذن لنفسه بأن يتبعني دون استئذان ويفصح عن حاجته إلى معونتي في أمر يود أن يشرحه لي. ولما لم أكن مستعداً لما قد يُعكّر مزاجي، فإني رددتُ بحزم: "عليّ أن أنجز شيئاً قبل النوم، شيئاً لا أستطيع تأجيله، وأنت تعرف مشقّة العمل على ضوء الشموع، فلك أن تفعل ما تشاء إلا أن تضايقني"! في تلك اللحظة، فقط، تذكرتُ أنه كان علي أن أزور ابنتي في ذلك المساء، وأني نسيت.

(6)

تقطّع نومي. فوتيرة القصف في الليل ظلّت شديدة كما كانت في النهار. أهي ضغوطُ الساعات الأخيرة قبل إعلان الاتفاق، أم هو تفريغ حنق المحاصِرين الذين لم يحصدوا كل ما توخّوه.استفزني الإيغال في الجريمة، قضيتُ ليلتي بين إغفاءات تتواتر فيها الكوابيس وبين صحوات يشتدّ فيها الاستفزاز. وحين نهضتُ في الصباح، كنتُ موهون القوى. فأعددتُ القهوة بكلال. وشربتُ على الشرفة فنجانين طافحين قبل أن يصحو عبد الرزاق، ثم شربتُ بعد أن صحا وانضمّ إليّ فنجانين آخرين. كان واضحاً أن الذي جلس قبالتي صامتاً يتوق إلى استدراجي للحديث الذي لجمتُه من قبل، غير أن هيئتي لم تشجعه، ولعله خشي أن انفجر في وجهه، فلم يحوجني إلى أن أصدّه مرة أخرى.

فكرتُ في الماء الذي سيجيء مع الظهيرة. لكن البقاء في المنزل إلى أن يجيء الصهريج يعني أن أخلف موعدي مع لبنى، وهو ما لن أفعله. وهكذا، توجب أن أعوّل مرة أخرى على الذي يصعبُ التعويل عليه، هو الذي ما أكثر ما خيّب أملي. ولكي أحتاط ضد الإهمال الذي أتوقعه، أوصيتُ البواب بأن يصعد إلى شقتي ويحث عبد الرزاق على

النزول، إذا لم ينزل هو بنفسه. أما التحوط ضد تبديد الماء بعد الظفر به، فلم تكن له فائدة.

وفي سيارة الإذاعة التي اتجهت بنا، لبنى وسامر وأنا، نحو خطوط التماس، استدرجني رفيقا الرحلة إلى ممارسة مهنتي، التحليل السياسي، مع أني كنت قد انتهيت إلى الاقتصاد في ممارستها: "ما الذي تريده إسرائيل بعد أن تمت صياغة بنود الاتفاق، لماذا يتلكؤون في التوقيع عليه"؟ طرحت لبنى السؤال، وأضاف سامر إليه الإضافة المنطقية: "هل ترى أنهم ضد إنهاء الحصار"؟ وصار علي أن أفعل ما أضيق عادة به، أن أكرر ما سبق أن قلته مراراً. في الاتفاق، أفلت إسرائيل ما استطاعت إملاءه، ورضخت لما لم تستطع تجنبه. وإسرائيل تتلكأ في التوقيع، لا لشيء إلا لتكمل ما شرعت فيه، لتفرض الزعيم اللبناني المتعاون معها رئيساً للجمهورية بقوة حضورها العسكري وثقل حصارها. حتى تلك اللحظة، كانت الجهود الإسرائيلية، الضغوط والإغراءات، قد أفلحت في توفير النصاب اللازم لجمع مجلس نواب عتيق أكل الدهر على معظم أعضائه وشرب وتجشأ ونسيه معظم اللبنانيين، ليصوت لهذا الزعيم. والنتيجة التي ستعلن قريباً يعرفها الناس كلهم مسبقاً: دبابات إسرائيل وطائراتها وبوارجها هي التي ستصوت.

قال سامر، معبراً عن أساه أكثر مما عن التساؤل: "ما الذي سينتج عن هذا الإملاء بالقوة"؟ وبقوله هذا، هداني سامر إلى ما أقوله في حديثي مع المقاتلين على خطوط التماس: الإفراط المتواتر في استخدام القوة العسكرية، الإمعان في التدمير والقتل، خصوصاً تدمير ممتلكات الأبرياء وقتلهم، كلُّ هذا الذي تكرره إسرائيل منذ ما قبل الإعلان عن قيامها، يكاد يكون إعلاناً متواتراً عن غباء يتناقض وجوده مع سمعة الإسرائيليين بما هم أذكياء. الزائد أخو الناقص، هذا هو ما انتهت إليه الحكمة الشعبية. أفرط الإسرائيليون في البطش بالفلسطينيين، فأحدثوا عكس ما توخّوه. فبهذا الإفراط في البطش، وفرّ المعتدون للضحايا فرصة التدرّب على احتمال المعاناة مهما قست وحصّنوهم ضد الإحباط، كما وفّروا لهم الخبرة اللازمة لتدبّر أمور عيشهم، طعامهم وشرابهم وكسائهم ومآويهم ودوائهم وتعليمهم، في كل ظرف، حتى في أشد الحصارات إحكاماً وابشع الحروب. الصمود، بما هو استعصاء على قبول الظلم الواقع عليهم، الصمود في ثقافة الفلسطينيين، جاء الثمرة الطبيعية للقدرة على الاحتمال، وهو ما أبقى شعب فلسطين في قيد الحياة وما حصّنه ضد الإبادة. وما دام قادة إسرائيل العدوانيون قد وسّعوا نطاق الإفراط في البطش، فلن ينقضي وقتٌ طويل قبل أن يكتسب اللبنانيون، هم الآخرون، القدرة على الاحتمال والحصانة ضد

الإحباط ويصنعوا صمودهم الخاص بهم.

فـي مـرابض الصـامدين، حـيث يـرابط اللبنـانيون والفلسـطينيون والعرب الآخرون معاً، كفّ المقاتلون عن تركيز اهتمامهم كلّه على شؤون القتال، وأضافوا إلى ما يهتمون به شؤون المستقبل، مستقبل لبنـان ومسـتقبل الفلسـطينيين. أدرك اللبنـانيون بالـذات أن خـروج المقـاتلين الفلسـطينيين من البلـد سـوف يُبقيـهم هـم وحـدهم في مواجهة إسرائيل والمتعاونين معها من مواطنيهم. والذين تحدثوا من هؤلاء، مجيبين على أسئلتنا، قالوا إن إسرائيل ستستخدم قوتها كلّها وقوة حلفائها الدوليين لتمكن الفريق اللبناني المتعاون معها من الهيمنة على البلد وتقزيم حجم الفريق الآخر الذي قاوم الحصار وتقليص دوره. وبين مقابلة والتي تليها، كان المقاتلون اللبنانيون يطلبون رأينا نحن الثلاثة بشأن ما يمكن عمله لتخفيف الأذى الذي يتوقعونه. أما المقاتلون الفلسطينيون فإن سؤال أسئلتهم كان هو هذا: ماذا سيحدث لهم ولوطنهم الذي تحتله إسرائيل بعد أن يُخلوا هم هذه الساحة العربية التي تصلهم بالوطن، وما الذي سينتج من توزعهم على بلدان كثيرة بعيدة، بعضها بعيد جداً. هل ستكون هذه هي نهاية المطاف التي ليس بعدها إلا البوار، أو أنها بداية جديدة حفّالة وعود، كما كانت بداياتهم السابقة جميعها؟

بدل أن نستحوذ نحن على فرص طرح الأسئلة كما شاءت لبنى، صرنا هدفاً للأسئلة المشحونة بالفضول والهواجس. كنت أملك فيضاً من المعلومات عن آليات الرحيل التي نسجها التفاوض طويل الأمد، عن البلدان التي سيُرحَّل الفلسطينيون إليها، عن التدابير التي تُعِدّها القيادة المشتركة لتوفير ما يمكن من الحماية للحلفاء اللبنانيين المهددين بشتى الأخطار، عن تدابير القيادة الفلسطينية لحماية مخيمات اللاجئين الفلسطينيين الباقين في لبنان والمؤسسات المدنية التي أجاز الاتفاق بقاءها، عن العلني من التدابير وعن الخفي، عن الجهود المبذولة لتدبير ثلاثة عشر ألف بذلة عسكرية ومثل هذا العدد من الجعبْ العسكرية، وكيف تُصِر القيادة الفلسطينية على أن تكون البذلاتُ والجعبْ جميعها جديدة، حتى يظهر المرحلُون جميعهم بمظهر لائق يُلائم المتنقل من مكان إلى غيره. والواقع أني أوجزتُ ما أعرفه، في سياق ردي على الأسئلة التي وُجّهت إلي. غير أني تبسطتُ بعض الشيء في الرد على الأسئلة المتعلقة بالبذلات والجعب الجديدة. ففي البداية، ظن بعضهم أني أهزل حين ذكرت أن الحاجة إلى تدبير الزي العسكري اللائق لثلاثة عشر ألف منتقل كانت بين الأسباب التي أطالت أوقات التفاوض، وظن آخرون أني انتقد هذا السلوك انتقاداً مبطناً. إذ ما معنى أن يتشبث الجانب الفلسطيني بأمر كهذا هو، في الحساب

الأخير، أمرٌ مظهريّ. فصار عليّ أن أبيّن أن التشبث بالكرامة، بالنسبة للفلسطيني، ليس سلوكاً مظهرياً، ليس ولعاً بما هو شكلي محض، بل هو تعبير عن حاجة ماسّة، مثلها مثل الغذاء والدواء. فهذا هو ما أنتجته حالةُ التشرد المقرون بالحرمان، الحالة التي طالما عرّضت المبتلين بها للمسّ بكرامتهم، وهذا هو ما أفرزه إمعان إسرائيل في إذلال ضحاياها.

في واحد من المرابض، شاء سامر أن يُعقّب على رأيي هذا بعد أن كرّرتُ شرحه، لكني أوقفته: "جئنا إلى هؤلاء الرجال لنسمع منهم ونُسمعهم ما عندنا، لا لنتجادل أمامهم". وكانت لبنى تتهيأ لتقول لي هي الأخرى شيئاً، فأحجمتْ وآثرتْ أن تستكمل ما جئنا من أجله. ولكي تتجنب لبنى الجدل الذي يجري خارج آلة التسجيل، صارت كلما بلغنا مربضاً تختار ركناً منعزلاً وتستدعي إليه الذين تُريد تسجيل مقابلات معهم، فيما ننشغل، سامر وأنا، في الاستماع إلى الآخرين وتسميعهم.

فرحتْ لبنى بما تم إنجازه في تلك الجولة، ثلاث ساعات مسجلة، وشعّ فرحها من محيّاها وتعابير جسدها فأعداني، أنا الذي يُفرحه، بالطبع، أن يسهم في ما يُفرح الصديقة العزيزة.

كان القصف مستمراً. وكنّا بحاجة إلى التشاور بشأن خطوتنا التالية. فانشأ مزاجي المعدّل اقتراحاً فاجأ رفيقيّ الجولة كليهما: "أدعوكما إلى مطعم، نأكل لقمة، ونشرب كأساً، ونتصرف كأننا في ظرف عادي، ثم نقرّر بعد ذلك ما نفعله". ولكي أغوي لبنى لتقبل اقتراحي بدل أن تدعونا هي إلى كافتيريا جامعتها الأميركية، وعدتُ بأن آخذهما كليهما بعد الغداء لمقابلة شخص متميز. وكان في البال أن آخذ لبنى وسامر إلى مقابلة عبد الكافي. وبظفري بموافقة لبنى، ضمنتُ مُوافقة سامر حتى دون أن أسأله.

الراجعة منذ وقت قصير، فقط، إلى المدينة المحاصرة والمتمتعة بخدمات الجامعة الأميركية لم تدرك مغزى دعوتي بتمامه، فلم تولِ هذه الدعوة ما تستحقه من حفاوة. حتى لقد بدا أن لبنى متلهفة لمقابلة الشخص المتميز قبل الذهاب إلى المطعم. أما الذي انتبه إلى المغزى بتمامه فهو سامر، وهو لم يُصدق أن في المدينة المحاصرة مطعماً تمكن دعوةُ أحد إليه: "لعلّك تقصد كافتيريا الجامعة الأميركية، هذه التي..."؟ فقاطعتُ الذي ستبثّ تعابيره دهشةَ الموزع بين التكذيب وبين الرغبة في التصديق: "أقصدُ مطعماً بكامل أوصاف المطعم اللبناني، مقبلات، ومشاوي، وخضاراً، ومحاشي، وصواني مطبوخة في الفرن، ومشاريب، عرقاً وبيرة وخلافه". كان

سامر أقل دراية وأكسل من أن يُعدّ طعامه بنفسه، فكان، حتى في الأيام العادية، يأكل في المطاعم. ولأن الحصار أقفل مطاعم المدينة فلم يبق فيها إلا مطاعم ثلاثة أو أربعة في فنادق الدرجة الأولى التي صارت، منذ أشتدّ الحصار، تقدم الوجبات لنزلائها وحدهم، فإن المنهمك في الشأن العام عانى معاناة شديدة لتدبُّر وجباته، وكثيراً ما جاع: "أنا لا أجد مكانا آكلُ فيه وأنت تدعونني إلى مطعم تقول إن فيه كلّ هذه الخيرات، فهل تسخر"؟ نبرة تشكيك وتشكٍّ جعلتني أغالب استهانة لبنى بالدعوة وأحثّها على أن تراعي رغبة سامر في التيقن: "وافقي على رغبته ولو لمرة واحدة، هو الذي يُسلِّم برغباتك كلّ مرّة"!

يشغل المطعم الذي عنيتُه الطابق الأرضي من مبنى قائم بجوار مبنى فندق الكومودور. وبوقوعه بجانب الفندق الذي يتجنّب المحاصرون قصفه لكثرة الصحافيين الأجانب المقيمين فيه، توفر للمطعم أمانٌ لم يتوفر لمطعم سواه، فأبقاه صاحبه مفتوحاً، وصار ارتياده ممكنا في أي وقت دون مجازفة. الوضع الذي أغوى صاحب المطعم على إبقائه مفتوحاً اجتذب انتباه مسؤول أمن فلسطيني متفهم. وهذا المسؤول هو الذي روى لي ما فعله ليضمن استمرار الخدمة في المطعم: "علامة على صمود المدينة، ومن أجل شغلنا"، كما قال هو

متباهياً بفطنته. وبتوجيهٍ من هذا المسؤول، توفرّ لهذا المطعم ما يلزم لخدمة أيّ عدد من الوافدين إليه، اللحوم والزيوت والخضار والبقول والمشروبات، وكذلك الوقود اللازم لتشغيل محرّك كهربائي خاص، والمحرّك ذاته. تلقى المطعم هذه المواد بما يُشبه المجّان، شريطة أن لا يشتطّ في أسعاره وأن يستمر في الخدمة على مدار الساعة. شرحتُ هذا للمستهينة والمتشكك، وتفننتُ في الشرح، فأثرتُ شهية سامر الذي لم يشأ أن يقتنع: "ساصدقك حين أرى المطعم". أما لبنى فاستحوذت عليها فكرة: أن تجري مقابلات مع صاحب المطعم ورواده.

في الطريق إلى المطعم، عندما اقتربت السيارةُ من ساحة الكولا، اجتذب صوتُ مدفع عبد الكافي انتباه لبنى، فأوجزتُ لها حكاية هذا الشاب، وقلتُ إنه الشخص الذي اقترحتُ عليها أن تقابله، وتساءلتُ، معابثاً صاحبيَ اللذين استحوذ عليهما الفضول لرؤية المطعم: "هل نذهب إلى عبد الكافي أولاً"؟ فصدرت عن الاثنين إجابة واحدة: "المطعم أولاً". ثم استدرك سامر: "هذا إن كان موجوداً وليس مجرد مزحة تسخر بها من هزالي". وفي الحكي على هزاله، كان سامر يسخر، هو نفسه، من بدانته. فبالرغم من أن الحصار أفقد صديقي هذا اثني عشر كيلو غراماً من وزنه، فإن الذي كان قبل الحصار

مفرطاً في البداءة لم يكفّ عن كونه بديناً. وقد أطلقت سخريته من نفسه موجة دعابات تبادلناها في السيارة. وتعدل مزاجنا نحن الثلاثة. وفي ظرف تشعّ فيه فرص البهجة، وجدتني راضياً عن نفسي لأني اهتديت إلى ما سيبهج سامر واكتشفت انه أبهج لبنى ايضاً.

ما أكثر ما تعذّر في الحصار أن أحقق ما اعتزمت تحقيقه، وما اقصر أوقات البهجة فيه! فما أن بلغنا المطعم حتى طالعنا مشهدٌ يُطفئ أيّ بهجة: الواجهة العريضة تحطّمت أطرها وتهشّم زجاجها وانتثرت الشظايا، صغيرُها وكبيرُها، على كل الجهات، خارج المطعم وداخله، فغطّت الرصيف كما غطّت أرض المطعم وموائده، ومازجت الطعام في أوانيه المفرودة على حواملها. "انفجر صاروخ في البناية التي تلينا، وهذه هي حصتنا من آثار الانفجار، نحتاج إلى يوم كامل حتى...". الذي لم يتمّ الجملة كان هو صاحب المطعم، صديقي اللبناني الذي أخاطبه بكنيته "أبو ريم" وأبو صديقتي ريم الصحافية الشابة التي أعزّها كأنها ابنة لي. وفيما أبو ريم يسرد شروحه بادي الحسرة، احتفظتُ أنا بانتباهي لما حلّ بسامر، بانبهاره بالأطعمة التي وقعت عيناه عليها وسط الخراب. كان صاحبي شديد الانبهار بما يرى، حتى أنه لم يفطن إلى حركة لبنى حين استحوذت على آلة

تصويره المعلقة على كتفه.

قدّمت صديقي لصاحب المطعم وقدّمته هو لهما، فاتضح أن لبنى على معرفة بابنته ريم. وأمام الوافدَين الجديدين، كتم أبو ريم حسرته، وتحدث بنبرة إعتذاريه، حتى لكأنه هو الذي تسبب في هذا الذي خيّب أملنا. فصاحة البارع في الحديث جعلت لبنى تستأذنه في إجراء مقابلة معه للإذاعة، "وإذا وافقت، فسأنشر تقريراً مع الصور في الجريدة". فنظر أبو ريم ناحيتي بهيئة المستعد لإتباع ما أنصح أنا به، فتلقى، بالطبع، نظرةً مشجعة ما كان ليسعد لو تلقى ما يغايرها. وتوجّه البيروتي الحريص على الأناقة إلى مرآة تشظى زجاجها دون أن يهزّ، وأصلح شأنه، ثم رجع إلينا باشاً.

قلتُ للبنى إني ذاهب إلى الفندق على أن أرجع حين تكون هي قد أتمّت المقابلة. وخيّرتُ سامر بين مصاحبتي أو البقاء. ولما كان أبو ريم قد أغوى سامر بوجود بيرة ما زالت باردة، فإن صديقي اختار البقاء. فخلوتُ بالطباخ، وسرعان ما وافق المنهمك في معالجة الخراب على أن يُدبّر للصحافية والروائي ما يأكلانه: "طمئن بالك، بيديّ هاتين ساحضّر لهما أشهى اكل"!

ذهبتُ إلى الكومودور لأني توقعتُ أن أجد هناك صديقتي الصحافية

الأميركية جانيت، بعد أن انقضت أيام عدّة دون أن أراها. لم تكن جانيت صحافية زائرة أو مقيمة إقامة مؤقتة في بيروت، بل كانت، كما ألفنا أن نصفها، واحدة منا، نقلت مركز حياتها إلى دنيا العرب منذ سنوات وبقيت فيها، وأتقنت العربية كما يتقنها عربي رفيع التعليم. فقبل خمس عشرة سنة، جاءت من كانت آنذاك طالبة جامعة في سنتها الأخيرة إلى بيروت، موفدةً من جامعتها التي درست فيها اللغة العربية، أرسلتها جامعتها لتجوّد معرفتها بالعربية وتجمع المواد اللازمة لأطروحة التخرج. وهنا، وقعت الأميركية في غرام ممثل فلسطيني من أصدقائي. فأبقى الغرام العاشقة في بيروت، فلم ترجع إلى بلدها إلا من أجل الظفر بشهادتها. العاشق الفلسطيني طلب من المغرمة به أن تتزوجه فاستجابت هي له. والعروسان اختارا أن يمضيا شهر العسل عندي، أنا الذي كنت مقيماً آنذاك في القاهرة. وبهذا، بدأت معرفتي بالإنسانة المفتونة بشرقنا، ثم قدّر للمعرفة أن تتوطد بمضيّ السنين. والتي لم تقبل أن تعيش عالة على زوجها حاولت أن تجد جريدة أميركية تعتمدها مراسلة لها، فلم تحصل إلا على وعود من جرائد قليلة الشأن بأن تنشر لها ما تجده هذه الجرائد ملائماً لها. ورضيت جانيت بالقليل الذي تدفعه هذه الجرائد والقليل الذي تحصل عليه من أعمال متفرقة، وذلك كي تبقى بجانب الذي أحبّته، شريكة حياة وليست تابعة له. في غضون ذلك، واصلت التي

تعلقت بمهنة الصحافة السعي لتحسين وضعها المهني ورفع دخلها. وبتعمقها في الشأنين اللبناني والفلسطيني وتناول إعلام بلدها لهما، أدركت جانيت أن إصرارها على كتابة تقارير صحافية صادقة ومعمقة هو الذي يحول دون ظفرها بمرتبة مراسلة دائمة لجريدة معتبرة. هذا الوضع استمر ستّ سنوات أو سبع، تيسر لجانيت خلالها أن تنشر مقالات في جرائد لبنانية أيضاً. غير أن ما دفعته هذه الجرائد لجانيت كان مما لا يُعتدّ به، فظلت رافضةً التبعية للزوج قليلة الدخل، واعتادت على الاكتفاء بهذا القليل.

في غضون هذه السنوات، بردت وقدة الغرام الذي أنشأ عشّ الزوجية، وساءت العلاقة بين جانيت وصديقي، وانتهى الأمر بالطلاق. ولأن صلتي بجانيت كانت قد توطدت فقد أمكن أن تستمر. ثم توطدت الصلة أكثر بعد أن جئت أنا إلى بيروت للعيش فيها. ومنذ ما قبل الطلاق، وكما استمر الأمر بعده، واظبت جانيت على اللجوء إليّ كلما احتاجت، كما ألفت هي أن تقول، إلى نصيحة نزيهة. والواقع أني كنتُ بين أصدقاء الزوجين الوحيد، تقريباً، الذي حمّل الزوج مسؤولية فشل الزواج. ولئن خسرتُ بهذا صداقة الذي اتهمني بأني انحزتُ للأميركية الغريبة ضد مواطنه الفلسطيني، فقد بقيت لي صداقة جانيت الراسخة. ومع وجودي في بيروت قريباً من

المحتاجة إلى صداقتي، اكتست صلتنا، أحدنا بالآخر، حميمية من نوع خاص، خاص جداً إن توخيتُ الدّقة. الشقراء ذات التقاطيع المنمنمة والقامة الرشيقة والشعر المرسل خلفها كأنه شلال حرير والقسمات التي تنمّ عن الطيبة وزرقة العينين التي تشف ما خلفها، الهادئة في كل شيء، في الحركة حين تتحرك، وفي الحديث، هذه التي قد لا يُصدق من لا يعرفها أنها أميركية، الجاهزة أبداً لمساعدة المحتاج لمساعدتها إن كان ممن يستحقون تعاطفها أو كان ممن يبعثون على النفور، الأبيّةُ التي لا تدلق نفسها على أحد ولا تطلب حتى ما تستحقه إلا على استحياء، السيدة التي تخطو نحو عتبة الأربعين محتفظةً بحيوية الشابة التي كانتها حين لقيتها أول مرة، كل هذا في امرأة واحدة، فكيف لا أشتاق إليها إن افترقنا ولو لبضعة أيام!

بحثتُ عنها، أولاً، في البهو حيث يمكن لزائر الفندق أن يجلس دون أن يطلب ما يشربه فيدفع ثمنه المرتفع وحيث أملتُ في أن أجدها. وكاد أملي يخيب لولا أني مررتُ بجانب البار فوقع نظري عليها جالسة حيث لم أتوقع، هي التي لا تأذن مواردها بدفع كلفة الجلوس في هذا المكان، والتي تأبى أن يدفعها أحد غيرها. ومع جانيت، جلس رجلٌ لم أعرفه، أكبر سنًا منها ومنّي، وإن بدا ظاهر الحيوية

فضلاً عن أنه تامّ الأناقة، وكان أمام كلٍ من جانيت وجليسها كأس ويسكي. وبالهدوء الذي يُميّزها، ردتْ هي على تحيتي بمودة، وقدمتني إلى الرجل الذي تتخاطب وإياه بالإنجليزية، ووصفتني بأني أعزّ أصدقائها العرب، ثم قدّمت جليسها إليّ، باسمه الذي نسيته للتوّ وبصفته بما هو دبلوماسي بريطاني يعمل في قبرص. بعد هذا الطقس، همّت التي استوقفني تمييزها إيايّ عن أصدقائها العرب وحدهم بقول شيء، غير أن البريطاني سبقها فقاطعها بلباقة لم تمنع أن الاحظ أنه تعمد بها ثنيها عن قول حزر أنها ستقوله. وهكذا، شفّت زرقة العينيين قليلاً من الارتباك، ولم تذعني صديقتي إلى الجلوس، حتى بعد أن عرفتْ أني جئتُ خصيصاً لأبحث عنها. أما البريطاني الذي كان قد صافحني وهو جالس فإنه تعجّل مدّ يده لمصافحة الوداع وهو جالس أيضاً.

انسحبتُ وأنا أسرّها في نفسي. ولم يخل ردُّ فعلي من الارتباك. فلكي لا أبدو مخذولاً، تعمدتُ أن أجول في البار بهيئة من يبحث عن شخص بعينه، بعدما أنساني الارتباك أني قلت لجانيت إني قدمتُ من أجلها هي. وحين رجعتُ إلى المطعم، كانت لبنى منهمكة في حديث بدا أنه يشوقها مع أبي ريم، وآلة التسجيل مفتوحة. أما سامر فكان جالساً إلى منضدة نُظفتْ من أجله وأمامه زجاجتا بيره

فارغتان وثالثة على وشك أن تفرغ وأطباق مأكولات متنوعة. وكعادته كلما طاب مزاجه، بشّ وجه الجالس وحده منذ رآني مقبلاً، ورحّب هو بي بصوت مجلجل. ولما طلبت لبنى خفض الصوت فإن سامر أطاعها لتوّه، لكنه لم يكفّ عن الحكي، ومع الحكي، أتى الذي جلستُ إزاءه مصغياً على ما بقي في الزجاجة الثالثة، وأوضح: "منذ انقطاع الكهرباء لم أشرب بيره باردة". ثم لم يلبث أن طلب الذي لم يرتو زجاجة رابعة أتى على ما فيها هي الأخرى. وحتى بعد أن انضمت لبنى إلينا لتأكل ما أصرّ أبو ريم على تقديمه إليها بنفسه، طلب سامر زجاجة، فكفت ريم عن الأكل، وطلبت أن ننصرف. لكن سامر الذي لم يجرؤ على فتح الزجاجة ظل يتكلم، ولم يصمت إلا بعد انتهرته لبنى انتهاراً وأنذرته بأنها ستتركه إن أصرّ على مواصلة الشرب. وقتها، نهض المشدود إلى البقاء وتوجه معنا ناحية الباب. لكن الذي أخرج دون رغبته فطن، فجأة، لشيء، فرجع إلى حيث كان يجلس، وحمل زجاجة البيرة التي لم تمكنه لبنى من فتحها.

عرضتُ على صديقتنا أن نوصل سامر معاً إلى منزله، واقترحتُ أن نتوجه كلانا، بعد هذا، إلى عبد الكافي. غير أن التي بدا أن طاقتها استنفدت لم تتحمس للاقتراح: "سجلتُ اليوم ما يكفي، ثم إن علي أن آخذه إلى الإذاعة".

بعد أن أوصلنا سامر إلى شقته، وفي طريقنا إلى شقة الإذاعة، حثتني لبنى مرة أخرى على الذهاب إلى سامية حمدي: "انت وعدتني". لم اتذكّر ايّ وعد، ولم اكن راغباً في الذهاب إلى ايّ ممثلة. ولقد هممتُ بالاعتذار، صراحة. لكني خشيتُ ان اسخط لبنى وأعكّر مزاجها زيادة على ما عكره حال سامر، فصمتُّ. وفي الشقة التي بلغناها ابكر قليلاً من موعدي المألوف، كان الحشد اكبر حتى مما توقعتُ والصخبُ أشدّ. وكان الحديث يدور حول ما شغل الجميع من صحيح الأنباء وغير صحيحها عن الاتفاق. وفي حُميّا الجدل، التقطت أذناي آخر نبأ: إنهم يُنظمون الآن قوائم الأسماء التي ستضمّها قوافل الرحيل، ويستكملون الحصول على الموافقات اللازمة من الدول العربية السبّع التي ستستضيف كلٌّ واحدة منها واحدةً من القوافل. وهناك ضغوط متعدّدة لفرض وقف إطلاق النار على الفور، وإسرائيل وحدها هي التي تتلكأ في تقديم موافقتها. ولأن اجتماع البرلمان اللبناني العتيق تقرر وانتهى الأمر، ولأنه سيعقد في اليوم التالي في ثكنة عسكرية في المنطقة التي تحتلها إسرائيل، ولأنه ما من زعيم لبناني جرؤ على منافسة رجل إسرائيل بعد أن جرى اغتيال ثلاثة نواب جرؤوا على الجهر بأنهم لن ينتخبوه، لهذا كله، توقع الجميع أن يتوقف القتال في غضون يومين أو ثلاثة على الأكثر.

بهذا النبأ. توفر الموضوع اللازم لحديثي الإذاعي الذي اضطررت مرة أخرى إلى ارتجاله ارتجالاً: إسرائيل ليست سعيدة باضطرارها إلى فك الحصار قبل القضاء على قوّات م.ت.ف. وأسر قيادتها، وهي بحاجة إلى تنصيب رئيس لبناني متعاون معها لتعرضه بما هو نصرٌ لها تسوغ به الحرب التي شنتها على البلد وجلّ من فيه. وفي الحديث، كررتُ ما سبق أن قلتُه: لئن فتك جيش إسرائيل المتفوق في القوّة بكثيرين ودمّر منشآت مدنية وآلات عسكرية هنا وهناك، فإن معظم ضحاياه كان من المدنيين الذين لا يقاتلون ومعظم الخسائر المادية التي سبّبها الغزو كان مما يمكن تعويضه. وسيظل انتصار إسرائيل معطوباً، بل مطعوناً فيه، ما دام أن المقاتلين الفلسطينيين بقوا أحياء وظلّوا متمتعين بمعنويات عالية. نجا جسم منظمة التحرير الفلسطينية المقاتل من الحرب التي استهدفت إبادته. وبقيت المعنويات التي تشحذ الإرادة. وتوفرت ساحاتٌ جديدة لاستضافة مقاتلي المنظمة ومؤسساتها. فما الذي لا يمكن تعويضه، وما الذي يتعذر استرداده. تكنولوجيا الأسلحة المتفوقة واجهتها إرادةُ ثبات متفوقة هي الأخرى. تُراكم إسرائيل نصراً بعد نصر ولا تطمئن أبداً إلى أنها انتصرت. ويتعرض الفلسطينيون إلى هزيمة إثر هزيمة دون أن يصيروا مضطرين لقبول ما يمليه منتصرٌ

على مهزوم. تملك إسرائيل أفتك أسلحة الإبادة، لكنها لم تهتد إلى سلاح يبيد قدرة الفلسطينيين على الاحتمال فيوهن إرادتهم ويدفعهم إلى الاستسلام. توهم الإسرائيليون أن معادلة الصراع هي هذه: نصرٌ مقابل هزيمة. والذي حصل أظهر المعادلة الحقيقية، بل أظهر أن للمعادلة وجهين، فإما نصر مقابل نصر، وإما هزيمة مقابل هزيمة: موت بموت أو حياة بحياة.

في الحديث الإذاعي المحدّد بوقت لا يتجاوزه، وفي الجدل الذي ينهمك فيه المؤهلون له وغير المؤهلين، لم أتبسط في شرح النقطة التي يحتاج شرحها لوقت طويل وجوٍ أنسب. غير أن لبنى شاءت، منذ غادرنا معاً شقة الإذاعة، العودة إلى هذه النقطة بالذات: "عليّ قبل ان اعدّ أطروحة الدكتوراة، تعرف، ان اقدّم ابحاثاً مستقلة. ما ذكرته انت، افكّر، يصلح مادة لبحث، فهل تظن...". بدا من نبرة حكي لبنى أنها تعتزم الشروع فوراً في هذا البحث، فصار عليّ أن أقاطعها: "اتركي الظن. التبسط في هذه النقطة بحاجة إلى ظرف غير هذا الظرف، ظرف قد يتوفر بعد تحررنا من الحصار..."! لكن التي أثار حديثي شهيتها للبحث لم تستجب تمام الاستجابة": "أوافق على التأجيل، لكني بحاجة إلى تثبيت النقطة في ذهني منذ الآن واستيضاح شيء يتصل بها. فهل قصدت أن تقول إن التفوق في

الثبات، او الصمود، أو الاحتمال إن شئت، هو سمة يختصّ بها الشعب الفلسطيني وحده*؟ الحكي على سمة يختصّ بها شعب دون الشعوب الأخرى يستفزّني في العادة. أمّا وقد جاء السؤال من لبنى، فإني بقيتُ هادئاً، وصار عليّ أن أغالب داعي الاستفزاز بالإمعان في الشرح. الثبات ليس طبعاً، ليس جينةً يملكها أحد دون سواه ويورثها لنسله، بل هو نتاج ظروف، نتاج تدرّب، إملاء حاجات قاهرة. البطش الذي تعرض له الفلسطينيون جيلاً بعد جيل كان قاسياً منذ بدايته، وظل كذلك حتى اللحظة، وزادت قسوته باطراد. ولأن الصبر على الأذى، لأن تحمّل هذا البطش كان هو السلاح المتيسّر للبقاء على خط الحياة، فإن ضحاياه تدرّبوا تدريباً متصلاً على تحمّله وراكموا في هذا المجال خبرات أضاف كلُّ جيل خبرات جديدة إليها، فبلغت هذا الحدّ المتميّز الذي نشهده. وهكذا، يوماً إثر يوم، سنة إثر سنة، عقداً إثر عقد، ابتكر الفلسطينيون وسائلهم لتدبّر استمرار البقاء تحت كل ظرف وتجنب الإبادة. اتصلت المعاناة، فاتصلت القدرة على تدبّر أيّ شيء من أي شيء. حصل هذا ليس لأن في الفلسطينيين ما يميزهم عن سواهم، بل لأن ظرفهم اختلف، ولأن الذين نهبوا وطنهم استهدفوا إلغاء وجودهم، فصار الهدف هو الحفاظ على الوجود، مهما ثقل الثمن، ورفضُ الإلغاء.

شهيتي المستعادة للجدل أطلقت لساني. ولو لم تُقاطعني لبنى، فأغلب ظني اني لم اكن لأتوقف. منذ اسابيع لم اعد اتذكر عددها، لم اخض مثل هذا الجدال. نحن، اقصد بني البشر، نُنعشُ الحكي كلما برد الفعل. ويبدو ان بوادر وقف القتال أنعشت الحاجة إلى الحكي. كان لدى صديقتي سؤال آخر. وكانت الإجابة على السؤال ستطلق لساني في فيض جديد من الحكي. فتذرعتُ بحاجتي للذهاب إلى الجريدة من أجل كتابة مقالي: "لا يمكن ملء عامودي في الجريدة بكلام مرتجل كما في الإذاعة". ولأني صرتُ قريباً من منزلي فقد حضرتْ ذريعة أخرى: "عليّ ان اتفقد ما تم بشان الماء قبل ان اتوجه على الجريدة".

وقبل ان افارقها، ذكّرتني هي بما لم أكن قد نسيته حتى وإن تجنبتُ ذكره: "تتفلّتُ من الالتقاء بالفنانة الكبيرة، ليس من اللباقة أن ترفض استلام رسالة زوجتك". ولكي تحول دون تفلّتي مرة أخرى، قالت لبنى بنبرة من يتلو قراراً: "زياد سيجيء في الثامنة ليتعشى في الكافتيريا. بعدها سنجيء معاً إلى الجريدة لنصحبك. ولأني أعرف انشغال بالك على ابنتيك، ولأني اريد ان اسلم عليهما، فسنزورهما أولاً، ثم نأخذك إلى... إلى التي تتهرب من لقائها"!

كان القصف اقل صخباً من المعتاد في مثل هذه الساعة. وكان ابو

طانيوس واقفاً عند باب البناية ويداه معقودتان على صدره وقفة من يستريح بعد أن أتمّ عملاً وبقي عليه أن ينجز أعمالاً أخرى قبل حلول العتمة. وفي إجابته على تساؤلي، طمأنني الذي تلقاني بابتسامة سخيّة: "حصة أربعة أشخاص كالعادة، صاحبك لم ينس هذه المرة". وباطمئناني، صعدتُ الدرج إلى الطابق الخامس دون تعجّل وقبل أن أدخل شقتي، فطنتُ لشيء، فطرقتُ باب الجارة.

تأخرت نورما في الاستجابة. وحين فُتح الباب، عرفتُ السبب، فقد بدّلت ملابسها: "كنت في ملابس النوم". قدّمت الإيضاح الوجيز بنبرة تقريرية مجافية، وبثّت لغةُ جسدها سُخطاً لم تُفصح هي عنه بالكلام. هذا السلوك ذكّرني بما كان من نورما ومنّي في صباح اليوم السابق. وشرعتُ في قول شيء بنيّة أن أطيب خاطر المرأة التي تفلّتُ من حضننا. غير أن الساخطة عليّ لم تصغ إليّ، بل تنحّت قليلاً لتفسح لي مجال الدخول، ودعتني بإشارة من يدها إلى أن أدخل، ثم سبقتني إلى حجرة الجلوس واختارت مقعداً وأشارت إلى آخر يُقابله كي أجلس أنا عليه. وبهذا، تجنبتْ نورما أن نجلس معاً على الصوفا.

مع السلوك الذي ملأ المسافة الفاصلة بيننا بدبق التحرّج، حضرت دلالةُ ما جرى في صباح اليوم الفائت بتمامها. فتعجّل نورما الإفصاح عن شهوتها سبّب لها حرجاً ما زال يكبّل حركتها إزائي. وامتناعي أنا

عن الاستجابة دون ان ابدي عذراً او اقدم إيضاحاً انطوى على إهانةٍ لأنوثة المراة وزاد الطين بلة، بل بلأت.

فكّرتُ بان اعتذر، بان اقدّم إيضاحاً يكشط الدبق. لكن صمتي طال، لأني لم اهتد إلى ما يمكن قوله، او، لأقرّ، لأني لم اعرف كيف افتح الموضوع دون ان اهيّج المواجع. هل كان هذا جبناً او تهيّباً يُسوّغ الجبن. او كان شيئاً آخر؟ لم استقرّ على إجابة. ولقد هممتُ بان اعتذر دون إيضاح، فلم أجرؤ حتى على هذا. وبيني وبين نفسي، تذرّعتُ بان تجاهل ما جرى هو الأفضل. إلا انني فشلتُ في إقناع نفسي بصواب هذه الذريعة. كنتُ مبلبلاً منذ البداية. ومع امتداد صمتي، اشتد البلبال. وفيما انا عاجزٌ عن الكلام، احسستُ إحساساً لا لبس فيه اني اشتهي هذه المراة، واني مرغم في الوقت ذاته على كبت شهوتي. اختلطت الأفكار وكذلك الأحاسيس. ولم اجد ما افعله إزاء المتحفظة بالصمت الذي يعكس السخط إلا ان انهض وانصرف فنهضت بغير مقدمات. وتوجهتُ نحو الباب وانا أجمجم بعبارة وداع اغلب ظني ان نورما لم تتبينْ كلماتها. ومن جانبها، لم تقل هي شيئاً، ولم تنهض حتى بعد ان بلغتُ انا الباب. ولعلها لم تهتد هي الأخرى إلى ما تقوله او تفعله، ولعلّ بلبالها كان اشدّ من بلبالي!

في شقتي، تلقاني عبد الرزاق بالأنباء التي التقطها من مذياعه.

"الإسرائيليون جُنّوا". هكذا بدأ. فشلهم في القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية أخرج قادة إسرائيل عن طورهم؛ وعودهم لجمهورهم لم يستطيعوا الوفاء بها، وهم سوف يعمدون إلى تصعيد القصف في اللحظات التي تسبق إعلان الاتفاق: "يريدون أن يقدموا لجمهورهم الساخط عليهم ترضيةً تُبرّر الحرب والحصار، وهم يأملون في...". هنا، قطعتُ حديث عبد الرزاق، لأنه لم يأت بجديد ولم يُظهر أنه لن يسهب ولأن علي أن أكتب عامودي، وهممتُ بالتوجه إلى مكتبي. لكن عبد الرزاق استوقفني: "دقيقة واحدةً، عندي ما أريد أن تسمعه مني". فتصورتُ أن الذي لا يردعه شيء عن الهذر سيواصل هذره بالأنباء المبذولة، غير أن ما بدأ به فاجأني: "لم أترك العمل في المعهد لأني تلقيتُ عرضاً براتبٍ أعلى، كما قيل لك، تركته لأن وضعي عندكم لم يكن ملائماً. المرتبة والمسؤولية لم يكونا مما...". هنا، أيضاً، أوقفتُ عبد الرزاق قاطعاً تشكّيه من مسألة لم تعد مما يشغل بالي، أنا الذي لم أصدّقه على كل حال: "قلت دقيقة واحدة، فلم لا توجز. عندي ما يشغلني عنك وعن المراتب والمسؤوليات الوظيفية"!

تطامَنَ عبد الرزاق إزاء نفوري من حكيه أظهر أنه يفهم تعجلي، لكنه وجّه إليّ نظرة متوسّلة تحثّني على الاستماع إليه: "أردتُ أن أقول

إن بقاء المركز الذي انتقلتُ إلى العمل فيه لم يعد مضموناً في الظرف المستجد، وأنا نفسي، أنا الذي جاء إلى بيروت لأن منظمة التحرير فيها، لا أضمن أن يُسمح لي بالبقاء بعد خروج المنظمة ما لم...". ومرةً أخرى، قاطعتُ الذي لا يعرف الإيجاز، وقلتُ بنبرة منتهرة: "لماذا لا تدخل في الموضوع، إن كان لديك فعلاً موضوع تدخل فيه"! فحرك هو ذراعيه حركة المغلوب على أمره: "صبرُك قليل، فاعرف إذاً، أني أخشى أن أصير عاطلاً عن العمل وتجوع أسرتي، أنت تعرف الظروف، تعرف ما سيحصل إذا رجعتُ إلى الأردن، أنا الذي...". هنا، مرة أخرى، انتهرتُ الذي أضاف دبقه إلى الدبق الذي رجعتُ به من شقّة الجارة: "ما الذي تريده مني أنا، قُله، أو اطو الحكي"!

لحظتها، واجهت النظرةُ المتوسلة النظرةَ المجافية: "أعتمد عليك حتى لا يجوع عيالي. صلتُك بالقائد العام، أعرف أنه لا يردّ لك طلباً، خصوصاً في هذا الظرف، فأنت...". الإمعان في الهذر أفقدني القدرة على تصبير نفسي: "كُرمى حتى للشياطين، ما الذي تطلبه بالضبط، وإذا كنتَ عاجزاً عن ذكره فلِمَ لا تؤجل الحكي حتى الصباح"! صمت عبد الرزاق لحظة كانت هي اللحظة التي اهتزّت فيها بنايتنا على وقع انفجار قريب. وحين استأنف المتردّدُ الحكي، بدا في هيئة من

اسقط في يده: "نؤجّله ما دامت هذه هي رغبتك". فقلتُ، قاطعاً عليه فرصة المتابعة: "نعم، هي رغبتي، والصباح رباح".

لم احتج لوقت طويل من اجل كتابة عامودي. وفيما انا منصرف لمراجعة ما كتبته، سمعتُ طرقاً على باب الشقة، ملحاحاً في واقع الأمر. ولما لم اكن اتوقع قدوم احد، فإني تصورتُ انها الجارة. وبتحرّجي الذي لم اتحرر منه، آثرتُ ان اتابع ما انا فيه، معولاً على وجود عبد الرزاق ليخفّ هو إلى الباب. ولم أغادر حجرة مكتبي إلا بعد ان حضّرت نفسي للّقاء الذي تصورتُه. وحين وجدتُ عبد الرزاق في الصالة وحده، تساءلت عمن طرق الباب، فجبهني ردٌ باردُ النبرة: "انا لا افتح باب شقتك حتى وانت غائب، فكيف افتحه وانت فيها. قبل مجيئك، نسيتُ ان اقول هذا لك، طُرق الباب ولم افتحه".

صرتُ بحاجة إلى ما يهدئني. وصار عليّ ان افعل شيئاً، ايّ شيء، حتى لا ينفجر غيظي. فطرقتُ باب الجارة ناوياً أن استفهم عما إذا كانت بحاجة إلى شيء. فانفتح الباب بعد أول طرقة، وبرزت نورما امامي وهي تكاد تكون عارية. وإذاً، فإن التي فررتُ منها توقعتْ ان اكون انا وليس ايّ احد سواي هو الطارق. ولم تُبد التي استقبلتني بابتسامة مرحبّة ما يدلّ على ايّ تحرج بسبب عريها، هي التي لم يكن على جسدها سوى ورقات توت ثلاث تستر الفرج والثديين.

ودون أن تُبدّل وقفتها على الباب، أومأت نورما بحركة من رأسها كي أدخل، ما جعل جسدي يحتك بجسدها. وبالرغم من الدلالة السافرة لهذا الاستقبال، وجدتني أداري تحرجي أنا بأن أسأل عما إذا كانت هي التي طرقت بابي. فجاء الردّ في ابتسامة مغوية سبقت الكلمات الإنجليزيـة التـي صـاغته: "لا تكن سـاذجاً"! وتجلـت الـدلالة حـين دفعتني نورما دفعاً نحو الصوفا وجلست عليها بلصقي دون أن تفعل شيئاً لستر عريها. لم تكن هي التي طرقت بابي. الذي طرق الباب مرتين وليس مرة واحدة فقط كان هو زياد، وقد طرق هو نفسه، بعد يأسه من العثور علي، باب الجارة، فلم تقل هي له إني موجود في شقتي، فترك هو لي رسالة عندها. ولحظة جئتُ أنا إليها، كانت نورما تتـهيأ للمجـيء إلـيّ لتسـلّمني رسالة صديقي. وقبل أن أسألها عن الرسالة، سحبت نورما الرسالة من تحت ورقة التوت التي تستر أحد ثدييها، فعلت هذا بحركةٍ متأنية كما يفعلون في السينما. وبالحركةَ ذاتـها، مـدت من تعمـدت تقليـد ممثـلات الإغـراء الرسـالة نحـوي، وعابثتني قبل أن تُفلتها. وخلال ذلك، اجتهدت التي لم تتستر على شهوتها أن تبث شبقها وتذيب تحرجي.

في رسالته التي قرأتها وأنا ما أزال مبلبلاً بين فورة شبقي وبين مغالبتي إياه، طلب زياد أن لا أنتظر مجيئهما، هو ولبنى، إلى الجريدة

لاصطحابي: "بدل هذا، تعال أنت إلى المدرسة الإنجيلية، وسنكون كلانا هناك ولدينا ما ينبغي أن تعرفه"! فنهضت، متذرعاً بما جاء في الرسالة وحاجتي إلى المغادرة بسرعة. وبحركتها المتأنية والشبق الذي لم تكف عن بثه، قادتني نورما نحو الباب دون أن تُظهر أي استياء. وعند الباب، أمسكت بيديها يديّ كلتيهما، وجعلتني أواجهها، العين إزاء العين، والشفتان قريبتان من الشفتين، وهمست بالإنجليزية: "أهي، حقاً الرسالة، أم أنك...". ولم تكمل العبارة، ولم تنتظر ما قد أقوله، بل جذبتني إليها بقوة وطوقتني بذراعين ألصقا جسدي بجسدها، واستولت بشفتيها على شفتيّ.

لم أصدّ نورما ولم أصدّ نفسي. غمرني فيض الشبق، فانحلت تحفظاتي، وغابت قاعدة أن لا علاقة حميمة مع جارة. وحين أعادتني نورما إلى الصوفا جاذبة إياي جذباً بجسدها الذي أبقته ملتصقاً بجسدي، لم أكن مطواعاً فحسب، بل كنت أيضاً، متلهفاً إلى استكمال التجربة.

أمضينا في المعترك الفتان أربع ساعات، فثبت إلى نفسي في الحادية عشرة. وفكّرت: أوان إيصال العامود إلى الجريدة فات وانتهى الأمر. أما اللذان ينتظراني فما زال من الممكن الذهاب إليهما. وكأنما أدركت نورما أني أفكر بما فوّته، ولعلها خشيت أن يساورني الندم، فقالت

وهي مسترخيةً على السرير: "ليس كثيراً أن نظفر بشيء ممتع وسط هذا العناء". قالت هذا بالإنجليزية. وسمعتني أقول لها بالإنجليزية أنا الآخر: "معك حق، وأنا لستُ نادماً، أعرفي هذا"! لم أبلغ، إذاً، حدّ الاعتذار صراحةً عن فظاظتي السابقة، لكن ما قلته تضمن ما هو أكثر من اعتذار. ولأن عبارتي أبهجت نورما وفردت على وجهها ابتسامة هنيئة، فإني تشجعتُ، فقلتُ، بالعربية هذه المرة: "أشكرك لأنك كنت المبادرة. مارسنا الحبّ على إيقاع القصف، فسعدنا كما لو أننا مارسناه على إيقاع موسيقى عذبة".

وإزاء هذا الاعتراف، شعّت من عيني نورما، وليس من الثغر وحده، ابتسامةً أفهمتني أن ما قلته توّج متعتها. ولم يدهشني بعد هذا أن التي استوفت ما تريد أغفت قبل أن أبرح أنا حجرة نومها.

أطفأت الشموع الكثيرة التي أوقدتها نورما، فأدركتُ أن قمر تلك الليلة قد غاب وأن الظلام كان مطبقاً داخل الشقة وخارجها. فتوجهتُ إلى شقتي وقد عزمتُ على أن آخذ مصباح البطارية الذي صرت اقتصد في استخدامه منذ شحّ وجود البطاريات، لأستعين به على عتمة الطريق إلى حيث ينتظرني صديقاي. ولأن العتمة كانت مطبقة في شقتي كما في سواها، ولأني لم أتذكر أين وضعتُ مصباح البطارية هذا، فقد استحال العثور عليه دون إضاءة. وحين أمكن أن

أعثر باللمس على الشمعة، تبين أني نسيت علبة الكبريت عند نورما ولم أجد من اللائق أن أوقظها من نومها. وكان من الممكن أن أتابع البحث باستخدام الضوء الذي يبرق مع الانفجارات، ولقد فعلت هذا لبعض الوقت، ثم لم يلبث أن استثقلتُ المهمة التي ترهنني رهنا لتواتر الانفجارات، وكففتُ عن المتابعة. والواقع أني كنتُ في غضون هذا أغالب النعاس الذي داهمني، لأن ضميري لن يحتمل أن أتخلف عن موعدي مع صديقي وأن أختلق عذراً غير صحيح أنا الذي لن يبوح بالعذر الحقيقي. ولأن النعاس غلبني في نهاية المطاف، فإني اقنعت نفسي بأن رسالة زياد ليست سوى مناورة أعدّها صديقاي لاستدراجي إلى مقابلة الممثلة التي لا أرغب في مقابلتها. وهكذا، بدل التطوح قرابة منتصف الليل في شوارع تسكنها العتمة في مدينة محاصرة، نوّمتُ ضميري، ونمت.

(7)

فتحت عيني في الصباح وفي ظني أن هذا هو وقت صحوي المعتاد. كان الهدوء شاملاً وراديو عبد الرزاق صامتاً. فتعجلتُ إعداد القهوة لأشربها قبل أن يصحو معكّرُ مزاجي أو يبدأ القصف. غير أني اصطدمتُ مرة أخرى بالافتقار إلى ما أوقد به طباخ الغاز. وحين دلتني ساعتي على أنها تقترب من الخامسة طرقتُ باب نورما، واحتجت أن أكرر الطرق. وبعد وقت كدتُ لطوله أن أياس، انتصبتْ نورما أمامي بعينين يُبقيهما النعاس نصف مغمضتين، وأومات إليّ بالدخول، ثم عادت إلى سريرها واستلقت عليه وأطبق النعاس جفونها. فرجعتُ إلى شقتي بعلبة كبريت، وأعددتُ القهوة، وحملتها إلى الشرفة كما في كل صباح. وهناك، شربت فنجان قهوتي الأول ودخنت سيجارة، ثم شربتُ فنجاناً ثانياً ودخنت سيجارة أخرى، وأنا أترقب أن تنهال القذائف على المدينة ويظهر عبد الرزاق أمامي.

رابني شيء ما في الجوّ، امتد الوقت فامتدّ الهدوء. فهممتُ بالتوجه إلى حجرة نومي حيث تركت ساعتي لأتيقن من الوقت. إلا أن عبد الرزاق ظهر أمامي وهو يتمطى وباداني بتحية صباح مقتضبة ليقول بعدها: "أول مرة منذ بدأ الحصار أنام حتى السادسة، ما أحسن أن

بحاجة إليّ؟ ولكي ألبّي فضولي وأفرَغ لما ينتظرني في أول يوم يلي الحرب، حثثتُ الرجل الصامت: "احك، لا تخش شيئاً"!

كان طلب عبد الرزاق غريباً حقاً. فالذي استقال من معهدنا لأن مركز إعلام لا في العير ولا في النفير اغواه براتب أعلى، الذي أمضى فترة الحصار كلّها دون أن يُسهم في أي عمل لصالح منظمة التحرير أو أيّ صالح عامّ آخر، يطلب الآن، في هذا الظرف، أن يعود إلى المعهد، ولا يكتفي بهذا، بل يطلب أن يحصل على مرتبةٍ أعلى. والذي فرض نفسه عليّ فرضاً وهو يعلم اني أدين انتهازيته يريد مني، انا بالذات، ان استخدم دالّتي على القائد العامّ ليصدر القائد قبل رحيله عن بيروت قرار إعادته ورفع مرتبته: "بين الذين اعرفهم انت الوحيد الذي لديه الجرأة على مفاتحه القائد العام بهذا الطلب في هذا الظرف". ومع أني لم اعقّب بشيء للتوّ، فلا بدّ من أنه استشعر حقيقة ردّ فعلي، لكنه لم يستسلم: "أعوّل عليك، المركز الذي أعمل فيه سيُقفل".

حثثتُ نفسي على الصبر، فما الداعي لأن اثور في وجه من هو على وشك مغادرتي من تلقاء نفسه. ولجأتُ إلى المداورَة، لا لأزوغ عن مواجهة مستفزّي، بل لأداري غيظي: "معهدنا باقٍ في بيروت، فهل تنوي ان تبقى فيها"؟ سألتُ، وفي ظني أن الذي يَندبني لمهمةٍ غريبة

لا يعرف هذه المعلومة. لكن ظني لم يُصب. فالذي لم أره يغادر شقتي منذ دخلها قال بنبرةٍ لم تخلُ حتى من التبجّح إنه يعرف هذا، ويعرف أن العاملين في المعهد قد خُيّروا بين البقاء والرحيل: "في إسرائيل هم مهتمون بمصير المعهد ومغزى بقائه هنا، وإذاعاتُهم أسهبت في عرض التفاصيل". وإذاً، فإن عبد الرزاق وضع خطته على هذا الأساس، وربما بسبب هذا لم ينتبه حين أمعن في استعراض انتهازيته إلى مغزى ما ردّ به على سؤالي: "أنا مستعجلٌ على صدور قرار إعادتي إلى المعهد حتى يصير بإمكاني أن أختار، وسأختار، بالطبع، الرحيل" أذهلتني الوقاحة، وأبقاني الذهول صامتاً. فتطوّع عبد الرزاق بتقديم إيضاح: الوضع الذي سوف ينشأ لن يُحتمل. الرئيس الجديد، وناس فريقه، وأعوان إسرائيل الآخرون، والخانعون لهم ولها، هم الذين سيحكمون البلد: "قل إن إسرائيل هي التي ستحكم، وهم سيلاحقون كلّ...". إلى هنا، لم يعد بإمكاني أن أحتمل. وكي لا أنفجر، خرجت من داخلي "صبّر نفسك" ملتاعة. ودون أن انتبه لهذا، نطقت العبارة بصوت مسموع، فتوقف، هو الذي التقط جرس الصوت دون أن يُدرك العبارة، واستفهم: "هل تسألني عن شيء"؟ سؤاله هداني إلى ما أفعله كي أحتفظ بالسيطرة على غيظي: "ماذا لو أن عمل معهدنا اقتضى أن تظل هنا"؟ ويبدو أنه استخلص من طرحي هذا السؤال غير ما رميتُ أنا إليه، فقدّم

شروحاً إضافية: "في الوضع الجديد، لن يُعطوا أسرتي إذن إقامة هنا. وساكون صريحاً معك، انا أصغي لما يقوله الإسرائيليون وافهمه، لن تسمح إسرائيل ببقاء المعهد الفلسطيني في العاصمة التي يحكمها اعوانها، هي مسألة وقت بعده لن يبقى معهد، فقدّم لي هذه الخدمة، ولن انسى جميلك ابداً"!

فار مرجلي وكاد بخاره ينتزع سدادة غيظي. لكن طزقاً قوياً وملحاً أوقف انفجاري، فهرعت إلى الباب مبتعداً عن مكمن الاستفزاز. توقعت أن تكون الطارقة هي الجارة. ولكي لا ترى عبوسي فتظن اني اعبس في وجهها هي، وضعتُ على ثغري ابتسامة، واجتهدت ان افرد وجهي. لكن الذي برز أمامي كان من لم أتوقع حضوره في هذا الوقت، من كدتُ أنسى أنه قد يحضر. توقّف القتال الذي انهمك إبني فيه، وها هو ذا ماثل قبالتي مرفوع الرأس منتصب القامة: لقد نجا، ليس هذا فقط، بل لقد اشتدّ عوده. لوّحت شمس الصيف وجه ثائر. واختفت آخر أمارات الطفولة عن هذا الوجه. واكتسبت القسماتُ صلابةً تنم عن قوة العزيمة التي شحذتها مواجهة الحصار. وشفّت من العينين جسارةٌ تُظهر كم صار مقداماً هذا الذي لم يُنه العشرين بعد: "انتصرنا يا أبي، ثباتنا في مواجهة تفوقهم العسكري، أنت الذي طالما قلت هذا".

بدا ثائر مزهواً بيقينه أن المعتدي هو الذي انهزم. لم اعترض، أو لأقل إني لم اظهر اعتراضاً، بالرغم من اني لم اكن مثله على يقين، بل رايتُ ثنائية النصر والهزيمة في نحو مختلف. وما الذي كنّا، إبني وأنا، سنجنيه لو دلقت ماء موضوعيتي البارد على زهو الشابّ المتوقد: الدمار والتشريد، والجرحى الذين بعشرات الألوف، والقتلى الذين بالألوف، والأسرى الذين لم يُحص عددهم بعد، والثمن الذي سيُدفع للتوّ: الرحيل، والتشتّت في بلدان عدّة أغلبها بعيد عن أرض الوطن، والمصير الذي لا يبين من معالمه إلا ما يثير الهواجس، مصير الفلسطينيين الراحلين عن لبنان والفلسطينيين الباقين فيه، ومصير حلفائهم اللبنانيين، ومصير لبنان كله. وإذا كان ما ظفرنا به مع دفع هذا الثمن نصراً فهو نصر نسبي، نصْر المغلوب على أمره وقد تعلم ان لا يأذن للهزيمة بأن تمحقه.

تسمرتُ إزاء زهو لم استطع ان اجاري إبني فيه. ويبدو أن ثائر تصور انها حيرتي في فهم سرّ حضوره المبكر، المفاجئ، فقدّم الإيضاح: "أعطونا إجازة، النهار بطوله، وعليّ، كيف أقول هذا، عليّ ان..." وقبل أن يُتِمّ العبارة، وقع نظر إبني على عبد الرزاق جالساً على الشرفة. ولأن ثائر، بخلاف أختيه، كان قد قابل عبد الرزاق مرّة وعرف بالصدفة اني لا احمل له ودّاً او احتراماً، فإنه فوجئ بوجوده في

منزلنا، وبثّت عيناه سؤالاً لم يُفصح عنه بالكلام. فوجدتني أجيب بصوت يسمعه الجالس على الشرفة:" سيغادرنا للتو، الآن على ما اعتقد". فوجّه ثائر إلى عبد الرزاق تحيةً فاترة دون أن يتقدم نحوه، بالرغم من أن الزائر نهض واقفاً في هيئة من توقع أن يجيء الصغير إليه حتى يصافحه. وبدل الشرفة، توجّه ابني إلى حجرة نومه، الحجرة التي شغلها عبد الرزاق. لكن صاحب الحجرة سرعان ما انفلت منها وفي حركته ونظرته تعابير احتجاج لاهبة. ولم يكن صعباً عليّ أن أدرك ما يحتج ثائر عليه، ثائر الذي ألف أن يُحافظ على حجرته نظيفةً ومرتبةً في كلّ ظرف.

سيطرتي أنا على نفسي، ثم نجاحي في حمل إبني إلى السيطرة على نفسه هو الآخر، شجّعاني. فطلبتُ من ثائر أن يبقى بعيداً للحظة. وتوجهتُ إلى الشرفة ووقفتُ إزاء الذي بدأ يفهم: "طلبك لن أدعمه، وإذا سُئلتُ عنه فسأعارضه. وما دمت قد شربت قهوتك، فنفّذ ما نويته، خذ أشياءك، واعفني من همّين لا أطيق أياً منهما: اعفني من ان اسمع في منزلي لغة لا افهمها وان اشهد سلوكاً لا اقرّه"! حدّثتهُ بنبرة من يتلو قرار إدانة. وهيّأتُ نفسي للرد على اعتراضه إن اعترض. إلا أن الذي أهين في هذا النحو لم يعترض ولم يُظهر ما يشي بأنه احسّ ايّ إهانة. وعلى عكس ما توقعتُ، شكرني عبد

الرزاق على الاستضافة وغالى في الشكر، ووعد بأن يُغادر خلال دقائق، ثم انصرف للمّ حوائجه، ووفى بوعده. وما أن خلت الشقة من عبد الرزاق حتى ناديتُ الإبن الذي التجأ إلى حجرة مكتبي: "الطريق، الآن، سالكة وآمنة. الحرب توقفت على جبهة الأعداء، وانتهت على جبهة ثقلاء الظل"!

جاء ثائر إليَّ محتقناً بغيظه. ولأني خشيتُ أن ينفجر الذي أرغم على كظم الغيظ، فإني تعمّدتُ توجيه اهتمامه إلى موضوع يشغله عن التفكير بما حلّ بحجرته. فأبلغتُ إليه اعتزامي البقاء في بيروت، فانشغل بالنبأ الجديد. وهكذا، شرعنا في مناقشة حول مصير الأسرة، المصير الذي سيتبدل مرة أخرى، لعلها الثالثة أو الرابعة منذ وعى هو ما يدور حوله، والتي ربما كانت العاشرة منذ أخرجتُ أنا من فلسطين. وفيما نحن مستغرقان في النقاش، ظهرت الجارة أمامنا وهي في ثوب نومها القصير الشفاف، وفوجئ بها ثائر أكثر، بالطبع، مما فوجئتُ أنا. لم أكن قد صحبتُ عبد الرزاق إلى باب الشقة، ولم يُغلق المغادر مطروداً الباب وراءه. ويبدو أن نورما التي لم تعرف أن ثائر جاء إلى الشقة قد رأت من شرفتها ضيفي وهو يغادر الحيّ بسيارته وتوقعت أن أخفّ إليها، ولما لم أفعل فإنها هي التي جاءت إليَّ. ولأن نورما وجدت الباب مفتوحاً، فقد عبرته متسللة وفي نيتها

أن تفاجئني بفتنتها التي يشف عنها ثوب النوم، وإذ بها هي التي تُفاجأ.

إبني المزهوّ باكتمال رجولته رسم على ثغره ابتسامة لم يموّه دلالتها. فاشتدّ ارتباك نورما، فتصرفت في نحو أكد ما استخلصه ثائر، أو لأقل إن تصرفها أكد ما هو صحيح. فالمرأة المرتبكة لملمت أطراف ثوبها وهي توجه نظرها نحو الشاب، محاولة أن تستر ما يشفه الثوب. لكن، لأن الثوب القصير والرقيق لم يستر شيئاً، فإن التي لم تكن قد فاهت بعد بأي كلمة تراجعت جارية نحو شقتها وهي تجمجم بكلمات اعتذار.

لم أجد لزوماً لشرح ما لا يحتاج إلى الشرح. ولم أرتبك، بل قدّمتُ ما أوشك أن يكون اعترافاً: "ظروف الخطر، تعرف، تقرّب الناس بعضهم من بعض. هي، كيف أقول، وحيدة، وأنا...". فقاطعني ثائر، مظهراً أنه غير مهتم بما جرى: "وأنت، انت صرتَ وحيداً منذ سافرتْ زوجتك. بالمناسبة أنا لم أسألك هل سافرت هي أو أنك سفرتها"؟

طرح السؤال ولم ينتظر إجابتي، بل هزّ كتفيه هزّة تؤكد عدم اهتمامه بما جرى للمرأة الأخرى، ثم توجه إلى حجرته. ومن هناك، جاءني إيقاع حركة المنهمك في ترتيب أشيائه.

أن تتوقف الحرب وأتحرر من ضيف ثقيل أمران كل منهما يُريح الأعصاب وحده، فكيف وقد ظفرتُ بهما معاً! وهكذا وجدتنى أهوِم لإغفاءة لم أغالبها.

الإغفاة التي لم أدر كم طالت انتزعني منها هتافٌ مجلجل: "دستور يا أهل الدار"! كانت نورما المرتبكة قد نسيت هي الأخرى أن تغلق الباب. وكان هذا هو صوت زياد الذي اقتحم الشقة بهرجه ومرجه. وكانت لبنى مع زياد. وحين استعدتُ صحوي، كانت ابتسامة متذاكية قد ارتسمت على ثغر لبنى: "لا تقل إنك أنت الذي يستخدم هذا العطر، إنها رائحة عطر نسائي أعرفه لأني أنا الأخرى أحبّه، فما اسمها هذه التي تركته في شقتك"؟ وبهذه "أنا الأخرى"، افصحتْ رائقة المزاج عن ما ألمحت إليه إلماحاً. وزياد، وهو من لم ينتبه لأيّ رائحة لكنه لا يكفّ عن الانتباه لأيّ شيء يصدر عن لبنى، التقط المغزى: "لن يقول من هي بحضوري أنا، فهو يخشى أن أنافسه، ويعرف أني سأغلبه".

كان من شأن صديقي أن يُمعنا في هذا الهذر الذي لا أستطيبه، لو لم يوقفهما صوت ثائر من حجرته وهو يسألني عن شيء من أشيائه افتقده. وكان من الطبيعي أن أحثّ إبني على المجيء إلينا ليحيي اللذين أعرف أنهما كليهما عزيزان عليه. وكان في هذا فرصةٌ حررتني

من الأسئلة المحرجة. لكن هذه الفرصة لم تستمر طويلاً. فثائر تعجّل العودة إلى ما كان منهمكاً فيه واعتذر بقصر مدّة إجازته. وزياد عاد إلى ما حاولتُ صرفه عنه، وتساءل عما إذا كان العطر لشخص يخصني أنا أم يخصّ ثائر. هنا، صار عليّ طيّ هذا الاستقصاء دون أن أضطر إلى الكذب: "لا تستحقُّ شمّة عطر كل هذا الاهتمام، فانسياها، لدينا ما هو أهمّ"!

عاتبني زياد لأني لم أجيء إلى حيث بقيا في انتظاري طيلة المساء. ووشت تعابير لبنى بأنها هي الأخرى عاتبة عليّ. أما ما انتظرني صديقاي من أجله فكان لقاءً تقرر عقده مع القائد العام انتُقي المدعوون إليه انتقاء من بين الكتّاب والصحافيين. وزياد الذي علم في مكتب القائد العام أنهم يبحثون عني، تعهد أن يُحضرني هو: "أما وأنك أغرقت نفسك في الأريج الفتّان بدل الغرق في الحكي، فحسناً فعلت. فالقائد الذي انتظرناه إلى ما بعد منتصف الليل لم يحضر". وبعد أن استوفى ما احتاج إليه من التشكّي أزاء هذا السلوك، فطن زياد إلى ما جاء هذه المرة كي يقوله لي. فالاجتماع أرجئ إلى اليوم الذي صرنا فيه، وقيل لهم إن موعده سيبلغُ إليهم في أي وقت وعليهم أن يظلوا على استعداد: "جئنا إليك كي تظل أنت الاخر على استعداد، حتى لو توجب أن تُضحي من أجل خاطر القائد العام

بموعد معطّر من نوع...". فقاطعتُ زياد لأبعده عن ما يحاول استدراجي إليه: "اقترح، إذاً، أن نظلّ معاً، نتجول بالسيارة، توقُّف الحرب سيفرج عن البنزين، نعمل ما علينا عمله، ولا نُهمل الاستعداد للقاء القائد العام"!

طلبتُ أن نذهب أولاً إلى ابنتي. خشيتُ أن تستغرقني مشاغل يومي فتفوت الفرصة كما فاتت من قبل. تردد زياد. لكن لبنى حسمت الأمر: "هذا يلائمني، أريد أن أسجل مقابلة معهما، ليس لأنهما ابنتاك، وليس لأني أحبّهما وأقدّرهما، لكن لسبب لعلكما لم تفطنا إليه". وبين يديّ شرح السبب، نوّهت لبنى بذكاء من اختار للأختين التوأمين اسميّ غزّة ويافا: "هذا رمز، ودلالته عميقة". وبهذا التنويه، اتضح السبب دون شرح. غير أن زياد لم يُفوتّ الفرصة، فاندفع لتقديم الشرح الذي لم يعد له لزوم، فتاتان فلسطينيتان، وُلدتا وعاشتا في الشتات، تحمل واحدةٌ منهما اسم مدينة فلسطينية استولت إسرائيل عليها في جولة توسعها الأولى في العام 1948، وتحمل الثانية أسم مدينة أخرى استولت إسرائيل عليها في جولة التوسع الثانية في العام 1967. والفتاتان تكافحان معاً، في حرب لاحقتهما، في مدينة غير فلسطينية فرضت إسرائيل عليها حصاراً مريعاً...". وقبل أن أقاطعه أنا لأقول إني طالما سمعتُ هذا الكلام منه، تدخّلت لبنى مدفوعة بما

يشغل بالها هي: "أجريتُ مقابلات مع مقاتلين. وسأجعل المقابلة مع البنتين فاتحة لمقابلات أجريها مع ناشطي الدفاع المدني، وبعد هذا سوف أجري مقابلات مع القادة، فتكتمل الصورة، ويمكن أن تصدر في كتاب يستوفي قصة مواجهة الحصار". ولئن أخذ زياد كما أظهرت تعابير وجهه بما ارتسم في بال لبنى، فإنه لم يتخلّ عن عادته: "ملعون أبو القادة، انسيهم، خلّيك مع المقاتلات والمقاتلين، غزّة ويافا، أيّ رمز، مدينتان كل واحدة منهما أحلى من الثانية، وفتاتان كلٌ منهما أحلى من الوردة"!

لم أوخذ بهذه المقارنات: "الأفضل أن نحمل للابنتين شيئاً واقعياً وليس رمزياً، شيئاً تأكلانه مثلاً". كنتُ قد فكرتُ في الأمر. فذكّرتُ زياد بما فعلناه في زيارة سابقة. فاعترض هو على شيء واحد: "أي شيء إلا المرق"، فطمأنته، سنذهب إلى الملحمة الباريسية فنحمل منها ما نطبخه هناك في المركز: "تنشغلان انتما بالمقارنة بين المدينتين وبين اللتين تحملان اسميهما، وأطبخ أنا". ولأن ثائر آثر أن يبقى لاستكمال ترتيب حجرته، فقد توجهنا نحن الثلاثة إلى الملحمة بدونه.

تلقاني أبو ملحم بالحضن واحتفى بصديقي. كانت سعادة صاحب الملحمة اللبناني بتوقف الحرب طاغية. ولم يفت الذي لا تعوزه لباقةُ

البيروتي الأصيل وحصافة التاجر أن يهنئنا بالنصر الذي رأى هو أنه تحقق للفلسطينيين قبل غيرهم: "الخروج مرفوعي الراس. العالم كلّه يُرسل أحلى سفنه لتنقلهم، والدول العظمى ترسل قواتها لتحمي رحيلهم وتضمن أمن مدنييهم الباقين هنا. أليس هذا شيئاً يرفع الراس". لم أشك في أن اللبناني الذي تحمّل تبعات الوجود الفلسطيني في بلده كان سعيداً بتوقف القتال وتوفر الفرصة للعودة إلى الحياة الطبيعية. ولأني كنتُ حريصاً على إغوائه لتدبير ما أحتاج إليه مما يستبقيه لزبائنه الخاصين، ولكي لا يتصور أني راحل فأفقد منزلة الزبون الخاص، فقد استعنتُ بصحافتي أنا الآخر: "سأبقى هنا. يصعبُ أن أعتاد من جديد أكل اللحم من غير الملحمة الباريسية. اللحم الذي لا يُحضّره أبو ملحم ليس لحماً، والدجاج الذي لا يمرّ من بين يديه ليس دجاجاً بالمرّة". وبعد هذا الإطراء، أحضر أبو ملحم من تلقاء نفسه أربع دجاجات طازجة: "وحق الذي نصركم بمشيئته، ما أعطيتُ مثل هذا العدد لغيرك. اثنتان لك وللأولاد، وواحدة للست التي تُشرفنا أوّل مرّه، وواحدة للأستاذ".

توقّف الحرب أكّده أكثر من أي شيء آخر اكتظاظ الشوارع بالناس والسيارات، وعودةُ أصحاب المحَلات المتنوعة إلى فتحها وانصرافهم إلى إصلاح ما ألحقه بها القصف وفردهم بضائعها أمام

المحلات على الأرصفة، وتزاحم الناس على معاينة هذه البضائع وعلى الشراء. ولما لم يكن في الوارد الاستغناء عن السيارة لحاجتنا إليها بقية النهار وربما الليل أيضاً، فإن مشوارنا وسط الزحام إلى مركز الدفاع المدني استغرق ساعة بتمامها. وكانت هذه هي الساعة التي بثّت الإذاعات خلالها نبأ انفجار شاحنة ملغمة في سوق شعبي اكتظ بروّاده. وكانت هذه هي الشاحنة الثالثة التي انفجرت منذ الصباح. عكّر النبأ أمزجتنا. الاتفاق أوقف الحرب العلنية. أما تفجير الشاحنات فحربٌ سرّية لا يوقفها أي اتفاق. وفي المركز، كانت في الانتظار خيبة أمل لم نحسب حسابها. فالبنتان لم تكونا هناك، والذين تلقّوا أسئلتنا عنهما قدّموا إجابات امتزج فيها الإحساس بالحرج والرغبة في الزوغان. قائد المركز الذي بحثتُ طويلاً إلى أن عثرتُ عليه في الطابق الأسفل لم يستطع أن يستر تحرُّجه إزائي، ولم آذن أنا له بأن يزوغ: "لن أتركك حتى أعرف الحكاية".

مُنحت غزّة ويافا في الصباح إجازة نهار بطوله، وكانتا تتهيئان للتوجه إلى المنزل حين تلقى المركز نداءً عاجلاً بعد انفجار أولى الشاحنات الثلاث. كانوا يطلبون مسعفين. فأصرّت البنتان كلتاهما على المشاركة في المهمة: "اقترحتُ أن تذهب واحدة منهما فقط، وتركتُ لهما الخيار، فاختارت كل منهما الذهاب، ولم أتمكن من

منعهما".

تجنبتُ أن أزيد أثقال الشاب، ولم أجد في سلوكه ما يؤاخذ عليه. فاكتفيتُ بأن تمنيتُ على الذي نهض لوداعي أن ينقل إلى ابنتيَ رغبتي في أن تجيئا إلى المنزل قبل المساء، قبل أن يبرحه أخوهما. وحين مددتُ يدي لمصافحة الوداع، التقط الشاب اليد ثم لم يتعجل إفلاتها، بل بدا راغباً في قول شيء، وإن بدا أيضاً متردداً في قوله. وهو، على كل حال، لم يحزم أمره إلا بعد أن حثثته: "هات ما عندك، ولا تخف"! وما تردد قائد المركز في قوله لي لم يكن مما يسرّ: "علي أن أخبرك، لكن لا لزوم لأن تقلق". شاء أن يجنبني القلق فأثارت عبارته قلقي، فاستعجلته كي يبوح بما كتمه.

بعد أربعين دقيقة من انفجار الشاحنة الأولى، بعد أن توجه المسعفون، ومنهم ابنتاي، إلى الساحة التي وقع الانفجار فيها، انفجرت، في الساحة ذاتها، شاحنة ثانية، وهو لا يعرف ما الذي جرى لمسعفيه، هل كانوا في الساحة عندما وقع الانفجار الثاني، هل بلغوها وغادروها قبله: "نحتاجُ لبعض الوقت حتى تصلنا التفاصيل، الظرف الذي نحن فيه، أنت تعرف...".

لم أنتظر وصول التفاصيل، لم أنتظر حتى أن يتمّ الشاب شروحه، بل

طلبتُ من صديقيّ أن يأخذاني إلى الساحة المنكوبة ويتركاني هناك ثم ينصرفا، فلا داعي لأن يجازفا بالبقاء حين لا يكون للمجازفة لزوم، فمن يدري، فقد تكون في الساحة شاحنة ملغمة أخرى. وفي السيارة التي توجهنا إليها صامتين، كانت لبنى سباقة إلى التفوه بشيء: "من غير المعقول أن يُفجروا شاحنة ثالثة في المكان ذاته". قالت المدفوعةُ برغبتها في البقاء معي هذا، ثم شرعت في شرح لم أنتبه إليه. فزياد الذي كان يبحث في مذياع سيارته عن محطة بعينها أفلح في تلك اللحظة في التقاطها. وجاءنا صوتٌ يبثُ بلاغاً رسمياً صادراً عن القيادة المشتركة يحذّر الجمهور من الاقتراب من أي شاحنة. التحذير تبعه تعليقٌ بثّه صوت ساخط: عملاء العدو يواصلون الحرب التي أرغم هو على إيقافها، يضخون الذعر في العروق عنواناً للمرحلة التي يتصدر السلطة فيها رئيسهم الذي رسّمته الدّباباتُ الإسرائيلية رئيساً للبنان". بالرغم من التحذير، أصرّ صديقاي على البقاء معي. وقبل أن نبرح السيارة، هيأت لبنى آلة التسجيل.

خلت الساحة من الناس الأحياء وأخليت من الجثث، وحلّ الدمار بكل شيء فيها، وتجمدت على الأرض، بين أكوام الدمار، بقع دماء تظهر كثافتها فداحةَ المجزرتين اللتين توالتا عليها. لم تكن هذه أولى المجازر التي أعاين أنا أو يُعاين زياد آثارها؛ فكلٌ منا شهد

مجازر قبل هذه، والصدف وحدها هي التي نجتنا أكثر من مرة واحدة من موت محقق. شهدنا مجازر ونحن طفلان قبل أن نُهجّر من فلسطين. وشهدنا مجازر أخرى لاحقتنا في بلدان الشتات. لبنى الأقلّ خبرة جّمد الذهول والأسى حركتها وعقد لسانها. حتى نحن، زياد وأنا، بالرغم من الخبرة التي تجعل الشنيع أقلّ شناعة، وقفنا ساهمين وعقد التأثر لسانينا. وحين تحدّث زياد فلكي ينبهني إلى ما جئنا من أجله: "لا بدّ من البحث عن البنتين". وهو الذي اقترح أن نرجع إلى المركز، فقد نجدهما هناك أو نجد أخباراً عنهما.

في المركز، عرفنا أن غزّة ويافا رجعتا إليه أثناء غيابنا. وقال قائد المركز إنه تشدّد في إلزام ابنتي الذهاب إلى المنزل وأرسلهما إليه في سيارة الإسعاف وأمر السائق بأن لا ينزلهما في أيّ مكان آخر حتى لو طلبتا هما هذا. كان الشاب مرتاحاً لأن قلقي على ابنتي انطفأ، وبدا أقلّ تحفظاً في الحكي مما كان عليه: "في مواجهة الشاحنات الملغومة، خسرنا ثلاثة من مسعفينا، فتاتين وشاباً، وتحطمت لنا سيارتا إسعاف". قال الشاب هذا في ما بدا تمهيداً لقول المزيد. غير أن طارئاً شغل الراغب في البوح عنّا، وتعجّلنا نحن الانصراف قبل أن يفرغ لنا مرة أخرى. في غضون هذا، قدم سائق سيارة الإسعاف التي أوصلت غزّة ويافا إلى منزلنا وأكد أنهما صارتا فيه. ولم يشأ السائق

أن ننصرف قبل أن نعرف كيف نجا هو ونجت ابنتاي من الانفجار الثاني: "ما شاء قائد المركز أن يحكيه لكم سأحكيه أنا".

مسعفو المركز الذين خفّوا إلى الساحة بعد الانفجار الأول رفدوا مسعفين كثيرين جاؤوا من مراكز أخرى. وقد تمكنت غزّة ويافا من استخلاص جسد جريح عالق بين الأنقاض وحملتاه لتسعفاه بما قد يوقف نزيفه تمهيداً لنقله إلى المستشفى. ولأن الرصيف الذي أوقف السائق سيارة الأسعاف بقربه كان مكتظاً بالأجساد والمسعفين الذين يتولّونها، فإن البنتين اضطُرتا إلى البحث عن مكان خالٍ لتمديد الجريح عليه، فقادهما البحث إلى شارع جانبيٍ تفصله عن الساحة عمارات تهدّم بعضها وبقي بعضها قائماً وتشكلت من حطام ما تهدم تلالٌ ركام أتمّ فصل الساحة عن هذا الشارع. وحين وقع الانفجار الثاني كان السائق قد أفلح في إحضار السيارة إلى هذا الشارع وإيقافها بجانب الثلاثة. وبهذا، نجا الجميع من الانفجار. "نجوا بالصدفة"، عقّب زياد. وتأكد المغزى الكامل لنجاة الصدفة حين قال هو نفسه بنبرة من يتحدث إلى نفسه: "كما نجونا جميعنا حتى الآن".

آثرت، وقد تحررتُ من القلق، أن أعرّج على معهدي قبل التوجه إلى المنزل. ولما لم يعد لصديقيّ ما يلزمهما البقاء معي إلزاماً، فإنهما آثرا من جانبهما أن يُوصلاني إلى المعهد ويتركاني هناك. وفيما هما

يودعاني، ذكّرني زياد بالموعد المرتقب مع القائد العام: "قد أجيء لآخذك في أي لحظة". أما لبنى فذكرتني بضرورة أن ألتقي النجمة المصرية. لكن التي اقتنعت بأني أتجنب هذا اللقاء عامداً لم تلح كثيراً هذه المرة: "إذا حزمت أمرك، فسآخذك إليها".

وجدتُ المعهد مكتظاً. جاء الجميع. ومن هؤلاء من أصطحب أقرباء وأصدقاء حثهم الفضول على رؤية المؤسسة الفلسطينية العلمية التي ستبقى في بيروت بعد رحيل الآخرين. وما أن وقعت عين سكرتيرة المدير عليّ وأنا أشقُّ طريقي نحو حجرة مكتبي حتى اخترق صوتها ضجيج الحشد: "نبحث عنك منذ ساعتين، الأستاذ عوني يطلبك".

كان العاملون في المعهد قد أفصحوا عن اختيارهم البقاء أو الرحيل، اتفقوا هذا بأعجل مما قدرت أنا. وكان كلُّ واحد من هؤلاء قد وقّع الأنموذج الذي أعده المدير. وكان الجميع مدعوين إلى ما يوشك أن يكون حفلة شاي أعدّت بمناسبة توقف الحرب. وفي الحفلة، حثني المدير على الإسراع في تناول شايي والانتقال إلى مكتبه. وهناك، بدأ العمل الذي طلبني هو كي ننجزه معاً: إعداد تصوّرنا لعمل المعهد في الظرف المستجد.

الذين اختاروا البقاء كانوا ثلث العاملين، قرابة أربعين من مائة وعشرين. ومعظم هؤلاء كان من الفلسطينيين المقيمين في لبنان أو من اللبنانيين أنفسهم، ممن يشغلون وظائف إدارية وفنية. أما الذين يشتغلون في الدراسات، فإن معظمهم اختار الرحيل، ولم يختر البقاء إلا خمسة منهم. بهذا العدد وبضآلة عدد الدارسين سيتعذر أن يؤدي المعهد المهامّ التي ثابر على تأديتها منذ تأسيسه: "وضعنا صعب". اشتكى الأستاذ عوني، لكنه لم يُشهر اليأس. ففي اليد عمل أشياء كثيرة لتعويض النقص: "زيادة الأعباء على الذين يبقون، التعاقد مع موظفين ودارسين جدد، تكليف دارسين من خارج المعهد بإعداد دراسات له". كنّا ممن يعزّ عليهم أن يضعفوا إزاء المصاعب والأخطار. وكان ظرفنا مما يُعلي شأن التحدّي. فصار من المتعذر أن ننكص. وفي المحصلة، اتفقنا على أن نطلب من القائد العام صلاحيات استثنائية توجب تخصيص ميزانية إضافية، وتعاهدنا على أن لا ننثني أمام أيّ هواجس. والواقع أننا لو أذنّا لضغط الهواجس بأن يؤثر في خططنا لتعذّر أن نقرّر الاستمرار: "لا تستحضر المتاعب قبل أن تحضر هي...". هذا المثل الشهير ردّده المدير مراراً بالإنجليزية، وكررتُه أنا بالعربية في ختام مداولتنا. وضحكنا، لأننا انتبهنا كلانا في وقت واحد إلى مغزى الحضور القويّ لهذا المثل بالذات في أذهاننا، إنه يقيننا بأن المتاعب القادمة أضخم من أن يُمكن القفز عليها.

بعد هذا اللقاء، عزمتُ على الذهاب إلى المنزل حيث الأولاد. فأوعز المدير لسائقه أن يوصلني. ولما كان الزحام قد اشتد في الشوارع بالرغم من شدّة الحرّ، فإن السيارة مضت ببطء مغيظ كاد يخرجني عن طوري. وحين وجدتني بجوار شقة الإذاعة، قرّرتُ أن أعرّج عليها لأنهي واجبي اليومي، فيصير بإمكاني أن أفرغ بعدها للأولاد.

الاكتظاظ في شقة الإذاعة كان مريعاً، وكذلك الصخب. الكلّ جاء ليستقصي التفاصيل، مواعيد الرحيل وقوافله ووجهة كلّ قافلة؛ الحوائج التي يمكن حملها إلى مواقع الشتات الجديدة والأخرى المحظور حملها؛ مستقبل الإذاعة التي صار مفهوماً أنها لن تبقى في بيروت؛ وما إلى ذلك مما هو كثير. جاهدتُ بمشقة كي أبلغ حجرة المدير إلى أن ولجتُ بابها فتعذّر التقدم. كان المحاصرُ بشتّى المشاغل محشوراً حشراً بين أجساد الذين بلغوا الحجرة قبلي وشغلوا كلّ شبر فيها وراحوا يُمطرونه بأسئلتهم. وكان هو يقول إن المعلومات الكاملة لم تتوفر له بعد، وجداول المواعيد والأسماء لم يكتمل تحديدها حتى لدى القيادة، وما على السائلين إلا أن يُصبّروا أنفسهم إلى أن تصدر تعليمات القيادة. بالرغم من هذا، كان لدى كل محتشد في الحجرة سؤال يتصور صاحبه أن ما سيصدر عن القيادة لن يجيب عليه ويطالب المدير بأن يهتمّ به.

ادركتُ أن لا مكان لعمل شيء في هذا المحشر الصاخب، فقررتُ الاستغناء عن كتابة حديثي اليومي. ثم ذهبتُ لأبعد من هذا، إذ أني اقنعتُ نفسي بأن لا لزوم لكتابة أيِّ حديث؛ تطوعتُ للكتابة في زمن حرب شنتها إسرائيل بجيشها، هذه الحرب توقفت الآن. أما حرب إسرائيل بعملائها، الحرب التي لم تتوقف، فقد كانت جاريةً من قبل، وليس في استمرارها ما هو جديد.

في المنزل، كان الأولاد في الانتظار ونورما معهم. أعدّوا وجبة غذاء فاخرة. فزياد الذي مضى بسيارته بعد أن أوصلني إلى المعهد لم يلبث أن فطن هو إلى ما نسيته أنا، فحمل الدجاجتين العائدتين لنا اللتين كانتا في السيارة إلى منزلنا. وفيما نحن حول المائدة، انتبهت نورما إلى ما عدّته مفارقة وقالت بالإنجليزية: "الإناث الثلاث في مزاج رائق، أما الذكران، الأب وابنه، فمقطّبان كأن على راس كل واحد منهما طير جارح". كنتُ أعرفُ ما الذي يُعكّر بهجتي بنجاة الأولاد، وأعرف أنه هو ما يعكّر بهجة ثائر. فالأسى ليس هو وحده ما يبعث الأسى؛ البهجة التي تعرف أن وقتها لن يطول قد تبعث أسىً أشدّ. البنتان، وكذلك الجارة، لم يعرفن، بعد، أننا سنفترق دون أن ندري متى سنلتقي من جديد. ولأن نورما أدلت بملاحظتها بأمل أن تجتذبني إلى الجوّ المرح، ثم لأن هذا لم يحدث حتى بعد أن

استنجدت هي بابنتي فأنجدتاها، فقد استخلصت المستجدة على جوّنا الأسري أن عليها المغادرة: "أحتاج للراحة"، قالت هذا بالعربية، وأضافت بالإنجليزية: "لا بدّ من أن عندكم ما تناقشونه"، وتعجلت الانصراف.

النقاش الذي كان علينا، فعلاً، أن نجريه احتدم منذ ابتدأ، وظل محتدماً. فاللتان أقامتا في بيروت ثلاث سنوات متصلة أنشأتا فيها شبكة علاقات لم يتيسر لهما مثلها من قبل، لا من حيث السعة ولا من حيث التنوع ودرجة الانفتاح والحميمية. ولم يعد من السهل على غزّة أو يافا ان تخلعا نفسيهما من جو ألفتاه. وفي النقاش لإقناعي بالموافقة على بقائهما في بيروت، تأكد لي ما حزرته من قبل. فكل واحدة من البنتين صار لها صديق يحبّها وتحبّه، والصديقان كلاهما لبنانيّان سيبقيان في بلدهما، وليس لنا بلد نملك أن نستقدمهما للإقامة فيه. وجومي إزاء هذه الحجة فسّرته ابنتاي، كما بدا لي، تفسيراً غير صائب: فقالت غزّة: "أنت ربيتنا على هذا". ودعمت يافا توأمتها: "من منكما لا يكون لها صديق حين تبلغ السادسة عشرة ساعدّ هذا شذوذاً يستوجب المعالجة؛ كم مرّة قلت أنت هذا لنا، طيّب، ألم نبلغ السادسة عشرة".

كنتُ أفهم ما يشدّ البنتين إلى البقاء، وأفهم هذا الحبّ الذي نبت في

الجو المضمخ برومانسية الكفاح المشترك. إلا أن الوضع المستجد لا يبيح التعلق ببيئة مرغوبة أو التشبث بعلاقة حب. إن إملاءات هذا الظرف قاهرة، وكما أنه لا يد لي في صنعها، فإنه لا قدرة لي على تعديلها: "لو أمكن أن أتذكر المرات التي اضطرتني فيها ظروف الصراع مع إسرائيل إلى مبارحة ما ألفته والافتراق عن من أحببتهم، لانقضى نهاري كله دون أن أتمّ سرد حكايات التشرد المتواتر، ولبكيتما على حال أبيكما الذي تريانه الآن في صورة قامع المسرّات". أردتُ أن أتجنب صورة المتعسف حين أطلب من صغيرتي الرحيل. وأفضتُ في الشرح. الظرف الذي سينشأ بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين لا يوفر أيّ ضمانة ثابتة لبقاء أيّ منّا هنا. أنا باقٍ لأن عليّ أن أؤدي واجباً، فأنا أقدم على مجازفة لها سبب معقول. خلّفتُ أنا ورائي أكثر من نصف العمر الذي ينتج فيه الإنسان. أما هما فلم تبدءا بعد، والمستقبل كله أمامهما، وما من سبب يُجيز المجازفة بوأد المسار. في بيروت، هذا المسار انسد، ولا بدّ من انتقالهما إلى مكان آمن تشقان فيه مساراً لحياتهما. ثم إنني لن أكون بعيداً، ومن يدري فقد ألحق بهما بأعجل مما أقدّر وتقدران هما. ومع استمرار النقاش، فنّدتُ الحجج التي استحضرتها البنتان، دون أن تُقر أيّ منهما بأن هذه الحجج سقطت وانتهى الأمر.

مصير ثائر لم يكن موضع نقاش. فالشاب الذي يؤدي الخدمة العسكرية سيغادر مع وحدته التي تقرر أن تتوجه إلى دمشق. ومن هنا، نبت اقتراح أن تتوجه ابنتايِ أيضاً إلى دمشق. هذا الاقتراح زوّد غير الراغبتين في الرحيل بحجة جديدة. ففي سنوات بيروت الثلاث، تعلمت البنتان اللغة الإنجليزية: "بدأنا نتقنها"، قالت غزّة، فأكملت يافا: "في مدارس دمشق، الإنجليزية، أنت تعرف، فلِمَ نُضيّع الفرصة التي صارت في اليد، نحن بحاجة إلى سنة أخرى واحدة لإكمال الدراسة الثانوية، فلماذا لا نقضيها هنا". وكانت هذه حجّة يصعب تفنيدها، حتى مع التأثير الحاسم للحجج الأخرى المضادة. في قرارة نفسي، في القرارة التي تطمسها إملاءاتُ الظرف المستجد، كنت أتمنى لو أمكن أن يبقى الأنجال العزيزون بجانبي. والواقع أني خشيتُ بسبب هذا أن أضعف فالين. ولهذا، شحذتُ يقيني بأن بقاء ابنتيِ سيعرضهما لأخطار لا أستطيع حمايتهما منها، واستحضرتُ الشأن العام، فبقاؤهما سيعقّد حركتي لأداء المهام العامة ويُقلّص قدرتي على العمل. وبين ما يعتمل في قرارة النفس وبين ما يمليه منطق العقل، تغلّب المنطق، وإن لم تتنخ المشاعر: "لم يتبدل رأيي. وما تقولانه عن اللغة الإنجليزية مهمّ، وسأفكر فيه".

خلال النقاش، لم يفه ثائر بكلمة. غير أن تعابير وجه إبني التي

حرصتُ على استخلاص ما تبثّه اقنعتني بانه مؤيد لرايي. وما ان توقف النقاش مع اختيه حتى طرح ثائر السؤال الذي بدا انه تروّى في انتقاء كلماته: "هل ستعود زوجة ابينا للعيش معك هنا، او ان في البال العيش مع واحدة اخرى"؟ ومن حسن الحظ ان غزّة ويافا كانتا منهمكتين في حديث ثنائي فلم تنتبها إلى مغزى الإشارة لواحدة اخرى. ولكي اتجنب إثارة ايّ فضول، قلتُ بنبرة اردتها حازمة الدلالة: "إذا كنتُ انا، اباكم، امتنع عن التدخل في خصوصياتكم، فهل من اللائق...". ولم يُحوجني ثائر إلى إكمال العبارة، بل نهض عن المائدة، واجرى بيديه حركة قرنها بإيضاح: "لم اقصد التدخل، زوجة الأب او غيرها، إمراة او اخرى، ما دخلي، انا لا دخل لي"!

ذِكْرُ زوجة الأب نبّه البنتين إلى شيء غير ما اشار إليه كلام اخيهما: "إن ذهبنا إلى دمشق، اقول: إن ذهبنا، فكيف سنعيش وانت غير موجود معنا، اقصد مع من"؟ التقطتُ ما انطوى السؤال عليه من توجّه إلى القبول بمغادرة بيروت، فجددتُ النقاش لأحفز على تاكيد هذا التوجه: "كبرتم، الصغار يكبرون، وحق الاختيار في ايديكم. في دمشق او غيرها، انتم غير مضطرين للعيش مع احد لا تحبون العيش معه". وبهذه الترضية، صار النقاش ايسر. وفي النهاية، رسمنا خطّة كانت، شان كل ما نرسمه، خطّة مؤقتة. ستقيم غزّة ويافا في دمشق

مـع أصـدقاء لنـا، مـع زوجـةٍ وزوجٍ وأولادهمـا، خـلال السـنة التـي سـيقضيها ثـائر مـع وحـدته، وهـي السـنة التـي سـتحتاجانها لإكمال الدراسة الثانوية. وبعد هذه السنة سيكون لكلّ حادث حديث.

مع المساء.

غادر أبنائي المنزل، فبقيتُ وحدي دون أن أحزم أمري بشأن خطوتي التالية. الحال تبَدل. المهام التي كنتُ أنهمك فيها لم تعد مغوية. توفز الأعصاب الذي يشتدّ في أوقات الحظر بهتَ، فانطفأت الحاجة إلى الجري هنا وهناك بحساب وغير حساب. العمل الذي اجتذبني في وقت القتال صار ورائي. والعمل الذي سأبقى هنا من أجله لم يبدأ بعد ولم تتضح معالمه. اللقاء المرتقب مع القائد العام لم أجد باعثاً لمغادرة الشقة كي أستفهم عنه. وأيّ إغواء بقي في مثل هذا اللقاء بعـد أن أشـرف موسـم النشـاط الجليـل علـى نهايته، الموسـم الذي ينتعـش فيـه مزاج هـذا الرجل وتصير للقاء به نكهةٌ مغويـة. رجل التاريخ الفلسطيني، التاريخ الذي يمضي على غير هدى نحو مستقبل لا يعـرف أحـد علـى وجـه اليقين كـيف سـيكون، فتملأه المفاجآت وتلونه بشتى السمات المثيرة للاهتمام. قطعنا مسيرة طويلة معه، من بلد إلى بلد، من معمعة إلى معمعة، بجانبه، أو خلفه، دون أن نصير أمامه حتى حين كانت أفكارنا تسبق أفكاره. لم يأذن هو لأحد

بأن يتقدّمه. فإن سبق أحدٌ القائد بفكرة، فلو القائد يتبناها ويروّجها كأنها من بنات أفكاره هو، حتى وإن كانت الفكرةُ مما لا ينسجم مع طبيعته.

كنا ما أن نحلّ وإيّاه في مكان جديد، وقبل أن نستكمل إنشاء مألوف جديد يعوّض المألوف الذي فقدناه، حتى يستخدم هو براعته في حملنا إلى التصرف كأن المكان الجديد هو آخر مكان سنمكث فيه قبل العودة إلى الوطن. وكانت إسرائيل تُفلح هي وأعوانها في إخراجنا من المكان ودفعنا إلى غيره، تفعل هذا بالحرب، بالضغط، بالتآمر، بالتحالف مع الذين يضيقون بوجودنا. الأردن شغلنا غوره وجروده وتلاله وأحراشه، قراه ومدنه، ثم إلى غيره. سورية، ثم إلى غيرها. لبنان، ثم ها نحن مدفوعون إلى أماكن جديدة كثيرة بعده. سرنا إلى هدف تصورناه في متناول اليد، لكن السير نحوه لم يقرّبنا منه. ظل الهدف بعيداً حين كنّا نخطئ التوجه وحين كنّا نهتدي إلى الطريق القويم. سراب؟ ليس سراباً؛ وهم؟ ليس وهماً؛ حلم؟ قد يكون حلماً، لكن لماذا نفتقد المتعة التي في الأحلام.

يحلم الإنسان وهو ساكن، وهو مستقر، وهو مسترخ، فلِمَ توجب علينا أن نحلم ونحن نجري، ونحن مضطربون، ونحن مفتقرون إلى الراحة. يد إسرائيل الطويلة جعلت أحلامنا كوابيس. التصميم الذي

يسنده تفوّق القوة لم يحرم الفلسطينيين الاستقرار وحده، بلى حرمهم مراكمة القوة التي تمكنهم من تحقيق الاستقرار. أزمن المعتدون الإفراط في استخدام القوة. وأزمن الضحايا تحملُ البلاء. فما الذي سيقوله لنا القائد الخارج لتوه من جولة ليبدأ انتظار جولة تالية. ما من جولة خضناها إلا انتهت بالنتيجة ذاتها: الخروج من المكان الذي كنّا نوجد فيه قبل هذه الجولة، لنحطّ في مكان نترقب فيه الجولة التالية والخروج التالي. تكرّر هذا، ليس لنقص في إعداداتنا حتى حين وجد نقص خطير، ليس لأخطاء في سياستنا أو سلوكنا حتى حين راكمنا من الأخطاء ما يسدّ أيّ طريق؛ ليس لوهنٍ في العزائم، حتى وقد وجد بيننا خرعون؛ بل حدث هذا لأن القوى التي نجابهها أكبر منّا وأقوى، وهي مصممة على حرماننا من بلوغ أيّ هدف.

الستُ أعرف ما سيقوله هذا الرجل لحشد الكتاب، هل أجهلُ أن الإقرار بالهزيمة ليس من طبعه، لأن الإقرار بالهزيمة في الحالة الفلسطينية أخطر من الهزيمة ذاتها. الاستمرار في الوجود ممكن حتى بعد الهزائم، أما الإقرار بالهزيمة فهو المؤشر إلى نهاية الوجود. وحين لا تكونُ المهزوم فينبغي أن تصير المنتصر. وما دام أن النصر ليس في متناول اليد، فلا مناص من تصورّه تصوّراً. الإحساس

بالنصر، حتى ولو بالتوهم، مسعف لمن يحتاج إلى الاستمرار في الوجود.

ألم يتشبّث القائد العام بالخروج الكريم. الخروج الكريم يُضفي على التصور شيئاً من سمة الحقيقة ويُجيز الحديث عن النصر. ألستُ أعرف أن لدينا قائداً يتقن تأليف انتصارات، وأننا نسهم في ترويج ما يؤلّفه. ألسنا نساعده حتى في التأليف ذاته. فما الذي سينقصني إذا فاتني لقاء يُسمع فيه فصل جديد من كتابٍ كل فصل فيه مماثل لما سبقه. إنه النصر المتواتر الذي تُروى حكايته في النحو ذاته في كل مرة، بالعبارات ذاتها، النصر الذي أزمن فأزمن معه تشرذُنا واتسعت المساحةُ التي تفصلنا عن الهدف.

غصتُ إذاً، بعد أن صرتُ وحدي، في أعماق نفسي. انسقتُ مع سطوة الأفكار التي تضطرم في الأعماق وقلّما يتم البوح بها. أما ما انتشلني من هذه الأفكار، فكان طرقاً على الباب، بدا لي، منذ انتبهت إليه، ناعماً ومحسوب الإيقاع، بحيث لا يشي بالإلحاح ولا ينمّ عن التواني. ولم أشك في أنها الجارة التي صارت تُراقب الحركة من شقتي وإليها والتي رأت دون شك خروج أبنائي. لم يخطئ تقديري. كانت هي نورما. وكانت قد ارتدت عباءة منزلية فوق ثوب نومها. وما أن اطمأنت القادمة بشبقها المتقد إلى أنني وحدي حقاً، حتى نحّت

العباءة، وراحت تتصرف كأنها سيدة المنزل وسيدة صاحبه. أوقدت اللبنانية المفتونة بالأناقة شموعاً أنارت زوايا اختارتها هي، ودخلت حجرة نومي وحدها، ثم رجعت إلي، وشدتني بالطريقة ذاتها، الجسد ملتصق بالجسد، والشفتان ملتصقتان بالشفتين، إلى الحجرة التي أنارتها بالشموع في نحو بدا لي معه أني في حلم فتان. وهناك، خلعت نورما ثوب النوم، فشفت فتنتها وامتلأت الحجرة بأريج الشبق.

(8)

غياب الكهرباء لفترة طويلة أنساني وجود المحرك الذي يضمن تدفق الماء في طوابق البناية الخمسة. ذكّرني بالمحرك صوته الذي انتزعني من النوم. عادت، إذاً الكهرباء، وعاد الماء. مفاجأة منعشة جعلتني اغادر سريري قافزاً، واجري إلى الحمام جرياً، واغمر جسدي بالماء غمراً، فأتمتع في حجرة حمامي بما حرمتُ منه طيلة ما زاد على شهرين ونصف شهر. وبهذه المتعة، رجعتُ إلى حجرة نومي عارياً كما غادرتُها ومنتعشاً كما لم اكن منذ زمن طويل. ولحظتها، لحظتها فقط، انتبهتُ إلى أن نورما قد قضت الليلة معي في الحجرة.

التي صحت مثلي على صوت المحرك حين صحوت أنا آثرت البقاء مسترخية في السرير، وامتعها ان تتابع ما فعلته انا دون ان انتبه لوجودها. وحين انحنيتُ بجسدي العاري لأقبّل ثغر الممددة على السرير، جذبتني هي إليها في حركة تُظهر بغير كلام أنها راغبة في جولة جديدة تطفئ الشبق الذي تجدّد. والواقع أننا شرعنا في الجولة وكدنا نغيب في لذائذها. غير أن المحمومة بشهوتها فطنت فجأة لشيء، فحرّرت جسدها من ذراعي، وقفزت من السرير، وخطفت عباءتها خطفاً، وغادرت الحجرة جارية، وهي تقول: "عليّ ان اتفقد

حنفيات الماء قبل أن تُغرق شقتي".

وبوقدة الهمة المنتعشة، نظفتُ أنا الأواني المتراكمة بغير جلي، واعددتُ غلاية قهوة طافحة حملتها إلى الشرفة، واستسلمتُ لاسترخاءةٍ هانئة مع فنجان القهوة الأول، والسيجارة الأولى. وحين رنّ جرس الباب، الجرسُ الذي كنتُ نسيتُ وجوده هو الآخر، فرحتُ بالرنين فرح طفل أُهديتْ له زمّارة في يوم عيد. وعلى إيقاع الفرح، توجهتُ إلى الباب راقصاً لأفتحه لمن تصورتُ أنها نورما.

عند الباب، برز الصديقان لبنى وزياد، وليس الجارة. كان زياد يتمايل بجسده الثقيل على إيقاع الفرح الذي غمره هو الآخر لأنه وجد ما يصعد به إلى طابقي الخامس: "المصعد سيكون هو موضوع القصة الجديدة التي سأكتبها، المصعد الحبيب، ألم يخطر ببالك الشبه بين المصعد وبين الحبيب"؟ ولأني اقررتُ، وانا اقود زائري إلى الشرفة، بأن مثل هذه المقارنة لم يخطر ببالِي وأني لا أعرف وجه الشبه، فإن زياد وجد ما ينفرد بحكيه وهو يحتسي القهوة. نحن نفقد الانتباه إلى متع الوصال مع المحبوب بعد أن يطول أمده. أما حين ينقطع الوصال، فإننا نتذكر هذه المتع ونتوق إليها بحرقة. فإن تجدّد الوصال بعد الانقطاع، فإنه يصير أمتع بما لا يقاس. وهذا هو بالضبط حالنا مع المصعد.

لبنى هي الأخرى كانت منتشية، ليس بعودة الكهرباء التي لم تُحرم هي منها بمقدار ما حُرمنا نحن، بل بتوفّر البنزين الذي أتاح لها أن تستخدم سيارتها، السيارة المريحة كما وصفتها هي، أو الفاخرة كما وصفتها أنا. ولأن الوصفين كليهما انطويا على تعريض بسيارة زياد، فقد انبرى هو ليعقّب بشيء، غير أن لبنى سبقته: "مثلما أن لكلّ زمان دولته ورجاله، فإن لكل زمان سياراته أيضاً. سيارتك لزمان الحرب والحصار والبهدلة، وسيارة ابنة الباشا لزمان السلام والانطلاق والعزّ".

التعريض بسيارة زياد لم يُسخطه، بل أنعشه. فهو حريص على التباهي بتواضعه، تواضعه هو شخصياً وتواضع ما في حوزته، وهو يعدّ التواضع بين سماته الثورية التي يحرص على إبرازها. لكن زياد جاري لبنى في المزاح وجعل مزاحه مدخلاً لطرق موضوع جاء إليّ، كلاهما، من أجله: "إذا لم تتوقفي عن التصّرف باعتبارك ابنة الباشا تجاه ابن فلاح، فساحرّض صديقنا على رفض طلبك الذي تنوين عرضه الآن".

كان لدى لبنى حقاً ما تطلبه. ففي الجامعة الأميركية أبلغت إلى لبنى رسالةٌ تقول إنهم لن يُجدّدوا عقدها معيدة في هذه الجامعة. ففقدان الوظيفة يعني فقدان مصدر العيش، ويعني للمعتزة باستقلالها، ما هو

حتى اسوا، اي ان تلجا إلى ابيها، هي التي تابي أن تعيش عالةً عليه وتخسر استقلالها. ولأن لبنى عرفت ما ليس سراً وهو حاجة معهدنا إلى التعاقد مع دارسين جدد، فهي تتطلع إلى الظفر بمثل هذا العقد. أما لماذا تحتاج هي إلى تدخلي أنا مع أن مؤهلاتها اكثر من كافية والشواغر كثيرة، فلان بينها وبين مدير المعهد جفوة قديمة، أعرف أنا سببها وتعفّ هي عن ذكره، أو لأقل إنها تعفّ عن استخدامه. وكان هذا طلباً أعرف اني املك ان اساعد على تحقيقه. فتلقت لبنى وعدي القاطع، وطاب مزاجُها.

من تجليات طيب المزاج أن صديقيّ لم يعاتباني على تغيّبي عن اللقاء الذي حثاني على حضوره. وهما لم يجيئا على ذكر هذا اللقاء إلى أن سألتهما أنا عنه. وبعد إيجازه لما جرى، هو الذي قاطع لبنى مانعاً إياها من إيجازه، اظهر زياد أنه يغبطني على غيابي: "لم يفتك شيء مهم، ولم يثبنا نحن إلاّ عناء الاستماع لحديث مُنمّق لا جديد فيه ولنفاق الذين تباروا في مدح قدرات القائد العام الفذّة وعبقريته النادرة". ولأن زياد لا يُفرط في التعريض بالقائد العام، فإنه أفرط في ذمّ المنافقين. ولما لم يأت في هذا المجال بجديد لم نسمعه أو نسمع ما يُماثله من قبل، فإن لبنى أسكتته بحركة من يدها حاسمة الدلالة، ثم وجهت خطابها إليّ: "سنأخذك إلى مطعم أبي ريم".

كان سامر هناك، في انتظارنا، وكان قد قرر الرحيل عن بيروت، ليس لأنه مرغم على الانضمام إلى المرحّلين، وليس بحكم صلته بهم، بل لأن بيروت، كما قال هو للبنى، لن تظل بعد رحيلهم هي بيروت التي أغوته بالمجيء إليها: "حاولتُ أن أقنعه بالبقاء، بأن بيروت هي بيروت ذاتها من قبل ومن بعد، ولم أفلح. وحاول هو أن يقنعني بالرحيل، ولم يفلح. فاتفقنا على أن يتوقف كلانا عن المحاولة. ورتبنا اللقاء في المطعم الذي أحبّه، ليكون بمثابة احتفال وداع".

بذكر المطعم، حضرني ذكر جانيت التي أتوقع أن تكون في الكومودور فيمكن أن ألقاها. انشغلتُ عن جانيت، بالرغم من أن وجودها مع الرجل الذي لم يُرحب بي أثار فضولي، وها أنا ذا أتذكّر الأمر من جديد وأعزم على استقصائه.

لم يكن سامر قد جاء إلى المطعم حين بلغناه نحن أبكر من الموعد. أما أبو ريم فكان، على غير عادته، مغموماً. فاستأذنتُ صديقيّ في أن أفارقهما لدقائق، وكتمتُ اعتزامي الذهاب إلى الكومودور للبحث عن جانيت. غير أن لبنى التي صدمها انطواء أبي ريم على نفسه اقترحت أن نذهب جميعاً إلى الفندق ونترك لسامر رسالة كي يوافينا هناك: "ابنة الباشا تدعوكما إلى كأس في الفندق، وبعد أن يصل سامر نرجع إلى هنا من أجل الغداء". تكرار استخدام لبنى الصفة التي لا

نوردها نحن الإ حين نتعمد مناكفتها دلّني على مدى تحسّن مزاجها وشجعني على قبول الدعوة: "هذا منطقي، سليلة الباشوات تدعو أصحابها إلى فندق النجوم الخمسة، وسليلو الفلاحين يدعونها إلى الغداء في المطعم المتواضع".

لم نعثر على جانيت، لا في البهو ولا في البار. أما الرجل الذي أثار فضولي منذ رايته معها، فكان جالساً إلى منضدة في البار من جهة البهو، وحيداً، وامامه كاس ويسكي. ولأن نظري انخطف نحو الرجل منذ وقع عليه، ولأني ثابرتُ على توجيه نظري إليه بعد أن جلسنا في البار، فإن زياد انتبه إلى اهتمامي به:" هل تعرف، إذاً، هذا الجالس هناك وحده"؟ فلاحتْ فرصةٌ تعجّلتُ اغتنامها: "بودّي ان اعرف شيئاً عنه". وبهذا، وجد زياد ما ينفرد بحكيه، فأفاض.

كان ذلك الرجل هو الدبلوماسي البريطاني الذي يعتقد كثيرون أنه يشغل موقعاً مرموقاً في مخابرات بلده المعنية بالتجسس وانه المكلف بالتنسيق في هذا المجال مع المخابرات المركزية الأميركية. والرجل مسجّل بصفة دبلوماسي في سفارة بلده في قبرص. وهو يُكثر التردّد على بيروت، كما أنه، إلى هذا، يكتب روايات يوقعها باسم مستعار. مع ذكر الروايات، انفتحت ذاكرتي وسطع الاسم، فرددته بأناة، ثم تساءلت: "اليس هذا هو اسم الروائي"؟ فقال زياد،

متشبثاً بالتركيز على صفة الرجل الأخرى:" الذي يستقي موضوعات رواياته من عالم الجواسيس، حيث يعيش".

هنا، وخزني هاجس تعذّر علي أن أنحيه: ما هي صلة جانيت بهذا الجاسوس. سطوة الهاجس جعلتني أعبّر عنه حتى مع وجود زياد الذي أعرف أنه لا يطيق جانيت. وما أن اشتمّ زياد أن في هذا الأمر ما يدفعني إلى التساؤل، حتى أطلق العنان لمخزونه القديم: "كفّ عن اعتبار جانيت الأميركية ضحية الزوج الفلسطيني الذي تظن أنت أنه متخلف. هذا الزوج صاحبي، كما تعرف، وكما كان صاحبك، وفيه ما يُجيز لأميركية أن تشكو منه، فيه الغيرة التي يُعبّر عنها بفظاظة. لكن، صدقني، لم يكن هذا هو السبب الذي فرّق بينهما كما قالت ذات العيون الزرق. فإذا تخلّيت عن رأيك...". كانت معزوفة زياد المعادة، هذه، ستطول لو لم أبترها بتراً: "أعرف أنك تعتبر جانيت جاسوسة تعمل مع المخابرات المركزية الأمريكية، قلت هذا مراراً، ولم أصدّقك...". أخطأ زياد فهم كلماتي الأخيرة ولم يُبح لي أن أتمّ العبارة بل قاطعني هو هذه المرة: "هل تصدقني الآن"؟ طرح السؤال بنبرة الواثق بأني صرتُ أصدقه، المستعدّ لمسامحتي على تكذيبي إياه من قبل، وأمعن في معزوفته: "تتظاهر الأميركية الشقراء بأنها متعلقة بالشرق وتتمحّك بأمثالك من العرب، تُذبّل عينيها، وتحكي حكاية

الضحيّة التي كانتها على يد الأسمر الذي أحبته فاذلها، تحيط نفسها بهالة رومانسية لتضمن عطف أمثالك عليها ودفاعهم عنها، صلة جانيت بهذا البريطاني قديمة، إن كنت لا تعرف هذا فاعرفه، يجيء هو إلى بيروت، وتذهب هي إلى قبرص...". قلت لزياد إن رأيه واضح ولا لزوم للشرح الطويل، فأخطأ الفهم مرة أخرى: "تصورك أن جانيت ضحيّة هو ما غيّب الحقيقة عن عينيك وسدّ أذنيك، فلم تر ما رآه أمثالي ولم تسمع ما قالوه لك".

بينما كانت رشقات زياد تتوالى، كنت أنا أميل بنظري ناحية البريطاني بين لحظة وأخرى. ويبدو أن الرجل ادرك أننا نتحدث عنه، فعدّل قعدته بحيث يبقينا تحت نظره. ولبنى التي تعرف جانيت كما أعرفها ساءها حديث زياد. ولأنه حديث معاد، فإن لبنى تجاهلته وبقيت صامتةً إلى أن نطق صديقنا عبارته الأخيرة، فانتهرته: "متى ستتوقف. أنت منهم، هؤلاء الذين يُدينون كلّ أجنبي بأنه جاسوس حتى بعد أن تثبت براءته". وكان لدى لبنى ما يضيء الصلة بين جانيت والبريطاني. أحيل الرجل مؤخراً على التقاعد، فظل يتردّد على بيروت، كما كان يفعل من قبل، وكما يفعل معظم الأجانب المقيمين في قبرص. وهو يجيء منذ بعض الوقت أكثر من المعتاد ليستكمل تجميع معلومات يحتاج إليها من أجل رواية جديدة. وقد

تعرّف الرجل على جانيت وصار يستخدمها مرافقة له ومترجمةً ويدفع لها مقابل هذا، هي التي يُسعدها أن تظفر بأيّ دخل إضافي تستوفي به حاجاتها التي لا يكفي دخلها غير المستقر لشرائها. لم تستبعد لبنى أن يكون الرجل قد عمل في مخابرات بلده، ولم تستبعد أن يظل على صلة بها بعد تقاعده، لكنها ركّزت على طبيعة علاقة الرجل بجانيت، ووجهت لكلينا نصيحة: أن نحاول معرفة الحكاية من جانيت نفسها. أما زياد فأعلن رفضه للتو: "ما الذي تتوقعين أن تقوله زرقاء العينين، أن تُقرّ بأنها جاسوسة تعمل مع جاسوس". وأما أنا فقد عزمتُ على أن أفعل.

دفاع لبنى عن جانيت استفزّ زياد، فتجهم. وحين همّ زياد بالعودة إلى الموضوع، نهضتْ هي واقفةً لأنها لمحت سامر مقبلاً نحونا وقالت له: "صاحباك لم يعجبهما الجلوس هنا، فلنعد إلى المطعم"! فاستخلصتُ أنا أن لبنى ليست مرتاحةً للجلوس بقرب الرجل الذي يستثير وجوده ضغائن زياد ضد جانيت.

في المطعم كان أبو ريم ما يزال مغموماً. وما أن تحلقنا حول المنضدة حتى جاءني من أبلغ إلي أن المعلم يُحبّ أن يختلي بي، فخففتُ إليه. وكعادة كل مأزوم يتهيب البوح بما يؤرقه حتى لا يثقل على سامعه، بدا أبو ريم متردداً: "لا شيء، غُمّةٌ وتزول، لماذا أتعبك

معي". فصار عليّ أنا أن احرر صاحبي من تردده: "أن تشركني في همّك، هذا دليل صداقة، وهو لا يزعجني". فأذن ابو ريم لما يغمّه بأن يفيض.

المقاتلون الفلسطينيون هم الذين وفرّوا له الدعم، والحماية، وكانوا هم ومن يلوذون بهم الزبائن الذين يملؤون مطعمه والأصحاب الذين يؤنسونه، وهو لم ير منهم إلا الخير، وها هم راحلون، ومن غير المتوقع أن يرجعوا، وهو حزين لهذا السبب، يُحزنه انه لن يراهم ثانيةً، ويُحزنه انهم سيُرمَون على أماكن لا يعرفونها. بث ابو ريم حزنه لمصير الفلسطينيين، ثم صمت دون أن يبدو انه افرغ ما في جوفه. ومرة أخرى، صار علي أنا أن احثّه: الفلسطينيون تعودوا على الترحيل من مكان إلى غيره، وكل مكان رُحلّوا إليه كان جديداً بالنسبة لهم وأمكن مع هذا أن يتدبروا امورهم فيه، ومن يدري، فقد يتبدل الظرف ويرجع الذين سيُرحَّلون، "وأنت باقٍ في بلدك، وبإمكانك تدبّر أمورك في الوضع الجديد". ولم أحتج لأكثر من هذا. فالرجلُ الذي غام نظره لحظات وهو يستمع إليّ، استجمع نفسه فجأة وأطلق لسانه بالحكي على صلب الموضوع.

هي ريم. والمشكلة التي تواجهها الابنة هي التي تؤرق أباها. ريم الابنة الوحيدة بين ثلاث صبيان، الأعزّ عند ابيها من أيّ صبي،

الحنونة، التي أتمتْ دراستها الثانوية ثم الجامعية فيما هي مصرةً على مساعدة أبيها في عمل المطعم، والتي لم تقبل أن يُنظم حساباته إنسان غريب، الطموحة التي شقت لنفسها درباً في عالم الصحافة المكتظ بالمتنافسين وصارت فيه شيئاً مذكوراً، هذه العزيزة سبّب لها اضطرابُ حال الفلسطينيين مشكلة. فريم عاشقة، وحبيبُ القلب، كما وصفه الأب، ضابط فلسطيني عليه أن يرحل مع المرحّلين، وهي عازمة على أن تتبعه ولو إلى آخر الدنيا، وحتى بدون زواج. والأب محتار، أيسلم برحليها الذي قد يُسعدها وقد يُتعسها، أم يتشبث ببقائها: "كيف أتركها ترحل وهو نفسه، حبيب القلب، لا يعرف إلى أين سيأخذونه وكيف سيكون عليه الحال في المكان الذي سيأخذونه إليه".

كان أبو ريم قد تقصى المعلومات. حبيب القلب ضابط في وحدة مقاتلة من الوحدات التي سترحل إلى البلدان البعيدة. وفي هذه البلدان سيحل المرحلون إليها في معسكرات مخصّصة لهم، في الصحراء، وعلى سفوح الجبال، وفي شعاب الوديان، بعيداً في كل حال عن المناطق المأهولة. والمعسكراتُ مخصّصةٌ للمقاتلين وحدهم، ولا مكان لذوي هؤلاء فيها. ولو رحلت ريم مع حبيب القلب، فستقيم بعيداً عنه، وحدها، هذا إن أمكن حقاً أن تحصل على إذن إقامة، هي

التي لا تربطها بحبيب القلب علاقة رسمية. حتى لو تزوجا، الأمر الذي يتعذر إتمامه في الأيام القليلة المتاحة قبل الترحيل، فسيظلّ صحيحاً أن ريم ستقيم بعيداً عن زوجها. البنتُ قدُّ حالها وأكثر، كما يُقرّ أبوها، وهي قادرةٌ على تدبير الأمور. لكن هذا صحيح إذا تعلق الأمر ببيئتها التي نشأت فيها، بلبنان، بيروت، بين أهلها ومعارفها الكثيرين. أما في المعازل البعيدة، فكيف لبنتٍ لم تتغرّب قبل الآن أن تعيش وتهنأ، ومن أين تأتي بالخبرة.

بثّ أبو ريم هواجسه، واستوفي سرد المعلومات التي توفرت له المتطابقة مع ما توفر لي. أما ما لم يعرفه أبو ريم مما عرفته أنا، فهو هذا، لن يكون في المستطاع أن ترحل ريم مع حبيب القلب حتى لو كانا متزوجين، لأن عليها أن تنتظر صدور إذن الإقامة الذي ينبغي أن يطلبه هو لها من سلطات البلد الذي سيحلّ فيه، وإذا رحل دون أن يتزوجا، كما هو متوقع بحكم الظرف الذي لا يبيح الوقت اللازم، فعليه أن يباشر إجراءات الزواج من لبنانية وهو في بلد آخر، وعليه أن يُعالج وهو بعيد عُقداً بيروقراطية كثيرة، وشائكة. لم أقاطع أبا ريم وهو يحكي، ولم أشأ أن أثقل عليه بالمعلومات التي لم يعرفها، لكي لا أزيد غمّه. ولأن اختيار الرجل إيايَ بالذات ليسرد همّه أثار فضولي وجعلني أحزر شيئاً أحتاج إلى التأكد من صوابه، فإني سألته

مبدياً اللهفة التي توسمتُ ان تُشجعه على الحكي: "ما الذي أستطيع انا ان افعله"؟

ردُّ محدثي اكّد لي صواب ما حزرته. فالذي كان حتى تلك اللحظة مهدود الحيل، اظهر، فجأة، همّة ظننتُ انا انه فقدها، وحكى بنبرة لم تعد اسيانة: "اسمع"! قالها كما يقول رجل اعمال، ثم عرض ما لديه. ففصائل الفلسطينيين المسلحة، الفصائل الرئيسية كافة، قرّرت أن تُبقي في البلدِ عدداً من ضُبّاطها ممن يمكن إبقاؤهم دون أن يُفتضح الأمر، على أن يعيشوا متخفّين ويحاذروا القيام بأي نشاط عام، إلى أن يحين وقت الحاجة لنشاطهم. وقد حاول هو مع ناس الأمن الفلسطيني من روّاد مطعمه ان يتدبر امر إبقاء حبيب القلب في بيروت، وتعهد أن يتولى هو إخفاءه، إن بقي، وتأمين سلامته، كما تعهد أن يسعى لتدبير إقامة قانونية له حتى لو اضطرّ هو إلى دفع رشوةٍ أو رُشى كثيرة وكبيرة. لكن من تحدث إليهم ابو ريم انكروا وجود قرار بإبقاء أحد ممن يُوجِبُ الاتفاق ترحليهم: "انا لستُ واحداً منهم، فكيف يكشفون سرّهم لي". قال ابو ريم هذا ثم اضاف ليبلغ بي بيت قصيدة: "معك انت، لا اسرار. فهل اعتمد عليك، ابٌ يطلب منك خدمة من اجل سعادة ابنته ويعرف انك لها".

ليس من عادتي التدخّل فِي شغل العسكريين، أنا الذي طالما انتقد

تدخّلهم في الشأن المدني. بالرغم من هذا، صعب عليّ أن أخيّب أمل أب ملتاع، أب هو، في أول كل حساب وآخره، رجل طيّب. وبين ما يمنع وبين ما يُشجع، عزمتُ على المساعدة: "أعدك بأن أبذل جهدي. لكن، لا بدّ من أن أعرف تفاصيل كثيرة أفضّل أن أسمعها من ريم ومن الضابط". فتهلّل وجهُ الأب كأن حاجته قد قُضيت وانتهى الأمر: "هذا المساء، في منزلنا حفلة دعت ريم إليها أصحابها وطلبت أن أدعوكم، أنت وأولادك ومن تختار من أصدقائك. أرجو أن تجيء حتى لو كان عندك شغل كثير"! فقصرتُ إجابتي على كلمة واحدة: "سأجيء". ونهضتُ لأعود إلى أصدقائي، فتنبه أبو ريم لوجودهم وطلب أن أحضرهم معي إلى الحفلة: "عشاء من عشاءات الأيام الهنيّة، ورقص، سهرة تريد ريم أن تمتد حتى الصباح". قال الذي انتعشت همته هذا، ثم فطن لشيء، فصحبني ووجه بنفسه الدعوة إلى الأصدقاء.

ريم نفسها جاءت إلى المطعم قبل أن نفرغ من غدائنا. ومن موقفها بجانب أبيها، وجهت إلينا التي شعّ وجهها بابتسامة فرح تلويحة تحية سخيّة، فيما هي تواصل الإصغاء إلى الأب الذي حزرتُ أنه يروي ما اتفقنا، هو وأنا، عليه. وحين قدمت ريم إلى منضدتنا، كررتْ دعوة الجميع إلى حفلة المساء، ثم استأذنت أصحابي بأن تنفرد بي.

إذاً، يوم كان علي أن أجول على أصحابي المرحّلين، وجدتني، بدل هذا، مشغولاً بالموضوع الطارئ. وإذ شئتُ أن لا أخيّب أملاً بثثته أنا، فقد رأيتُ أن أبدأ تحركي للتوّ. فقد شرعوا، في مكاتب القيادة، في إعداد القوائم والمواعيد، وصديق ريم لا يعرف بعد متى سيحين دوره أو إلى أين سيُرحّل أو على أيّ سفينة. وريم تخشى أن يفوت الأوان إذا تأخرتُ أنا في العمل، وهي التي أنبأتني بأن هواتف المدينة جميعها عادت إلى العمل منذ الصباح، فصار بإمكاني أن أتصل عبر هاتف المطعم بمن أشاء: "وسأكون أنا وسيارتي تحت تصرفك".

سألتُ ريم عن رأي صديقها الفلسطيني في ما يطلبانه هي وأبوها. فقالت التي شعّ أمامها أملٌ لا تريد أن ينطفيء إن الضابط الذي نشأ في خنادق المقاومة مستعد للبقاء، ولديه، كما قال هو نفسه لريم، سببان: رغبته في أن يجنبها ويجنّب نفسه التطوّح في المجهول؛ وتطلّعه إلى تجربة العمل في ظروف الاختفاء. وهو يتوقع، أيضاً كما قال هو نفسه لريم، أن يُبيح الوضع المستجدّ نهوض حركة مقاومة على أرض لبنان للاحتلال الإسرائيلي، مقاومة سينهض بها هذه المرة اللبنانيون أنفسهم، وهو راغب في المشاركة فيها كما شارك لبنانيون في المقاومة الفلسطينية. بعد هذا، صارحتني ريم بأن الراغب في

البقاء يخشى أن يُتَّهم بأنه باقٍ بدافع شخصي ويتهيّب مواجهة الاتهام، فهو، إذاً، متردد وإن كان ميله إلى البقاء هنا هو الأقوى. إزاء هذا التردد، قلتُ أنا منتقياً كلماتي بعناية: "غيرُ منطقي أن أتدخل في تحديد مصير شخصٍ لم أره ولم أسمع منه ولم أتلقَّ موافقته، فهل...". فقالت ريم التي فهمت ما أريده قبل أن أفصح عنه: "ستراه حالاً".

حملتني ريم بسيارتها إلى حيث كان صديقها. وهناك، قدمتني الولهانة للولهان. فاتضح أن هذا الضابط الفلسطيني يعرف من أنا ويرحب بمسعاي. وإلى هذا، اتضح ما هو أهم بالنسبة لي. فقد وجدتُني إزاء شاب مكتمل النضج، شاب يستحقُّ المساعدة التي يطلبها بإباء. ولعلّي بسبب هذا استجبتُ إلى رجاء أفصح هو عنه بأتمّ وضوح: أن يُدبَّر أمرُ بقائه في بيروت بحيث يبدو أنه تكليف من القيادة وليس استجابة لطلب منه هو.

قابلتُ المسؤول العسكري المعني بالأمر. فعرفتُ أن اسم الضابط مدرج في قائمة المرحّلين إلى اليمن، وأن القائمة أُرسلت إلى مكتب القائد العام حيث تُعد الترتيبات الأخيرة لما تسميه الوثائق الرسمية الانتقال من بيروت. وقد أبدى هذا المسؤول استعداده لعمل ما يلزم لتسهيل مسعاي، فطلبت منه أن يكتب رسالةً إلى مكتب القائد العام

يقترحُ فيها إبقاء الضابط في البلد. وفي مقرّ القائد العام الذي خففتُ إليه ومعي الرسالة، استقبلني مسؤول يعرفني ويعزّني كما أعرفه وأعزّه. وكان هذا المسؤول غارقاً إلى ما فوق أذنيه في مشاغل شتى، ولا وقت لديه للتدقيق في طلب يحتاج إلى تدقيق استثنائي: "الراغبون في البقاء هنا أكثر بكثير مما قد يخطر في البال، ورؤساؤهم يغرقوننا باقتراحات إبقائهم. نحن نخالف الاتفاق إن أبقينا شخصاً واحداً فكيف إن أبقينا كثيرين. وإذا استجبتُ لطلب شخص فكيف أرفض طلبات سواه".

هذا التحفظ جعلني أحجم عن الإلحاح حتى لا أحرج صاحبي هذا، ودفعني إلى مقابلة القائد العام نفسه. كان بإمكاني أن أدخل حجرة القائد العام دون موعد مسبق حيث يمكن أن انضمّ لمن يوجدون فيها. أما الاختلاء بالرجل فمن العسير الظفر به دون موعد. ولأن ما جئتُ من أجله يُوجبُ الاستعجال، فقد دخلتُ الحجرة التي بلغني صخب المحتشدين فيها حول الرجل، فوجدتها مكتظةً بالجالسين والواقفين. وبدافع استعجالي، زاحمتُ مزاحمة غير الهَياب، فتسنى لي أن أتقدم نحو مجلس القائد إلى أن صرتُ في مرمى نظره. وانقضى وقتٌ خلته دهراً قبل أن يلحظ هو وجودي فيما هو مصغ لشخص استحوذ على أذنه وانتباهه معاً. وقد خصّني القائد بلحظة

انتباه وجّه لي فيها ابتسامة واعدة، ثم شرد عني، ولم يلبث أن بدا انه نسيني. ولكي لا تضيع الفرصةُ، زاحمتُ من جديد، متعمداً هذه المرة ان احدثَ جلبة تُحرر أذن القائد وانتباهه من المستحوذ عليهما. وهذه هي التي نفعت. فقد تلقيتُ نظره مركّزة وإشارة من يد القائد تطلبُ ان أصبّر نفسي وتعدُ بأنه لن ينساني. وما أن فرغ أول مقعد بجانبه حتى وضع من كستْ وجهه ابتسامة مرحّبةٌ يده على هذا المقعد ودعاني بصوت مرتفع: "إلى هنا، بجانبي، حاملو القلم لهم صدرُ كلّ مكان"!

جلستُ بجانبه وفي النيّة أن اهمس في اذنه بما اريده منه، أنا الذي لا احتاج إلا إلى توقيعه على نصّ القرار اللازم، النصّ الذي هيأتهُ وكتبته قبل أن ادخل حجرته. غير أن الرجل واصل الحديث بالصوت المرتفع الذي يسمعه الجميع: "أخّرتُك لتشهد بنفسك كيف يشغلني إخوانُك بهموم يمكن أن يُعالجها غيري، فاشهد واكتب الحقيقة، أنت الذي تنتقد ما تعدُّه تدخلاً مني في كلّ صغيرة وكبيرة"! استنتج الذي لا تعوزه الفطنة أني لم أتكبد كلّ هذا العناء إلا لأن لديّ حاجة عاجلة لا يقضيها أحد سواه، فقال ما قاله ليسجّل نقطةً لصالحه. والواقع أن ما قاله أحرجني، حتى لقد خطر لي ان أحجم. غير أن الذي اشهدني وأحرجني اتخذ هو نفسه المبادرة ليحرّرني من حرجي: "عندي موعد

لا يؤجل سأذهب إليه حالاً. فما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك قبل أن أغادر"؟ فذوبت النبرةُ المتودّدة حرجي فعلاً. وعلى الورقة التي ناولته إيّاها، وضع هو توقيعه وكتب توجيهاً أطلعني عليه: "إلى الإدارة العسكرية للتنفيذ فوراً"! وقبل أن يبرح حجرة مكتبه، قال وهو يبتسم: "سأزوركم في المعهد أو القاكم هنا، حسب الظروف".

سلمتُ القرار لريم وصديقها. وطلبتُ من اللذين غمرتهما السعادة أن يأخذاني إلى منزلي، على أن يتابعا بقية الإجراءات التي صارت مُيسّرة. وما أن انفتح باب المصعد الذي نقلني إلى الطابق الخامس، حتى شخصت أمامي نورما وذراعاها معقودان على صدرها وفي العينين نظرةُ تحفُّز: "امرأةٌ تأخذك في سيارة فاخرة وامرأةٌ أخرى تُرجعك في سيارة أفخر، هكذا، كل يوم، كأن ليس لك جارة تغار عليك". امتزج الهازل والجاد في هذا العتاب. وحضر في البال ما خشيتهُ. وأزعجني. مع هذا، تجنبتُ الجهر بأي تعليق، لأني خشيتُ أن أُجرّ إلى جدلٍ بدتْ هي مستعدةً له.

أما في داخلي، فإن الهواجس العتيقة فارت. خَطرُ العلاقة مع جارة، ها هي ذي بوادرُه، ليس هذا أول الغيث، إنه أول الرجم، وعلي أن أحمي رأسي. وهكذا، استبعدتُ ما كنتُ اعتزمتُه منذ تلقيتُ الدعوة إلى السهرة، فلم أذعْ نورما إلى مصاحبتي ولم أشر إلى أيّ سهرة.

وفي ردي على العتاب، اكتفيتُ بأن رسمتُ على ثغري ابتسامة مرحة، فاظهرتُ أني اخذتُ الكلام على محمل الهزل وحده، ثم تعجّلتُ دخول شقتي.

وجدتُ أبنائي، ثلاثتهم، منهمكين في تفقّد حوائجهم، ما عنى انهم يُعَدون العدّة للرحيل. طوت البنتان، إذاً، اعتراضهما: فهل اقتنعتا بحججي؟ هل أخذتا رايي بعين الاعتبار وقررتا أن تُطيعا اباهما؟ او أن الولوج في مغامرة الرحيل والعيش المستقل عن الأب هو ما اغواهما؟ لم أسال، ليس لأني افتقرتُ إلى الفضول، بل لأني خشيتُ ان افتح موضوعاً شائكاً اقفلته ابنتاي بنفسيهما.

كان مركز الدفاع المدني قد صرف غزّة ويافا بعد أن أرتجل زملاؤهما اللبنانيون حفلة وداعٍ لهما وللفلسطينيين الآخرين المرحّلين الذين تطوعوا للعمل فيه. وكانت كلٌّ من البنتين قد تزوّدت ببذلة عسكرية وجعبةٍ جديدتين وبندقية تمّ تلميعها فبدت جديدة أو كالجديدة. وقد أفهمت البنتان أن اسميهما أدرجا في قائمة المرحّلين إلى سورية عبر البحر وعليهما أن تترقبا الإعلان عن موعد الرحيل وتظلا مستعدتين له. وكان ثائر قد زُوّد هو الآخر بما زُود به كل مُرحّل، وطُلب منه أن يستعد، لأن قافلة المرَحلين عبر الطريق البرّي إلى سورية ستكون أولى القوافل التي تُغادر بيروت.

سرد أبنائي التفاصيل بمرح، حتى لكأنهم ذاهبون في إجازة للترويح عن النفس. هكذا هم الفتيات والفتيان، فكّرتُ، يعترضون على تدبير، يتشدّدون في الاعتراض، يتفننون في إيراد الحجج، ثم لا يلبث أن يغويهم التدبير ذاته الذي اعترضوا عليه فيقبلوه متحمسين له. لقد كان الثلاثة في أتمّ حماس. والواقع أن ما أغوى أبنائي، كما قدرت أنا، هو الجديد الذي يعدهم بالانتقال من حال إلى حال. الانتقال الطارئ، هذا الذي صار يُنفرني أنا المتجه نحو الكهولة، هو ذاته ما يجتذب فتياني.

طاب لي، وقد أرضاني انطفاء الجدل حول ما تصورتُ أنه موضوع شائك، أن أراقب الثلاثة وكلّ واحد منهم منهمك في اختيار ما سيحمله معه، وما سيهديه لأصحابه اللبنانيين، وما سيبقيه عندي. وحين لاحظتُ أن الصغار محتارين بشأن ما يأخذونه وما يتخلون عنه، نسبتُ حيرتهم إلى قلّة الخبرة: "السفر سيتم في شاحنات وسفن، هذا يُبيح حمل الكثير، فلماذا الحيرة". عندها، فقط، ذكر الأولاد ما لم أكن قد عرفته. فتعليمات القائد العام، التعليمات التي تأكد أنها مشدّدة، لا تُجيز أن يحمل المغادر ما يزيد على ما تتسع له الجعبة العسكرية.

ما أعجب هذا الرجل، وما أشدّ ولعه بدلالات التفاصيل، وما أشدّ حرصه على نسج هذه التفاصيل بأتمّ عناية! باصطحاب الجعبة وحدها مع البندقية سيبدو الرحيل كأنه انتقال المقاتلين من معركة توقفت في موقع إلى معركة محتدمة في موقع آخر؛ انتقال وليس انسحاباً، متابعة لحرب التحرير وليس توقفاً عنها، ويمكن الاستطراد في عرض الدلالة ليصير الرحيل نصراً أو خطوةً نحو النصر. أما مع حقائب وصرر فسيبدو الرحيل انسحاباً كيفياً، هروباً، هجرة تُذكّر بمظاهر الهجرات الذليلة التي كابدها الفلسطينيون مرة تلو مرة، هزيمة، أيّ شيء، إلا ما يصون الكرامة.

وفيما الحيرة مستمرة، رنّ جرس الباب. أبو طانيوس، وليست الجارة كما هجست. تصور الرجل اننا جميعاً راحلون، فجاء يعرض المساعدة. فما أعمق ما أثّر فيّ هذا العرض! كم سبّب وجودنا في لبنان من أذى للبنانيين! كم آذاهم حتى بعض ناسنا، إضافة إلى ما ألحقته إسرائيل بهم بسبب وجودنا وبسبب تأييدهم إيّانا! ولئن انتفع نفرٌ من اللبنانيين بوجودنا فإن الغالبية دفعت ثمناً مُرعباً لرضاها به: دفعت هذا الثمن من استقرارها وهنائها ومصادر رزقها وحيوات أبنائها، ومن حريتها. تكبدت أغلبيةُ اللبنانيين ما تكبدته، على يد إسرائيل، وعلى يد الأقلية المتعاونة مع إسرائيل. ومع فداحة الثمن،

مــع قسـوة المعـاناة فـي الحـالتين. كـان التعـاطف اللبنـاني مـع الفلسطينيين في إبّان الحصار أسطع سمات المجتمع المحاصَر الذي صعب فيه التميز بين من هو فلسطيني ومن هو لبناني. ويبدو اني شردتُ في افكاري هذه التي أثارها سلوك الرجل الأريحي، إلى ان اخترق صوتُ غزّة شرودي: "العم أبو طانيوس ينتظر". وفيما أنا منهمك في اختيار التعابير المناسبة ليعرف البواب أني أنا باقٍ، ذهبت يافا إلى حجرتها وعادت بصرتين قدمتهما للبواب: "فيهما ملابس وحوائج أخرى لك أن تستخدمها او تهبها لمن تريد". وأضافت غزّة: "في الشقة دمى وألعاب وقصص أطفال، خذ منها ما تريد، خذها كلها، نحن، أنت ترى، لم نعد أطفالاً"!

أصغى أبو طانيوس للصغيرتين، لكن ليس بكليته، وردّد عبارات شكر وامتنان، لكن ليس بتركيز شديد. فالرجل الذي طافت على وجهه غمامةُ همٍّ منذ فوجيء بنبأ بقائي، كان ما يزال مهموماً بالمفاجأة. وقبل أن تداهمني الظنون، اقترب الرجل مني بهيئة من حزم أمره بعد تردد، وقال بصوت خفيف: "عندي ما أحكيه لك وحدك". كان لدى البواب، حقاً ما يستحق أن يُقال لي، وأن يُقال دون إزعاج الأولاد. وإذا تردّد الرجل لبعض الوقت في قوله، فلأنه تصوّر أني راحلٌ، فلم يشأ أن يزعجني، أنا الآخر، به.

في الصباح، بعد أن غادرتُ أنا البناية، مرّ في شارعنا مجموعة رجال لم يَخْفَ على البواب اليقظ أنهم ليسوا من منطقتنا. سحنُ هؤلاء، لهجتهم، نظراتهم المستطلعة، ثم وقوفهم أمام بنايتنا بعد أن انتبهوا إلى رقمها المكتوب على ورقة في حوزتهم، هذا كلّه أجج حذر الذي راقبهم بإمعان، فتقدم هو منهم وسألهم عمّ يبحثون. وجّه أبو طانيوس السؤال لحامل الورقة الذي بدا له أنه رئيس المجموعة. السؤال تُجوهل. والذين احتفظوا بالصمت إزاء فضول البواب خطوا بضع خطوات أبعدتهم عن مدخل البناية، ثم تحلقوا حول حامل الورقة وأجروا مشاورة لم تطل. بعد هذا، عاد رئيس المجموعة وحده مع ورقته إلى البواب وسأله عني. أورد السائل إسمي بالكامل كما هو مكتوب في الورقة، وعناه أن يعرف ما إذا كنتُ قد أخليتُ الشقة أم أني ما أزال مُقيماً فيها. وحين استفسر أبو طانيوس عن المطلوب مني، لم يُقدم الذي تعامل مع البواب باستعلاء التفسير المطلوب، بل قال بلهجته التي أكدت لأبي طانيوس أنه قادم من المنطقة التي تعاون ناسها مع الإسرائيليين: "إن كان مقيماً هنا..."، ثم أتمّ العبارة بالفرنسية التي لا يعرفها أبو طانيوس، ولم يُكررها بلهجته حتى بعد أن أدرك أن البواب لم يفهمها. والمؤكد أن نبرة الصوت كانت منذرة.

ليس من عادتي أن استهين بأي إشارة تحفز على الحذر. وما رواه أبو طانيوس لم يكن مما تجوز الاستهانة به، خصوصاً انه جرى في سياق ظواهر أعمّ تواترت منذ تبلور الاتفاق مع إسرائيل. وإذا تعمدتُ ان اهوّن الأمر على ابي طانيوس، فلأني لم اشأ ان يقلق او يظن أني أنا نفسي قلق: "جهات كثيرة تسأل عن الفلسطينيين وغيرهم، فلا تقلق زيادة على اللازم"!

حتى قبل أن يتمّ إبرام الاتفاق، اشتعل التنافس على ملء الفراغ الذي سيحلّ بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين وتراجع دور حلفائهم اللبنانيين. أوجب الاتفاق على إسرائيل أن تُوقف الحصار وأن تُبعد قواتها عن محيط العاصمة، لكنه لم يوجب عليها أن تُخرج هذه القوات من لبنان. احتلال إسرائيل أجزاء هامة من أرض البلد جلب إلى قمة السلطة فيه زعيم المتعاونين معها. واستمرار هذا الاحتلال سيوفر القوة اللازمة ليُعزز المتعاونون مع إسرائيل نفوذهم وهيمنتهم على السلطة، وسيضعف مناوئيهم، وبضمنهم مناوئوهم الذين لم يتمسكوا بالوجود الفلسطيني في البلد. المتعاونون لم يُخفوا اعتزامهم التمتع بثمرات حرب إسرائيل على بلدهم. والطامعون بملء الفراغ إن أخفوا هذا فإنهم لا يُخفون أن الوضع الناشيء مع الاحتلال الإسرائيلي سوف يورد ماء قليلاً أو كثيراً إلى طواحينهم

هم. هما طرفان، أو هم في الواقع أطراف عدّه انهمكوا في التسابق. الذين جاؤوا إلى شارعنا في ذلك الصباح كانوا على الأغلب من أتباع الذي نصبته إسرائيل رئيساً للبلد، هم رُسل الهيمنة القادمة وقد شاؤوا أن يعلم الداني والقاصي أنهم فازوا بالسلطة وأن هيمنتهم قادمة. وسيجيء غيرهم.

يبدو أني شردتُ هذه المرة أطول مما شردتُ في المرة السابقة. وثائر الذي اقتحم حجرة المكتب ليودعني قبل العودة إلى وحدته هو الذي انتزعني من شرودي. كان أبو طانيوس ما يزال ماثلاً امامي، صامتاً، بانتظار أن انتبه من جديد إلى وجوده. ولم يكن الذي صمت لأني شردتُ عنه قد فرغ من كلّ ما أراد أن يحيكه. فصاحب البناية الذي لم أره طيلة شهور الحصار سأل هو الآخر عني، وهو يريد ما تراكم له من أجرة الشقة ويخشى أن أرحل قبل أن أدفع. وقد أمر المالك مستخدمه البواب بأن يحصل مني على شيك بالمبلغ. كتبتُ الشيك وسلمته لأبي طانيوس راجياً إيّاه أن لا يُبلغ إلى صاحب البناية نبأ بقائي، وأن لا يزعم أني راحل. فعلتُ هذا لأن الظرف يوجب التكتم.

منذ انصرف أبو طانيوس، توجهتُ إلى حجرة نومي معتزماً أن أمنح نفسي إغفاءةً أحتاج إليها قبل السهرة الطويلة. وفيما أنا أهوّم بين الصحو وبين النوم، رنّ جرس الهاتف، ففاجأني الرنين كما فاجأ

ابنتي. كنتُ قد نسيتُ أن الهواتف عادت إلى العمل، وأن في منزلنا هاتفاً، وأن للهاتف جرساً يرن. وكان المتكلم هو الأستاذ عوني، وعلي أن أنتظره عند مدخل البناية، سيجيء بعد ربع ساعة ليصحبني إلى لقاء تحدّد موعده: "معه، هو الذي طلب أن نجي كلانا إليه معاً".

الإشارة، دون ذكر الإسم، إلى شخص علينا أن نذهب إليه بغير توانٍ أفهمتني أن هذا الشخص هو القائد العام. وفي حجرة مكتبه التي خلت إلا منّا نحن الثلاثة، تحدّث القائد بالنبرة العملية التي يستخدمها كلّما كان في لقاء مخصص لبحث موضوع محدد مع المعنيين به وحدهم، باللغة التي تخلو من الإنشاء المفخّم والأسلوب الذي يخلو من التهوين أو التهويل. أوجز الرجل المشقة التي تكبّدها ليظفر بالموافقة اللبنانية على بقاء معهدنا والضمانات الدولية بأن لا تمسّ إسرائيل المعهد بسوء. أمّا ما تبسّط القائد في شرحه فهو شكّه في أن تسير أمور المعهد بسهولة. فالوضع اللبناني الذي بدأ يتبدل سيطّرد تبدله ضد مصلحتنا. والحكومة التي أعطت الموافقة لن تستمر. والدول التي ضمنت سلامة المعهد ستركز جهدها لضمان رحيل الفلسطينيين وتجريد حلفائهم اللبنانيين من السلاح والتأكد من أن السلاح الفلسطيني الثقيل لن يُسلّم إلى هؤلاء الحلفاء. ستأتي من أجل هذا الغرض قوات أميركية وأخرى متحالفة معها، لتكون

جاهزة إذا أخلّ الفلسطينيون وحلفاؤهم بالاتفاق، وستنسحب بعد أن تضمن استتباب السلطة للمتعاونين مع إسرائيل، ولن تعبأ بما يقع أو لا يقع للفلسطينيين الباقين ولمؤسساتهم المدنية التي أجاز الاتفاق بقاءها. وسيكون من السهل على إسرائيل والمتعاونين معها خرقُ الاتفاق والاستهانة بأيّ ضمانات.

بعد عرض الأخطار، قال المطمئن إلى استعدادنا للبقاء في أيّ ظرف إن بقاء المعهد مهمّ، أهميته تتجاوز أهمية البحث والدراسة. ثم بيّن ما فعله للتخفيف من احتمالات الأذى: حكى على الاتصالات التي أجراها، والتفاهمات التي توصل إليها، والرشوات التي دُفعت دون حساب والتي وعد بأن يستمر دفعها. وكان الرجل وهو يتحدث عن الرشوات حريصاً على انتقاء كلماته، حتى لقد توقف غير مرّة قبل أن يتم عبارة شرع فيها، لا لشيء إلا ليهتدي إلى الكلمة الأنسب. ولأمرٍ ما، أحسستُ أنه يتروى متحسباً إزاء ردّ فعلي أنا بالذات. ولأن هذا أثار فضولي في نحو عجزتُ عن تنحيته، فإني استفهمتُ عن كلفة هذه العملية، كم دُفع وكم من المتوقع أن يُدفع. وكأنما توقع هو أن أجيبه بهذا السؤال. فقد توقف عن الحكي، واتخذ قعدة مريحة بدا معها في هيئة من حان وقتُ تمتعه باستراحة، وتبسم، وطلب قهوة لثلاثتنا. وبعدها، بعدها فقط، وجّه حديثه إليّ: "سأجيب على سؤالك

إذا تعهدت أن لا تتهمني باني أبدد مال الشعب في شراء الضمائر. وبالمناسبة، كيف لم تنتبه إلى هذا، الضمائر لا تُشترى، نحن نشتري الذين لا ضمائر لهم، لهؤلاء، دفعنا وسندفع ملايين كثيرة، من أجل المعهد وغيره".

بعد حديثه عن ما رتّبه مع آخرين، أنتقل إلى الحديث عن ما رتّبه هو لنا. فالمولع بنسج أدق التفاصيل انتبه إلى حاجتنا لميزانية إضافية، قبل أن نطلب هذا نحن، وأصدر إلى الإدارة المالية تعليماته بهذا الشأن قبل أن نجيء إليه: "ستلبّي المالية طلبات معهدكم دون أن تتقيّد بالإجراءات البيروقراطية". قال هذا مقدمَة لنصيحة لم يشأ أن يوردها بصيغة أمر. فقد اراد ان نستاجر او نشتري مقراً جديداً تتوفر فيه حاجاتُ السلامة، وإذا لم نجد من يؤجرنا أو من يبيعنا مثل هذا المقر، فلا باس في ان نبني مقراً يُلائم حاجاتنا جميعها. الشأن الأمني، أمن المعهد، يوجب الاتفاق أن تتولاه السلطة اللبنانية. وبما هي سلطة لا يُعوّل عليها ولا يُؤمن جانبها، فقد أوكل هو لناس أمننا الباقين خفية في المدينة أن يهتموا بهذا الشأن، ورسم الترتيبات اللازمة وأطلعنا على تفاصيلها: "الأمن داخل المبنى سيتولاه ناسُنا المتخفون، أما خارجه فسيتولاه من تُكلفهم به سلطات البلد، هم الذين سيحرسون المبنى من خارجه". هنا، أيضاً، جاءت نصيحة

أخرى انتقي هو كلماتها بعناية: "اهتموا بهؤلاء الحراس، تليين ضمائر وليس شراءها، لا تبخلوا، ولا تتزمتوا، والمالية ستنفذ تعليماتي، تذكّروا هذا: لا قيود على طلباتكم منها"!

فيما هو يتحدث ويُمعن في عرض التفاصيل وتفصيل كل تفصيل، كنتُ أترقب الفرصة لطرق الموضوع الذي يشغلني: تعويض النقص في العاملين. لكن كان هو من طرق الموضوع قبلي: "لن تضع المالية أيّ عراقيل أمام من ستحتاجون إلى استخدامهم، ستحتاجون إلى كثيرين، ليس من أجل تعويض النقص وحده، بل لترضية ذوي النفوذ في البلد حين يتوسطون لاستخدام ناسهم، وآمل أن لا تتزمتوا في المعايير، قلتُ: تليين ضمائر، فليّنوا".

هنا، توفّرت الفرصة كي أطلب موافقة القائد العام على توظيف لبنى. عوّلتُ على شيء كنتُ أعرفه ولا أظهر معرفتي به. فابنة الباشا الأردني، هذه التي التحقت بالفلسطينيين منذ صباها وتزوجت مناضلاً من مناضليهم وترّملت منذ مطلع شبابها، هذه التي قدّمت أمثولة غير عادية في الوفاء للزوج الشهيد، حظيت بشهرةٍ واسعة، وفتن سلوكها فلسطينيين كثيرين، ووقع عدد كبير من هؤلاء في حبّها، وخطب بعضهم ودّها صراحة، حتى لقد حق لي أن أقول لها هي نفسها، ذات مرة، إنه لم ينقض يوم واحد دون أن تتلقى الأرملة

الجميلة عرض حبّ أو زواج. وكان القائد العام، وهذا ما ألفتُ أن أكتم معرفتي به، واحداً من الذين فُتنوا بلبنى، وقد قدّم لها ليس عرض حبّ فقط، بل عرض زواج أيضاً. ولو أن لبنى لم تُلزم نفسها الوفاء الدائم لذكرى الشهيد، لصار لها هذا اللقب الذي قد يدير رؤوس كثيرات: زوجة القائد العام. لكن لبنى اعتذرت عن قبول العرض، فلم يُغضب الاعتذار طالب القرب، ولم يدفعه إلى مجافاتها، ولم يزعجها هو بعد ذلك بأيّ عروض؛ صعّد الرجل ميله، وصار يُعامل التي رفضته حبيباً وزوجاً معاملة أخت ويحيطها بأتمّ الاحترام. على النقيض من هذا السلوك اللائق، كان تصرّف الأستاذ عوني. فهذا الذي فتنه ما فتن سواه عرض حبّه هو الآخر على لبنى. وحين صدّته التي صدّت غيره، حقد عليها حقداً لم تطفئه سنون كثيرة انقضت منذ ذلك الوقت. لهذا، كنتُ بحاجة إلى أن يسمع الأستاذ عوني بنفسه موافقة القائد العام ويشهد ردّ فعله المرحّب. وسواء فطن القائد إلى مغزى مناورتي أو لم يفطن، فإنه أعطى الموافقة المقرونة بالترحيب، وعقّب: "وجودها في المعهد مكسب". أما الأستاذ عوني، فكتم ضيقه بمناورتي، وجمجم بعبارة إن عنى ظاهرها الرضا فإن نبرتها وشت بالامتعاض. وحين نهضنا للمغادرة، نهض القائد العام وبارانا حتى الباب. وهناك، أمسك هو يدي، مفسحاً مجال الخروج للأستاذ عوني، واستبقاني للحظة: "أعرفُ موقفه وأعوّل عليك لضمان بقائها في

المعهد".

ومنذ صرنا وحدنا في سيارته، بقّ الممتعض الحصاة التي تقف في حلقه: "احرجتني، فكن حذراً، وعليها هي ان تعرف، ساتخلص منها عند أول غلطة تقع فيها، لن أراعي خاطرك، وهو لن يكون هنا ليحميها، نعم هو قائد عام، لكني لستُ بغير صلاحيات"! ولأني أعرف طبيعة الذي عملتُ معه ثلاث سنوات، فإني تجنبتُ المحاججة فيما هو مستثار، وفضلتُ أن أهدله، وعمدتُ إلى تطويقه بما أعرفُ انه يأخذه في اعتباره: "الأستاذة لبنى كفوّة، تأهيل اكاديمي، ومعرفة بشؤوننا، وخبرةٌ إن لم تكن طويلة فليست قصيرة، وإخلاص، فما الذي يحتاج إليه معهدنا في الظرف المستجدّ أكثر من هذا". فصمت الذي أصغى بانتباه، لكن صمته لم يطل: "تظن انك افحمتني..."، وبدا انه سيضيف شيئاً. غير انه صمت ثانية. ثم، كمن حزم امره بعد تفكير، قال الأستاذ عوني بنبرة متوعدة: "قل لسيمون دو بوفوار هذه أن تجيء لمقابلتي، فعليها أن توقّع طلب عمل، وفهّمها أن شروطنا ستكون قاسية"! وهكذا، صار لديّ ما أنقله إلى التي سألقاها في سهرة ريم.

السهرة ذاتها كانت حدثاً. حشدت ريم في منزل الأسرة الفسيح عشرات المدعوين، وتفننت الأسرةُ في إحاطة هؤلاء بالرعاية

والحفاوة والبهجة. وأفرغ الساهرون التوتر المختزن خلال شهور الحصار، وتخففوا مما فتك بأمزجتهم واجسادهم ودمّر مالوفهم. لبنانيون وفلسطينيون وعرب آخرون وأجانب؛ وطعام وشراب؛ وموسيقى حرّكت إيقاعاتها الأعطاف التي يبّسها الافتقار طويل الأمد إلى الحركة المعتادة. وريم، وهي التي ضمنت للتوّ بقاء حبيب القلب معها في مدينتها، ملأت الجوّ بالفرح، فغمر الفرح الجميع. وهات رقصاً، من أول المساء إلى أن أطل ضوء نهار جديد!

في هذه السهرة، تجلّت غزّة ويافا وسطع حضورهما. جاءت ابنتاي معي، أو لأقل إننا، هما وأنا ومعنا سامر، جئنا معاً في سيارة لبنى. ولم يغب من شلتنا سوى زياد الذي لم نعلم لِمَ غاب. وكان في الانتظار أمام منزل أهل ريم المفاجأة التي هيّأتها البنتان: فتيان لبنانيان سبق أن لمحتُ كلاً منهما في زياراتي إلى مركز الدفاع المدني، وكان هذان هما صديقيْ ابنتيّ الأثيرين. كان الفتيانُ فرحين بنجاتهم من أهوال الحصار، فنحّوا، قرّروا أن يُنحّوا، التفكير بالفراق الوشيك، وأسلموا اجسادهم وأحاسيسهم وحيوية سنّهم للإيقاع الآسر. وسامر الموشك على الرحيل، سامر الذي أدهشه أن الذين كابدوا أهوال الحصار ما زالوا قادرين على الفرح كأن شيئاً لم يكن، سامر الذي يُدهشه حتى ما هو أقلّ من هذا، انتعشت روحُه وأسعفه الجسدُ الذي نقصت

بدانته، فغنّى ورقص وابتهج وابهج سواه. ولبنى التي أنعشها النبأ الذي نقلته إليها، النبأ الذي نحيّتُ من وقائعه ما قد يُسبّبُ النكد، شعّت حيويتها وفتنتها، وتلقّت هي تعابير إعجاب، وأغلب ظني أنها تلقّت عروض حبّ أيضاً.

وأخذتُ بالجو. ونشطتني الحاجة إلى إفراغ التوتر المختزن، فرقصتُ كما لم أرقص في حياتي. جولتي الأولى وحدها استمرت على مدى ساعتين دون توقف. أسلمتُ نفسي لإيقاعين معاً، المنبعث من داخلي والآتي من خارجي. وبدوت، أنا الذي تجاوز سنّ الشباب، فتياً كأني في سن أبنائي. انسابت حركة جسدي دون كوابح. لم يثنني الحرّ، لا حرّ الجوّ ولا الحرّ الذي أجّ في داخلي، ولم أحتج طيلة الساعتين إلى استراحة. وإذا كنت قد توقفت بعد ساعتين، فليس لأني تعبتُ، فالواقع أن حيويتي لم تهمد، بل لأن عرقي غمر القميص الذي جئتُ به، فاحتجتُ إلى استبداله بآخر جلبته ريم من قمصان أبيها.

في هذه الاستراحة، لمحتُ جانيت، وهي التي قالت إنها حضرتْ منذ ما زاد على ساعة ونصف ساعة وإني لم أنتبه إليها. ولم تبدُ جانيت عاتبة، بل، على العكس، أظهرت تفهمها وبثت إشارة إعجاب بسلوكي. فجذبتُ الأميركية إلى الشرفة، لأني أردتُ أن أدخن سيجارة في

الهواء الطلق. وبالرغم من رومانسية الجو كله، لم تُخلف جانيت عادتها، عادة كلّ صحافي في واقع الأمر، فبدأت في عرض ما جمعته من أنباء ذلك اليوم، لكني أوقفتها وإن يكن بغير فظاظة: "ليس هذا وقته" وبنية إظهار ما هو ملائم للوقت الذي كنا فيه، أجلستُ الشقراء ذات الشعر الطويل على ركبتي ورحتُ أداعبُ شلال الحرير بيدٍ وأمسّد صفحة وجهها باليد الأخرى. فاستكانت هي للحظة أبرقت وعوداً. فوجدتُ يدي وقد هبطت من الوجه إلى العنق. وقبل أن تهبط اليد إلى ما دون العنق، نهضتْ هي في حركة لم تُظهر نفوراً لكنها أظهرت التحفظ: "هذا أيضاً ليس وقته، كما أنه ليس مكانه". فلم تنطفئ الوعود. بعد هذا، سكنتْ جانيت، وصمتت في هيئة من تفكر في شيء، ثم أمسكت يدي بحركة مباغتة وجذبتني: "لماذا لا نرقص معاً" وكانت جولة أخرى مع التي اتضح أنها راقصة بارعة، وتبديل قميص آخر. وفي الاستراحة، اتخذت هي المبادرة: "ماذا لو التقينا غداً" وقبل أن يصيح ديك الصباح، قبل أن ننصرف، تواعدنا على أن نلتقي في المساء.

(9)

بعودتنا من السهرة مجهدين، حوتنا أسرّتنا ونحن في ملابس الخروج. وحين رنّ جرس الباب وانتزعني من النوم، تعجلتُ الوثوب من السرير، وجريتُ نحو الباب، لأفتحه قبل أن يرنّ الجرس ثانية ويوقظ النائمين. وما أن شخصتْ نورما أمامي، أنا الذي لم يستعِدْ كامل صحوه، حتى وجدتُني أقرّعها بدل أن أحييها: "كم هي الساعة الآن، لماذا تتعجلين إيقاظ النائمين".

تجاهلت نورما ملاحظتي الساخطة، كما تجاهلت بروزي بملابس الخروج التي جار عليها العرقُ والنوم؛ كانت محتنقةً بحنقها عليّ، وبدت عاجزة عن السيطرة على نفسها: "نهار وليلة بطولهما، لا أراك، ولا تطرق بابي، ولا أعرف أين أنت، أهو هذا الذي تقوله أمثالكم: من لقي أحبابه نسي أصحابه، عيب عليك، كنتَ...". بدأت اللوم بلهجتها اللبنانية ثم تابعته بالإنجليزية. ولم أشأ أنا أن يستمر الفيضُ العكر، خصوصاً أن إيقاع صوتها راح يشتد فخشيتُ أن يوقظ البنتين: "اسمعي، لا الوقت مناسب ولا المكان عند الباب، سأغتسل لأطرد النوم وأجيء إليك، حضّري القهوة"! قلتُ هذا، ثم رددتُ الباب قبل أن تقول هي شيئاً. وما أن بلغني صوت اصطفاق بابها، حتى تنفستُ

الصعداء.

في طريقي إلى الحمام، فوجئتُ بثائر خارجاً منه. لم أكن أعرف أن ابني رجع إلى الشقة بينما كنّا نحن في منزل ريم، وكان ما أيقظني قد أيقظه هو الآخر، ويبدو أنه سمع شيئاً من الحوار الذي جرى على باب الشقة. أقول: يبدو، لأن هذا هو ما استخلصته استخلاصاً من نظـرة ابنــي إلـيّ، هـو الـذي لـم يقـل شـيئاً عـن أي حـوار. صـواب استخلاصي تأكد بعد أن عرضتُ على ثائر أن أعدّ قهوةً لي وله؛ فقد تساءل هو: "تشربها معي أنا"؟ فتذكرتُ وعدي للجارة. ولم ينتظر ثائر إجابتي، بل أضاف وقد تهلّل وجهه: "أحبُّ هذا. منذ وقت طويل لم نشرب قهوة الصباح معاً. قهوة، معك، على الشرفة. أحبُّ هذا كثيراً".

من جلس قبالتي كان رجلاً اكتمل نضجُه ففرحتُ به. ومن هو الأب الذي لا يفرح حين يدرك أن ابنه صار نِدّاً له، فصار بإمكانه أن يعوّل عليه. الابنتان نضجتا، لكن ليس إلى الحد الذي يجيز التعويل عليهما دون تحسّب، لهما شخصيتان ناميتان، كما وصف ثائر أختيه ونحن نتحدث عنهما، لكنهما ما زالتا تحت سن المسؤولية، وأخوهما لا يُحبّذ أن تُلقى عليهما مسؤولية كاملة قبل الأوان، كما استدرك هو نفسه. ومن حسن الحظّ، كما قلتُ أنا، أنهما ذاهبتان إلى حيث سيذهب هو، فليس عليّ أن أقلق. وعلى هذا القول، عقّب ثائر بما فاجأني: "أنا قلق

عليك أنت، بقاؤك هنا فيه مجازفة كبيرة، الكلُّ...". لم آذن بأن يتبدل مسار حديثنا، بل صممتُ على أن نكمل الحديث عن البنتين. وفي المحصلة، ارتسمت القناعة بأتمّ يقين ممكن: ثائر وأخته مؤهّلون لتدبّر أمورهم في ظرفنا المستجد، بي وبدوني. هذا اليقين روّق مزاجي. فاستجبتُ لما طلبه ثائر حتى دون مناقشة:" لا أريد أن يكون لنا أيّ صلة بزوجتك". استجابتي الفورية روّقت بدورها مزاج ثائر، فابتسم ابني ابتسامة عريضة: "شكراً. بإمكانك الآن أن تذهب، لا بأس بفنجان قهوة آخر، أنت بحاجة إليه"!

ما وعدتُ نورما به قبل أن انتبه إلى الوقت كان في البال. غير أن يومي كان مزحوماً بالمشاغل، وقد أدركني الوقتُ، وعليّ أن ابدأ بأعجل ما أستطيع: "لن أذهب إلى الجارة"، قلتُ هذا لأبني بسفور، لأنهي الحاجة إلى العبارات الملغزّة، ونهضتُ لأُعدّ نفسي للخروج.

كان على سائق الأستاذ عوني أن يجيء في التاسعة ليأخذني إليه، وكنّا نقترب من التاسعة. وكان عليّ أن أغادر بهدوء حتى لا تنتبه نورما إلى أني مغادر دون أن أراها. غير أن التي طال انتظارها شدّدت يقظتها. وما أن فتحتُ باب شقتي حتى أنفتح باب شقتها. وفي مواجهتي، برزتْ نورما بالثوب الذي لا يشفّ مفاتن جسدها وحدها، بل يشفّ، أيضاً، لغة هذا الجسد التي تقول إنها ساخطة.

وفي ما بدا لي أنه محاولة منها لمداراة سخطها، رسمتْ نورما على وجهها ابتسامة متسامحةً، واجتهدتْ كي يبدو سلوكُها عادياً. لكن هذا الاجتهاد بالذات هو ما نفّرني. وبدل أن أمضي في طريقي متعللاً بكثرة المشاغل ومتجنباً إثارة مشكلة، وجدتني مدفوعاً دفعاً إلى تصحيح الخطأ الذي وقعتُ فيه منذ أذنت بأن تتحول صلتي بالجارة إلى علاقة فراش. وسمعتني أقول وأنا أطلب المصعد: "لا يُعجبني أن تدلقي نفسك عليّ دلقاً، إنسي ما جرى بيننا"! وقبل أن يُفتح باب المصعد، تلقيتُ أولى الشتائم التي تدفقت من فم المصدومة بقولي، ثم لحقني الفيضُ الساخطُ وأنا أهبط، ثم انصبّ عليّ من الشرفة منذُ صرتُ في الشارع.

كانت لبنى قد سبقتني إلى المعهد وقابلت المدير قبل وصولي، وكانت قد خرجت من المقابلة مستثارةً: "عاملني بجفاء، أنت تعرف السبب، أم إنك نسيت". لم أكن قد نسيتُ، لكني آثرتُ تجنّب الخوض في شأن شخصيّ، خصوصاً أنه صار قديماً: "اتركيه عليّ، نحن في ظرف جديد، فلتكن صفحةُ جديدة"!

اقنعتُ لبنى. وبقي أن أقنع الطرف الآخر. وقبل أن افتح أنا الموضوع، اتخذ الأستاذ عوني المبادرة. ففيما نحن متجهان معاً إلى اجتماع سيضمّ الدارسين الباقين في المعهد، قال هو: "سيمون دو

بوفوارك جاءت ووقعت طلب عمل دون مناقشة، هذا جيد، لكنه لا يُلغي اني لم أطلب وجودها في المعهد، فهي مفروضة عليّ فرضاً، من فوق". ساءني اتكاء المدير على هذا السبب الذي أعرف انه ليس هو سبب الجفوة. أما الذي اهتدى إلى ذريعةٍ تُحرّره من وجع الضمير، فإنه أمعن في شرحها: "القائد العام قائد عام في الحرب، في السياسة، وربما في المال، لكن ليس في معهد دراسات. المعهد له قائد عام غيره، هو أنا، وأنا الباقي هنا وليس هو". وكأنما خشي الممضوض بما فُرض عليه أن لا التقط مغزى هذه المقارنة، أو كأنه عجز عن مغالبة حنقه: فصاغه في إنذار: "قل لحبيبة قلب قائدكما العام إن غلطتها الأولى في العمل ستكون هي الأخيرة، وإذا أجازت لنفسها أن تتحدّاني في أيّ نحو من الأنحاء، فإني لن انتظر إلى ان تغلط، وخلّ هذا مفهوماً منك ومنها، ومنه هو ايضاً"! ويا لمزاجي الذي قُدّر له في ذلك اليوم أن يتعكر ثلاث مرات قبل أن ينقضي وقت الصباح كلّه! وأية مشكلة هذه التي صار عليّ أن انشغل بها، ألم أتصور حين اخترتُ البقاء أني باقٍ من أجل ما هو أهمّ وأجلّ!

بمزاجي الذي اعتكر وهواجسي التي نبتت بشأن صواب اعتزامي البقاء في بيروت، جلستُ في اجتماع الدارسين ساهماً. وما أن أعلن المدير إنهاء الاجتماع حتى خرجتُ من المعهد. وفيما أنا واقف انتظر

الظفر بسيارةٍ تنقلني إلى حيث لم أقرر بعد، أقبلت لبنى التي افتقدتني فهرعت للحاق بي. ويبدو أن ما يعتمل في داخلي كان مرتسماً على وجهي. وبدون مقدّمات منها، قالت هي: "سآخذك إلى حيث تريد". وبدون وعي مني، سمعتني أقول: "إلى مقرّ القائد العام". ولم أدر، حتى بعد أن صرتُ في سيارة لبنى، لماذا اخترتُ التوجّه إلى هذا المكان بالذات.

كان المقر مكتظاً بالزوار كما لم يكن في أيّ وقت. وقد جاهدتُ بصعوبة لأشق لي وللبنى طريقاً وسط الحشد الذي يشغل الصالة المفضية إلى حجرة مكتب القائد. وفيما أنا منهمك في المزاحمة، وقعت عينُ مدير مكتب القائد العام عليّ، فهتف الرجل من فوق رؤوس الجميع: "نبحث عنك". ولم يلبث أن عرفتُ أني مدعو إلى اجتماع يعقده القائد مع عدد من الكتاب انتقى هو أسماءهم بنفسه، وأن الاجتماع على وشك أن ينعقد. فلما أومأتُ إلى وجود لبنى معي، قال مدير المكتب إن إسم السيّدة المحترمة، هكذا وصفها، غير موجود في قائمة المدعوين، لكنه لم يقفل الفرصة: "ما من شيء يمنع أن تحضر هي الأخرى الاجتماع".

اختار القائد غرفة العمليات التي أدار منها المواجهة مع جيش إسرائيل مكاناً لاجتماعه بالكتّاب؛ أو لأقل إن الصالة التي ضمتنا في

قبو المبنى كانت واحدةً من غرف العمليات التي استخدمها هو أثناء الحصار. إنه، إذاً، هو هو الرجل الذي تفتنه دلالاتُ الرموز: القائد، ونخبةُ الكتّاب، وغرف العمليات، واللقاء قبل المغادرة، رمز، رسالة، مناورة، إنذار، كلّ هذا ومعه بيت القصيد: الترحيل عن بيروت لا يعني إيقاف الكفاح.

تصدر الحاضرين شاعرا القمة، الفلسطيني والسوري؛ حضر كلّ منهما برمزيته وبواقعيته. وحضر كلاهما بالسمعة التي صارت لهما بما هما مناضلان تصدرا نشاط المثقفين في شهور الحصار. وحضر الشاعر الفزّي الذي طغى صوته على كل صوت. وقبل أن يُطلّ القائد، وصل مدير معهدنا ومعه من فاجأني ظهوره مفاجأة لم أخف دهشتي إزاءها: عبد الرزاق الذي صرفته من منزلي قبل أيام. ولأن لبنى لاحظت ما حلّ بي منذ ظهر هذا الرجل، فقد استفهمت عن السبب. وكنتُ مستعداً لأجيب، بل إني فكرتُ في أن أجيب بصوت مرتفع. وإذا لم أفعل، فلأن رجل الاجتماع اقتحم الصالة في تلك اللحظة ومعه حشدُ الحراس والمرافقين وحاملي آلات التصوير.

دخل القائد العام الصالة بالإيقاع السريع الذي لا يُبدله، فتوجّب على منتظريه أن يهبّوا واقفين بالإيقاع ذاته. وحلّ الصمت إلى أن شغل القائد المكان المخصّص له على المنصة، وهو الذي دعا شاعريَ القمة

ومعهما شاعر لبناني إلى الجلوس بجانبه. واغتنم آخرون الفرصة فخفّوا إلى المنصة دون دعوة وشغلوا بقية مقاعدها.

وحين جال القائد بنظره على الآخرين، حلّ الصمت مرّة أخرى، وصوته هو الذي اخترقه: "لم أخشَ مواجهة جيش إسرائيل الذي تخشاه، كما تعرفون، جيوش كثيرة. أما مواجهة هذه النخبة من حاملي الأقلام فهي ما أخشاها. وها أنا ذا أعترف، إني أعدّ نفسي مهزوماً سلفاً أمامكم، ولا أخجل من هذا الاعتراف". ولكي لا تفوت على أحد دلالةُ اللقاء في غرفة العلميات، استحضر هو هذه الدلالة: "القلم والسيف، الكلمة والرصاصة، هذا هو ما نعتمد عليه ونحن نكافح من أجل تحرير وطننا".

ما كان لفاتحة لقاء أن تُدغدغ إحساس الكتّاب بالأهمية بأكثر مما فعلت هذه الفاتحة التي بثّ القائد بعدها كلّ ما رغب في إيصاله إلى الرأي العام، دون أن يُقاطعه إلا الذين تحمسوا لتطييب كلامه. وحين أتيح للحاضرين أن يدلوا بملاحظات أو يوجهوا أسئلة، كان المتوخّى من اللقاء قد تحقق، فجاء معظم ما قيل تأييداً أو تأكيداً لما أدلى به القائد. أما حين تساءل الشاعر الغزّي عن المصير بعد الخروج، أي عن الموضوع الذي يفتح باب نقد يغوص في اللباب، فإن مدير الإذاعة هو الذي انبرى للإجابة. كان هذا المدير واحداً من الذين قفزوا إلى

المنصة دون دعوة. وببراعة من يُتقن تمييع فرص النقد الحميم والجاد، حوّل الذي تصدى للحكي هذا السؤال عن المصير العام إلى سؤال عن المصائر الشخصية، خصوصاً ما ينتظرُ الحاضرين بالذات وما يحتاجون هم إليه. ولأن للقلق على المصير الشخصي حضوراً يصعبُ الفكاك منه، فإن المداولات تركّزت على الحاجات والمطاليب الشخصية. وبهذا، تراخى الاهتمام بالحاجات والمطاليب العامة إلى أن غاض. وانتهى الأمر بأن وهن نظامُ الاجتماع، وراح طلاب الحاجات يتدافعون للاقتراب من القادر على تلبيتها أو تتزاحم أصواتهم للاقتراب من أذنيه، فيما راح الذين لُبّيت مطاليبهم او تعففوا عن الطلب يُخلون الصالة.

هممتُ باللحاق بلبنى التي خرجت قبلي. غير أن الاستاذ عوني كان لي بالمرصاد، وكانت في جعبته مساومة، هو الذي جلب معه نصيّ قرارين ليوقّعهما القائد العام: قرار توظيف لبنى؛ وقرار إعادة عبد الرزاق إلى العمل في المعهد ومنحه مرتبة وظيفية أعلى من السابقة: "نحن بحاجة إلى اختصاصي في الشؤون الإسرائيلية أكثر من حاجتنا إلى لبناكم؛ فرضتُها عليّ فرضاً. فإما أن تعدني بتزكية إعادة عبد الرزاق، وإما أن أغادر الآن دون أن أعرض قرار لبنى للتوقيع منه".

كان علي أن أحسم على عجل، أأخضع لهذا الابتزاز أم أرفض، فينتقم هو من لبنى؟ وصار من الطبيعي أن أحاول التملّص. فنصحتُ المدير بأن يذهب وحده إلى القائد العام فيضمن عدم اعتراضي. غير أن الذي خشي أن يرفض القائد إعادة من تركنا من تلقاء نفسه كان بحاجة إلى دعمي، فلم يُتح لي الزوغان: "كلانا ومعنا القراران، أو لا أحد ولا قرار، لبناكم عديمة الاختصاص وهذا المختص بالشؤون الإسرائيلية، أو لا أحد، واحدة بواحدة، وليس لأيٍ منا أن يُزايد على الآخر".

وضع المدير أمام القائد العام قرار عبد الرزاق أولاً. وأشرع القائد قلمه. غير أن الإسم حرّض شيئاً في ذاكرة الرجل: "أليس هذا هو الذي ترككم ليعمل في مركز تُموّله...". فأسرع المدير إلى قول ما تهيأ لقوله: "مضى أقل من ستة شهور على استقالته من المعهد، النظام يُجيز إعادته إذا تكرّمتَ بالموافقة". كانت هذه مناورة صغيرة لتركيز الانتباه على الشأن الإداري وحده، لكن القائد الذي لا تُعوزه اليقظةُ إزاء أي شأن لم يُؤخذ بها: "ليس هذا هو القصد، كيف نُكافئ شخصاً، أنت تعرف ما أقصده". فوجّه المدير نحوي نظرةً تحثّني على التدخل وتُحذّرني من الإحجام. والواقع أني كنتُ قد رضختُ وانتهى الأمر، لأني خشيتُ أن لا يعرض الذي يبتزني القرار الثاني إن امتنع القائد

عن توقيع الأول. ولم أكن مستعداً لإقفال فرصة لبنى أو التسبب في عراك لا الوقت وقته ولا الظرف. شيء واحد حرصتُ عليه، هو أن لا أتورط في أيّ دفاع عن عبد الرزاق. فانتقيتُ كلماتي انتقاءً: "الأستاذ عوني يريد عبد الرزاق، ولديه أسبابه، ومعه قرار آخر يحتاج إلى توقيعك عليه، قرار توظيف لبنى التي سبق أن وافقتَ على توظيفها، وأنا أستكثر أن نشغل وقتك بالتفاصيل، خصوصاً في هذا الظرف". فوجّه القائد نظرة نحوي، نظرةً سريعة قالت لي إني أفهمك، ثم وجه نظرةً إلى المدير، نظرةً مديدة قالت له إني أبيعك هذه. وبعد هذا، وقّع القائد قرار عبد الرزاق وناوله إلى المدير، ثم وقّع قرار لبنى وناولني إياه، حركةً قال بها بغير كلام: أفهمكما كليكما.

أما حين تكلم المسكون بهموم أكبر بعد أن فرغنا من هذه المسألة الصغيرة، فإن هاجسه بشأن مستقبل وجودنا في بيروت هو الذي حضر. تكرّر الحديث عن الضمانات. الضمانة الوحيدة التي توفرت وأمكن التعويل عليها طيلة السنوات الماضية هي تلك التي حققها وجود السلاح في أيدي الفلسطينيين وأيدي حلفائهم اللبنانيين. أما في الظرف المستجد، فليس في اليد سوى وعود كلامية، وهذه لا يمكن التعويل عليها. المتعاونون مع إسرائيل، مثلهم مثل إسرائيل، لن يتورعوا، كما لا تتورع هي، عن ارتكاب أي جريمة للتخلص من

الحضور الفلسطيني، ولن يبخلوا بأي جهد. في بال هؤلاء مواويل قبيحة سيحاولون أن يُغنّوها، وإسرائيل ستشجعهم، والولد الأزعر الملوثة يداه بالدم الفلسطيني واللبناني والذي تريده إسرائيل رئيساً تضعه في حلق أغلبية أهل البلد ها هو ذا يحثّ أتباعه على شحذ السكاكين. وبوجود هذا الأزعر لا يمكن التعويل على أيّ ضمانات، الأمل معقود على أغلبية أهل البلد لتتخلّص منه، لن تُجيز الأغلبية لأزعر باع نفسه للشيطان أن يخدم بإسمها إسرائيل: "تذكروا ما سأقوله لكم: هذا الأزعر لن يُفلِح، والمعهد سيصير محطّ أنظار الجميع، إسرائيل والمتعاونين معها، وناس الأغلبية اللبنانية سيقاومون الاحتلال الإسرائيلي، وسيتسبب المتعاونون مع إسرائيل في تهييج الحرب الأهلية. أعرف أنكم غير هيّابين، لكني أريدكم حذرين أيضاً"!

في الطريق، في سيارة التي طال انتظارها كي توصلني إلى منزلي قبل أن تنصرف إلى مشاغلها، حذرتُ المتحمسة للعمل معنا مما ينتظرها على يد الحاقد الذي يتصيد فرصة للانتقام منها، وحذّرتها كذلك من الأخطار العامة. وناقشتُ مع التي لا يُمكن أن تُعدّ في الجبناء سبل تقليل فرص الاحتكاك بالمدير: "ستكونين في القسم الذي أرأسه أنا، وسأتصدى أنا وليس أنت له كلما حاول إيذاءك".

واقترحتُ على لبنى أن تواصل ما شرعت فيه، جمع الشهادات، وحثثتها من جديد على أن تجمع شهادات القادة بعد أن جمعت شهادات المقاتلين. فالقادة سيحلّون في بلدان عدّة بإمكانها هي أن تسافر إليها بجواز سفرها الأردني دون عراقيل. سأوفر لها فرص سفر كثيرة، فنحصل على الشهادات وتتقلص فرصُ احتكاكها بالذي يضيق بوجودها. ومن جانبها، أضافت التي قبلتْ اقتراحي سبباً لم أفطن إليه، فما اقترحتُه سيُساعدها في إعداد أطروحتها للدكتوراه. فهي عازمة على أن يكون موضوع الأطروحة هو آليات الحصار كما تستخدمه إسرائيل.

وعند باب البناية حيث تركتني لبنى، هرع أبو طانيوس نحوي منذ لمحني. هم أنفسهم، الذين جاؤوا في اليوم السابق، رجعوا في الصباح ووجهوا أسئلة كثيرة. ولم يكتفوا بالأسئلة، بل طلبوا من البواب بلهجة منذرة أن يُسجّل مواعيد انصرافي وعودتي. وذكّر هؤلاء البواب بانتمائه الديني، الطائفي بعبارة أدق، وقالوا إن هذا الانتماء يوجبُ عليه أن يخدمهم هم ويحظُرُ أن يتستر على أعدائهم، وأنا من هؤلاء الأعداء. "والحق اني لم أجرؤ على الاعتراض، الشرُّ في عيونهم، ومسدساتهم تحت آباطهم، فكيف أعترض" قال أبو طانيوس هذا بنبرة اعتذارية وهو يكاد يبكي، ثم أضاف وقد طفح

أساه: "تعرف، الدنيا تبدلت، وستتبدّل أكثر، وأبو طانيوس وراءه أفواه مفتوحة، ولقمة العيش ستصير بيد هؤلاء". بثّ الرجل الطيب همّه فيما أنا صامت؛ التعاطف معه والعجز عن توفير ما يطمئنه لجما لساني. أما هو فظنّ، على ما بدا لي، أني غير مقتنع بأن عليه أن يخاف من هؤلاء الناس. وسواء صحّ ما بدا لي أو أن إفراطي في العطف على المضطر للرضوخ جعلني أسيء الفهم، فإن الرجل قال بعد لحظة صمت لم تطل: "إذا كانوا قد فرضوا على زعماء البلد رئيساً متعاوناً مع العدوّ الذي دمر هذا البلد وأذل زعماءه، فهل يعجزون عن فرض ما يريدون على بواب بناية".

هوّنت الأمر على الذي يوجعه اضطراره إلى الرضوخ، لا لأن الأمر هيّن حقاً، بل لأني لا أملك أن أواسي الموجوع بغير الكلام. أما في داخلي فإن الإحساس بالخطر اشتدّ، فنبتت الفكرةُ التي لم أقدر على تنحيتها: هذا شارع يعرفني كل من فيه ويعرف صفتي، فليس من الحصافة أن أستمر في السكن في هذه البناية. ولا بدّ، إذاً، من البحث عن مسكن آخر يُستحسن أن يكون بجوار معهدنا، حتى لا أحتاج للتجوّل كثيراً في المدينة التي ينقلب حالها رأساً على عقب.

لم أجد الأولاد في المنزل، غير أنهم كانوا قد نظفوه ورتبوه، كما كانوا قد أعدّوا طعاماً وتركوا لي ما آكله. وفي المطبخ، وجدتُ ملاحظة

عُلقت في مكان بارز: "انتظر عودتنا، لدينا أخبار جديدة، لن نتأخر"!
وفي الحمام الذي أعيد إليه رونقه كاملاً، وجدتُ ملاحظة أخرى:
"الحرب توقفت، لكن حرارة الجو بقيت على حالها، فمتّع نفسك بحمام، ولا تبخل في استخدام الماء"! غمرتُ نفسي بالماء غمراً، وأكلتُ ما تركه الأولاد كله، ثم استكملتُ حظي من المتع بإغفاءة على سريري الذي جلله الأولاد بأغطية نظيفة ومكوية. بكلمات أخرى، استعدتُ شيئاً من مألوفي الذي فقدتُه أثناء الحصار.

لم أدر كم طالت قيلولتي، فأنا لم أنظر إلى ساعتي حين شرعتُ فيها، غير أنها كانت الرابعة بعد الظهر حين انتُزعتُ منها؛ جرس ملحاح لم يتوقف رنينه إلى أن فتحتُ باب الشقة، ونورما منتصبةٌ في وجهي وسبّابتُها على الجرس. وقبل أن أعرف كيف أتصرف، قبل أن أحتج أو أرحّب، قبل أن استكمل صحوي: تلقيتُ من يد الجارة صفعةً حاقدة، وانثالت من فمها دفقةُ لؤم مسمومة: "هي، إذاً، ابنة الباشا وسيارتها الفخمة وهي التي أنستك نورما، ظننتَ أني لن أعرف، البلد كلّها تحكي على لبنى الأرملة التي لم تجد من يتزوجها، فصارت...".
الصفعة، واللوم الظالم لي وللبنى، وقبلهما شتائم الصباح، فهل كان في اليد إلا أن أصفق الباب في وجه التي تجاوزت كلّ حد!

تصرفتُ دون تفكير. لعلي أردتُ أن أتجنب مشاجرة، لعلي جبنتُ، أو

ربما كانت هي الحكمة التي تجعلك تدرا الأسوا بالسيء. ايا ما كان عليه الدافع، فإني اخطاتُ التصرف. فالحانقة فجّرت مخزون حنقها ضجيجاً امتزج فيه الصراخ والعويل والشتائم. فاجتذب الضجيج من سمعوه من سكان البناية، وجعل أبا طانيوس يهرع إلى طابقنا قافزاً على الدرج قفزاً بدل ان يستخدم المصعد، وارغمني انا على ان ابرز للجميع. الفضيحة بلغت ذروتها حين انفتح باب المصعد وظهر الثلاثة معاً: غزّة ويافا وثائر. صحيح ان ابنائي ظهروا لحظة ان افلح ابو طانيوس في إسكات التي خرجت عن طورها. غير أن هذا لم يبدل دلالة المشهد الذي جبه المفاجئين بورطة ابيهم. وأيا ما صار عليه الحال، فإن ظهور الأبناء حثّ أبا طانيوس والآخرين على طي المشهد الفاضح، فتعاونوا وأدخلوا نورما إلى شقتها، ثم تفرقوا.

تجلّد أبنائي امام المشهد فبقوا صامتين. وبعد أن دخلنا شقتنا ودخل أبو طانيوس معنا، اضطروا إلى الاستمرار في الصمت. وحين طلب الرجل الانفراد بي، قدتُه أنا إلى حجرة المكتب بأعجل ما استطعتُ، فاراً من الذين جلسوا متفرقين على مقاعد الصالة وهم مكتئبون.

في حديثه السابق معي، نسي ابو طانيوس شيئاً ذكّره به، كما قال هو، ما فعلته الستّ نورما طيّان. فالذين رجعوا في الصباح ليسألوا عني لم يكتفوا بالتحدث إليه هو، بل دخلوا شقة الجارة واختلوا بها

زمناً جعله يُقدّر انهم وجّهوا إليها اسئلة كثيرة. وما أن انصرف البواب حتى داهم أبنائي الثلاثة الحجرة التي كنتُ قد نسيتُ إغلاق بابها وكانوا هم قد سمعوا الحديث الذي دار فيها. وسبقت عزّة أختها وأخاها: "نعرف أنك قلق على مصيرنا بعد أن نفترق. الآن، بعد ما قاله العم أبو طانيوس، جاء دورنا لنقلق عليك".

هذا التطور فرض ثقله. وبدل أن ينصبّ الاهتمام على سفر الثلاثة وعيشهم في دمشق، انصبّ على ما يتصل بسلامتي أنا الباقي في بيروت. كان ثائر قد عرف موعد رحيل وحدته. وكانت البنتان قد تأكدتا من ان إسميهما أدرجا في قائمة المغادرين على السفينة التي ستتوجه إلى ميناء طرطوس السوري والسفينة ستغادر بعد تسعة أيام. وكان الأولاد قد انتهوا من إعداد القليل الذي يلزم لرحيلهم ولم يبقَ ما يفعلونه إلا توديع الأصحاب. "وإذاً"، قالت يافا، "لم يبقَ مما يُقلق إلا هذا الذي يُقلقنا عليك".

لكم نضجوا!!

حكي أبي طانيوس نبهني إلى أن الغيرة الحمقاء دخلت على خط تقرير مصيري. والغيرة لا علاج لها. من أين عرفتْ نورما إسم لبنى، وأنها ابنة باشا؟ فكّرتُ في هذا ولم أهتد إلى إجابة، فنسبتُ الأمر إلى

هؤلاء الذين اختلوا بها واستغلّوا غيرتها، نسبته إليهم دون أن أكون على يقين، فهل بالغتُ؟ ما أقبح الهواجس التي تُداهمك دون أن تتيقّن من مصادرها! إن صح هاجسي فما الذي ستفضي إليه صلةُ هؤلاء بنورما؟ ما الذي يمكن أن تفضي إليه الغيرة؟ إزاء ما ليس له علاج لا مجال لمغالطة النفس. علاقتي بالجارة كانت نزوة أطفأها أوّل شجار ولن تشتعل من جديد، وليس بإمكاني، إذاً، أن أصلح ما فسد فاتجنب أذاه. من هنا، تأكد عزمي، ليس على الانتقال إلى منزل جديد، فهذا كان في البال من قبل، بل على تحقيق الانتقال فوراً. وبهذا، صار عليّ أن أنهمك لتوّي في البحث عن مسكن آمن.

أبلغتُ ما عزمتُ عليه إلى القلقين على أبيهم. وحاولتُ أن أهون الأمر لأبرّد ما سبّبته لهم وهم مقبلون على مرحلة جديدة في حياتهم: "سأبذل جهدي، وسأطلب مساعدة من أعرفهم من اللبنانيين وغير اللبنانيين". عندها، اتضح أن كلاً من أبنائي كان قد توصل، على حدة، إلى ما توصلتُ أنا إليه. فأراحهم أني سبقتهم في الإفصاح عنه: تلقف الثلاثة ما عدّوه تخلياً مني عن استهتاري المزمن بسلامتي، وتبادلوا في ما بينهم نظرات ذات مغزى تعجلوا بعدها الإنصراف.

منذ صرتُ وحدي، عجزتُ عن مغالبة حاجتي إلى النوم، فاستسلمتُ لإغفاءةٍ على المقعد انتزعني منها رنينُ جرس الباب. وبالرغم من أني

اندفعتُ وأنا غير مكتمل الصحو إلى الباب اندفاعاً، فإن خشيتي أن تكون هي الجارة لجفت اندفاعتي وجعلتني أتروى، فلم أفتح الباب. وحين انتهى إلي صوت انصفاق باب الشقة المجاورة، غبطتُ نفسي على فطنتي. وبعد هذا، ثابرتُ على الإطلال من نافذة المطبخ لاتفقد سيارة جارتي بأمل أن تغيب. كان المساء قد حلّ. وكان علي أن التقي جانيت كما وعدتها. وكانت حاجتي إلى المغادرة، دون المجازفة بالتعرض إلى فضيحة أخرى، قد أنبتت الأمل بأن تُغادر نورما شقتها فيصير طريق مغادرتي آمناً. غير أن الوقت مضى فيما السيارة اللعينة ثابتة في مكانها. وقد غاليتُ في الحذر، فتجنبتُ أن أشعل ضوءاً أو آتي حركة يصدر عنها صوت.

وهكذا، انقضت ساعاتٌ وأنا مثل طريد عدالة مختبئ يخشى أن يُحدث ما يدلّ على وجوده. وعقدتُ أملي على عودة أبنائي لعل وجودهم يُحررني من بعض ما يُكبلني، غير أنهم تأخروا. ومع أن الافتقار إلى النوم هدّني، فإني غالبتُ حاجتي إليه، فبرزت الحاجة إلى فنجان قهوة. هذه الحاجة اليسيرة غالبتُها هي الأخرى إلى أن غلبتني. ولأني قدّرتُ أن جارتي استسلمت للنوم أو كفّت عن ترصُّد ظهوري، فقد جازفتُ بإشعال ضوء المطبخ. وما كان أسوأ ما فعلت! فبعد أقل من لحظة، انطلق رنينُ جرس الباب، ثم لم يتوقف.

وأطلقت نورما زعيقها من وراء الباب المغلق. وحين صار لا بدّ مما ليس منه بدّ، واجهتني لبؤةٌ مهتاجة. أنا لا أعرف إن كانت اللبؤة تزأر كما يزأر ذكرها الأسد. غير أن ما انصب في أذنيَ لم يختلف عن الزئير القبيح.

الفضيحة الجديدة كانت ضاجّةً أكثر من سابقتها. والذين اجتذبهم الضجيج كانوا هذه المرة أكثر. وكما لا يقع إلا في الحكايات، أوصل المصعد أبنائي الثلاثة إلى الطابق الخامس والفضيحة في إبّانها. لم يَبدُ أبنائي مفاجئين، ولم يصدر عن اي منهم ما يُفاقم الوضع. غير أن هذا لم يجعلني أقلّ حرجاً. ومن هو الأب الذي لا يشتدّ حرجه حين يضبطه أبناؤه وهو في موقف محرج! هذه الفضيحة دفعتني إلى الاقتناع بأن علي أن أترك الشقة حتى قبل أن أعثر على غيرها. فنورما التي تلقت نظراتنا اللائمة لم تتمالك نفسها، فقذفتني أمام الجميع، أبنائي وسكان البناية، بتهديد مجلجل: "الحال تبدّل وأنت لن تسلم". زأرت المهتاجة بهذا التهديد، ثم عززت دلالته: "لن يسلم أيّ فلسطيني، وستري". قالت الكلمة الأخيرة بالعربية وكرّرتها بالإنجليزية، فتأكد التهديد باللغتين.

(10)

في تلك الليلة لم ينم أيّ منا نوماً مريحاً. شغلنا هذا الهمّ الذي هو في نهاية الأمر همّ موجع، فأبقانا ساهرين. ثائر كان عليه أن يلتحق مع الظهر بوحدته المرّحلة إلى دمشق، والبنتان ستصحبان أخاهما إلى الملعب البلدي حيث سيتجمع المرحّلون وتجرى مراسم توديعهم. وبالرغم من ضيق الوقت، صمم الثلاثة على أن أغادر أنا الشقة قبل ان يبدأوا هم التحرك. وما أن انتشر ضوء النهار حتى تحلق ثلاثتهم حول جهاز الهاتف وشرعوا في إجراء مكالمات استمرت إلى أن بدا أنهم عثروا على شيء. فتشاوروا في ما بينهم، ومحّصوا العروض التي تلقوها، واتفقوا على قبول واحد منها. بعد هذا، اقترب ثائر مني، وتحدث، هو الذي صار في بذلته العسكرية الجديدة، بنبرة وليّ أمر، وابلغ إليّ ما اتفقوا ترتيبه من أجل سلامتي.

قال ثائر إن أصدقاء لهم سيأتون فوراً ويأخذوني إلى منزل واحد منهم. وهؤلاء الأصدقاء هم الذين سيتدبّرون أمر شقتنا التي ينبغي ان لا أرجع إليها أبداً: "الذين ستقيم عندهم لبنانيون ستبقى في ضيافتهم إلى أن تجد مسكناً ملائماً". وإلى هذا الذي ختم ثائر به ما هو مطلوب مني، أضافت غزّة التي لم ترفع نظرها عني: "لا مجال

للمناقشة، لن يضايقك هناك شيء، وسأظل أنا وكذلك يافا معك إلى يوم ترحيلنا". وكأنما تصورت يافا أني استصعبُ الأمر، فشاءت أن تهوّنه: "ألا تحبّ أن نفارقك ونحن مطمئنون عليك، خذها كما هي، ببساطة، أطعناك حتى كبرنا، الآن جاء دورك لتطيعنا"!

رحيل عن الشقة ولا عودة إليها، هذا ما توجّب أن أهيّء نفسي لقبوله. والواقع أني أخذتُ بنصيحة يافا، فاستسلمت ببساطة. وكان هذا استسلاماً لذّ لي أن أشهره لأرضي الأعزاء المفارقين.

جاء أصدقاء أبنائي. كانوا جماعة وافرة العدد، وكان كلّ شيء قد شُرح لهم بتفاصيله فعرفوا كلّ ما ينبغي أن يفعلوه. وما كان أشدّ شبه هذه المجموعة بوحدة عسكرية أنيطت بها مهمة إخلاء الشقة وتأمين سلامة المخليين! حتى لقد وقف اثنان من الشبان إزاء باب الشقة المجاورة، تحسباً لظهور المرأة المهتاجة، فيما تولى آخرون نقل الحوائج القليلة التي ستغادر الشقة معنا، وتولى غيرهم إحصاء ما بقي، وأفهموني أنهم سيعودون إلى الشقة من أجل نقله إلى حيث أريد، حين أطلب منهم نقله. ولحظة مغادرتي أنا الشقة، اتخذ الواقفان إزاء باب الجارة وضع التأهب، وباراني ثالث، هو من ساجِلّ في منزل ذويه والوحيد الذي بقي اسمه في بالي: جهاد. وقد أدخلني جهاد المصعد وتبعني، ثم تبعنا المتأهبان. ومن حسن حظي أن

مدخل البناية خلا من أيّ سكان وأن البواب غاب عنه. والذين رافقوني في المصعد اقتادوني هم أنفسهم إلى واحدة من ثلاث سيارات كانت مصطفّةً في حالة تأهب للإنطلاق. ولحظتها فقط، انتبهتُ إلى أن سيارة جارتي ليست في موقفها؛ كانت الدراسة قد استؤنفت، ولا بد من أن نورما كانت في المدرسة.

في السيارة التي أخذتُ إليها، كان ثائر جالساً إلى مقعد القيادة وغزّة ويافا في المقعد الخلفي. فأجلستُ أنا بجانب ابني، وجلس جهاد مع ابنتي. وجهاد هو الذي أعطى إشارة التحرك: "إلى عيشة بكار، إلى المنزل الذي تعرفه"! وإذاً، فإن أبنائي أحسنوا الاختيار حقاً: منزل أسرة صديقة ناسها مسيّسون، وحيّ سكانهُ متعاطفون مع الفلسطينيين. وما كان لأيّ تدبير أن يكون أحكم أو أن يُوفّر ما هو أفضل.

كنت على يقين من أني لن أرى، مرة أخرى، الشقة التي خلّفتُ فيها ذكريات ثلاث سنوات من عمري. وكنتُ أخشى أن لا أستعيد أشيائي المتروكة فيها. بالرغم من هذا، لم أجدني حزيناً ولا حتى آسفاً. فمنذ أُخرجتُ من بلدتي الفلسطينية قبل ما زاد على ثلاثة عقود، ظل عليّ أن أتنقل من بلد إلى بلد ومن مسكن إلى غيره في البلد الواحد. وغالباً ما تم الإنتقال بالإكراه. وكثيراً ما خلّفتُ ورائي أشياء وأشياء.

أزمن التشرد، فلم يعد الإنتقال مما يثير المواجع، بل صار هو المألوف، حتى لقد صرتُ أخشى أن يُنفّرني الاستقرار. وعلى عكس ما توقعه ابنائي، تصرفتُ بعفوية فيما هم ينقلونني. وأنا الذي نبهتُ الأبناء إلى ما ينبغي عمله كي يمضي نهارنًا كما خطّطنا له: "آمل أن نرتّب أمورنا في منزل أصدقائنا بسرعة، حتى لا يتأخر ثائر، وحتى اجد أنا وقتاً لمشاغلي الكثيرة".

لم يكن ابو جهاد في المنزل. وأم جهاد هي التي استقبلتنا بأريحية بنت البلد والعبارات التي لا يتقنها أحد كما تتقنها بيروتية أصيلة. وأطفال الأسرة التفّوا حولنا مرحبين ومهللين. كان في المنزل ثلاث حجرات، فخصُّونا بواحدة منها. وكان في هذه الحجرة سرير واحد، فقالت أم جهاد إنه لي أنا، أما ابنتاي فتنامان على الأرض: "لن تتضايق عندنا أبداً". وإلى هذا الذي قالته السيدة المضيافة، أضافت غزّة وهي تُنضّد ملابسي في الخزانة: "نحن متأكدون من هذا"، وأمّنت يافا على ما قالته أختها. وفيما نحن نتهيأ للمغادرة، ظهر أبو جهاد. كان الرجل راجعاً من السوق ومعه ما جلبه من أجل الحفاوة بنا. وحتى قبل أن يتخفف من حمله، فاضتْ عباراتُ أبي جهاد المرحّبة وسعادته بوجودي في منزله. ومع حركة اليد السخيّة وهي تمتدّ لمصافحتي، قال الذي غمرني بالودّ:" عرفنا أنجالك، والآن أنت،

فنعم الناس، البيت بيتكم مثلما هو بيتنا وأكثر، فخذ راحتك"! ولأني ادركتُ أن ابنائي يرصدون ردّ فعلي، فقد حرصتُ على التعبير عنه بأليق عبارة: "أنا ممتن لكم، مع هذه الطيبة لن اتضايق هنا أبداً. انتم على حق".

الملعب البلدي بلغناه في الحادية عشرة، ساعةً أبكر من موعد الانطلاق. وهناك، عثرنا على لبنى في انتظارنا عند المدخل فانضمّت إلى جماعتنا. كان الملعب مكتظاً بالذين وفدوا إليه، كان شديد الاكتظاظ، كما ينبغي أن يُقال. ولم يكن سيل الوافدين قد توقف. تحلّق المرحّلون حول الشاحنات العسكرية التي ستقلّهم إلى دمشق، كانوا في أتمّ أناقة، البذلات والجعب الجديدة والبنادق اللامعة والحركات. وكان هذا كلّه يعكس ذلك المزيج الفاتن من الفرح بالنجاة والإحساس بالزهو والقلق على المصير. وقد أحاط بالمرحّلين ناسهم الذين جاءوا لوداعهم، وناس الإعلام الكثيرون، والفضوليون من شتى الأصناف، من سكان المدينة ومن الذين جاءوا من خارجها. ووسط الحشد، ترادفت الشاحنات التي اعتُني بمظهرها عناية فائقة. ونُضّدت في صناديق الشاحنات الحوائج القليلة التي أجازت التعليمات نقلها.

شققنا طريقنا، ليس بدون صعوبة، نحو الشاحنة التي سيستقلها ثائر.

تقدّمنا ببطء، بطء شديد في واقع الأمر، ليس بسبب التزاحم والاكتظاظ وحدهما، بل، كذلك، بسبب اضطرار ثائر إلى التوقف مرّة تلو مرة لتحية معارفه من المرحّلين معه أو لوداع الباقين. وحين اقتربنا من شاحنة ثائر، حين لم يعد يفصلنا عنها سوى أمتار لا تزيد على عشرة، كان التزاحمُ حول الشاحنات بالذات قد جعل الوصول إلى أيّ منها متعذراً أو شبه متعذر. وكانت مكبرات الصوتُ تكرّر دعوة المقاتلين إلى الصعود إلى شاحناتهم. ومع اشتداد تواتر تكرار النداء، شدّدنا جهدنا وألسنتنا حتى أمكن أن نشق لثائر طريق الوصول إلى شاحنته وأخذ مكانه فيها، فيما بقينا نحن على مسافة منها. وهكذا، غابت فرصة الوداع الذي تصورنا أنه سيكون حميماً. فتوادعنا بتلويحات الأيدي. ولئن اقتنعتُ أنا بأن هذه هي الفرصة الوحيدة المتيسرة، فإن غزّة ويافا استمرتا في المزاحمة بأمل أن تبلغا الشاحنة. اندفعت البنتان في اتجاه، ودُفعتُ أنا ولبنى في الاتجاه الآخر، فأبعدني التزاحم عنهما. ثم غيّبَ الموج المتلاطم لبنى عن نظري، ففقدتُ الصلة بها. ولأني أبغض مشاهد الفراق، خصوصاً هذا الذي تفرضه الأحداث عليّ فرضاً، فقد عزمتُ على الانسحاب من المشهد، فأذنتُ للتزاحم بأن يجرفني بعيداً، إلى أن أخرجني منه، فتعجلتُ الانفلات من المحشر.

هذا الذي جرى بالرغم مني وبإرادتي معاً انساني ان ارتّب مع ابنتي امر لقائنا كي نعود إلى المنزل الذي اجهل كيف اصل إليه وحدي. وحين تذكرتُ هذا الذي لا بدّ منه، كانت فرصةُ العثور على البنتين وسط الحشد المتلاطم قد فاتت. بالرغم من هذا، قرّرتُ أن احاول. لكن الرصاص المنطلق من ألوف البنادق تحية للمرّحلين الذين بدأ موكبهم بالتحرك هيّج حماس الحشد، فاشتدّت حركتُه وهو يُباري الشاحنات المتجهة نحو بوابة الخروج، ولم يعد بإمكاني إلا ان اكفّ عن المحاولة العقيمة.

خلا الملعب قبل أن احسم امري بشأن خطوتي التالية. ووجدتُني أغادر البوابة مع آخر من غادرها. وهناك، في الشارع، وقعت عينا لبنى علي. حدث هذا بالصدفة. كانت هي قد بارت القافلة لبعض الوقت كما فعل أغلب المودعين، ثم عادت لتبحث عن سيارتها التي نسيت اين أوقفتها، فوجدت الذي تاه حتى عن ابنتيه ولم يعرف كيف يودع ابنه.

بعثور لبنى علي، ارتسمت الخطوة التالية: "هل نذهب إلى المعهد"؟ تساءلت هي بنبرة من يعرض اقتراحاً، فلاءمني اقتراحها. وعند مدخل المعهد، استوقفني موظف الاستعلامات بلهفة: "هتفنا لك منذ الصباح فلم يرد أحد" طلبني الأستاذ عوني لنكون معاً في وداع

القافلة الأولى، ولما لم يجدني فإنه ترك لي رسالة، فهو سيتوجه بعد التوديع إلى مقر القائد العام الذي طلب أن نجيء كلانا إليه. وكالعادة، أسعفني استعداد لبنى للمساعدة بسيارتها. فذهبتُ إلى المقر الذي كنّا فيه آخر مرة، فوجدتُ أنه أخلي من شاغليه منذ الصباح، ولم يبق فيه إلا حارس لا يعرف أين ذهب الذين كانوا فيه. وجلتُ على المقرّات الأخرى التي أعرفها، فوجدتُ بعضها خالياً، ولم أجد القائد العام في أيّ من المقرات التي لم تُخل بعد. انقضت قرابة ساعة تضافر عليّ خلالها الجوع والحرّ وقلّة النوم واضطراب المشاعر، فوهنت طاقتي. وما أن اقترحت لبنى، هي التي لاحظت حالتي، أن نكفّ عن هذا البحث ونذهب إلى المطعم حتى قبلتُ اقتراحها. هل قلت: قبلته، الأصح أن أقول إني رحبتُ به بامتنان: "سامر ينتظرني هناك وسيسعده مجيئك".

مثل المحلاّت العامة كلّها، كان مطعم أبي ريم مكتظاً بالرواد. والذين لم يحظوا بمناضد خالية احتشدوا في المدخل، وكل واحد يُصبّر نفسه بانتظار أن يحلّ دورُه ليظفر بمقعد شاغر أو بما يحمله معه. ولم يُخصص لنا أبو ريم سوى اللحظة التي منحنا فيها ابتسامة مرحبّة وأشار إلى حيث يمكن أن نعثر على سامر. كان صديقنا جالساً على مقعد حول منضدة شغل بقية مقاعدها ناسٌ لا يعرفهم. وقد

نهض هو منذ رآنا، وأخلى مقعده لتجلس لبنى عليه، وانتصب واقفاً خلفها، ووقفتُ أنا بجانبه. ولما لم يظهر ما يُبشر بأن أيّ واحد من المستحوذين على المقاعد الأخرى سوف يُخلي مقعده، فإن سبباً جديداً انضاف إلي أسباب الضيق الذي كاد يخنقني فحملني على المغادرة. تذرعتُ بمشاغل قلتُ إني تذكرتها لتوّي، وأسرعتُ في الإنصراف قبل أن يُجادلني أيّ من صديقيّ حول ذريعتي الواهية.

ما أشدّ ما اختلف الجو فاختلفت أوجه سلوكنا. ففي أوقات الخطر الذي كان يترصدنا في كلّ لحظة في كلّ مكان، لم أكن لأتوه في تحديد خطوتي التالية. امّا بعد ان قلّ الخطر، فها انا ذا قد صرتُ تائهاً. ولأني لم احزم امري بشان الخطوة التالية، فقد وقفتُ امام المطعم على الرصيف، واشعلتُ سيجارة، ورحتُ افكّر، لكني دخنتُ السيجارة كلها دون ان اهتدي إلى ما ينبغي ان افعله، فأشعلتُ سيجارة أخرى، ومشيتُ. المنزل الجديد لا اعرف كيف أصل إليه، ورقم هاتفه لا أعرفه، وإسم صاحبه الكامل لا أعرفه: جانيت التي قد تكون في الفندق القريب أخلفتُ موعدي معها في اليوم السابق ولستُ اضمن ان تكون وحدها، وقد يكون معها البريطاني الذي لا يُرحّب بوجودي. ولأني سرتُ على غير هدى، فإن خطوي كان بطيئاً. وفجأة، باغتني صوتُ جانيت وهي تهتف بإسمي، ووقفتْ بجانبي

سيارة يقودها هذا البريطاني وهي بجانبه. وفي ردّ فعل تلقائي، وجهتُ للرجل تحية بكلمة لا أشك في انه سمعها وهزّة رأس وتلويحة يد رآهما. فردّ هو تحيتي بحركة من جفنيه لم تقترن لا بابتسامة ولا بكلمة، حركة متعالية إن شئتُ الدقة. ساءني ما حصل، لم يسؤني ردُّ فعل هذا الرجل، فهو في آخر المطاف إنجليزي. ما ساءني كان هو سلوكي أنا، لماذا بادرتُ هذا الشخص البارد بالتحية، لماذا وجهتُ له تحية سخيّة، ألم يكن الأحرى أن انتظر مبادرة منه هو، أو أن اتجاهل وجوده. استيائي جعلني أرفض اقتراح جانيت بأن أنضم إليها في السيارة ودفعني إلى أن أتابع سيري.

"مسكينة جانيت": بهذه العبارة وصفتْ هي نفسَها منذ بارتني، هي التي انفلتتْ من سيارة البريطاني ولحقتْ بي. فهل اختارت جانيت العبارة لأنها أوذيت، أو أنها شاءت أن تسترضيني؟ لمع هذا السؤال في بالي دون أن تتبعه إجابة. غير أن المبادَرة إلى اللحاق بي، أو لأقل: إن ترك جانيت وليّ نعمتها من أجل أن تلحق بي أنا هدّاني. وفي جلستنا في بهو الكومودور الذي توجهنا إليه، توقعتُ أن تُقدّم جانيت إيضاحاً، لكنها بقيت صامتة، وأغلب ظني أنها توقعت مني أنا أن أقدّم إيضاحاً لسبب تخلفي عن موعدنا في اليوم السابق، ولعلها توقعت أن أعتذر، غير أني بقيتُ مثلها صامتاً. طال الصمت. وحطّ

على مجلسنا ذلك التحرج الذي لا يُنحّيه إلا مبادرة أحدنا أو كلينا إلى البوح بكل ما يدور في النفس. كان واضحاً أن لدى كلّ منا ما يُمكن البوحُ به، ولعل كلاً منا انتظر أن يتخذ الآخر المبادرة.

هذا التحرّج الذي يُلجم الألسنة أخرجني منه ظهور زياد. جاء الذي يبحث عني إلى المطعم، فعرف أني غادرته، فتوقع أن يجدني في الفندق: "لمحتُك في الملعب البلدي للحظة، ثم فقدتُ أثرك. الآن لن أتركك، فأنا راحل غداً في السفينة الأولى، السفينة التي تتجه إلى تونس". فاجأني قرار زياد ووضع على لساني سؤالاً عفوياً: "لماذا العجلة، لماذا السفينة الأولى ما دام أن رحلات السفن ستتواتر على مدى عشرة أيام. وخلافاً لعادته، لم يتعجل زياد تقديم الإجابة، بل كرّر كلمات سؤالي، كلمة كلمة، بأناة شديدة، كأنما كان بحاجة إلى وقت يصوغ فيه إجابة محكمة: "تسأل عن العجلة، معك حق". قال هذا بأناة أشدّ وشفع قوله بهزّة رأسٍ تؤكد معناه، ثم بدا أنه حسم أمره، ففاض الحكي فيضاً. كان على زياد، كما قال هو، أن يتروّى في الرحيل، فهو بحاجة إلى ترتيب أمور كثيرة قبل مغادرة بيروت. لكن المحتاج إلى تأخير رحيله ذهب بعد الملعب إلى حيث يُنظمون قوائم المرحلين ومواعيد المغادرة ليختار موعداً يُلائم حاجته. "فماذا عرفتُ"؟ تساءل بنبرة توحي صديقي الذي انتقدتُ تعجّله أن تثير

فضولي. عرف زياد أن صحافيين وكتاباً وسياسيين كثيرين قد سجّلوا أسماءهم للرحيل في السفينة الأولى. "هل فهمتَ"؟ تساءل بنبرة من تصور أني فهمتُ ما يقصده فلما صارحته بجهلي، تململ هو، ونظر ناحية جانيت. كانت التي تتقن العربية الفصحى وتعرف، إلى العامية اللبنانية، العامّية الفلسطينية تجد صعوبة في فهم حكينا العامي حين نتحدثُ بسرعة. وإذا كانت قد فهمت ما قاله زياد في البداية فإنها كفتْ عن متابعته منذ راح يحكي بإيقاعه السريع. لكن زياد لم ينتبه إلى هذا، فبدا غير راغب في أن يقول، في حضرة من يظنّ بها الظنون، أكثر مما قال، فقرّب وجهه من أذني وهمس: "القتال توقف وفرصُ الظفر بأمجاده هنا استُوفيت". ثم وصف الذي بدأت أفهم ما يرمي إليه سياق الحكي الذي سيبدأ: ستتلقّف وسائل الإعلام في البلدان التي سيصل إليها الفلسطينيون الفرص، سيترصد الإعلاميون وقفات السفن في الموانيء التي على الطرق: "فهل تُريدني، وأنت تعرف دوري في الحصار، أن أترك الفرصة لغيري كي يسبقني، هل عليّ أن أضيّع فرصتي بعد أن عانيتُ ما عانيت".

احتجتُ إلى أن أجادل، لا لشيء إلا لأحكي بإيقاع تفهمه الجالسة معنا فتحسّ بأني لا أهمل وجودها. ولما لم يكن وارداً، وهدفي هو هذا الهدف، أن أهمس كما همس زياد، فإني تجنبتُ قول ما يمسّ

الشأن الشخصي في هذا السلوك، واستحضرتُ ما هو عامٌ وحده. "الإعلام"، قلت، "موجود هنا في بيروت أيضاً، والذي له صلات...". فلم ينتظر المحتاج إلى تسويغ سلوكه أن أتمّ ما شرعْت في قوله، بل قاطعني بجلبة لأنه فهم ما أرمي إليه، ونسي، وهو يردُّ عليّ، حاجته إلى الهمس: "هل ضيّعتَ قدرتك على التحليل الصحيح، بترحيل فلسطينييها ستفقد بيروت نصف ألقها الإعلامي على الأقل، ولن يظل الشأن الفلسطيني في مركز الاهتمام". ووفق ما رآه المهتم بالإعلام سيتركز الاهتمام، على شأنين: وجود الاحتلال الإسرائيلي، والصراع الداخلي في البلد، "ولن تحظى حكاياتنا بأيّ اهتمام".

وددتُ لو أمكن أن أردّ على هذا التهوين. غير أن زياد لم يوفّر لي الفرصة، بل تابع دون توقف: "حكاياتنا التي مجّها الناس هنا، سيتلقفونها في بلاد العرب البعيدة تلقفاً، هل يعرف التونسيون والجزائريون والليبيون أو السودانيون أو اليمنيون من حكاياتنا ما عرفه الذين عشنا بينهم وحفظونا عن ظهر قلب. نحن ذاهبون إلى أرض بكر ومواسم تَعِدُ بالكثير". ولأن الشيء بالشيء يُذكر، كما ردد هو، فإن زياد استحضر إسم كاتب صحافي من أصحابنا قال إنه انصرف في الأيام الأخيرة إلى جمع ما سبق أن نشره هنا لإعادة نشره في الخارج: "سيبدّل تاريخاً ويستبدل لفظة أو عبارة بغيرهما، وهات

يا نشر"!

وفي إيجازه لشرحه الطويل، صاغ زياد الحكمة التي أراد أن تسوغ دخوله السباق وتلهفه على الفوز فيه: "الحياة، يا صديقي، إعلام". ثم اندفع في شرح طويل آخر.

"صديقك يُكلمك وأنت لا تصغي". قالت جانيت هذا بالإنجليزية التي تعرف أن زياد لا يفهمها، وكانت ملاحظتها صحيحة. فأرغمتُ نفسي على الإصغاء. لحظتها، كان زياد يسألني عن استعدادي لتزويده بما نُشر لي أثناء الحصار حتى يُعدّه هو لإعادة النشر في الخارج. وإذا لم أردّ على السؤال، فلأني لم أشأ أن أزجر صديقاً سيفارقني في اليوم التالي. وبدل الرد على السائل مباشرة، توجهتُ إلى جانيت: "لكلّ إنسان طريقته في عدم الكلام كما أن له طريقته في الكلام". ولكي أضمن أن يصل مغزى قولي إلى الذي وجهته فعلاً إليه، أضفتُ: "صديقي زياد يفهم ما أعنيه". ولما لم يكن زياد في الأغبياء، فإني كنتُ على يقين من أنه فهم. وإذا لم يُعقّب هو بشيء، فلأنه استخدم هو الآخر طريقته في عدم الكلام. ويبدو أن جانيت تصورتْ أننا نتبادل ما يصعبُ عليها فهمه، فانسحبت إلى صمتها من جديد.

فجأة، داهمنا سربُ أصحاب، لبنى وريم وسامر، ومعهم حبيب القلب:

"توقعنا أن نجدكم هنا". أوضحت لبنى، ثم أكملت بنبرة مرحة: "المطعم الشعبي لأبنه الباشا والكومودور لكم، هذا غير عادل، إلا إذا راعينا وجود جانيت". كانوا قد شربوا فانتشوا، وكانوا راغبين في مواصلة الشرب. وريم هي التي اقترحت: "في المطعم، شربنا بحساب، فلماذا لا نواصل الشرب دون حساب، أحبّ أن أسكر، وأنا أدعوكم إلى منزلنا". لم أتمكن، إذاً، من الإنفراد بجانيت، أنا الذي كنتُ راغباً في جلاء نقاطٍ يؤرقني غموضها. اقتراح ريم لاءم مزاجي وأغواني، لكني كنتُ حريصاً على البقاء مع جانيت. استمزجتُ رأي التي ليس من طبعها مجاراة الصاخبين، فقالت هي بنبرة مستفهمة: "إذا كنتُ قد فهمتُ الكلام جيداً فأنتم مدعوون إلى منزل ريم، فما المناسبة؟" فجاء جوابي ممزوجاً برغبتي في قبول الدعوة: "أنت وأنا والآخرون، كلُّنا مدعوون، احتفلنا قبل أيام بتوقف الحرب، فلنحتفل اليوم بمناسبة أخرى". قلت هذا دون أن أهتدي إلى أيّ مناسبة أنوّه بها. فأسعفني سامر الذي كان أشدنا لهفة على مواصلة الشرب: "اليوم هو يوم الأربعاء، فلنشرب بمناسبة بلوغنا يوم الأربعاء هذا ونحن أحياء". وكم أسعدني أن جانيت فهمت ما قاله سامر بتمامه والتقطت مغزاه: "ها أنت ذا تتحدث كما يتحدث السكرانون حتى قبل أن أسكر. يبدو أن عليّ أن أشرب كثيراً حتى أتمكن من مجاراتكم، في منزلي زجاجة سكوتش فاخر، فلم لا نأخذها معنا".

على أجنحة المرح التي أطلقتها الحاجة إلى إفراغ التوتر، ومع الزجاجة التي حزرتُ ان البريطاني هو من جلبها، بلغنا منزل أسرة ريم قبل حلول المساء، كلنا عدا زياد الذي تعلّل بحاجته إلى إعداد نفسه للرحيل. وفي المنزل الحفي بزواره، قضينا ثلاث ساعات لم أحسّ بوقعها، حتى لقد نسيتُ حاجتي إلى الإنفراد بجانيت، كما نسيت جهلي عنوان المنزل الذي انتقلتُ إليه. هذا وذاك تذكرتهما حين سألتني جانيت السؤال الذي لم تطرح عليّ مثله من قبل: "أين تنوي أن تُمضي ليلتك"؟ لم اكن قد ابلغتُ إلى جانيت أن مكان إقامتي تبدل، فلم تكن تعرف أني أواجه مشكلة الوصول على المكان الجديد، وإذاً، فإن سؤالها كانت له دلالة واحدة: إنه عرض، ولم يفتني أن الاحظ أن العرض صدر بعد أن بلغت هي ما بلغه الجميع، ذروة الانتشاء، دون أن تسكر.

في الشقة الصغيرة التي لم أدخلها من قبل، الشقة التي تعلو بناية تتوسط المسافة بين الكومودور وبين معهدنا، جبهتني الفوضى المريعة التي تحتلّ كلّ ركن. ولم يبد على جانيت أن ما جبهني يُسبّب لها أيّ حرج. لاحظتْ هي ردّ فعلي، فتبسمت، وقادتني بابتسامتها عبر الحوائج المنثورة بغير نظام إلى حجرة وشي وجود سرير فيها بأنها حجرة نومها: "هنا، فقط، يمكن لشخصين أن يجدا

مكاناً خالياً يجلسان عليه معاً". وكان سطح السرير هو هذا المكان.

نزعتُ حذائي والجوربين، ثم شرعتُ بتأثير الحز في نزع ملابسي الخارجية، القميص، ثم البنطلون. فعلتُ هذا بحركات متأنية وانا واقف. فلما لم يصدر عن جانيت أي اعتراض، فقد تمددتُ، وانا بملابسي الداخلية وحدها، على جانب من السرير، مفصحاً بهذا عن رغبتي في أن تفعل هي ما فعلته أنا.

جانيت التي حاولت أن تخفّف الفوضى المحيطة بالسرير كفّت عن المحاولة منذ تمددتُ عليه، وراحت هي الأخرى تخلع ملابسها بتأن، لكن دون تردد، كما تفعل امرأة تُعدُّ نفسها لسريرها. وفيما هي منصرفة لوضع قميصها وتنورتها في الخزانة شبه الخاوية، بدأت جانيت الكلام بإيقاع عادي شأن من تتحدث إلى شريك سريرها حول موضوع مألوف وهي تتهيأ للانضمام إليه. قبل أن تترك سيارة صاحبها البريطاني الذي يغمرها، كما قالت، بعروض الحبّ، كانت جانيت تحدّثه عني أنا بالذات، عن طبيعة علاقتها بي. صلتُها بهذا الرجل نشأت بدافع العمل، ثم تطورت إلى أن وجدت نفسها تميل إليه. وكانت هي قد أسلمته جسدها، هكذا قالت: "أسلمته جسدي وتمتعتُ بممارسة الجنس معه وبحتُ له بأني احبّه". أما هو فلم يُصدقْ أن الأصغر منه بعشرين سنة، الأميركية المغرمة بالعرب، تحبّه

حقاً، بل رأى في ميلها إليه نزوةً لن تستمر: "أتدري ما الذي قاله هو لي وأنا أحدثه عنك. لقد جزم بأنك انت من احبّه انا، وأظهر دهشته لأني لا أقرّ بهذا حتى لنفسي". رأيُ البريطاني هذا لم يجيء من فراغ، قالت جانيت، فقد دأبت هي على استحضار ذكري في كلّ مرةٍ التقتْ به. الرأي الذي تشكل عند البريطاني قبل أن يلقاني كرّره هو نفسه بعد لقائي الأول به، اللقاء العابر، حين لامته جانيت على استقباله الفاتر لي. رأيُ البريطاني، إصراره عليه، دأبه على ترديده، اخترقوا يقينها، هي التي اقنعت نفسها بأن ما يربطها بي هو علاقة صداقة إن كانت حميمة فإنها بريئة. "والآن، بعد ما حصل اليوم، لستُ متأكدة من شيء، لكني أحسّ، كيف أقول، الأفضل أن لا أقول شيئاً".

كانت جانيت، حين تجنبت البوح بما تُحسّ به، قد فرغت من نزع ملابسها ولم يبق على جسدها غير أوراق التوت الثلاث، وتمددت بجانبي مسندةً ظهرها إلى مسند السرير وفاردة ساقيها العاريتين بطولهما عليه. وفي لحظة صمتها، قرّبتْ جانيت وجهها من وجهي، وبدا أنها على وشك أن تمنحني قبلة. لكن مسحة أسى، مسحةً ما كنتُ لألحظها لو لم أكن شديد التنبّه لكل ما يصدر عنها، طافت بهذا الوجه، فارتدّت هي إلى الوضع الذي كانت فيه، وقالت وهي تتجنّب أن تُوجه نظرها نحوي: "لنترك هذا الآن"! وكما يحدث لمن يقاوم

دافعاً يخشى أن يُقرّ بوجوده، كست جانيت وجهها ابتسامةً تتصنع المرح، وقالت وهي تنظر إليّ هذه المرة: "نعم أردتُ أن تجيء معي، لكي نتحدث، لكني لن أمارس الجنس، هذا هو قراري، فافهمه."! ولقد فهمت، لكن ليس ما بثّه ظاهر الكلمات، بل ما انطوت الكلمات عليه، هي راغبة ومتهيّبة في آن، مقبلة ومحجمة، يُحرجها أن تقرّ بتموّج مشاعرها، فتؤثر الابتعاد عن الموضوع، ولكنها تفتقر إلى الإرادة اللازمة للابتعاد، فتظل تنوس بين الشيء وبين نقيضه.

ولكي لا يبدو أني اضغط عليها في أي اتجاه وأزيد تحرجها، فقد قلت أقلّ ما يمكن قوله، متعمداً أن لا أقفل أيّ باب: "لك ما تشائين، هذا أو غيره". إجابتي وضعت على ثغر جانيت ابتسامة امتنان: "أنت تحترمني، وأنا بحاجة لهذا". وبحركة نشطة ومفاجئة، نزعت جانيت ورقات التوت ورمتها رمياً باتجاه الخزانة، ثم تمددت على ظهرها موجهةً نظرها إلى أعلى، وبقيت صامتة. ولكي أتابع ما بدأته فاظهر أتمّ الاحترام لمشيئتها، امتنعتُ عن ملامسة الجسد العاري الممدد على طوله بجانب جسدي شبه العاري، وأبقيتُ نفسي صامتاً. وهمدنا كلانا، لا حركة ولا حكي.

بعد لحظات لم أحص، بالطبع، عددها، اتخذت هي المبادرة إلى الحركة واختراق الصمت. بدأت جانيت بأن مالت على جنبها

وجذبتني إليها وسكنت للحظة واحدة وهي تحتضنني، ثم قالت: "هذا هو، فقط، ما اريده، ان احسّ بقربك مني ولا شيء آخر، هذا هو كلّ ما اريده، وانا اعلم انك لن تبخل به". ولكني اوكّد لها اني لا اضنّ عليها بما ترغب فيه، أحكمتُ من جانبي احتضانها بذراعي، واستجابت هي، فأحكمتْ احتضاني بذراعيها، وهمستْ: "هذا يشجعني، سأبوح لك بأشياء عن حياتي لا يعرفها أحد هنا". وبالتصاق جسدينا اللذين صارا كأنهما جسد واحد، فطنتْ هي لشيء: "عُري الجسد يُساعد على تعرية النفس، جسدي عارٍ تماماً، فلماذا تُبقي انت ملابسك الداخلية، هل هذا عادل، لن أمارس الجنس، ما احتاج إليه دفء جسدك ودفء روحك، احب أن احسّ باننا مندمجان، الاندماج يعني المساواة". قالت هذا وحررت جذعي من ذراعها الأعلى، وأبقت الذراع مرفوعاً، فنفذتُ ما طلبته، وسرعان ما احتضنتني من جديد. ودون أن نتكلم، التصقتْ هي بي أكثر، وأدخلت فخدها بين فخديّ في حركة لم أتيقنْ مما إذا كانت عفوية أو مقصودة. وقد تقبلتُ أنا هذا الوضع دون أن يبدو مني ردّ فعل؛ كنتُ قد استنفرتُ إرادتي بأقصى طاقتها وأبلغتُ تنبهي لحركاتها الذروة، ورحتُ أترقب ما سيؤول إليه هذا الذي بداتْ هي به. ولأن صمتها امتد أطول مما قدّرتُ، فقد عزمتُ على اختراقه: "اثرتِ فضولي، انا جاهز لأسمع منك".

بالرغم من طلبي الصريح، بقيت جانيت صامتة، غير أنها لم تظلّ ساكنة، بل راحت تُمسّد ما تبلغه راحتاها من ظهري تمسيداً لا يبثّ شبقاً لكنه لا يستبعده. وفجاة، اتضح أن التي قامت حتى تلك اللحظة بحركات محسوبة فقدت قدرتها على التحكّم بشهوة جدسها. فقد جذبتني التي ألصقت شفتيها بنحري إلى مزيد من الالتصاق بها حتى أنهرس النهدان وانفرزت الحلمتان النافرتان في صدري، فيما اشتد ضغط فخديها كليهما على فخديَ، وتسارع تواتر أنفاسها وكذلك تواترُ ضربات بطنها على بطني.

تسلحتُ بما بقي من إرادتي فأسعفني، لكن لبعض الوقت ليس أكثر. فسيطرتي على جسدي راحت تهن أولا بأول، إلى أن غابت. وفي اللحظة التي هممتُ بأن أفْلتَ شهوتي من القيود، انفجرتْ جانيت في بكاء جعل دموعها تُبلّل نحري وأوهن ضغط أطرافها على جسدي، ثم انفصلت عني كليّة، بحركة مباغتة، وعادت إلى الاستلقاء على ظهرها، وظل جسدها يرتج تحت وقع بكائها المداهم. "كاذبة، أنا كاذبة، تماما كما قال هو" كان هذا هو أول ما فاهت به التي صمتت طويلاً، وقد قالته بعد أن تحول بكاؤها إلى نهنهة متقطعة وخفّ ارتجاج جسدها. رمتْ جانيت نفسها بالصفة الوضيعة، مستخدمة الإنجليزية، وبدا أن جلد الذات أراحها، إذ سرعان ما توقفت الدموع،

وخفتت النهنهات، وهدأ الارتجاج. أما ما لم يتوقف فهو جلدُ الذات الذي إن بدأت به في صيغة شتائم فقد اتمته في صيغة اعتراف ادلت به بين يديّ وهي في اتمّ وعيها.

في اعترافها، اقرّتْ جانيت بأنها كذبت حين زعمت انها مارست الجنس مع البريطاني وحين قالت إنه أغرقها بعروض الحبّ، وكذبت حين قالت إنها لا تريد أن تُمارس الجنس معي. والتي استعادتْ هدوءها كاملاً منذ شرعتْ في الاعتراف، اقرت بانها كذبت، ايضاً، حين اوهمتني بأنها ستبوح بحقائق عن حياتها، فقد نوت أن تروي وقائع ملفقة وليس حقائق. ولأنها قدمت اعترافها بالإنجليزية فإني شعرت بأنها توجه حديثها لنفسها أكثر مما هو لي، وشئتُ ان اعيدها إليّ: "احك بالعربية، لا احبّ ان احسّ بأنك غبت عني"!

صمتت جانيت، نهضت عن السرير وذهبت إلى الخزانة. استخرجت ثوب نوم ارتدته وظهرها إليّ، ثم رجعت إلى السرير، واتخذت العقدة السابقة: الظهر المسند إلى مسند إلى السرير والساقان المفرودتان عليه. ولأن الثوب كان أقصر من ان يستر ما كانت تستره ورقة التوت. فإن جانيت طوت فخذيها وأمالتهما على السرير ففصلا بيني وبينها. وحين تحدثت التي هدأت، اتضح أنها استعادت سيطرتها على شهوتها: "وإذا ساعدتني على استبعاد الشهوة الجنسية فإني

اعدك بالا اكذب ابداً": لم اكن انا الذي بدا، فمن الذي عليه ان يُساعد الاخر. طاف هذا الخاطر في بالي فابقاني صامتاً. فتركت هي السرير مرة أخرى، واستخرجت من الخزانة كيلوت له زيّ بنطال قصير وارتدته، وبعد لحظة واحدة خلعت الثوب، ثم عادت إلى السرير وفي يديها صدرية نوت على ما بدا لي أن ترتديها هي الأخرى، لكنها تروت. في غضون ذلك، اهتديتُ أنا إلى ما أقوله دون أن يُحملني مسؤولية فتح باب أو إغلاقه: "إن كان ما تطلبينه هو حقاً ما ترغبين فيه، فلك وعدي بأن أظل هادئاً واستمع إليك بانتباه". ولدهشتي، سعدت جانيت بقولي سعادة طفل تلقي وعداً بهدية، وبدل أن تحتضنني بذراع أو ذراعين، امسكتْ يديَ بيديها وباشرت البوح.

حكت جانيت حكاية طويلة وسردت تفاصيل: استحضرت قصة نشأتها مع أم وأب وعث هي الدنيا حين كانت العلاقة بينهما قد اضطربت وتعذر إصلاحها. كان الأب قد صار سكّيراً مدمناً او كالمدمن. وككل سكّير في تعامله مع زوجة اقترن بها تتويجاً لعلاقة حبّ فاتنة، صار سلوك الأب ينوس بين ذروة العنف وبين قاع التطامن، ينتقل من حال إلى حال دون أن يسلك سلوكاً عاديا في أي حال، ودون أن يحكم أيّ منطق الانتقال الذي يقع دائماً بلا مقدمات. أما الأم فكانت قد صارت إلى وضع مماثل في النوسان بين ذروتين،

فكانت متفهمة وودودة تحدب على الزوج حتى وهو يُعذبها، وذلك في بعض الأحيان. وفي أحيان أخرى، كانت هي ذاتها مهملة ومنطوية على نفسها وغائبة عن محيطها. وكانت، هي الأخرى، تنتقل من حال إلى نقيضه بلا مقدمات. وحين بلغت جانيت سن الفتوة وصارت على وشك إنهاء دراستها الثانوية، كان حال الأسرة قد تردى إلى حضيض التفسخ، وكان الأب قد غاب في مصح خيري لمعالجة المدمنين افقر واقلّ إمكانيات من أن يُعالج أيّ شيء، وكانت الأم قد ابتليت بمرض بدا من حكي جانيت أنه خطير وإن تجنبت هي ذكر اسمه.

قد لا يُصغي أحدنا إلى تفاصيل لا تعنيه. لكن الموقف يختلف حين تكون هذه التفاصيل مما يعني شخصاً عزيزاً عليه. أصغيتُ إلى الحكاية الطويلة بانتباه، لأني أدركتُ حاجة جانيت إلى البوح للتخفّف من أسرار عائلية خزنتها سنين طويلة، ولأني حرصت على استقصاء تأثير هذا المخزون على شخصيتها. وكان اكثر ما أثار اهتمامي هو تجنب جانيت ذكر اسم المرض الذي اصاب أمّها.

وبما بقي في ذاكرتي مما قرأته في كتب علم النفس أو سمعتُ به، استخلصتُ أن الجالسة على السرير لا تحتاج إلى التخفف من المخزون فقط، بل إلى الإقرار بما يُزعجها منه. وجدتُني إزاء عقدةٍ

لن تتفكك إلا إذا كُشفت، وقدرت بأن جانيت تخشى أن تُبتلى هي بالمرض الذي ابتليث به أمها.

القيتُ طعماً: "أمّك كانت مريضة، فهل كان مرضاً لا شفاء منه"؟ فجذبها الطعم، لكنها لم تلتقمه: "أكثر مما تتصور، أكثر بكثير". والقيتُ طعوماً أخرى إلى أن نفدت جعبتي دون أن تلتقم هي أياً منها. فصار لا بدّ من الصراحة الصادمة: "بدأتِ بهذا البوح لتحكي لي على شيء تخافين منه، فهل تخافين أن ترثي مرض أمّك"؟

ملامستي العصب الحساس ومثابرتي على ملامسته أرخيا الوتر المشدود. ظهرث على الأم أعراضُ مرض انفصام الشخصية بينما كانت حال الأب تتفاقم، هو الذي لم يعد يُفارق الكأس. حدث هذا بعد أن ظفرت المعذبة بعذاب أمها وأبيها بمقعد في الجامعة، هي التي جعلت النجاح في الدراسة وسيلتها للهروب مما يُعذبها. وبمضيّ الوقت، اشتد مرض الأم وتسارعت نوباته، فصارت المريضة بحاجة إلى رعاية يقظة. فقسمث جانيت وقتها بين دراستها وبين رعاية أمّها، ولم يبق لها وقتٌ لتفقُّد حال أبيها الذي غيبته المصحة البعيدة. وأمكن أن يستمر هذا الوضع إلى أن توفرت لجانيت فرصة المجيء إلى بيروت، فواجهت المصممةُ على النجاح المعضلة المحيرة، هل تُفوت هذه الفرصة لتبقى قريبة من أمّ مريضة لن يشفيها شيء، أو

تمضي إلى هدف حياتها: "ساقول لك، قررتُ ان اتبع فرصتي، اخترتُ ما ينفعني، كنتُ أنانية، هذه هي الحقيقة". ولتخفيف عذاب الضمير، ثابرتْ جانيت على تفقدُ احوال امّها، والسؤال عن ابيها كلما تهيأ لها أن تذهب إلى بلدها لشأن من شؤون دراستها: "لكن هذا كان أقلّ من اللازم، أقلّ بكثير، حتى كأنه لا شيء". هذا اللاشيء ذاته تضاعل بعد أن تزوجت جانيت في بيروت. وانتهى الأمر بأن نُسيَ الأب وتحولت الأم إلى ما كاد يجعلها مشردة، إلى أن آواها هي الأخرى مصح خيري، لا ليعالجها بل ليُوفّر لها مأوى تنام فيه وطعاماً تأكله.

في غضون ذلك، اضطربت علاقة جانيت بزوجها. لم يكن صديقي القديم سكيراً كما كان ابو جانيت، لكن الغيرة التي لا شفاء لها جعلته يسلك السلوك الذي يُذكّر جانيت بسلوك أبيها. فقد كان هو الآخر يعنف احياناً ويتطامن احياناً اخرى دون منطق: "حتى لك لم اقل إنه كان يضربني كلما وقع في نوبة من نوبات غيرته، ثم يتطامن ويعتذر وينحني فيقبّل يديّ كي أسامحه. وكان هذا ممجوجاً، تماماً كما كان سلوك أبي مع أمي". وفي إبّان معاناة جانيت هذا الوضع، رحل أبوها عن دنيانا، وتبعته أمّها بعد وقت قصير: "وقتها، قلتُ لكم إنها ماتت، ولم أذكر السبب. الآن، لك أن تعرف أنها احترقت في حجرتها الصغيرة في المصح، واظهر التحقيق أنها هي التي تسببت في

إشعال النار. وقع هذا بعد أن عرفت أمي نبأ وفاة زوجها الذي بلغها متأخراً. وفي التحقيق، استنتج المحقق أن أمي أشعلت النار القاتلة بتأثير نوبة من نوبات مرضها، وليس بدافع الانتحار". رحلت الأم في هذا النحو. ووقتها، أصرّت التي تحملت غيرة زوجها لسنوات عديدة على الطلاق. ومنذ ذلك الوقت، بدأت جانيت تهجس بأنها ورثت مرض أمّها.

لم يكن الهاجس في بدايته قوياً أو مستمراً، إلا أنه اشتدّ بمضي السنين واشتدّ تواتره. راجعت المهجوسة الأطباء، أطباء الأجساد وأطباء النفوس. وقال كلّ من راجعتهم إن ما تحسّ هي به ليس سوى وهم. لكن هذا التشخيص، إن أضعف الهاجس وأنقص تواتره فإنه لم يُنحّه كلية. وقد ظل هذا الهاجس يعاود المبتلاة به، بالرغم من أنها لم تعانِ أعراض المرض كما يُشخصها الأطباء: "لكني أعاني ما يُغذي قلقي حتى لو هدأ". فبين وقت وآخر تجد جانيت نفسها منجذبة إلى شيء ونقيضه، أو متعلقة بشخص ذي طبيعة معينة وشخص آخر ذي طبيعة مغايرة، وكثيراً ما تجد نفسها راغبة في شيء ونافرة منه: "تذكّر تعلقي بك وبه، تذكر ما جرى على هذا السرير قبل لحظات". وهممتُ بأن أقول شيئاً لكنها سبقتني: "أعرف أن هذا ليس هو المرض، فأنا لا أتنقل بين حالتين أنسى في كلّ منهما

الأخرى. لكنني اخشى ان تكون هذه هي البداية، المقدمات، وان أتبع مصير امي. انت تبحث عن عقدة، فهل وضحث لك"؟

لم يكن هذا سؤالاً بمقدار ما كان إقراراً بالعقدة، وما أسرع ما اراح هذا الإقرار جانيت. فهي لم تنتظر إجابتي، بل تصرفت للتوّ وكأن شيئاً لم يكن؛ كفّت عن الحكي، وخلعت الكيلوت من جديد، وبثّت لغة جسدها بروق شهوتها المختزنة، واتخذت هي المبادرة إلى إثارة شهوتي. وما أن فرغنا مما شرعت هي فيه واستجبت أنا له، حتى فصلت جانيت جسدها عن جسدي وتمنّت لي نوماً هانئاً، واغفت للتوّ.

حين صحوتُ أنا، كانت هي قد صحث قبلي، قبلي بساعتين كما طاب لها أن تقول، وكانت قد كست جسدها هدماً منزلياً محتشماً وراحت تقرا تقريراً صحافياً فرغث من كتابته أو إعادة كتابته قبل دقائق.

ومع الابتسامة المرحة التي اقترنت بتحيّة الصباح واستمرت بعدها، انباتني جانيت انها وقّعت مؤخراً عقد عمل مع جريدة لبنانية يومية مرموقة تُصدرها الدار التي تنشر جريدة أخرى بالإنجليزية، وأن ما ستكتبه سيُنشر باللغتين: "وسيدفعون لي راتباً يدير الراس. والتقرير الذي تراه سيكون أول ما سينشرونه لي".

كانت تقول شيئاً ثم تعود لمراجعة التقرير ثم تتذكر شيئاً تقوله. وطاب لي أن أراقب سلوك المنطلقة على سجيتها. وما أن فرغت هي من مراجعة تقريرها حتى بادرتُها أنا باقتراح: "تعوّدتُ أن أعدّ قهوتي بنفسي: فهل أعدّ قهوة لكلينا"؟ لم تُجب، بل غادرت السرير بحركة مرحة، ولم يلبث أن جاءني صوتها: "وجدتُ البن. كنت أخشى أن لا أجده. وسأدخل تعديلاً على اقتراحك. فأنا هي التي ستعدّ القهوة وليس أنت. ستبدأ نهارك بقهوتي، امتياز لم يحصل عليه أحد سواك منذ سنين".

وفي مجلسنا على السطح الممتد أمام شقتها، غمرتنا طراوة الصباح. وكان أمامنا البحر والسفن المحتشدة فيه. سفن الركاب التي ستنقل المرحّلين، وسفن الشحن، والسفن الحربية التي جلبت جنود القوة الدولية، والسفن الحربية الإسرائيلية التي أوجب الاتفاق أن تبتعد قليلاً عن الشاطئ، السفن التي شكّلت حول السفن الأخرى إطاراً يُحيط بها عن بعد، فيذكر بأن الحصار انفتح لكن الاحتلال الإسرائيلي باقٍ بأثقاله كلّها. وفي هذا الخضمّ، بدت زوارق الصيادين اللبنانيين الممنوعة من الحركة منذ بدأ الحصار كأنها علامات تنقيط تُظهر أسئلة أكثر مما تجلو معاني. ولئن اختلط المبهج والمؤسي في هذا المشهد، فإن نسائم الصباح ومرح جانيت وشميم القهوة التي

جلبتها، كل هذا كانت له الغلبة، فانتعشت روحي وانتعش جسدي.
ولأن معهدنا كان قريباً، فقد بدأتُ حركة يومي بالتوجه إليه مشياً على قدمي. وبعبوري الشوارع الموصلة إلى المعهد، أتيح لي أن أشهد تلك الحركة الفتانة، حركة هذه المنطقة التي تُشكل مركز بيروت التجاري الحديث، وهي تستعيد ألقها، وتُظهر مقدرة الإنسان على استعادة مألوفه بأعجل مما تصور الذين دمّروه، وعلى تجميله حتى بعد التشويه المريع الذي تعرض له. وفي المعهد، كان أكثر الزملاء قد سبقني، الذين قرروا البقاء جاؤوا للعمل، والذين اختاروا الرحيل جاءت بهم حاجتهم إلى استكمال تدابير المغادرة. وحين حان وقت التوجة إلى الملعب البلدي لتوديع قافلة جديدة، هبطتُ مع من هبطوا إلى الشارع. وهناك، وقعتْ عليَ عيون اللتين أوصلهما بحثهما عني إلى هذا المكان. قالت غزّة التي أطفأ ظهوري سالماً قلقها: "نعرف أنك كبرت". وأضافت يافا التي غمرتها البهجة: "ما نخشاه هو أن تبلغ سنّ الرشد فتستغني عن رعايتنا إيّاك". ما أحلاهما حين يروق مزاجهما! وأغلب ظني أنهما قضتا المساء بطوله مع الأصحاب الذين لا يُفارقونهما. وكأنما لتؤكد صواب ظني، هتفت يافا: "جهاد والآخرون سبقونا إلى الملعب". ومنذ صرنا في سيارة لبنى، ذكّرتني هذه الصديقة: "زياد هناك، مع المرحّلين".

الاكتظاظ الذي امتد في ذلك اليوم خارج الملعب وليس داخله فقط أخّر وصولنا إلى الشاحنات التي ستنقل مرحّلي السفن إلى الميناء. وإزاء شاحنة اكتظّت بمن تحملهم، اجتذب أنتباهي وجود عدد كبير من الصحافيين، ليتضّح أن النجمة المصرية والذين يحفّون بها موجودة هناك. لكم تبدل مظهر الممثلة التي ظلت تجول في بيروت منذ حلّت فيها وهي تلبس بنطلون جينز وقميصاً عادياً وحذاء رياضياً للمشي ولا تضع على وجهها لا أصبغة ولا مساحيق. ففي الوقفة إزاء الشاحنة، حلّ محل هذه البساطة وجهٌ ثقلت عليه المساحيق والأصباغ، واكتسى الجسد ملابس نجمة سينما تتجول في مهرجان، وحلّ في القدمين الحذاء الذي يُرجرج مع المشي إيقاع الأعطاف والردفين. وبهيئتها المستعادة، هيئة الممثلة الأولى وهي تحت الأضواء، وقفت النجمة بلصق صندوق الشاحنة، وناولت أقرب المقاتلين الواقفين في الصندوق رزمةً صور لها، وقالت شيئاً لم يأذن الضجيج بأن أسمعه، وإن بدا من حركة يدها أنها تطلب من هذا المقاتل أن يُوزّع الصور على زملائه. مشهداً عادياً كان هذا الذي رأيته عرضاً، وما كنت لأتابعه لو لم يستوقفني ردُّ فعل الذي صارت رزمةُ الصور في يده. فقد ألقى من بدا لي شاباً في الخامسة والعشرين نظرة على الرزمة، ثم مدّها بدوره إلى الذي يليه، دون أن يحتفظ بصورة لنفسه، ولم يُعر التي كانت تبتسم وتترقب ردود

الفعل اي اهتمام.

لكم فتنني سلوك هذا المقاتل، وما أسهل ما فهمته! فهذا الذي فعل هو واقرانه ما لا يفعله إلا جبابرة، والذي احتمل هو وهم ما لا يُحتمل، لن تبهره مناورات نجمة سينما جاءت إليه محاطة بأدوات فتنتها ودعايتها. ردُّ فعل النجمة استخلصته من حركتها المباغتة: فالمصدومة بما لم تتوقع نترت جسدها نتراً، مبتعدة عن الشاحنة، وعن كلّ الشاحنات، وتسابق الحافّون بها لشق طريق لها وسط الحشد، فدفعتني حركتهم الفظة دفعاً وضعني بلصق الشاحنة. ومن داخلي، دفعني دافع لم أملك لجمهُ إلى التلويح للمقاتل غير المنبهر بالنجومية تلويحه تأييد وتحية. فلما تبسم الشاب وهو يرد على تحيتي بتلويحه من يده، فإني تشجعتُ وأشرتُ إليه كي يقترب مني ليسمع صوتي: "ألم تعرف من هي التي أعطتك صورها"؟ فردّ هو وقد تحولت ابتسامته إلى ضحكة طلقة: "سألتني هي نفسها هذا السؤال، فأجبتها بسؤال مني: هل تعرفين في بلاد العرب احداً لا يعرف سامية حمدي".

هذه الوقفة وفظاظة الذين تبعوا النجمة حين ظنوا أنها انصرفت غاضبة فصلتاني عن ابنتي ولم يبق معي غير لبنى. لكنى لم أشك في اني سأجد البنتين عند الشاحنة التي فيها زياد، فظللت ابحث إلى أن

وجدتها، لكني لم أجد ابنتي عندها. وممن أعرفهم، لم يكن هناك زياد فقط، بل كان في الشاحنة كثيرون آخرون، كتّاب، وصحافيون، وكانوا جميعهم، قد ارتدوا البذل العسكرية الجديدة وعلقوا الجعب الأنيقة على ظهورهم والبنادق اللامعة على أكتافهم. وبعد أن وقفتُ لصق الشاحنة مشدود النظر إلى الواقفين فيها، اكتشفتُ أن الذي التصق جسدي بجسده من شدّة الزحام كان شاعر القمة الفلسطيني وقد جاء مثلي ليودع الأصحاب المغادرين. وكان طبيعياً أن أسأل عن اختياره ولماذا لم يغادر مع هؤلاء الأصحاب، فردّ باقتضاب: "أنا باق هنا، أفهم أن يرحل المقاتلون، أما المثقفون وهذا النزوح الجماعي..."، ولم يكمل العبارة.

الشاعر الفزّي كان هناك، في الشاحنة، الزيّ الجديد عليه الذي أظهر رشاقة قامته المتينة وقسمات الوجه الصلدة؛ والعينان اللتان لا تكفّان عن الحركة وبثّ شتى التعابير؛ والصوت الذي لا يُدانيه في عمقه واتساعه أيّ صوت. رآني فناداني باسمي وكرّر النداء رافعاً صوته إلى أن سمعته. والواقع أني فوجئتُ بوجود هذه الشاعر بالذات بين متعجلي المغادرة. فالحصار أطبق على المدينة فيما هو في زيارة لبلد بعيد، وهو الذي قطع زيارته وعرض نفسه لمخاطر لا يُجازف بالتعرض لها إلا أشجع الشجعان، واخترق الحصار فعلاً. وهو

ايضاً الذي لم يتهيّب منذ رجع إلى المدينة المحاصرة مجابهة أيّ خطر ليقوم بأجرأ ما يقوم به مثقّف في مواجهة معتدين. وها هو ذا من سلك هذا السلوك المجيد قد حرص على مغادرة الساحة في أول سفينة. وكأنما هجس صاحبي بما يدور في ذهني، أو لعلّ تعابير وجهي أظهرت ما أفكر فيه، فاتخذ هو المبادرة: "أيش، مش عاجبك، سامرُ القتال انفضّ وودّع، لم يبق غير سامر الإعلام. في زمن القتال يقوم الواحد منا بما يقدر عليه، هذا هو الواجب، ولا يفكر في أي مكسب، أما في زمن الإعلام فكلّ واحد يكسب على قدّ شطارته، ومن يسبق يكسب اكتر".

ما قاله الشاعر الغزّي لاءم زياد، فتشجع الذي قال في اليوم السابق الكلام ذاته: "هل اقتنعت؟ مشاعل القتال أطفئت، فما الذي تريده باختيار البقاء في الظلام". وتعاقبت التعليقات التي من هذا النوع. ودخل على الخطّ كاتب من العاملين في معهدنا ممن اختاروا الرحيل. هذا الكاتب كان حتى اليوم السابق هو المسؤول عن تحرير مجلة المعهد، ولأنه اختار الرحيل فإن مهمته أوكلت إليّ حتى لا يتوقف صدور المجلة، أو لأقل إني تطوعت تطوعاً لحمل العبء إلى أن نعثر على مسؤول تحرير جديد. وبدل أن يتطامن المنصرف باختياره عن مهمة كان يتولاها، فإنه لم يتورع عن الغمز مني

وتشنيع دافعي أنا للبقاء: "كنت تطمع كلّ الوقت في الحلول محلّي، وها هي ذي حربُ إسرائيل اللعينة قد وفّرت لك الفرصة. لكن لا تغترّ، سأظل أنا مسؤول التحرير الشرعي، حاضراً أو غائباً"!

استمعت لهذا الغمز وما يماثله فيما أنا صامت، إذ ما الذي يُمكن قوله في هذا المقام دون أن يبدو القول سخيفاً، ما دمتُ مضطراً إلى لجم القول الجارح. ما أعجب الإنسان: إنه الكائن الوحيد الذي قد يسمو بسلوكه إلى أعلى الذرى، في وقت، ثم ينحطّ إلى أدنى القيعان، في وقت آخر، وينوس بين الحّدين، في معظم الأوقات. وبحركة حمتني من أن أصدم الغامزين برأيي فيهم، ضغطت لبنى على يدي ضغطة تضامن، وهمست: "أبقَ كما عرفتك، الإنسان الذي يفهم ضعف الآخرين"! وبهذا، ينبغي أن أقرّ، نلتُ جائزتي، وبقيتُ متماسكاً في مواجهة الاستفزاز.

وفي مفاجأة بهرت الجميع، ظهر القائد العام في تلك اللحظة عند الشاحنة: "جئت، لأقول وداعاً للأبطال المنتقلين من ساحة إلى ساحة أخرى، بل لأقول إلى اللقاء في فلسطين". وعلى هذا، ظفر القائد بدفقة تصفيق انتقل بعدها إلى الشاحنة التالية. ومن جانبي، خصصتُ كل واحد من أصحابي المغادرين بتلويحة يد متجنباً طقوس الوداع، ثم شققتُ طريقي بين الجميع. وفي تعجلّي الانفلات

من مشهد لم أسرّ به، غفلتُ عن التأكد من وجود لبنى بجانبي، ففقدتها هي الأخرى في الزحام. وحين انطلقتْ زخّات الرصاص الاحتفالي، أدركتُ أن رتل الشاحنات الطويل بدا التحرك نحو الميناء.

لم أنس هذه المرة أين أوقفت لبنى سيارتها، فتوجهتُ نحو المكان وأنا واثق من أن صاحبة السيارة وابنتي سيأتين إليه في نهاية المطاف، فلم أقلق.

وفيما أنا أجرُّ خطاي نحو السيارة، جبهني مشهدٌ لم يخطر ببالي أن يمثل في هذا الوقت وهذا المكان: النجمة المصرية وهي تخرج من سيارة وقفت أمام السيارة التي أقصدها أنا. كانت النجمة قد تبدلت: نُحيت المساحيق والأصباغ عن الوجه؛ ومحلّ الملابس الفاخرة، حل بنطلون الجينز من جديد ومعه القميص المحتشم وحذاء المشي وكلّ ما ينم عن التواضع، ولا مصورون ولا آلات تصوير. ولم يظهر في صحبة النجمة سوى مرافقين اثنين: شاب من حرّاس القائد العام، وشابّة بدا أنها السكرتيرة أو أنها شيء من هذا القبيل. لم تكن هذه النجمة، إذاً، مفتقرة إلى النباهة، فهي سرعان ما أدركتُ أن الذين جمّدوا جيش إسرائيل ثلاثة شهور متصلة على محيط بيروت لن تبهرهم نجمة تحطّ عليهم من مواقع النجوم.

أعجبتني نباهة سامية حمدي، ولو لم يكن المكّلف بحراستها ممن يعرفونني وقد يبهجه أن يُقدمني إليها باسمي، لذهبتُ إليها بنفسي ونوهتُ بنباهتها، دون أن أذكر اسمي الذي سيحضر ذكره حكاية أتجنب استحضارها. وفيما أنا متردد أفكّر في الزوغان، هتف هذا الحارس باسمي بصوت مرتفع، وقال للتي يسعده أن يحظى بانتباهها كلاماً لم أسمعه وإن حزرتُ مضمونه. وأرسلتْ هي نحوي نظرة، وبدت محتارة للحظات، ثم حزمتْ أمرها وخطتْ في اتجاهي، فصار لا بدّ من أن أستجيب لمبادرتها.

في تلك اللحظة، اشتعلت رغبتي في أن ألقى التي تجنبتُ لقاءها، وأن أحكي حتى على ما تجنبتُ التطرق إليه، وأن أوضح موقفي. إلا أن تدخلاً من السكرتيرة قطع هذا المسار قبل أن يبلغ أيّ منّا الآخر. فالشابة غير المنشغلة بما أتجنبه أو لا أتجنبه، اعترضت سير النجمة بحركة حازمة، وقالت بصوت مرتفع، ربما لأسمعه أنا: "فاتنا توديعهم هنا، فعلينا أن نلحق بهم لنودعهم في الميناء." ووجدتني أقف حيث وصلتُ، بانتظار ما ستقرره التي لم يفصلني عنها سوى ثلاثة أمتار أو أربعة. ولئن ترددتْ هي فللحظة واحدة لوّحت بعدها بيدها تلويحة تحثني على الاتصال بها. ومع التلويحة قالت النجمة كلمات لم أسمعها، ثم عادت إلى سيارتها.

(11)

قبل اكتمال أيام الترحيل التي ستبلغ عشرة أيام، انشغلنا جلّ الوقت في شؤون العمل. وانتصب أمامنا ركامٌ من المشاغل، ترميم ما لحق بالمعهد، ما أحدثه القصفُ الذي استهدفه والقصفُ العشوائي، وما نجم من الإهمال الذي فرضه الظرف. وفي السياق، صار لا بدّ من وضع الخطط المفصلة لاقتناء المنشورات الدورية والكتب الجديدة التي صدرت بالعربية والعبرية والإنجليزية والفرنسية مما فاتنا الحصول عليه أثناء الحصار. وإلى هذا، صار علينا أن نجتهد في إعادة توزيع المهام الكثيرة، العادية والطارئة، على العاملين الذين بقوا، وأن نقوم بما يلزم لاستخدام عاملين جدد يحلّون محلّ الذين رحلوا. ومع انهماكي في هذا كلّه، ظل عليّ أن أتدبّر حاجاتي المستجدة، وأن أواظب على الذهاب إلى الملعب البلدي ظهيرة كلّ يوم لوداع قافلة أخرى وأصحاب آخرين.

اليوم الثامن من أيّام الرحيل كان يوم توديع القائد العام، فكان يوماً لا مثيل له في الأيام كلّها. ومن أجل توديع الرجل الذي صار رمزاً لثبات المدينة ومنع جيش إسرائيل من اجتياحها، توجّب عليّ، كما على كثيرين غيري، لا أن أذهب إلى الملعب البلدي، فقط، بل أن أباري

الموكب الذي شق بصعوبة شديدة الطريق من الملعب إلى الميناء. وهكذا، حظيت بمتابعة المشاهد الفريدة التي جعلت ذلك اليوم يوماً لا يُنسى.

شارك سكان غرب بيروت المحاصَر جميعهم في توديع القائد المرحّل عن مدينتهم، إناثهم وذكورهم، الأطفال والشبان والشيوخ، النابهون منهم، والمغمورون، اليساريون واليمينيون والوسطيون والآخرون الذين لا لون لهم، الذين من هؤلاء رحبّوا بمجيء المقاتلين الفلسطينيين إلى بلدهم والذين ضاقوا بهم، هؤلاء كلّهم، وألوف الناس الذين وفدوا من خارج الشطر المحاصر ومن خارج المدينة كلّها، احتشدوا في كلّ بقعة يمكن منها رؤية موكب الرجل الذي أنضم إليه قادة السياسة والمجتمع في غرب بيروت كلّه. وإلى هؤلاء، حرص إسراليليون كثيرون على تمويه ما يشي بجنسيتهم واندسّوا بين الحشود ليشهدوا ترحيل عدوّهم الشهير عن البلد الذي طالما أقلقهم وجوده فيه. اصطفّ الناس على جانبيَ كل شارع عبره الموكب، وشغلوا كلّ ساحة. المحظوظون من الناس شغلوا شرفات المنازل ونوافذها وأسطحها. والقادرون على تسلّق الأشجار اعتلوا أفرعها. ومن الناس من تسلقوا أعمدة الكهرباء أو اعتلوا أي شيء ناتي. والذين لم يحظوا بمكان يُطلون منه على الموكب تكوّموا حول

اجـهزة التلـفزيون. امـا ارضُ الميـنـاء وشـرفاتُ ابنيتـه ونوافـذها واسطحها والسفن والمراكبُ الصغيرة أو الكبيرة الراسية فيه، فإن الاكتظاظ فيها بلغ حدوداً تجعلك تضع يدك على قلبك إن وقع نظرك على ايّ منها.

نُخب المدينة المحاصرة وجمهورها محضوا القائد المرحّل تعاطفاً عبرت عنه شتى أشكال الإفصاح عن المشاعر. وإذا قلتُ إن دموع المودعين التي انهمرت في ذلك اليوم كانت، لو أمكن جمعها، ستملأ خزانات وخزانات فلا يتعجلن احدٌ اتهامي بالمبالغة. أما إذا قلتُ إن الرصاص الذي أطلق تحية للقائد كان اكثر بما لا يقاس مما أطلق في اي يوم من ايّام القتال ولم اقل غير هذا، فمن المؤكد اني استحق الاتهام بالتهوين وليس المبالغة.

ابنتاي حلّ دورهما للرحيل في اليوم الذي تلا ذلك اليوم. وبغياب الـذي كـان يرعى احتفالات توديع القوافل المتعاقبة، تولى الرجل الثاني في القيادة الفلسطينية هذه المهمة. كان هذا الرجل واحداً من اصدقاء عمري، وكان يعرف ابنتيَ منذ ولدتا ويعزّهما ويعتزُّ بهما. وما أن وقـع نظـر الرجـل عليّ وعلـى ابنتـيّ، وقبـل أن ننتبـه نحـن إلى وجوده، حتى أرسل من صحبنا إليه، ثم أبقانا ثلاثتنا ومعنا لبنى في الحلقة التي تحفُ به.

وبوقوف غزّة ويافا إلى جانب القائد، وهما اللتان اكتسبتا أثناء الحصار سمعة بطلتين، أنضاف سببٌ آخر اجتذب آلات التصوير. ووجدتني وقد وقعتُ في ذلك اليوم في ما تجنبتُه طيلة الأيام السابقة، وصار على ان ألزم نفسي حسن التصرف فيما الصحافيون يتزاحمون حول الحلقة. أحد الصحافيين مضى ابعد مما أطيق، فطلب أن أحتضن ابنتيّ احتضانة وداع، وذلك من أجل التصوير. فما أشدّ ما أبغضتُ هذا التصنع! لكني لم أملك إلا الانصياع للطلب. فلما تكرر الطلب ذاته ثانية وثالثة، فإن ضيقي حملني إلى الإنسحاب من الحلقة والوقوف خارج مرمى المصورين.

ومع أول نداء يُؤذن بقرب التحرك، جاءت غزّة ويافا إليّ معاً، وكان لديهما ما تُطلعاني عليه مما قاله لهما القائد الصديق وهو يودعهما. فهو سأل ابنتيّ عن الوسيلة التي ستتدبّران بها معيشتهما في دمشق، فقدمتا إجابة لم تطمئنه، فهما لا تكذبان. فطلب هو من ابنتيّ ان تتصلا بمكتبه هناك، أو به هو حيث يكون، وعرض المساعدة، مصراً على أنه في مقام الأب، فلا ينبغي أن تترددا في الاعتماد عليه ما دام أبوهما باقياً في المحشر البيروتي. لحظتها، تذكّرتُ أني لم ابحث مع ابنائي مسالة المورد الذي سيعيشون به في منفاهم الجديد. واستبدّ بي التفكير في هذه المسألة، ولمتُ نفسي على

إهمالي مسألة لها هذه الأهمية. ولأني شردت، ولأن نداء المغادرة تكرر بنبرة حازمة، فإن ابنتيّ تعجلتا الالتحاق بشاحنتهما. ومع كلمات الـوداع، قـالت عزّة: "اتفقنـا علـى أن نُقيم هنـاك عنـد أصـدقائك، والمعيشـة تُدبَر". وأكملـت يـافا: "لـن نقـيم فـي الشارع ولن نجـوع، فاطمئن"! وما كان لتطمين مثل هذا أن يُطمئن أحداً. لكن، لم يكن في اليـد حيلـة، ولم يكن في الوقت مُتسـع. محركات الشاحنات دارت وتميز صخبها وسط الصخب العام. ومودّعو ابنتيّ من أصدقائهما أحـاطوا بـهما. ولأن التـدافع نحـو الشاحنات فصل ابنتيّ عني فإن الوداع اقتصر على التلويح بالأيدي. وبهذا، كما حدث حين ودّعتُ ثائر، تجنبتُ طقوس الوداع التي أضيق بها.

فـي حجـرة مكتبي في المعهد، جلسـنا، لبنى وأنا، بنيّة مناقشـة ما رسمته هي كي تُنفذ ما اتفقنا عليه في عملها. لكن، قبل أن نمعن في المناقشة، أدركتْ هذه الصديقة المتفهمة أني مكبّلٌ بأسى لا تخترقه شـؤون العمـل، فـارجأت المناقشـة. وبـدل المناقشـة، حـاولت لبنـى استدراجي إلى التخفّف مما يؤسيني: "مرّ عليك كثير ولم تكن أبداً حزيناً كما أنت الآن، ألست أنت من دفع الصبيتين إلى الرحيل دفعاً". هذه الملاحظة لم تضع الأصبع على أوجع ما كان يوجعني. فالافتراق عن الأعزّاء، حتى عن أحبّهم إليّ، صار في حياتي المضطربة هماً

مألوفاً. أما ما أوجعني فهو إغفالي التفكير في ما ينبغي عمله لتوفير النفقات اللازمة لمعيشة أسرة تقسّمت ولم يعد موردي كافياً لتأمين حاجاتها.

لم أقل هذا للبنى، بل استحضرتُ سبباً آخر لأساي: أيحق لي أن استثمر أريحية أسرة لبنانية فأقاسمها شقتها الصغيرة، ولماذا يتوجّب على لبنانيين طيبين، احتملوا لسنوات كثيرة حصتهم من أثقال وجودنا في بلدهم، أن يحملوا الآن أثقال اختياري أنا البقاء بعد أن رحل أقراني، وأين هي فرصةُ الحصول على شقّة مستقلة، أين هي في هذا الظرف، وبأي تكلفة. استحضرتُ هذا السبب لأتجنّب إشغال بال لبنى بالسبب الآخر، وإذ بي أشغل بالي وبال التي يهمها همّي بما هو أدعى إلى القلق. وربّما من أجل أن تصرفني هي عن الاستغراق في الهموم، تذكّرت لبنى في تلك اللحظة ما تصوّرت أنه سيسرني وتعجّلت اتحافي به. ترك زياد سيارته لي وأبقى مفتاحها مع صديقتنا المشتركة. واشترط زياد أن لا أتسلم أنا المفتاح إلا بعد رحيله هو، وأن يتم التسليم في ظرف معين وليس في أيّ ظرف. والتي باحت بوجود المفتاح معها قبل أن يتحقق شرط زياد الثاني ترددت في ذكر طبيعة هذا الشرط حتى بعد أن سألتها أنا عنه.

لم أتأثر بمبادرة زياد. فالمرحّلون، جميعهم، تركوا حوائجهم في البلد،

منهم من تركها لصاحب أو لجهة ما، ومنهم من تركها في مكانها وليس لأحد بعينه. لكن طبيعة الوصيّة رسمث على ثغري ابتسامة، فتوهمت لبنى أنّي سرُرت بها، ولم أصحّح أنا الوهم. أما لماذا ابتسمتُ، فلطرافة وضعي مع السيارة. فحين كنتُ بأمسّ الحاجة إلى ما أتجول به في الحصار الذي أوقف المواصلات العامة، افتقدتُ سيارتي، لأن زوجتي استخدمتها كي تبتعد عنّي. وحين لم يعد بإمكاني ان أستخدم أيّ سيارة، فها هو ذا صديقٌ مفارق يترك لي سيارته.

طرافة الوضع احضرت جديداً أبلغُه أنا إلى لبنى. فقبل رحيلهم، اهتمّ ناس الأمن في مكتب القائد العام بإرشادنا، نحن الباقين، إلى ما ينبغي عمله وما ينبغي تجنّبه لتقليص فرص تعرضنا للأذى. وفي السياق، استقصى هؤلاء حال كل واحد منّا ووصفوا له ما يُلائمه. بالنسبة لي، كان في حوزتي جواز سفر خاص صادر عن وزارة الخارجية الجزائرية، يحمل إسمي الصريح. ولأن مدّة صلاحيه الجواز انتهت في بداية الحصار ولم تتوفر إمكانية تجديدها، فإن خبراء التزوير جددّوها لي في نحو يصعب أن يكشفه من ليس خبيراً. وخوفاً من وقوع ما ليس في الحسبان، طولبث بأن لا أستخدم هذا الجواز إلا من أجل السفر إلى الخارج. أما من أجل

التجول في بيروت، فإن الخبراء أنفسهم زوّدوني ببطاقة الهوية التي تُعطى للاجيء الفلسطيني في لبنان وموّهوا إسمي فيها. ولأن هذه كانت بطاقة مزوّرة، فقد طولبتُ بأن لا أستخدمها إلا للضرورة، وأن أتجنب المرور على الحواجز الأمنية حيث يسهل اكتشاف التزوير. ولأن من هذه الحواجز ما يُقام فجأة، فقد حُظر عليَّ أن أستخدم السيارات، لا السيارات الخاصة ولا العامة، لأن الحواجز الطارئة تترصد ركاب السيارات وتنتظرهم في أماكن يصعبُ عليهم أن يفلتوا منها. وصار عليَّ، بهذا، أن أقلص حركتي ما استطعتُ، وأن أتنقل على قدميَّ حين أحتاج إلى التنقل: "انس مسألة استخدام السيارات". هذا هو ما أوصيتُ به!

فيما أنا أحكي، أخرجت لبنى مفتاح السيارة من حقيبتها بنيّة أن تسلّمه لي. وبعد أن قلتُ ما قلته، أعادت لبنى المفتاح إلى الحقيبة. وكما يُحضر الطريفُ المؤسي طريفاً مضحكاً، لم تملك لبنى أن تكتم الشرط الذي فسر به زياد رغبته في أن لا أستلم سيارته إلا بعد رحيله. فصاحبي هذا تصوّر أني سأشرع، كما هي عادة الأصحاب، في استغابته فور افتراقنا، فأشترط أن تختار لبنى لحظة أقسو أنا عليه فيها وتقدم الهدية: "أراد أن يوجعك ضميرك". قالت لبنى هذا باسمةً وفي ظنها أن طرافة الشرط ستضحكني. غير أني خيّبتُ أمل

من شاءت أن تعدّل مزاجي العكر: "لا يُمكننا اصطناع المرح اصطناعاً، فلندخل في حديث العمل، إذ علينا أن نعمل في كلّ حال"!

ثائر هو الذي وفّر لي في ذلك اليوم ما يسّر. اتصل ابني من دمشق وطمأنني. صديقي الدمشقي، الذي أملتُ في أن يستضيف ابنتيّ في منزله، استضاف ثائر منذ اتصل الشاب به وأصرّ على أن يبقى في ضيافته إلى أن يفرغوا في جيش التحرير من تهيئة ما يلزم لإقامة وحدته: "عمو إياد وأنا سنتوجه الآن إلى ميناء طرطوس لاستقبال أختيّ، وهو سعيدٌ بأن يستضيفهما ويرعاهما، ويقول لك إنه هو أبونا إلى أن يلتم شملنا بك". وكان لدى ثائر نبأ آخر أسعدني به: "بين أصدقاء عمو إياد مُدرّسة للغة الإنجليزية متحمسة لأن ترعى بنفسها إنجليزية الفتاتين المرحلتين من بيروت".

اكتمال سروري حققته ريم قبل أن ينقضي ذلك النهار، اتصلت لتقول إنها قادمة، وسرعان ما ظهرت على باب حجرة مكتبي ومعها حزمة أنباء. هي وحبيب القلب سيتزوجان قريباً. شرع أبوها في تحضير الأوراق وسيدبّر للفلسطيني هوية لبنانية لها أرومة في سجل الأحوال الشخصية؛ قد يكلّف هذا مبلغاً يعادل سعر شقة، لكن الأب مستعد لدفع أي مبلغ: "الرشوة عندنا هي أفضل وسيلة لحلّ المشكلات". وعلى أهمية هذا النبأ، فإن ريم لم تُسرع في المجيء إليّ

بسببه، بل كان لديها مما يسرّ شيء يخصني أنا. فأبو ريم وجد حلاً لمشكلة سكني، وهو ينتظر رأيي فيه. فهذا الأب الذي توثقت صلتي به عرف، بالصدفة، أن صاحب الشقة التي أخليتُها أنا هو من معارفه. ولصديق ريم، حبيب القلب وزوج المستقبل، شقةٌ لم يعد بإمكانه، بالطبع، أن يقيم فيها. وبالصدفة، أيضاً تقع شقة حبيب القلب في الشارع الذي فيه بناية معهدنا غير بعيد عنه. وهكذا، ارتسم الحل: أن تأخذ ريم وحبيب قلبها الشقة التي أخليتها أنا وآخذ أنا الشقة الأخرى. ولأن ريم توقعت أن أوافق دون تردد، فإنها جلبت المفتاح. وما أسرع ما صار في حوزتي مفتاح السكن الذي تطلعتُ إلى الظفر به!

أن يتوفر لأبنائي مأوى في دمشق، وأن يتوفر لي المأوى الملائم في بيروت، وأن يتمّ هذا وذاك بهذه السرعة ودون مشقة، فهذا كلّه من النعم التي يخشى أمثالنا في العادة ألا يحظو بها. لكن، حين يكون لك، هناك وهنا، أصدقاء طيّبون ومتفهمون وأريحيون، فإن من شأن الأحلام ذاتها أن تتحول إلى حقائق. هذه الأنباء خفّفت أثقالي. الحرب قاسية، قسوتها تتأتى من أخطارها. لكن آثار الحرب تأخذ في التلاشي منذ توقُّف القتال. فإذا تجدد القتال، وهو ما يتكرر في حياتنا منذ طمع في وطننا الطامعون، فإن الأخطار تصير أخفَّ وقعاً

لأنها تدخل في المألوف. والمألوف، حسنه وقبيحه، أقل تأثيراً من الطارئ. أما الحصار، خصوصاً حين يقع في سياق حرب، فقسوته مضاعفة لأنه يُبلبل كلّ مألوف، حتى ما ألفه الإنسان في الحرب، ويُعيق تشكّل مألوف جديد، ويحوجك إلى تكبد أشكال لا حصر لها من المعاناة حتى تؤسس هذا المألوف الجديد. الاتفاق أوقف القتال، جمّد الحرب ولو مؤقتاً، فتنحّت بعض الأخطار، وانفتحت منافذ تأذن بشيء من الحركة وتبيح السعي إلى رسم مسارات عادية للحياة. غير أن ما تحقّق ظلّ عرضة للاهتزاز. ابتعدت قوات الغزاة عن المدينة، لكنها بقيت في البلد، ولم ترجع الأسلحة إلى المخازن. صحيح أن الذين فتكت الحرب بحيواتهم قد استقروا في مقابر، وأن الذين جُرحوا حوتهم مستشفيات، والذين أعيقوا وجدوا قليلاً أو كثيراً من الرعاية. لكن البلبلة التي أحدثها الحصارُ والحربُ، تغليب قوى على قوى، إخراج ناس من البلد ونزع سلاح غيرهم وتسليح آخرين، تشكيل سلطة ليست أرحم بأهل البلد من الذين غزوه، هذا كلّه وما يماثله قد ينقضي وقت طويل قبل أن يزولا، وقد لا يزول هذا أبداً من ذاكرة الذين شهدوه. وعليّ أن أقرّ وأرتّب أمري على أساس هذا الإقرار: مألوفي الذي قضيتُ ثلاث سنوات في بنائه في بيروت خسرتُه ولن أستعيده بتمامه، ولا بدّ من الرضا بالقليل.

شردتُ فيما هذه الأفكار تدور في ذهني. وحين ثبتُ إلى ما حولي، كانت ريم وحدها في المشهد: "غبت عنّا، اختفيت في داخلك. لبنى غادرت، حيّتك فلم تسمعها. أما أنا فبقيتُ، خفتُ أن لا تعرف طريق الخروج مما اختفيت فيه، فبقيتُ لأدلّك عليه، حمداً لله على السلامة"! اعتذرتُ للتي لم أدر كم طال انتظارها، ثم تساءلتُ عما إذا كان بإمكانها أن تأخذني بسيارتها إلى المنزل الذي أقمتُ فيه لأجلب حوائجي، فأظهرتْ أتمّ الاستعداد. وحين رأتني أنهض مظهراً أني جاهز للتحرك، لم تنهض هي؛ كان ما يزال عندها ما تقوله. فصاحبُ الشقة التي أخليتها تصور أني رُحلتُ مع المرحلين وتركتُ لأبي ريم أن يتصرف بحوائجي. ولأمر ما، ظنّ أبو ريم أن هذا أدعى لسلامتي، فلم يصحح التصور الخاطئ. وعليّ، إذاً، أن أظل حذراً، حتى لا تقع عين الرجل عليّ فيستريب. حتى المطعم، ينبغي أن أتجنب الظهور فيه، لأن هذا الرجل يتردد عليه. سيزورونني هم في الشقة التي سأنتقل إليها للتوّ، وسيحضرون إليّ ما قد أحتاج إليه من شقتي السابقة. وهناك الهاتف حيث يمكن التواصل في أيّ وقت. "هذا مُعقّد، لكنّي أقبله". قلتُ هذا، وتذكرتُ ما وقع لي مع الجارة وخشيتي أن يستغلها أحد ما ضدي، فأضفتُ على الفور: "أحبذ أن لا يعرف أحد في البناية، وليس صاحب الشقة وحده، أني بقيتُ في بيروت". بعد هذا، تعجّلتْ ريم الانصراف، فأدركتُ أنها نسيتْ حاجتي إلى

سيارتها، ولأني أخرتها أكثر من اللازم، فإني لم أذكّرها بها.

هتفتُ لمنزل جهاد، فردّ عليّ الأب، فأبلغتُ إليه ما استجد. فتعهد الرجلُ الأريحي أن يُحضر هو حوائجي التي في منزلهم أو أن ينخى جهاد ليحضرها. والواقع أن الأب وابنه جاءا معاً بعد أقل من ساعة، وأصرّ جهاد على حمل الحوائج بنفسه إلى الشقة القريبة.

لم تكن هذه الشقة مسكناً مثالياً، إلا أنها كانت المأوى المستقل والمأمون الذي أحتاج إليه. ومع أن مظاهر الإهمال والفوضى والقذارة بدت أصعب من أن تُمكن معالجتها، فإني غلّبتُ ما هو أساسي، ما هو إيجابي: توفُّر شقة قريبة من المعهد، في بناية لا يعرف أحد فيها من أنا. وبالهمة المتبقية لي بعد عناء ذلك اليوم الطويل، رتبتُ السرير ليصير لي مكان أتمدد فيه، ونظفتُ أشياء قليلة، واكتفيتُ بهذا، وعاهدتُ نفسي على استكمال العمل في يوم العطلة الأسبوعية. ولأن حال الشقة لم يكن يُغوي بالبقاء فيها طويلاً، ولأن كهرباء الشقة كانت معطلة فتعذر حتى أن أستمع إلى الراديو، فقد وجدتُني مدفوعاً إلى الشارع قبل أن أرسم خطوتي التالية.

خطر لي أن أزور جانيت التي لا يفصلني عن مسكنها سوى مئات الأمتار. وأمام باب البناية المقفل، طلبتُ شقة السطح بالانترفون،

فجاء صوت جانيت متسائلاً بالإنجليزية عن الذي يطلبها. فحمّلتُ نبرة صوتي اللهفة المتقدة في داخلي، وقلتُ بالعربية: "هذا أنا المشتاق إليك". فتلقيتُ إجابة بالإنجليزية لسعتني برودتها حتى لقد ارعشتْ جسدي: "لا أستطيع استقبالك هنا، سأجيء إلى مكتبك غداً إذا تيسر لي وقت، أو بعد غد". وكان في هذا ما يكفي لإطفاء أيّ لهفة. غير أن لهفتي أنا لم تنطفئ. وبدون انتباه مني، جاريتُ جانيت في استخدام الإنجليزية: "أقول إني أفتقدك بقوة، فهل سمعتني جيداً"؟ فجاء ردّ أبرد من سابقه: "سمعتك جيداً جداً، والواقع أني فهمتك أيضاً فاسمعني انت وافهمني، قد أراك غداً في مكتبك، وإلا فبعد غد، لن أستقبلك الآن"!

خيبةُ أمل أنستني ما وعدتُ به ريم، فوجهتُ خطاي نحو مطعم أبيها القريب هو الآخر. هنا، استعاد المطعم رونقه كاملاً، كما كان قبل الحصار وربما أبهى. وبدا أبو ريم رائق المزاج، حتى وهو بادي الانشغال بعمله: "هما هنا وسيفاجئهما حضورك، فأنا قلتُ لهما إنك لن تأتي، وأشار إلى حيث تجلس لبنى وسامر. لحظتها، تذكرتُ ما نسيته، واعتذرتُ للرجل، وأبديتُ استعدادي للانسحاب. لكن الذي خالفتُ أنا نصيحته هو الذي هوّن الأمر: "صاحب الشقة كان هنا وانصرف قبل قليل، اتفقتُ معه على كل شيء فلا تقلق، كويس أنك

جئت، صاحبك انطفأ"!

كان على المائدة كؤوس زجاجات فارغة. وكانت لبنى التي أراحها حضوري محرجةً لا تعرف كيف تتصرف: "شرب هذا كله ولا يريد أن يتوقف". صمم سامر على مغادرة بيروت بعناد لا مسوغ له، ما دام، وهو الأردني، قادراً على البقاء. وفي هذا اللقاء الذي انضممتُ أنا إليه بالصدفة، كان العازم على الرحيل قد طلب من لبنى أن تغادر بيروت معه وكرّر الطلب. وكلما أجابت هي بالرفض، كان هو يطلب زجاجةً جديدة، ومع كلّ زجاجة كان يُعيد القول إنه لا يستطيع العيش بدونها. "المدهش"، قالت لبنى، "أنه لم يقل هذا من قبل ولم يُشر إليه ولو مجردَ إشارة". بعد هذا، صمتت لبنى برهةً قصيرة أطرقتْ خلالها براسها، ثم رفعته وهمت بقول شيء، وشرعت في قوله: "المدهش أكثر من هذا أنه..."، ولم تكمل القول. فأذنتُ لنفسي بما لم أكن لأفعله في وقت آخر: "هل باح لك صراحةً بحبّه"؟ فبدت هي مفاجأة بطرحي أنا هذا السؤال، فأكملتُ ما بدأتُ به: "كل من يعرفكما يعرُف أنه يُحبّك ويكتم حبّه عنك احتراماً لموقفك الذي يعرفه، ويعاني". لم أتوقع أن يسوء قولي لبنى، لهذا أدهشني ردّ فعلها: "لم يكن ينقصني غير هذا، هو يُعاني، والكلّ يعرف، الكلّ إلا أنا". ومع العبارة الأخيرة، أحاطت لبنى وجهها بكفّيها، واحنت راسها، وكرّرتْ العبارة ذاتها، ثم

صمتت وبدا أنها غابت داخل ذاتها.

لما لم أجد ما أقوله إزاء هذا الذي لم أفهمه، فإني بقيت أنا الآخر صامتاً. ولئن لم تُوجّه هي نظرها نحوي، فإني أنا لم أنظر إلا نحوها. وحين رفعت لبنى رأسها ونحّت كفيها عن وجهها، رأيتُ عينيها وقد تندتا بحبّتي دمع لم يكتمل تشكّلهما، وأدركتُ أنها تُغالب حاجةً إلى البكاء تكاد تغلبها، وأنها، هي التي لا تستطيع أن تبدو ضعيفة، تتجلّد كي تظلّ متماسكة. عنّ لي أن أقول شيئاً يواسي الصديقة الحزينة، لكني عجزتُ عن اختيار ما يجوز قوله في هذا الموقف، واشتد إحساسي بالحرج. ومع امتداد الصمت، فيما سامر الغائب عنا يُتعتع بكلمات لا أتبينها، حثني شيء من داخلي على الانفلات من المشهد، ووضعت الحاجة على لساني ذريعة اقتبستها من خاطر مرّ ببالي خلال النهار: "لا بد من أن أذهب إلى الجريدة لأن علي أن أنظم علاقة دائمة معهم" وكأنما كانت هي الأخرى بحاجة إلى الانفلات مما حلّ بها؛ فقد أخذت ما قلتُه أنا لها على محمل الجد الشديد، واستفهمت عما إذا كنتُ أبحث عن منبر صحافي، وهل أنا بحاجة إلى هذا المنبر، وهل يُبيح الظرفُ الجديد أن أظفر به. وصار علي أن أقدّم شروحاً. فالأمر ليس أمر منبر، بل أمر وسيلة للحماية. فللجريدة نفوذها وهو مرشح لأن يقوى. ثم إن هناك، أيضاً، حاجتي إلى دخل

إضافي من أجل نفقة معيشة الأولاد. وبالأسئلة والشروح والنقاش الذي كان لا بد منه، استعادت لبنى تماسكها، وتحرّزتُ أنا من حرجي. وباقتراح منها هي، حملنا، كلانا، سامر إلى سيارتها وأوصلناه إلى مسكنه، ثم أوصلتني هي إلى الجريدة وتركتني عند المدخل بعد أن رفضتْ اقتراحي أن ندخل معاً.

رئيس التحرير لم يكن هناك، لكنهم كانوا يتوقعون وصوله في أي لحظة. ولأني شئتُ أن أستثمر وقت الانتظار، فقد اقترحتُ أن أكتب مقالاً عن مغزى ترحيل المقاتلين الفلسطينيين. غير أن مدير التحرير فاجأني بتحفظ لم أستسغه: "الظروف تبدّلت يا أستاذ، وإذا أحببتَ أن تكتب، فالنشر محتاج لتعليمات جديدة من رئيس التحرير بالذات". صدمني الرجل الذي كنتُ واقفاً إزاء مكتبه بقوله هذا، ثم انصرف إلى ما كان منهمكاً فيه، واهملني. خيبةُ أمل أخرى اقترنت بمعاملة تستهين بي فجعلتني أعزم على طيّ مسألة الكتابة الدائمة للجريدة. وبعزمي هذا، تعجلتُ الانصراف حتى لا ألتقي رئيس التحرير. لكن المصعد الذي انتظرته وضع رئيس التحرير أمامي. وصرنا، الأستاذ جلال وأنا، وجهاً لوجه. وقد تصرف هو كما ألف أن يفعل، حفاوةً، وترحيب، وابتسامة سخية، وأحاطني بذراعيه، ثم شدّني ويده في يدي إلى حجرة مكتبه.

"تبدّلت الظروف". العبارة ذاتُها التي صدمني بها مدير التحرير كررها الذي أظهر كلّ ذلك الاهتمام بي، فكدت أطلب منه أن لا يُكمل ما شرع في قوله، غير أنه لم يتوقف عن الحكي: "نصف كتّاب جريدتنا كان من الفلسطينيين. الآن رحلوا، ولم يبق منهم إلا أنت، فلا يكفي أن تكتب لنا من وقت لآخر، كما فعلت حتى الآن، نريد منك مقالاً دورياً، أحبذ أن يكون يومياً، ولا أرضى بأقلّ من مقالين في الأسبوع".

بلبلتني مبادرة رئيس التحرير إلى فتح الموضوع الذي عزمتُ أنا على طيّه، وأذهلني الفارق بين معاملته إياي وبين معاملة مدير التحرير. وأبقاني ذهولي صامتاً. فاندفع هو في شرح ما تصور أني أتهيّب الخوض فيه. مقال دوري يُعطيني الحق في الحصول على مكافأة، على راتب شهري، وأنا، عنده، استحق الكثير، ورجاني أن أترك تحديد المبلغ له، وهو سيحدده بعد فحص وضع الجريدة المالي في الظرف المستجد. هو، إذاً، عرض كامل هذا الذي تلقيته، وهو يستجيب لحاجتي، ثم إنه جاء من قبلهم هم، فلِمَ أعترض. والواقع أني تعجلتُ الاستجابة لهذا العرض، ووافقتُ على أن أكتب مقالاً يومياً، زاوية يومية بلغة المهنة. وطلبتُ أن يُخصص لزاويتي مكان ثابت. وشجعني الاهتمام الذي أظهره الأستاذ جلال، فطمعتُ في أن تُنشر زاويتي في الصفحة الأولى. لم أطلب هذا صراحة، لكني

المحتُ إليه إلماحاً سافر الدلالة: "زاوية من ثلاثمائة كلمة يمكن أن تستوعبها الصفحة الأولى بسهولة".

صمت رئيس التحرير، وادركتُ أن في ما المحتُ إليه شيئاً يحرجه، وصرتُ مستعداً للتخلي عما طمعتُ فيه، وهممتُ بأن أفصح عن استعدادي هذا. لكن صديقي المتحرج سبقني وقدّم شرحاً طويلاً: حُسِبَتْ جريدتهم لوقت طويل على الفلسطينيين. ما استجد بالرحيل يوجب تبديل هذا. لا يعني التبديلُ أن تصير الجريدة ضد الفلسطينيين، بل يعني أن لا تُحسب عليهم. ظهور إسمي في الجريدة سوف يعني أنه، هو مالك الجريدة ورئيس تحريرها، ليس ممن يُبدّلون الولاء مع تبدل الظروف. لكن ظهور الإسم في الصفحة الأولى، كل يوم، "هذا يعني... أنت فاهم". تجنّب الأستاذ جلال حرج الإفصاح عما ينبغي ان اكون فاهماً إيّاه، واضاف: "سنظل جريدة مُعارضة، السلطة في البلد صارت في أيدي ناس أسوأ من الذين عارضناهم من قبل. لكننا، كيف أقول، لن نبحث عن استفزازات ولن نجلب لأنفسنا المتاعب من الآن. نحن مضطرون إلى الحذر، واقله أن نظل حذرين إلى أن تتضح الخارطة الجديدة للقوى في البلد." ومن تعثره في اختيار عباراته وهو يتحدث، أدركتُ أن رئيس التحرير لم يُفصح عن بيت قصيده، فسألته عنه مشجعاً إيّاه على البوح، فبق

حصاته: "تكتب للجريدة، هذا مفيد لك ولي، وتُراعي في ما تكتب وضعنا المستجد، هذا لا بدّ منه"، ثم كرّر: "أنت فاهم"!

الشرح الذي قدّمه الرجل بنبرة خلت حتى من سمة الاعتذار أثار حساسيتي. ولأنه التقط ما بثّته تعابير وجهي من ردّ فعلي، فقد أمعن صاحبي في عرض ذرائعه: "في آخر الأمر نحن جريدة لبنانية وعلينا أن نراعي حقيقة أن الوضع في البلد قد تبدّل". فانطقني امتعاضي من تكرار هذه العبارة بتعديل لها: "انقلب رأساً على عقب، وعليّ أن انقلب معه". وصاغ الامتعاض قراراً حاسماً: أنا لن أكتب للجريدة حتى لو خصّص صديقي لزاويتي صدر صفحتها الأولى.

بعد الجريدة، لم أجازف بالتوجه إلى مكان بعيد أو مكان محظور عليّ الذهاب إليه. فلم يبقَ أمامي إلا أن أرجع إلى ما صار منزلي. ولأن ضوء النهار كان ساطعاً، فإن حال الشقة ظهر في أقبح تجليّاته. وإلى الفوضى والقذارة، أضاف حرّ الصيف اللاهب الرطوبة التي جعلت جوّ الشقة خانقاً.

حاولت أن أصبّر نفسي على الأذى، أن أعوّدها على التواؤم. فأفلحتُ في هذا لبعض الوقت. لكن وقع الأذى اشتد بمقدار ما امتد جلوسي الاضطراري على السرير. وخطر لي أن أذهب إلى الكومودور، لكني

خشيتُ، وقد تذكرتُ ما وقع لي مع جانيت، أن تكون التي صدتني عن زيارتها في منزلها هناك ويكون البريطاني معها، فطويتُ هذا الخاطر. وإذ ضاقت خياراتي فقد هممتُ بأن أرجع إلى الجريدة، أتذرع بأي سبب لأتمتع بالمكوث في المبنى مكيّف الهواء. لكنني استبعدتُ هذا الخاطر أيضاً؛ فخروجي غاضباً لم يُبق لي هذا الحق. فصبّرتُ نفسي لوقت آخر. لكن الجوع انضاف إلى ما يُضايقني، ولم يكن في الشقة ما يؤكل أو يُطهى ليؤكل، فطفح الضيق. وعزمتُ على التوجه إلى بقالية قريبة، أشترى شطيرة أو اثنتين وقنينة ماء أو عصير. وكأنما جرى هذا ليُحكِم سطوة الضيق، فالبقالية كانت مقفلة، ومثلها كانت بقالية أخرى توجهتُ نحوها. كنّا في الساعات قبل الأخيرة لخلوّ بيروت من المقاتلين الفلسطينيين ومن القوات الدولية التي جاءت لتتأكد من رحيلهم، والسوق حسّاس، وقد أقفل تُجّاره دكاكينهم قبل وقت الإقفال. وهكذا وجدتُني مدفوعاً دفعاً نحو مطعم أبي ريم غير آبه لما حُذّرت منه.

لم أجد أبا ريم، بل وجدتُ ريم التي حلّت محلّه في غيابه. ولم يكن في المطعم كثيرون. ففي هذا الوقت بين العصيرة والغياب لا يأتي الناس إلى المطاعم. وقد ذكّرتني التي لا تعوزها اللباقة بما حذّرتني منه، لكنها لم تطلب مني الانصراف. وكان لدى ريم التي جالستني

فيما أنا منصرف لتناول ما أعدّوه لي ما تحكيه: سامر رجع إلى المطعم وشرب زجاجات أخرى، فهتفث هي للبنى، فجاءت لبنى وأخذته في سيارتها. وقد أعطت ريم للبنى مُنعشاً يُقدمونه في المطعم لمن يُفرطُ في الشرب: "ستأخذه إلى شقتها هي لتعيده إلى الصحو ثم تنقله إلى شقته ليستعد للرحيل، فهو مغادر غداً. يُصرّ على المغادرة فيما هو يكرّر في صحوه وسكره أنه لا يستطيع العيش بعيداً عن لبنى".

كنت التهم ما قدموه لي إلتهاماً لا يبيح لي أن أعقّب بشيء، فواصلث ريم الحكي دون مقاطعة: كثر توافد الذين ليسوا من هذه الناحية، إنهم يجولون في كلّ مكان، ويدققون كلّ شيء، ويخزنون ملاحظات، ويبثون الخوف، ولا يتستّرون على ما يفعلون. رئيس هؤلاء صار هو رئيس الدولة بسطوة الغزاة، والغزاة بقوا في البلد غير بعيد عن هنا، وحكمُ البلد آيلٌ إلى أيدي الإسرائيليين والمتعاونين معهم. وهؤلاء محقونون بالكره للفلسطينيين وشهوة الانتقام منهم ومن كلّ لبناني آزرهم: "امتلأث بيروتنا بالذين يبيّتون لها الشرّ". وحين توقفتُ عن الأكل، كانث ريم تتساءل عما أبقاني في بيروت بالرغم من نذر الشرّ هذه، وكانت تقارن بين إصراري على البقاء وبين إصرار سامر على المغادرة بالرغم من تعلّقه العجيب بلبنى. ولما لم

تكن لديّ إجابة يقينية، ولأن الظفر بالشيع عدّل مزاجي المعتكر، فقد لجأتُ إلى السخرية: "لكثرة ما تكرر ترحيلي مع ربعي، صرتُ أبغض الرحيل الجماعي. ولعلّي كنتُ سأرحل لو أنهم خصّصوا لي باخرة تحملني أنا وحدي، باخرة سكارسا". فابتسمت ريم: "لا تُحبُّ أن تجيب، تتعفّف عن مدح نفسك، وأيا ما كان عليه السبب فإن بقاءك هنا يسرني، وهو، بالمناسبة، يسرّ لبنى أيضاً. ويسرّ من سيصير خلال أيام زوجي".

نكز الزواج ذكّر ريم بأن تدعوني إلى العرس، وأدخلنا في حديث الترتيبات الجارية والأخرى اللازمة لعرس وصفته هي بأنه سيكون أول عرس فلسطيني لبناني يجرى بعد توقف القتال. والحديث عن العرس وضعني في دائرة بهيجة. لكن الانتقال مما يُبهج إلى ما يغمّ لم يتأخر. فمن فم زبونٍ دخل المطعم ونحن في إبّان هذا الحديث، حطّ علينا النبأ الصاعق: اغتيل الرئيس الجديد، كان مُختليا مع قادة أنصاره في مقرّ قيادتهم، فانفجرتْ عبوةٌ هائلة الحجم تحت الحجرة التي اجتمعوا فيها، وأودى الانفجار به، وبكثيرين منهم، وفتّت أجسادهم، ومزج أشلاءهم بركام المبنى. والزبون الذي نقل النبأ هو نفسه الذي عقّب وهو يكاد يرتجف: "لينجّنا الربّ من ردود الفعل"!

هول النبأ قذفني نحو الجريدة. غاب عن البال ما ساءني قبل

ساعات، ولم يحضر سوى شيء واحد: في هذا المكان يمكن تلقّي أدق التفاصيل، ومتابعة آخر التطورات، وتدبّر أمر الإفلات من ردود الفعل التي هجستُ بأنها ستطال الباقين في البلد من الفلسطينيين. كنتُ ذاهلاً إلى حدّ لم افطن معه إلى أن ابا ريم قد رجع وأن ريم هي التي حملتني بسيارتها. والواقع أني لم أنتبه إلى وجودي بجانب ريم إلا بعد أن أوقفتْ هي السيارة أمام مدخل الجريدة وقالت بصوت يرجّهُ الانفعال: "ساذهب أنا الأخرى لجريدتي، فمن المؤكد أن الزملاء استنفروا". وقبل أن تنصرف، طلبتْ ريم مني بصوت فتنتني نغمةُ الحنان التي فاضت منه أن أشدد حذري: "الذين ليسوا من هذه الناحية سيزيد عددهم، فإذا لم تجد من يعيدك بسيارته إلى المنزل فابق في الجريدة مهما تأخر الوقت، سأذهب إلى الشقة بعد أن انهي عملي، فإن لم اجدك فيها، فساعرف أنك هناك، وسآتي لآخذك بسيارتي"!

في الجريدة، تجمع كثيرون وفدوا لتقصي التفاصيل. الرئيس الذي وضعته الدبابات الإسرائيلية على قمة السلطة في البلد تحوّل جسده إلى أشلاء واحتاج الأمر لأكثر من ساعتين إلى أن تأكد وجود أشلائه هو مع أشلاء الذين فتك الانفجار بهم من أعوانه. "النظام السياسي الذي شرع الغزاة في إنشائه فقد قمته". قال هذا رئيس وزراء سابق،

ثم استدرك هو نفسه: "غير أن القاعدة التي أنشأها الغزو الإسرائيلي لم تتهدم، سيؤجج هذا الاغتيال روح الانتقام لدى الذين صارت الجزرة قريبة من أفواههم، وستستغل إسرائيل الوضع، وكلٌّ من في رأسه موّال ضد الفلسطينيين واللبنانيين الذين تحالفوا معهم سيغنّيه، وإسرائيل هي التي ستوجّه الجوقة، والحرب الأهلية ستتجدد منذ اللحظة". المستمتع باستقطاب الانتباه قال ما قاله ليبني عليه شيئاً شرع في شرحه: "علينا أن نحذر...". لكن الرجل دُعي قبل أن يتم عبارته إلى الهاتف، فغاب دقائق رجع بعدها وفي جعبته نبأ جديد: "إسرائيل تتأهب لدخول غرب بيروت الذي أحجمت عن دخوله قبل الآن، مصرع الرئيس الذي عوّلت عليه يدفع حكامها إلى إعادة حساباتهم". وبعد قليل، تلقى الجمعُ نبأ آخر: أكتمل تجميع القوة الأميركية والأخرى الفرنسية في السفن التي ستعيدها إلى قواعدها البعيدة، وستغادر القوتان مياه لبنان غدا فور رحيل المجموعة الأخيرة من المقاتلين الفلسطينيين. وعلى هذا النبأ، عقّب واحد من الذين يشرحون في العادة ما ليس بحاجة إلى شرح: "يبتعدون ليتيحوا لجيش إسرائيل أن يجتاح عاصمة لبنان دون أن يتحملوا هم أيّ مسؤولية".

كنت الفلسطيني الوحيد وسط لبنانيين انهمكوا بعد ذلك في تقضي

تأثير الحدث على الشأن اللبناني. ولم أشأ أن أشغل الحشد بما يشغلني، فبقيتُ صامتاً. وما شغلني كان هو تأثير الحدث على الشأن الفلسطيني، الشأن الذي تهتم به إسرائيل ذاتها أكثر مما تهتم بسواه. لم يدخل الجيش الغازي القسم من بيروت الذي حاصره على مدى ثلاثة شهور، لم يجازف بحياة جنوده، أما الآن، وقد رحل المقاتلون الفلسطينيون وانكسرت شوكة حلفائهم اللبنانيين، فما الذي يُلجم الغزاة، الذريعة؟ ما أسهل أن يختلق الإسرائيليون أيّ ذريعة، هم الذين راكموا في هذا المجال خبرةً تُمكّنهم من تسويد الأبيض وتبييض الأسود.

ظلت الأنباء تتواتر فتنعش الجدل. واقترب الوقت من الحادية عشرة. وبقيتُ أنا موزعاً بين الهواجس التي تعتمل في داخلي وبين متابعة الجدل الذي يؤجّج هذه الهواجس حتى حين لا يدور حولها هي بالذات. وكما يحدث حين يطول مكوثي في مكان ينشغل ناسه بغير ما يشغلني، انسحبتُ دون استئذان، متجنباً أن يجتذب انسحابي الانتباه، وأسلمتُ نفسي لهواء الشارع الذي خفّ لهيبه مع تقدم المساء، واستسلمتُ لقدمي، دون أن يرتسم في ذهني هدف بعينه.

كانت الشوارع خالية إلا من الصمت المعجون بهواجس مدينة

يترقب كل من فيها أوخم العواقب. ولما قادتني قدماي نحو المطعم، فقد عزمتُ على أن اكرر المجازفة. وقريباً من المدخل، اجتذب انتباهي وجودُ سيارة خُيّل إليّ اني أعرف صاحبها. فبطّأتُ خطاي بأمل أن يُضيء إسم صاحب السيارة في ذاكرتي. لكني بلغتُ واجهة المطعم دون أن يضيء شيء، إلا بعد أن رأيت عبر الواجهة صاحب شقتي السابقة وهو جالسٌ في هيئة من ينتظر قدوم أحد. فابتعدتُ عن المدخل بأعجل ما استطعت. ومرّة أخرى، لم يبق أمامي سوى خيار واحد: الذهاب إلى الشقة المنفّرة.

وفيما أنا منحدر في الاتجاه الذي اخترته، رابني وجود رجل واقف عند منعطف الشارع الذي سأدخله، رجل لم يُمكّني الضوءُ الشحيح من تمييز ملامحه. الريبة صارت قلقاً، منذ تنبه الرجل لوجودي فانتصبت قامته في حركة وشت باشتداد يقظته. والقلق صار خوفاً، لأن هواجسي صورت لي أن الرجل تحسّس شيئاً على جنبه الذي تخفيه العتمة. معظم مصابيح الشارع كان معطلاً. والأنوار المتسربة من المنازل لم تكن كافية للتيقّن من شيء. ومع أني ارتبكتُ، فإني أفلحتُ في السيطرة على ارتباكي، وتابعتُ خطوي كأني لم ألحظ ما يريب، ومررتُ بحذاء الرجل دون أن التفت نحوه. ومع الجهد الذي بذلته للسيطرة على نفسي، في الشارع الخاضع لسطوة السكون

والعتمة، اشتدّ إحساسي بصخب الهواجس التي أغالبها، فاشتد إحساسي بالخطر، خصوصاً منذ صار الرجل خلفي: ماذا لو انطلقت رصاصةٌ من كاتم صوت فأودت بي. وبلغتُ لحظة، استولى عليّ فيها صخبُ الهواجس وسيطر على حواسّي كلها، وصرتُ لا أسمع، ولا أرى، ولا أحسّ، ولا أشمّ إلا خطر كاتم الصوت الذي توقعتُ أن يقضي عليّ. وفي هذه اللحظة بالذات، اصطدمتْ قدمي بجسد ممدد على الأرض. وقبل أن يبلغني نباحُ كلب يبدو أني انتزعته من سباته، احسستُ بشيء يشدُّ جلدة راسي ويوجعني. وحين رفعتُ يديَ لأتقصّى ما حلّ براسي، أدركتُ أن الرعب المفاجئ أوقف شعر الراس.

من حسن حظي اني لم اخطىء التعرف في العتمة على مدخل البناية، ولم أنسَ أن الشقة تقع في الطابق الثاني على يسار الصاعد إليه. غير أن نوراً متسرباً من باب الشقة التي أعرف أن الكهرباء فيها معطلة جبهني وهزّ ثقتي بذاكرتي. وبالرغم من الظرف، وربما بسببه، قررتُ المجازفة، وتحوّطت لاحتمال الخطأ فلم استخدم المفتاح، بل قرعتُ جرس الباب. ولدهشتي، الدهشة التي تصورتُ معها أني أحلم، برزتْ أمامي ثلاثة وجوه ضاحكة لم أتوقع أن أرى أيا منها في هذا المكان، في هذا الظرف، في هذا الوقت، حتى في الحلم، ريم، ولبنى، وجانيت، ثلاثتهن معاً. وفيما أنا أفرك عينيَ لأتأكد من أن ما أراه

ليس حلماً، شدتني الأيدي الحفيّة إلى الداخل.

كانت لبنى سبّاقة إلى التنبه لما حل بي، شحوب لوني، واضطراب شعري. وفي الجو الذي غاضت فيه الهواجس، رويتُ حكايتي مع الرجل الغامض والكلب الذي نام على أرض الشارع. رويتُ الحكاية بما هي طرفة، فاصطخب الضحك. ثم جاء دوري لأتنبه لما جرى في الشقة فبدلها من حال إلى حال مغاير. النظافة والترتيب، والأناقة التي جعلها الضوء الساطع ساطعة هي الأخرى.

وعلى مائدة العشاء المجلوب من المطعم، قدّمتْ ريم الإيضاح الذي تطلعتُ إلى الحصول عليه. اتفقت الصديقات الثلاث على أن يلتقين بعد أن تفرغ كل منهن من مشاغل يومها لإعداد المفاجأة التي حظيتُ بها. جانيت التي أبعدتني عن بابها؛ ولبنى التي زعمت ريم أنها منشغلة في إخراج سامر من سكره، لبنى التي نظمت الخطة؛ وريم التي طلبت أن أبقى في الجريدة إلى أن تعود هي إليّ، فضمنت أن أظل بعيداً. ثلاثتهن فعلن هذا لجعل المفاجأة السارة أفتن وقعاً.

أما عن الحدث الذي بلبل الجميع وكيف لم يحمل صديقاتي الطيبات إلى إلغاء ما اتفقن عليه، فالإيضاح قدمته لبنى: "وقوع الحدث آخرّنا لبعض الوقت. غير أننا عالجنا الهواجس بأنجع وسيلة: الانهماك في

عمل يشغلنا عن ما يثير أيّ هواجس، والنتيجة أمامك". وإلى هذا
أضافت جانيت: "أنت ترى، لم يقف شعر أيّ واحدة منّا".

(12)

بكّرتُ في الذهاب إلى المعهد فوجدتُ أن كثيرين سبقوني. وكانت لدى سكرتيرة المدير رسالةٌ تطلب أن أنضمّ إليه فور وصولي. فانفلتّ من الذين أحاطوا بي طالبين رأيي في الحدث الذي أسلمهم إلى القلق، وذهبتُ إلى الذي ينتظرني. وما أن فتحتُ باب الحجرة حتى فاجأني ما دفعني إلى التراجع. لم يكن الأستاذ عوني في حجرة مكتبه وحده، بل كان معه آخرُ من أتوق إلى رؤيتهم، عبد الرزاق الذي كنتُ قد نسيتُ أمره. وكان هذا الذي يُنفرّني كلّ شيء فيه جالساً قبالة المدير وظهره إلى الباب، وهو يلبس البذلة العسكرية المخصصة للمرّحلين. ولأن الأستاذ عوني فطن إلى أني أهمُّ بالتراجع وحزر السبب، فإنه تعجّل استبقائي: "انتهينا مما نحن فيه". وقبل أن أجلس، قال الذي تطيبُ له مماحكتي كلّما اختلفنا على شيء: "زميلنا اختار المغادرة، فعَينته مراسلاً لنا في عمان، وهو راحل اليوم." ولكي لا يبتهج الذي ماحكني لو ظهر استيائي، ولأن الأمر كلّه صار أقل أهمية عندي مما ظن هو، فإني مددتُ يدي للذي اختار الرحيل، وقلتُ كلاماً مما يقال في هذه المناسبة، ثم تركته، هو الذي كان، على كل حال، يتعجل الانصراف.

يبدو أن سلوكي لم يحرم الأستاذ عوني متعة مماحكتي، فقط، بل غاظه أيضاً. حتى أن المفتون بعبد الرزاق نسي أن يودعه، لكنه لم ينس أن يجبهني بغيظه: "اسمع، عبد الرزاق أحميه أنا، ورأيك فيه لا يهمني. طلبتك لموضوع آخر، موضوع يخصّ لبنى، الست المغرورة التي تحملها على ظهرك بهمّة من يُنفذ وصية أبيه". انطوى التعريض بلبنى على نيّة غير مستطابة. فشئت أن أوقف محدثي قبل أن يفصح عن نيته فيصعب ثنيه عنها. غير أن الذي أزمن بغضُه لأنثى صدّته ذات يوم أبى أن يتوقف، وأصرّ على أن يُظهر ما انتواه بكامل قبحه: "قرار القائد بشأن لبناكم يحتاج كي يصير نافذاً إلى توقيعي أنا الآخر، ولك أن تعرف أني لم أقرّر أن أوقعه".

هنا، لقُطْم مسار يُفضي إلى استبعاد لبنى بعد أن ابتعد القائد العام الذي يمكن أن يوقف تعسف المدير، صار لا بدّ من أن أتدخل أنا بحزم: "أياً ما كان عليه رأيك في دافعي إلى مساعدة دارسةٍ كفوْة، فإني أعدّ وجودها في المعهد خطأً أحمر". قلتُ هذا بنبرةٍ منذرة. وقبل أن يرد مماحكي على التحدّي بتحدٍّ مُضادّ، استحضرتُ المساومة السابقة التي بدأها هو، عبد الرزاق مقابل لبنى، وعرضتها بصيغة جديدة باترة الدلالة: "مرّرتُ لك حكاية صاحبك، وسأمرّر لك ما فعلته من أجله للتوّ، شريطة أن تكفّ عن التحامل على لبنى".

كنتُ اعرف اني اقف على ارض صلبة وفي يدي الورقة الرابحة. وحين حاول هو ان يوقفني عن الكلام، ابيتُ، بدوري، ان اتوقف، فلما كرّر المحاولة فإني لجمتهُ لجماً: "احبّ ان اضع الأمر على بلاطة، حتى لا يستغل احدٌ احداً". وهكذا، جعلته يدرك اني ادرك ان تعيينه عبد الرزاق مراسلاً من خارج المعهد فيه مخالفة فظة لنظام العمل، فضلاً عما فيه من محاباة لشخص لا يستحق أن يُحابى، وأنّ بإمكاني بغير كثير من الجهد أن اعرقل تطبيق قراره بهذا الصدد. ولأن هذه التي عددتُها مقدمة للمساومة نفعت، فقد مضيتُ في المساومة وأنا واثق من أنه سيقبلها. فقلتُ للذي صار يُصغي وهو يحاول السيطرة على انفعاله إني أعدُه بأن أمرّر ما فعله لعبد الرزاق، إذا وعدني هو بأن لا يؤذي لبنى. ولكي أتيح له فرصة التفكير الواقعي، عددتُ المزايا التي تؤهل من يبغضها هو لتكون معنا في المعهد، تأهيلها العالي، واختصاصها، وخبرتها، ونبذها رغد العيش المتاح لها، واختيارها البقاء في جحيم بيروت، لا لشيء إلا لأنها ثابتة في وقوفها معنا ولأنها تريد أن تُطوّر خبرتها. وإذ لاحظتُ أن تأثير ما قلته لم يكن سلبياً، فقد شئتُ أن أحصّن عرض المساومة بما يُقيّد يديّ الأستاذ عوني لو عاودته نيّته الشريرة: "أحبّ أن يكون الأمر واضحاً، إما أنا وهي في المعهد معاً، وإما أنا وهي معاً خارج المعهد". وفي هذا، راهنتُ على ما أنا واثق، ايضاً، بصلابته. فمدير المعهد

أعقل من أن يخسر وجودي إلى جانبه فيما نحن نواجه هذا الركام العاتي من التحدّيات.

لغة جسد المدير أظهرت أن ثقتي بصلابة الأرض التي أقف عليها كانت في محلّها. أما اللسان فبثّ ما يُجنّبُ صاحبه الظهور في مظهر المتراجع: "تعجّلتَ الاستنتاج، وجلدتني بخطبة طويلة، وأنت تعرف كم أبغض الخُطب". قال هو هذا، ثم ابتسم للحظة بقي خلالها صامتاً، ثم سحب الابتسامة، وأضاف: "لم أقل إني لن أوقع القرار، قلتُ إني لم أقرر، بعد، توقيعه. وكل ما في الأمر أني أرفض أن تتصور هي أنها تتمتع بحصانة، بامتياز لا يتمتع به سواها، وعليها أن لا تتوهم أنها محصنةٌ ضد العقوبة إن أخطأتْ أو قصرتْ لأنه يوجد هنا أو في مكان آخر من يحمونها، فهل سمعتني جيداً هذه المرّة، أرجو هذا"!

كانت هذه من الأستاذ عوني مقدمةً عرض بعدها ما انتهى إليه؛ فقد عزم على أن يُعيّن لبنى دارسة متدربة ويلحقها، بحكم اختصاصها، بقسم أرأسه أنا. هذا يعني أن يحتفظ هو لنفسه بحق إعادة النظر في وجودها في المعهد بعد ثلاثة شهور، هي المدّة التي يتحدد بعدها مصيرُ الدارس المتدرّب. إذاً، فهو لم يختم المساومة، ولا بدّ من أن أتابع ما بدأته: "هي ليست بغير خبرة حتى لو لم تعمل في معهد دراسات، غير أن لك أن تضعها في المرتبة التي تحددها أنت، لكني

لن أجيز التحايل. لن أقبل أن تستخدم صلاحياتك لمنع تثبيتها دارسة محترفة. وفي كل حال، لا تنسَ ما قلته لك، إما هي وأنا معاً على جانب، وإما معاً على الجانب الآخر"!

أجزتُ للأستاذ عوني الظفر بانتصار صغير، غير أني حضَنتُ التالقة للعمل معنا ضدّ تعسّفه. بعد هذا، شئتُ أن نُناقش ما الذي يُمكن أن نفعله في الظرف الذي يعصف بنا. لكن المنشغل بحرتقاته الصغيرة لم يتحمس للمناقشة، بل همر في وجهي كأني أشير إلى عواصف متوهمة توهماً: "لا تكن مثلهم، هؤلاء الذين يُقعدهم حادث ويقيمهم حادث". وإزاء تسطيح مسألة ليست مسطحة، قلتُ إن ما نحتاج إلى مناقشته هو وضعنا إذا نفّذت إسرائيل وعيدها باجتياح غرب بيروت الذي نحن فيه. كان الأستاذ عوني مأخوذاً بالاتفاق. فعند البيروقراطي الذي يُعوّل على النصوص، هذا اتفاق دولي يُلزم إسرائيل مثلما ألزمنا، وهو اتفاق ضمنته دول عظمى أرسلت قواتها للإشراف على تنفيذه. فذكّرتُ المفتون بالنصوص والضمانات بأن ضامني الاتفاق على وشك أن يسحبوا قواتهم من المدينة، غير أن هذه الحقيقة لم تؤثر على افتتانه: "انسحاب القوات الدولية بعد اكتمال الرحيل جزء من الاتفاق، وإسرائيل لن تجتاح غرب بيروت ولن تمسّ المخيمات والمؤسسات المدنية الفلسطينية بسوء،

إسرائيل لن تنقض الاتفاق الدولي".

نطق الأستاذ عوني عبارته الأخيرة بنبرة من يريد إقفال باب أيّ نقاش، ثم عدّل جلسته متخذاً وضع من عليه أن يشرع في عمل جديد لا يريد أن أشغله عنه، وقال دون أن يوجّه نظره نحوي: "سواء اقتنعتَ أو لم تقتنع، لا أريد للإشاعات أن تُبلبل عملنا، لدينا عمل كثير، ولا بدّ من تركيز الجهد عليه"!

الحكي على الضمانات الدولية لم يُنخ هواجسي. أما الإشارة إلى ضرورة التركيز على العمل فذكّرتني بالواجبات المتراكمة. وما أن دخلتُ حجرة مكتبي حتى انهمكتُ في ما استغرقني بكليتي. وفي العاشرة، جاء من ذكّرني بالاستراحة التي نُخصص لها نصف ساعة كل يوم في هذا الوقت والتي نقضيها في الكافتيريا والتي استأنفنا ممارستها في سياق سعينا إلى استعادة مألوف عملنا السابق. وقد خففتُ إلى الكافتيريا، ليس بنيّة الاستراحة، بل لألتقي لبنى التي سبق أن اتفقتُ معها على أن نتوجه في سيارتها إلى الملعب لنكون في وداع سامر ونشهد رحيل القافلة الأخيرة. وفي الكافتيريا، اعتذرتُ للبنى، وطلبتُ أن تنقل اعتذاري لسامر، ثم رجعتُ إلى مكتبي حتى دون أن أشرب قهوة، واستغرقني العمل من جديد.

في هذا النحو، انقضت ثلاث ساعات متصلة لم أحس خلالها بما حولي. استغراقي في العمل اخترقته اندفاعة زميل اقتحم حجرتي اقتحـاماً وهتـف دون تحيـة: "بعـد أن غـادرنا آخـر المقـاتلين الفلسطينيين، وغادرت سفن القوات الدولية الميناء بقواتها، عاد الجيش الإسرائيلي إلى مواقعه أثناء الحصار، وبدأت آلياته التحرك لاجتياح المدينة".

رد فعلي الأول أملته شدّة انصرافي إلى العمل. انتهرتُ الزميل المهتاج. ووجدتني أقول إنها إشاعات يبثها الخرعون ويقبلها الراغبون في التهرب من العمل. كما وجدتني أحكي على الاتفاق الدولي وضمانات الدول العظمى. حكيي ذاته نبّهني إلى أني أكرّر ما رفضته حين حكاه المدير. فوجدتني أصمتُ وأنا محتار. والزميل الذي فاجأه اهتياجي بدا متفهماً ردّ فعلي وتوخى إقناعي. الأنباء أكدها متحدثون رسميون وأذاعتها محطات الإذاعة والتلفزيون. والمتحدث باسم حكومة إسرائيل قال إن جيشها داخل لتطهير المدينة ممن سمّاهم المخرّبين الفلسطينيين الذين بقوا فيها.

بعد هذا، جاءت لبنى ومعها، إلى الأنباء، حصيلة ما شاهدته وهي عائدة إلى المركز بعد أن ودعت سامر. محلات المدينة أقفلت أبوابها، والناس هرعوا إلى منازلهم، والشوارع صارت شبه خالية.

وما أكثر ما توالى من الأنباء التي صرتُ أحملها على محمل الجد الشديد! وما هي إلا ساعة أو أقل من ساعة حتى شرعت القوات الإسرائيلية في اجتياز الخطوط التي سبق أن أوقفت عندها أثناء الحصار، ثم لم يلبث أن شرعت في اجتياح المناطق المأهولة، منطقة إثر أخرى دون مقاومة تذكر. لم يطل اضطرابنا إزاء هذا التطور البغيض، أو لأقل إنه لم يكن لدينا وقت للاضطراب. فسحة الوقت المتاحة قبل أن يبلغ المجتاحون شارعنا لن تزيد عن ساعتين أو ساعتين ونصف الساعة. ضيقُ الوقت عنى أن نُسابق جريان الثواني والدقائق لنجلي كلّ ما يمكن أن يستفيد منه العدو لإيذائنا أو إيذاء سوانا. ولما بدا من المعتذر إخلاء كل ما ينبغي إخلاؤه، خصوصاً أننا لم نعرف بدّقة متى يصلون، فقد وضعنا على عجل قائمة بالأولويات، وبدأنا بإخلاء ما له أهمية استثنائية مما يمكن نقله إلى سيارة المدير وسيارات الزملاء. وفي غضون ذلك، اتفقنا على سبل اتصالنا بعضنا ببعض بعد أن نتفرق. ولإنجاز أقصى ما يمكن إنجازه، بقينا غادين رائحين بين طوابق مبنى المعهد الستة وبين السيارات الواقفة في الشارع، إلى أن علمنا أن طلائع الآليات الإسرائيلية بلغت منطقة الروشة فصارت على بعد مئات الأمتار فقط من معهدنا. وقتها، صدرت التعليمات بالتفرق في اتجاهات شتى، وصار على كلّ واحد

منّا ان يتدبر امر نجاته بنفسه.

لم افكر في مصيري الشخصي بينما كنتُ منهمكاً في عملية الإخلاء، فكرتُ فيه منذ وجدتُ نفسي في الشارع وحيداً بعد ان تقرر ان نغادر منطقة المعهد فُرادى. لم يكن وارداً أن اذهب إلى الشقة التي تقع في شارع المعهد ذاته. فأين أذهب في المدينة التي يحتلها أعداءٌ من شتى الأصناف؟ اين يمكن أن أختفي دون أن افقد الصلة بما حولي؟ على من أرمي عبء إيواء فلسطيني اجتاح جيش إسرائيل المدينة ليصطاده هو وأمثاله ويقول إنه اصطاد مخربين؟ ومن الذي سيرحّب بإيوائي في هذا الظرف؟

لم أهتد إلى إجابة. لم يكن الإهتداء إلى إجابة سهلاً. فأسلمتُ نفسي لحركة قدمي. واستحضرتُ مخزون الذاكرة. فتوالت على البال أسماء وحضر مع كل اسم ما يُلجم حاجتي إلى الإثقال على صاحبه. في غضون ذلك، وذلك مما يمكن احتسابه بالدقائق والثواني، احسستني ملاحقاً بهدير آليات عسكرية لا اراها ولا أسمع صوت حركتها ولكني أتخيل شكلها وصوتها كأني واقع في بؤرتهما. إنه الخطر الذي تكتنفك أدواته فتحس بها في داخلك.

فجأة، وكما لا يقع إلا في الحكايات، هتف صوت أنثوي باسمي

فانتشلني من داخلي، فانتبهتُ إلى أني صرت في الشارع المفضي إلى الجريدة غير بعيد عنها. كانت الهاتفة باسمي سيّدة لبنانية ألفتْ أن تكتب للجريدة مقالات تُوقعها بإسم مستعار، وكثيراً ما التقيتُ بها هناك. جاءت السيّدة لتسلّم مقالاً، فعرفتْ ما جرى، فأبقاها الفضول في مقرّ الجريدة لتتابع الأنباء، إلى أن اقترب الغزاة، فتعجلت العودة إلى منزلها. ولقاء الصدفة هذا هو الذي وفّر لي المأوى المطلوب. والسيدة التي تقيم مع شقيقة لها في شقة قريبة هي التي قدّمت العرض: "لا ينفعك أن تبقى في الشوارع، ولا يجوز أن تُقيم حيث يعرف الناس من أنت، فلم لا تجيء إلى شقتنا".

امسكتُ بطوق النجاة، وسرتُ مع التي قدّمته لي: فلما أشرفنا على بناية ذات شهرة وقالت هي إن الشقة فيها، فقد نبت تحفظٌ لا مجال لإغفاله. ففي هذه البناية، سكن عدد من الفلسطينيين ممن كان لبعضهم بعض الشهرة. صحيح أن هؤلاء رُحلّوا مع المرحلين، غير أن التجائي إلى بناية لم تخلُ من فلسطينييها إلا للتو فيه مخاطرة. قلتُ هذا للسيدة نجاة، معتزماً النكوص. غير أن التي بدت شديدة الحرص على توفير ملجأ لي لم توافقني الرأي. وحين شرعتُ أنا في محاججتها، قالت هي دون أن تتوقف عن المشي: "لن نتناقش في الشارع. نذهب إلى الشقة، وهناك نُناقش حجتّك"!

وجودي في قعدة مريحة بعد الهيام في الشوارع، وترحيب لورا، اخت نجاة، بي واريحيتها الظاهرة التي تضاهي اريحية نجاة، والنقاش الذي اجريناه على مائدة غداء أعدّ وقُدّم بأناقة. هذا كلّه أذن للمنطق الذي استندت إليه نجاة ولورا بأن يصوغ قراري بدل ان تصوغه هواجسي. لن يخطر ببال اي جهة تستهدف فلسطينياً مثلي مطلوباً لها أن هذا الفلسطيني مختبئ في هذه البناية بالذات. والأختان لا تشكان في أن الذين ليسوا من هذه الناحية، الذين تقصّوا أحوال كلّ فلسطيني بقي في المدينة قد تأكدوا من أن البناية خلت من فلسطينييها، وهؤلاء هم من ستقول إسرائيل على معلوماتهم. ثم من هو الإسرائيلي الذي سيخطر له اني، أنا المسلم، مختبئ في شقة سيدتين مسيحيتين، او ان سيدتين لا رجال معهما تؤويان رجلاً غريباً عنهما.

من الذي قال إن أفضل وسائل التخفي هو عدم التخفي. إذا احتجت إلى الاختباء فآمن المخابئ هو المكان الذي لا يتوقع احد أن تلجأ إليه.

مكوثي مع الأختين اتاح لي أن أعرف عن حياتهما الشخصية ما كنتُ أجهله. فنجاة البعبيني هو الإسم المستعار الذي تُوقع به منقذتي مقالاتها ويعرفها به غير القريبين منها. والأختان تنتميان لأسرة

تعيش في شطر بيروت الذي يعيش فيه المتعاونون مع إسرائيل. استأجرت نجاة هذه الشقة منذ التحقت بالجامعة الأميركية قبل سنوات كثيرة. وانضمت لورا إلى أختها بعد سنتين حين التحقت هي الأخرى بالجامعة ذاتها. حدث هذا قبل أن تنقسم بيروت إلى شطرين متنابذين. وبقيت الأختان في شقتهما بعد أن تمايز الشطران بتأثير الإيقاع المدمر للحرب الأهلية. اختارت الأختان البقاء لأن احتكاكهما بالأوساط اليسارية في الجامعة وضعهما على خط العداء للجانب الذي انحدرتا منه، ولأن كلاً منهما وجدت عملاً في غرب بيروت. وبمضي الوقت، الوقت الذي بلغ ثمانية أعوام منذ تخرجت لورا، عشرة أعوام منذ تخرجت نجاة، وهنث صلةُ الأختين بالشطر الذي جاءتا منه، وتعزّز حضورهما في الشطر الآخر.

من نافذة شقة نجاة ولورا، شهدتُ بأم العين احتلال جنود إسرائيل المنطقة، وتسنى لي أن اسمع خبطات أقدامهم وأرى حتى حدقات العيون، وهم يسيرون في الشارع بخطوات محاذرة، وبنادقهم مشرعة والأصابع على كلّ زناد. وفي هذه الشقة، أمضيتُ الفترة التي قضاها جيش إسرائيل في المدينة. ولما لم يكن من المناسب أن أسير في الشوارع إلا لضرورة لا غنى عنها، فإن جل حركتي انحصر داخل الشقة أو داخل البناية. وسرعان ما اكتشفتُ أن في البناية بعض من

أعرف. فالسبب الذي حملني إلى الركون لمخبئي في هذه البناية حمل آخرين إلى الاختباء فيها. وهكذا، تشكلت جماعة محاصرة في بناية، فانضاف هذا الحصار إلى الحصار الذي أحاط بالمدينة من خارجها والحصارات التي نشأت في داخلها. مع هذا، كان على الحياة أن تستمر، حتى لو تراكم مائة حصار بعضها داخل بعض.

ولم يلبث أن اكتشفنا أن مخابرات جيش الاحتلال استولت على فيلا تكاد تكون قصراً تُطلّ شقتنا على حديقته، فجعلتها مقراً لعمل قادتها وإقامتهم في بيروت. كان مالكو الفيلا قد أخلوها منذ بدأت الحرب، فاختارتها المخابرات الإسرائيلية مقراً رئيساً لها في المدينة. ولم نشك في أن مخابرات لها الشهرة التي لمخابرات إسرائيل لم تختر هذا المكان إلا بعد أن تقصت أحوال محيطه واطمأنت إلى خلو البناية المطلّة عليه من قاطنيها الفلسطينيين. فزاد اطمئناننا نحن. وحين بلغني أن المخابرات الإسرائيلية سألت عني في الشقة التي أخليتها، ظفرنا بموضوع جديد نتندّر به: أنا موجود حيث يمكن أن أراهم بالعين المجردة، وهم يبحثون عني في مكان آخر بعيد.

زيادة في التحوط، وإمعانا في ابتكار وسائل لتزجيه الوقت الطويل، رسمنا خطة لسلوكنا لنظهر بمظهر خليي البال المولعين بالمتع. فكنا نجلس ثلاثتنا، وحدنا، أو مع من يزورونا من قاطني البناية، على

شرفة الشقة مقابل ناس المخابرات الإسرائيليين، ونتصرف في نحو يُعزّز اطمئنانهم إلى أننا من العابثين. كنا نهذر بأصوات مرتفعة، أو نتصايح، مفتعلين جدلاً حول مسائل تافهة. وكنا نخفض أصواتنا فجأة ليبدو لهم أننا نتهامس، ثم نطلق ضحكات ماجنة ونتدافع بالأيدي كأن واحدنا ينفي عن نفسه تهمة فاجرة رماه بها آخرون. وكنا نلعبُ الورق، متحلقين حول زجاجات كحول، ونتشاجر. ولم يكن في وارد من يشهد ما نفعل أن يتصور أننا مستغرقون في أيِّ همّ عام.

وبمساعدة نجاة ولورا وأخريات كُنّ يتطوعن للمساعدة حين تنشغل الأختان، امكن ان اظل على صلة بمن احتاج الاتصال بهم. وامكن، إلى هذا، ان التقي من تنشأ ضرورة للالتقاء به. ففي مساحة ليست شاسعة الاتساع تتوسطها البناية التي اختبأت فيها، وُجدت ثلاثة مراكز أحتاج للاتصال بمن يؤمونها: فندق فينر هاوس الذي يتجمع فيه صحافيون عرب او اجانب لا يعادون الفلسطينيين؛ وفندق الكومودور الذي انضم إلى رواده من الصحافيين الأجانب المنحازين لإسرائيل صحافيون إسرائيليون كثيرون، وفدوا إلى المدينة بحماية الجيش الذي اجتاحها؛ ومطعم أبي ريم مجمع خلاّني ممن لم يُضطروا إلى الاختباء. وهكذا، امكن ان أنظم اتصالات مع من احتاج

إليه من الصحافيين، ومع ريم، ولبنى، وجانيت، ومع الأستاذ عوني ومن احتجت إليهم من زملاء العمل الآخرين، ابث ما اريد، واتبادل الراي، وأتلقى الأنباء التي لا تنشرها وسائل الإعلام، واظل في الصورة، كما كنتُ في كل وقت.

أول مجازفة للخروج بنفسي من البناية أقدمتُ عليها لألتقي جانيت. وصلتني رسالة من التي يبيح لها شعرها الأشقر وعيناها الزرقاوان وجواز سفرها الأميركي حرية الحركة، فخففتُ إلى شقتها التي خبّات هي لبنى فيها، اي حيث طلبتْ أن نلتقي ثلاثتنا. وفي سيري نحو الشقة، تقدمتني نجاة لتستكشف الطريق وتقودني عليه. ومن جانيت، عرفتُ تفاصيل ما كانت وسائل الإعلام قد بثت موجزاً لها: قصة النهب الشامل الذي تعرض له معهدنا. وحدةٌ عسكرية إسرائيلية داهمت المعهد، وخمسٌ واربعون شاحنة اصطفت في الشارع والشوارع المتصلة به. حملة عسكرية قادها ضباط ذوو رتب معتبرة ورافقها مدنيون ذوو اختصاص نهبت محتويات الطوابق الستة وحمّلتها في الشاحنات التي نقلتها إلى إسرائيل. الذين شهدوا عملية النهب من شرفات المنازل المحيطة ونوافذها رأوا كتُباً، وملفات وثائق، وأدوات طباعة، ومكاتب عمل وأدواتها، ومكائن تصوير للوثائق، وما إلى ذلك مما يمكن أن يوجد في أي معهد محترم

للدراسات، وبضمنه مصابيح إضاءة، ولفائف أوراق، وسلالُ مهملات، وأدوات تنظيف، ولم يروا غير هذا. أما الناطق بإسم الجيش الإسرائيلي فأعلن أن وحدات خاصة من جيشه داهمت وكراً كبيراً للمخرّبين الفلسطينيين يتستر بيافطة تقول إنه معهد دراسات، وأنها اعتقلت المختبئين في هذا الوكر. الناطق ذاته قال إن مداهمي الوكر عثروا على كميات كبيرة من الأسلحة والمتفجرات، كما عثروا على خرائط عسكرية وملفات تحوي معلومات استخبارية عن قرى إسرائيل ومدنها ومنشآتها الصناعية.

ما جرى وما قيل استفزّا جانيت، قالت هي، فهرعت إلى المكان فيما عملية النهب في إبّانها. هناك، حاججت جانيت الضابط الذي يقود عملية النهب، استحضرت ما قاله الإسرائيليون أنفسهم حين زعموا أنهم اجتاحوا عاصمة دولة مستقلة ليلقوا القبض على إرهابيين مسلحين مختبئين فيها، وأشارت إلى ما يجري في وضح النهار، فهم يطوّقون معهد دراسات مشهور ويشحنون ما يتعذّرُ احتسابه في أدوات أيّ قتال من أيّ نوع: "هذا مكان يعمل فيه ويزوره ناس شُغلهم القراءة والكتابة والبحث العلمي، وهو يخدم الفلسطينيين وغيرهم". قالت الصحافية المستفزّة هذا للضابط المتغطرس، وتحدته أن يُريها شيئاً واحداً في أيّ شاحنة مما يُمكن استخدامه

للقتال.

تجاهل الضابط التحدّي، وطلب من الصحافية أن تريه بطاقتها مرة اخرى، فأعطته جانيت البطاقة ومعها جواز سفرها الأميركي. وسجّل هو شيئاً في دفتر ملاحظات استلّه من جيب سترته العسكرية، ثم قال لها: "إذاً، فقد خدعوك، كيف تصدقين أن بين هؤلاء المخربين من يقرأ أو يكتب. أنت اميركية، فلماذا لا تصدقينا نحن الذين نقاوم الإرهاب من أجلكم كما من أجلنا". وبعد هذا، كفّ الضابط عن الاهتمام بجانيت وأبى أن يُصغي إلى أي سؤال منها.

اتصلت جانيت بالسفارة الأميركية، فدعوها إلى أن تجيء إليهم على الفور. وهناك، فوجئت المشحونة بحنقها بأن دبلوماسياً ذا شأن هو الذي استقبلها، واكتشفت أن السفارة صارت على علم بما فعلته هي أمام معهدنا. وبدل أن يستمع الدبلوماسي إلى ملاحظات مواطنته الصحافية، أرغمها هو على الاستماع إليه: "هواجس الصحافيين لا تشغلنا. حلفاؤنا هنا في مهمة للدفاع عن النفس، ولا بدّ لهم من أدائها، لن يمكثوا في عاصمة لبنان طويلاً، هي مسألة أسابيع يُنهون خلالها عملية ضرورية لأمن إسرائيل. في كل عملية تقع أخطاء، نحن نحكم بناءً على الجوهر. وجوهر الأمر أن ما يفعلونه ضروريٌ ومفيدٌ لنا". أوجز الدبلوماسي الموقف، ثم حذر جانيت: "أقول هذا لك شخصياً

لكي تفهمي ما يجب فهمه وليس للنشر. إذا نشرتِ أيّ شيء على لساني أو ذكرتِ أني أنا الذي قابلك فسيصدر عن سفارتنا التكذيبُ اللازم". وبعد هذا، وجّه الدبلوماسي المعتبر الصحافية كي تذهب إلى مكتب الملحق الإعلامي في السفارة: "سيزودونك بما تستطيعين نشره إن شئت نشر شيء، أقول: إن شئت، فتذكّري هذا، لأننا لا نرغم أحداً إرغاماً".

لم تكبدني جانيت مجازفة الخروج من مخبئي لكي تحكي هذا الذي حكته، فقط، بل لكي تعرض، أيضاً، هواجس جادّة تشكلت لديها عبر إشارات كثيرة تواترت أمامها، إن بدت متفرقة، فقد كان لها دلالةٌ موحدة: ""الوقت أمامهم ضيّق، وأنا أخشى أن تحدث أشياء فظيعة، أفظع من نهب معهدكم". بدأت جانيت بهذا، فأدركتُ أننا مقبلون على حديث يقتضي مني أتمّ التركيز، فعرضتُ أن أعدّ قهوة لنا نحن الثلاثة. ويبدو أن عرضي ذكّر جانيت بعرضي المماثل في تلك الزيارة السابقة، الوحيدة، لشقتها، فقد نهضت وهي تبتسم، وقالت وهي تتوجه إلى المطبخ إنها هي التي ستعدّ القهوة. لبنى التي بقيت صامتة كل الوقت اغتنمت فرصة خروج جانيت من الحجرة التي ضمتنا وقالت على عجل: "صاحبتنا قطعت للبريطاني بطاقة سفر لاتجاه واحد، أنهت علاقة العمل وأفهمته أن لديها ما يشغلها عنه،

فهل تفهم انت، او أن عليّ ان ازقّها في حلقومك". فهمتُ بالطبع. لكني لم أتمكن من قول شيء. فجانيت رجعت إلى الحجرة لتطلب مني ان اصحبها إلى المطبخ، وكان لديها هي الأخرى ما تقوله لي دون أن تسمعه لبنى: "صاحبتنا حزينة لأنها تركت سامر يسافر. هي لا تقر بأنها تحبّه، غير أنها، أقول لك ما ألاحظه، تفتقده، إنها فخورة بقدرتها على أن تظل مستقلة، وهناك مسألة وفائها لذكرى الزوج الشهيد، لكن هذا يكلّفها كثيراً. فهل فهمتني"؟ ولم أتمكن من الإجابة، لأن لبنى انضمت إلينا وقالت إنها هي الأخرى تريد المساعدة في إعداد القهوة.

مع القهوة، أصغيتُ لجانيت. وكان ما عرضته هذه الصديقة وقائع شهدتها او أحاديث سمعتها أثناء متابعتها التطورات ولقاءاتها مع شتى الصحافيين، وبضمهم صحافيون إسرائيليون. استوقف جانيت، بينما كانت هواجسها في قيد التشكل، ما قاله لها صحافي إسرائيلي يتودد إليها هي الأميركية التي لا يعرف هو طبيعة صلتها بالفلسطينيين. فهذا الذي كان يجتذب جانيت بأن يحكي لها ما يعرفه ويخصّها بالأسرار قال لها مؤخراً: "هناك شيء يُطبخ ضدّ مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في بيروت. ووزير الدفاع الإسرائيلي موجود هنا بنفسه، وهو يتردد على مرصد مراقبة أنشأه

جيشه على سطح بناية تُرى منه منطقة مخيمي صبرا وشاتيلا بكاملها، ويختلي هناك بكثيرين". وكان من راي جانيت الذي أوجز هواجسها أن ترحيل المقاتلين الفلسطينيين أبقى المخيمات دون حماية: " وهذا هو الوقت الملائم لمن تُحركّهم شهوة الدم والانتقام".

من جانبي، بمساعدة لبنى وجانيت من جهة ونجاة ولورا من جهة اخرى، أبلغتُ ما عرفته وما استخلصته إلى الأستاذ عوني، بأمل أن يكون هو على صلة بمن يُبلغ هواجسنا إلى القائد العام، كما أبلغته إلى صحافيين منتقيين من المقيمين في فينرهاوس والكومودور، وإلى ريم في المطعم، وشدّدتُ على توصيةٍ وجّهتُها إلى الجميع: "ركّزوا انتباهكم على ما يُعدُّ للمخيمات"!

في مساء اليوم ذاته الذي لقيتُها في صباحه، جاءت جانيت بنفسها إلى حيث أختبيء، جاءت دون إخطار مسبق، لأن ما عرفته لا يحتمل التأجيل. تواترت منذ أول المساء بإيقاع سريع ظواهر غريبة: ففي الكومودور، عرفوا أن وزير دفاع إسرائيل الموجود في المرصد المطل على صبرا وشتيلا لم يغادر هذا المرصد منذ الصباح؛ وفي فينرهاوس كما في الكومودور، تداولوا قصة امرأة فلسطينية ظهرت في شارع الحمراء بالذات، وهي في حالة هستيريا مروّعة، وراحت تُقدّ ثيابها وتمعطُ شعرها وتخبطُ وجهها براحتيها وتُردّد وهي تبكي

وتُعول: "إنهم يذبحون الناس في صبرا وشتيلا". وفي المطعم، علمت ريم أن الجنود الإسرائيليين يُطوّقون منطقة المخيمين بإحكام شديد، وأنهم يحظرون على سكان المنطقة مغادرتها،ويُلقون القبض على من يفلتون منها ويسوقون هؤلاء إلى معتزل أقاموه في المدينة الرياضية المجاورة وأحاطوه بحراسة مشددة. وقد جاء إلى المطعم دبلوماسي مصري شاب من معارف ريم وحكى لها حكاية وقعت له هو. فهذا الشاب مرّ بسيارته في الشارع المحاذي لمخيم شاتيلا من جهة بوابته الرئيسية، فاستوقفه محرسٌ إسرائيلي قائم إزاء البوابة، محرسٌ لم يره هو من قبل. ولمّا أبرز الشاب بطاقته الدبلوماسية، فإن جنود المحرس احتاروا في أمره فأخذوه إلى ضابطهم الرابض تحت شجرة بلصق البوابة من خارجها. وهناك، استمع المصريّ الفطن إلى الحوار الذي دار بالعبرية، متجنباً أن يبدر منه ما يشي بأنه يعرف هذه اللغة. جرى الحوار بإيقاع تراوح بين الهمس والجهر، وكان في الحالتين متوتراً، وكانت الجمل التي تبادلها الضابط مع جنوده قصيرة. وبهذا، التقط المصريّ المعنى الإجمالي للحوار، في حين غابت عنه تفاصيل كثيرة. أما حين بدا أن ما يقوله الجنود أحنق ضابطهم، فإن صوت الضابط بلغ ذروة الحدّة: "يُخيفكم مصريٌ أبله، تظنون أنه حزر ما يجري، أنظروا إلى هذه الملامح، هل تدلّ على شيء سوى الغباء"! فأسقط في يد الجنود، وانصرفوا برمين.

وبطرف حذائه، هو الذي بقي مسنداً ظهره إلى جذع الشجرة، وليس بلسانه أو حتى بيده، أشار الضابط إلى المصري كي ينصرف هو الآخر.

وحين طلبت من جانيت أن تتوجه إلى الكومودور، وتبث هذه الأخبار على أوسع نطاق بين الصحافيين، قالت هي إنها كانت هناك، بالفعل، ووجدت أن الموجودين في بهو الفندق يتداولون هذه وغيرها من الأخبار المماثلة، فيتلقاها معظمهم باستهتار ويبحث قليلون عن مصادر رسمية ذات صلة لتؤكدها أو تنفيها.

في اليوم التالي، في ضحى اليوم التالي وليس قبل ذلك، بث الأثير نبأ الحدث المرّوع. أبلغت النبأ إلى سمع العالم رسالة صحافية من مراسل إذاعة لندن في بيروت، قال المراسل البريطاني إن شيئاً غامضاً يُخشى ان يكون مجزرةً يجري منذ يومين في مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين في بيروت. ثم لم يلبث أن توالت الأنباء واتضح ما كان غامضاً: شهوة الدم أحدثت مجزرة فتكت بأرواح سكان صبرا وشاتيلا، صغارهم وكبارهم، إناثهم وذكورهم، الفلسطينيين منهم واللبنانيين والعرب الآخرين، دون تمييز. وفاضت صور الضحايا: الذين ذُبحوا ذبحاً بالسكاكين، والذين قُطّعت أوصالهم بالبلطات أو حُطّمت عظامهم بالفؤوس، والذين افلتوا من بين أيدي

مداهميهم، فأطلق هؤلاء عليهم رصاص مسدساتهم وبنادقهم قبل أن يستخدموا البلطات للفتك بالجرحى والفؤوس للتمثيل بجثامين من فارقوا الحياة.

إذاعة نبأ المجزرة بلبل مُعدّيها. توخى هؤلاء أن يتمّ كل شيء بهدوء، حتى لا يتدخل أحد قبل أن يستكملوا إبادة سكان المخيمين ليصيروا عبرة تبثّ الرعب في المخيمات الأخرى وتحمل ناسها إلى الفرار من لبنان. لكن الضجيج الذي فجرّه النبأ على امتداد قارات الأرض داهم المنهمكين في ذبح الناس بدم بارد مداهمة فأرغمهم، في نهاية المطاف، على التوقف، بعد أن فتكوا ببشر قُدّر عددهم بالألوف.

جاءت جانيت إليّ، سيرحل الإسرائيليون عن بيروت، يتداول الصحافيون نبأ اقتراب رحيلهم الذي قد يبدأ ويتمّ في يوم واحد. لم تشأ جانيت أن تنتظر إلى أن يرحلوا، بل صممت على أن تزور منطقة المجزرة للتوّ، وطلبتْ أن أصحبها، قالت: إنها تحتاج إلى وجدوى معها لأكثر من سبب واحد، واكتفتْ بذكر سببين اثنين أدركتْ أنهما سيوهنان رفضي إن رفضتُ: حاجتها هي إليّ أنا بالذات كي أقوّيها إن عجزت عن احتمال ما ستراه، وحاجتها إليّ لتوضيح الأمر إن تعامل معها أحد من ذوي الضحايا على أنها أميركية وحمله اهتياجه

إلى محاولة إيذائها. تمعنت هي في الأمر قبل أن تجيء إلى، واستبعدت أن اتعرض انا لأيّ خطر. فبشيء من الحذر يُمكن أن اجتاز معها، هي الأميركية، حواجز الجيش الإسرائيلي دون أن يدققوا أوراقي، وإذا طلبوا أوراقي فمن هو الجندي الإسرائيلي الذي سيأبه لحامل جواز سفر جزائري حين يمرّ بصحبة صحافية أميركية. وكيف ينشغلون بمرور أحد فيما هم يتلقون اللعنات من كلّ مكان ويتهيأون للانسحاب.

بدا ما قالته جانيت مقنعاً. وكنتُ سأذهب حتى لو انطوى ذهابي على مجازفة كبيرة. احتطنا للأمر. توجهنا إلى المنطقة بسيارة تاكسي. وارتديتُ انا قميصاً مشجراً استعرته من نجاة وبنطلون جينز كان قد ضاق عليّ، أنا الذي زاد وزني بعض الشيء لقلّه الحركة، فصار أقرب للزيّ الذي يُحبّذه الأجانب. وبينما قعدت جانيت بجانب السائق، اتخذتُ أنا قعدةً مستهترةً على المقعد الخلفي، كما يمكن لصحافيّ غير مأخوذ بأيّ مأساة أن يفعل. واتفقنا على أن تحادث جانيت الجنود كلما إحتاج الأمر إلى تبادل الكلام واظل أنا صامتاً، أو أجيب بالإنجليزية باقتضاب إذا وُجه لي سؤال لا بد من أن أجيب أنا بالذات عليه.

هذه الاحتياطات كلّها لم يكن لها لزوم. فالسيارة مضت بنا دون

عوائق. والحواجز الإسرائيلية لم يكن قد بقي منها على طريقنا إلى المنطقة المنكوبة سوى حاجز واحد تجمّع جنوده خلف متاريس أقيمت لحمايتهم، وبرز منهم واحد فقط، ألقى على السيارة نظرة عجلى ثم أشار علينا بالمتابعة. وفي محيط المنطقة، واجهنا حاجزُ شرطة لبناني بدا لنا أن رجاله وصلوا إليه لتوّهم وكانوا مشغولين باستكمال تنظيمه. ولأن هؤلاء قدّروا أننا، كلينا، أجنبيان، فإنهم منحونا ابتسامات متوددة وتلويحات أيدٍ مرحةً، ولم يوقفوا السيارة.

في المنطقة التي شهدت المجزرة، أحاط بنا شميم، إن لم يكن مصدره مرئياً فقد كانت له كثافةٌ تُحسُّ ثقلها على جسدك وروحك معاً. إنه شميمُ الموت الجماعي، الشميم الذي خبرته حين كنت طفلاً وظل يتجدد مع كل مجزرة قُدّر لي أن أشهدها خلال حياتي. أدرك أن عليّ أن أصف ما عاينت، وأن أصف، خصوصاً، ما شعرتُ به. لكني أقرّ: إني عاجز عن إيجاد العبارات التي تستوفي الوصف. نعم، أنا عاجز. كثيرون تحدثوا، كثيرون كتبوا، آخرون رسموا أو ألفوا موسيقى أو غنوا أغاني، شهود عيان، ناجون نجوا بالصدفة، صحافيون وكتّاب وفنانون، من خفّوا من هؤلاء إلى المكان بعد أن انفتح الطريق إليه، ومن زاروه قبل أن تُنحى الآثار المدماة، ومن جاءوا بعد هذا أو سمعوا ممن سبقوهم، الذين أتوا للصلاة على أرواح

الضحايا، أو لتقصي الحقائق، أو لتمويهها، والذين أتوا للتأكد من مصائر أعزاء كانوا في المكان. وما صدر عن هؤلاء، كلّه أو كثير منه وجد طريقه إلى الجمهور الذي يقرأ أو يسمع الإذاعات أو يشاهد ما يُعرض على الشاشات. وهذا الذي أنتشر في كل مكان على الأرض أحدث تأثيره. وإزاء انحطاط الذين هبطوا تحت مستوى الوحوش، أوقد السخطُ على الجزارين أرفع المشاعر الإنسانية.

ولأن الضارة قد تنطوي على نافعة، فإن موجة السخط غير المسبوقة ضد الدولة المعتدية والمتعاونين معها في لبنان لجمت تنفيذ اتفاق هذين الطرفين على استهداف المخيمات الأخرى، أو إنها، في الحدّ الأدنى، أجّلت التنفيذ، وأطلقت موجة ضغط على مجتاحي بيروت أرغمتهم على التعجيل في الانسحاب منها. وبهذا، استعدنا معهدنا. والأصح أن أقول إننا استعدنا مبنى المعهد الذي لم يُبق فيه ناهبوه حتى لفائف ورق النظافة. وبالهمّة التي شحذتها المأساةُ المستنكرة من قبل العالم بأسره، بروح التحدي التي أججها السخطُ على الجريمة، لم نيأس حتى ونحن نعاين الخواء الذي أبقاه الناهبون، بل اتخذنا القرار: سنعيد إنشاء معهد دراساتنا، حتى وقد توجّب علينا أن نبدأ مما صار أقرب إلى خانة الصفر.

ما أكثر ما يُمكن أن يصنعه إنسان واحد حين تسكنهُ روح التحدي!

واكثر منه بكثير، واعظم منه، ما يصنعه فريق من الناس حين يُصمم على العمل وهو مسكون بالروح ذاتها!

فور انسحاب الغزاة من المدينة، خففنا كلنا إلى مبنى المعهد. لم يدعُ احد احداً إلى المجيء. مع هذا، لم يتخلّف أحد. وفي الخواء الذي يدفع أعتى الصابرين إلى إشهار يأسه، لم يقلْ أحدٌ إن علينا أن نستسلم للأمر الواقع. جاء قرارُ إعادة تأسيس المعهد جماعياً. لم يُعارض احدٌ، ولم يمتنع أحدٌ عن إبداء رايه. وفي جهود ينذُر أن ينتظم مثلها إلا في خليّة نحل في موسم الإخصاب، راح فراغ الطوابق الستة يمتلئ أولاً بأول، بالأثاث، والأدوات، والمكاتب، والكتب، والوثائق، وبكل ما هو لازم للعمل، بالمماثل لما كان في المعهد قبل أن يُنهب، وبما هو احدث، ايضاً. تعافى المعهد واخذ يستعيد ألقه ويستقطب جهود نُشطاء العمل العام من الفلسطينيين الموجودين في المدينة، وليس من الدارسين وحدهم.

وبينما نحن منهمكون في ما تجنّدنا له، حلّ شقيقُ الرئيس المصروع محلّ أخيه رئيساً للدولة، وباشر الفريق المتعاون مع إسرائيل بسط نفوذه على مؤسسات الدولة، خصوصاً المؤسسات الأمنية. جرى هذا بالتي هي أحسن كما بالتي هي اسوا، خصوصاً التي هي اسوا. وتضافرت جهودُ أعوان إسرائيل اللبنانيين، والمسدسات المزوّدة

بكواتم الصوت، والأخرى التي بلا كواتم، والسيارات الملغمة، وآليات جيش البلد والجيش الغازي الذي لم يبتعد كثيراً عن محيط المدينة، تضافر هذا كلّه في جوقة شيطانية بثت الرعب في المدينة وبلبلت حياة ساكنيها.

في مقابل هذا، راحت القوى المعارضة تُعيد بناء ذاتها، في السرّ كما في العلن، بالوسائل التقليدية المجرّبة والوسائل الأخرى المبتكرة، بما يتواءم مع ما استجد. والمقاومة التي نظمها اللبنانيّون ضد الاحتلال، هذه التي تجسدت في عمليات متفرقة منذ كان الإسرائيليون في بيروت، تجذرّت، واتسعت، وردفها فلسطينيون كثيرون، وأشتد تواتر عملياتها كما اشتدت فعاليتها. والنشاط السياسي والثقافي والاجتماعي ضد المتعاونين مع إسرائيل أربك مخططات هؤلاء، وزعزع ثقتهم بأنهم قادرون على تطويع البلد كله لمشيئهم، وأظهر أن سلطتهم لن تدوم، فجرأ مزيداً من الناس عليهم.

هذه التطورات جعلت معهدنا وجهدنا لاستعادة دوره في بؤرة الاهتمام. وما صار على المحك هي مكانة الفلسطينيين في البلد والدور الذي يمكن أو لا يمكن أن يلعبوه فيه. اهتم بنا المتطلّعون إلى دور يلعبه الفلسطينيون في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، كما اهتمّ بنا المتعاونون مع إسرائيل ومن يلفّون لفهم. وفوق هؤلاء وهؤلاء،

اهتم بنا الإسرائيليون الذين يسوؤهم أن يستعيد الفلسطينيون مكانتهم ودورهم، أو أن يصير لهم أيُّ دور أو أيّ مكانة. انشغالنا في عملية إعادة بناء المعهد وما يقترن بها أو ينجم منها أحدث تأثيره الإيجابي على العلاقات الشخصية بين العاملين في المعهد ونحىّ الحزازات والضغائن السابقة. وفي السياق، كفَّ الأستاذ عوني عن مناوئة لبنى، كظم العاشق المصدود حنقه العتيق، وركّز انتباهه على مزايا المنهمكة في العمل، وصار لا يتردد حتى في التنويه بما تُنجزه. ولم يعترض الأستاذ عوني على سفر لبنى المتواتر إلى البلاد التي رُحّل المقاتلون الفلسطينيون إليها لتجمع شهادات قادتهم عن مواجهة الحصار، بل صار يحثّها على السفر كلما تصور أنها غير راغبة فيه أو متهيّبة من طلب إذن سفر جديد.

جانيت التي أثبتت جدارتها صحافية ممارسة وحظيت من الصحف اللبنانية باهتمام أوسع، صارت تتواجد في معهدنا، حتى كأنها من العاملين فيه. "المعهد بالنسبة لي ليس مصدر معلومات فقط، بل مصدر إلهام أيضاً"؛ قالت جانيت هذا للأستاذ عوني الذي سألها عن سرّ تعلقها بمعهده، وعدّ هو قولها إطراء شخصياً له. وانتهى الأمر بأن عرض مدير المعهد على الصحافية الأميركية، دون تدخل منّي، أن تصير مستشارة لقسم الدراسات الدولية، ووعدت هي أن تفكّر في

العرض.

ريم، هي الأخرى، عملت ما تقدر عليه، واجتذبت صحافيين كثيرين لزيارتنا، وشكلت صلة وصل بيننا وبين من تهيّبوا الاتصال المباشر بنا. ولما كانت قدرتنا على التنقل مقيدة، فإن وجود لبنى وجانيت وريم عوضّ ما خسرناه بسبب هذه القيود. سيّدات ثلاث، متمتعات بالذكاء والحميّة، أردنية وأميركية ولبنانية قادرات على الحركة دون قيود. فأية مزايا. وكم نفعتنا هذه المزايا في زمن القيود والحصارات!

تركز عملي داخل المعهد، وقلّصتُ حركتي خارجه، فقصرتها على التنقل بينه وبين سكني المجاور له. ولم أقم إلا بالزيارات التي توجبها ضرورات قصوى. وفي الغالب، كان المحتاجون إليّ والذين أحتاج أنا إليهم يزورونني في المعهد، كما يزورني الفضوليون. وحين يتعلق الأمر بزيارة تُوجب طبيعتها أن تكون سرّية، كان المعنيّ بالأمر يزورني في شقتي. لم يكن هذا هو وضع من فُرضت عليه إقامة جبرية، لكن كل ما فيه كان يُذكّر بها.

حاجات العمل وثقت صلتي بفلسطيني لاجئ في لبنان هو الدكتور عزيز صابر، أستاذ الجامعة الذي جمعتني به من قبل معرفة لم ترق

آنذاك إلى حدّ الصداقة. ظفر الدكتور عزيز بدرجته العلمية، في علم الاجتماع، من الجامعة الأميركية في بيروت، وعُيّن محاضراً في هذه الجامعة، وكان على صلة عمل أنبتت علاقات صداقة مع ناس من معهدنا. والدكتور عزيز هو الذي اقترح أن نجري دراسة شاملة، ميدانية ونظرية، تتقصى ما وقع في صبرا وشاتيلا: "كتب كثيرون. ونُشرت تقديرات متفاوته لعدد الضحايا. وقُدّمت روايات متعددة. فلِمَ لا تجرون هذه الدراسة فتقدموا الرواية الفلسطينية الموثوقة". قال الدكتور عزيز هذا لي في أول أيام انتظام عملنا في المعهد. وفي حمّى حماسنا للعمل واستعدادنا للمخاطرة، لقي هذا الاقتراح أتمّ القبول، وما أعجل ما شرعنا في تنفيذه!

لم يكن عسيراً أن نجري دراسة نظرية تستند إلى المراجع المتوفرة. أما العسير، فكان إجراء الدراسة الميدانية. فأن تبحث عن المعلومات في ميدان الحدث، أن تنبش تفاصيل مجزرة بحجم مجزرة صبرا وشاتيلا، أن تفعل هذا وأنت الغريب المبغوض، وأن تقوم بالبحث في وقت يهيمن على البلد الذين خططوا للمجزرة والذين نفذوها، وأن تُعِدّ ما يلزم للقيام ببحث ميداني بينما أنت مقيد الحركة ومهدّد بكواتم الصوت والسيارات الملغمة واعتداءات الملثمين، وأن تستخلص الحقيقة وتتمكّن من نشرها، هذا كله كان مما يجوز

احتسابه في المستحيلات. غير أننا كنّا مدفوعين بروح تحدّ غلابة، فكنا نهنأ حين يُوفّر الظرف لنا فرصة جديدة لنشدان المستحيل.

ناقشتُ الأمر مع لبنى فور عودتها من سفرة حملتها إلى بلاد اليمن البعيدة وعادت منها بحزمة شهادات. ثم توسعت حلقة النقاش. وتحمس للمهمة قدماء دارسي المعهد ومستجدوهم. وأفضى الجهد المَتصل إلى وضع الخطط وتنفيذها. وأسهم صاحب الاقتراح في هذا كله. وبين أصعب ما واجهناه كان توفير العدد الكافي من الباحثين الذين سيقومون بجمع المعلومات من الميدان. فالمهمة صعبة. ونحن كنّا مدفوعين إلى إنجاز المسح الميداني في أقصر وقت ممكن، لنتجنب تدخلات توقعناها من قبل من سيسوؤهم بحثنا عن الحقيقة في ميدانها. وما أكثر الذين كانوا من هؤلاء قادرين على إحباط عملنا وإيذاء باحثينا الميدانيين إن تعرفوا عليهم! وفي تمحيصنا للمسالة، قدّرنا أننا بحاجة إلى دزينة من الباحثين الميدانيين، وأن عمل هؤلاء يمكن أن يتم في يومين أو ثلاثة، فقط، إذا أعددناهم له إعداداً جيداً. وهدانا التحوط إلى تجنيد اثنتي عشرة شابة من شابات المخيمات الفلسطينية اللواتي يدرسن علوم النفس والاجتماع والسياسة في الجامعات. ونظمنا للواتي فتنتهنّ الفرصة المتاحة دورةً سرية خاصة لتأهيلهن للمهمة. هنا، في هذا

كله، نفعتنا خبرة الدكتور عزيز وهمته. فهذا الأستاذ المتخصص شارك في انتقاء المندوبات للقيام بالمهمة وأشرف بنفسه على تدريبهن.

هكذا، انصرفت فرق الباحثين المحترفين إلى إعداد الدراسة النظرية بالاعتماد على ما نُشر عن المجزرة بست لغات: العربية، والعبرية، والإنجليزية، والروسية، والفرنسية، والألمانية. وفي غضون ذلك، في إبّانه، جرى تدريب الشابات على اختيار شهود العيان والبحث عن المواد ذات الدلالة وملء الاستمارات الخاصة بالبحث الميداني، ووُضعت خطة المسح الشامل لمنطقة المجزرة. وفيما دورة التأهيل جارية، امتلأت الملفات بالمعلومات، والوثائق والصور، وأوكل كلُّ ملف إلى من يُعنى به. وحين قدّر الدكتور عزيز أن شاباته المتحمسات صرن جاهزات للعمل، انطلقت اثنتا عشرة شابة لا يعرفهن أحد من الذين يعرفون باحثي معهدنا، وتبعهن من كلّفناهم رصد ردود الفعل وتوفير سبل النجاة للشابات إن تعرضن لما قد يُهدد سلامتهن. وفي المنطقة ذاتها، ركنا على من وثقنا بحماسهم للمهمة وقدرتهم على معالجة أيّ طارئ غير مرغوب فيه، ووضعناهم في حال استنفار.

وتتويجاً لجهد اتصل على مدى ستة أسابيع، توفر لنا خلال أيام

البحث الميداني الثلاثة، مائة وعشرة استمارات حوت ما باح به ذوو صلة، كلّهم من شهود العيان. وجلبت الشابات أدلة عثرن عليها في مخيم شاتيلا، وكان بينها، أهمّ ما بينها في واقع الأمر وأفصحه دلالة، بطاقة عسكري إسرائيلي بدا أنه فقدها هناك. هذه الحصيلة التي من الميدان انضافت إلى ما جمعه أو استخلصه الذين أعدّوا البحث النظري، فصار في حوزتنا الرواية الأشمل، والأدق، والأكثر مدعاة للثقة بصدقيتها بين الروايات التي راجت عن ما سماه الإعلام، بحق، مجزرة النصف الثاني من القرن العشرين.

ثمرات هذا الجهد، نظريّة، وميدانيّة، خزّناها في مكان سري آمن. وهناك، تناوب الباحثون الذين ندبناهم لهذه المهمة العمل، ففحصوا هذا الخزين بأناة، وصاغوا ما استخلصوه منه في تقرير عام عرض الوقائع وحدد الأحكام المستخلصة منها. ثم أعددنا، الدكتور عزيز وأنا، تقريراً يوجز التقرير العام ليقرأه من يضيقون بقراءة النصوص الطويلة. وهذا كله، الأبحاث والتقرير العام والآخر الموجز، وجد طريقه إلى القائد العام.

كانت المسرات التي توفرت لنا في ذلك الظرف قليلة، وقصيرة الأجل، وباهته. أما المسّرة التي وفّرها لنا النجاح في إنجاز هذا البحث، فكانت غامرة وساطعة، وهي التي أبقت حماسنا للاستمرار

في العمل ملتهباً. ولا باس في ان اضيف ما أعدّه اعترافاً لا بدّ منه، وهو أن هذا الحماس شكّل اقوى العوامل التي جعلتنا نستهين بالأخطار المحدقة بنا. أعمت هذه العوامل بصائرنا، فلم ندرك طبيعة الواقع غير المسعف الذي تراه أبصارنا. النجاحُ محفزٌ فعال، إذا تحقق في سياق يَعِدُ بمزيد من النجاح. أما النجاح في سياق مغاير، فالويل لمن يغترّ به!

شيء آخر أنجزناه فيما هذا البحث على وشك أن يكتمل. فنحن لم نُغفل أهمية الاستمرار في إصدار نشريات معهدنا التي صنعت شهرته: الكتب، والمجلة الشهرية، والنشرات المتخصصة. ولأن مسؤولية تحرير المجلة أوكلت إليّ، ولأن الظرف لم يكن مسعفاً لإصدارها فوراً فتأخر صدورها، فقد عزمتُ على إصدار عدد مزدوج، ما عنى أن يجيء حجمه مضاعفاً. فاحتجتُ إلى مواد كثيرة، اكثر من المعتاد. كان هذا تحدّياً قبلته. وأمكن في نهاية المطاف أن نهيئ للطبع عدداً لا نخجل منه. ومع أن مطابع كثيرة اعتذرت عن التعامل معنا، فقد وجدنا بين أصحاب المطابع من أمكن إغواءه بما أبديناه من استعداد لدفع أي ثمن يطلبه. وأمكن في نهاية المطاف أن نضيف إلى منجزنا هذا الإنجاز، وأن تتوفر لنا لحظات هناء أخرى.

(13)

تعجلنا نشر عدد مجلتنا الجديد لنعلن بصدوره أننا موجودون وقادرون على العمل في الظرف الذي استجد. وبعد أيام من وصول العدد إلى القراء، طرق باب حجرة مكتبي صحافي لبناني داهمني دون موعد مسبق. وقبل أن يُضيف كلمة واحدة إلى التحية المقتضبة، أخرج الرجلُ من حقيبة يده راديو ترانزستور، ووضعه بيننا، وأدار مفتاحه على محطة تبث موسيقى صاخبة، وبعد هذا، فقط، أجاز لنفسه أن يتكلم. بدا الذي تُظهر هيئته ذلك الاعتداد بالنفس الذي يُعادل الغرور والصلف بأن عرّفني بإسمه وصفته، ثم اوضح انه فعل ما فعل حتى لا اتمكن من تسجيل محادثتنا إن كنت ممن يُسجلون المحادثات مع زوارهم، وقال إنه جاء إلي لأن لديه شيئاً هاماً يحكيه لي، شيئاً لا يجوز تأجيله.

ظننتُ أن زائري سيشرع بعد هذه المقدمة في قول ما جاء ليقوله، وأفصحت عن استعدادي للإصغاء إليه. غير أن المقدمة لم تكن قد انتهت، أو أن الزائر الحذر لم يكن قد اطمأن بعد إلى انه ما من أحد يتنصّتُ علينا: "أنا أسكن في شطر بيروت الذي يُستقبل الإسرائيليون فيه بترحاب، وأعمل في جريدة تصدر هناك". قال زائري هذا وشرع

في تقديم شروح عن الجريدة.

ادركتُ أن الحديث إذا استمر في هذا النحو فسيطول بغير فائدة. فاتجهتُ إلى باب حجرتي، أنا الذي ابقيه في الصيف مفتوحاً وابقي نافذة الشرفة المقابلة له مفتوحة، تلمساً للهواء الطازج وتجنباً لاستخدام مكيف الهواء، ثم شغّلت المكيف الذي لا أطيقه. فعلتُ ما فعلته ليقتنع الزائر بأني اضفتُ بنفسي صوتاً آخر يشوش أيّ تسجيل. وزيادة في تطمين زائري، اتصلتُ بالسكرتيرة، وطلبتُ منها ان لا تُحيل إليّ أيّ مكالمة، وأن لا تأذن لأحد بدخول حجرتي. ثم حثثتُ الصامت الجالس قبالتي: "لك أن تدخل في الموضوع مباشرة، لا تتهيّب"! ولدهشتي، أحنق قولي الزائر. ووشى ردّ فعل هذا المفرط في الحذر بانه وجد في ما قلته تعريضاً بافتقاره إلى الجرأة: "اتهيب منكم؟ تُدهشني قدرةُ الفلسطيني على المكابرة. لماذا لا ترى ما انحدر إليه حالكم في بلدنا". وحنقتُ أنا بدوري لما قاله هو، لكني، بخلافه، كتمتُ حنقي، فرَدُّ فعله جعلني أدرك أن هذا المبغض لم يأت إليّ إلا لأنه يحمل شيئاً خطيراً: "وضعنا أو وضع غيرنا، لا اظن انك جئت إليّ لتجري مقارنة بين أيّ أوضاع، فلماذا لا تدخل في الموضوع"! لحظتها، كان ضجيج مكّيف الهواء الذي بدا صاخباً عند انطلاقه قد خفت، فحرك زائري مفتاح الترانزستور، ورفع صوت

الموسيقى، وبعدها تكلم.

يستقبل منزل هذا الصحافي في شرق بيروت، كما قال هو مسوّغاً المهمة التي جاء من أجل إنفاذها، ناساً من مختلف الأنواع. وقد جاء إلى هذا المنزل في اليوم السابق ضابط مخابرات إسرائيلي من الذين على صلة بفريق رئيس الدولة. ذكر الزائر رتبة الضابط واسمه: المقدّم باراك. وكان هذا إسماً معروفاً تداولته الصحف لمسؤول المخابرات في القوات الإسرائيلية التي غزت لبنان. تحدّث هذا المقدم أمام زوار المنزل كلّهم عن ضيقه بوجود معهدنا الذي يسميه هو وكر المخربين الفلسطينيين، وأفرط في عرض أسباب ضيقه، ثم استأذن الحاضرين أن يختلي بصاحب المنزل. وفي الخلوة، حمّل المقدّم الإسرائيلي الصحافي اللبناني رسالةً شفهية لينقلها إلينا على عجل وحثّه على أن يحفظها عن ظهر قلب: "إذا لم تقفلوا معهدكم بأنفسكم وتتبعوا الذين رُحّلوا عن بيروت قبلكم، فإن المعهد سيُفجّرُ على من فيه، كما سبق أن فُجّرت السفارة العراقية على من فيها".

وكما انتقى زائري كلماته، انتقيتُ أنا الآخر كلمات ردي عليه، وأفرطتُ في اختيار أقلّها تعبيراً عن الانفعال. شكرتُ الرجل على ما سميتُه عناء مجيئه لتحذيرنا، وقلتُ بنبرة تعمدتُ أن توحي بأني أعدّه ناقل رسالة وليس عدوا، إننا ألفنا العمل في ظل تهديدات شتى

من مصادر كثيرة، وإننا نعوّل على الاتفاق الذي ضمنته دول عظمى، كما نعوّل على تفهّم السلطات اللبنانية لرسالة معهدنا العلمية الثقافية، ونثق بأن هذه السلطات التي أولاها الاتفاق مسؤولية أمن المعهد سوف تفعل ما يلزم لحمايتنا.

أردتُ بمناورة الكلام أن أستدرج زائري إلى البوح بما عنده، إن كان عنده مزيد. وختمتُ ردّي بتكرار الشكر، ونوّهت بإحساس الزائر بالواجب، ناسباً قيامه بالمهمة إلى هذا الإحساس.

لم يُؤخذ المعتدّ بنفسه بمناورتي، وأغلب ظني انه لم يدرك أني اناور، ولعله ظن أني ساذج. وهو لم يشأ ان يترك الأمر ملتبساً: "على أيّ شيء تشكرني وتعيد الشكر. جئت لأقول لكم بفصيح العبارة: انقلعوا من البلد! ليس، فقط، لأن الذين ارادوا أن يُحرّرونا منكم يريدون هذا، فنحن أيضاً نريده، والحقّ أننا نريد أكثر، انقلعوا، وإلا فسوف... أنسيت ما جرى لكم في صبرا وشاتيلا"!

افتتاننا بقدرتنا على الثبات جعلنا نستهين بالخطر، حتى بعد الإنذار، لهيب الحماس، ونشوة التحدي، والاعتماد على ما نرسمه نحن وإغفال ما يُرسم لنا، كل ما هو من هذا القبيل الذي يوهن الحذر سيطر على سلوكنا. ولو أن الأمر اختلف، لأدركنا عجزنا عن منع تنفيذ

هذا الإنذار، ولما أمعنا في الحماس والتحدي. صحيح أننا لم نُهمل ما نقله هذا الصحافي. لكننا لم نقرن التفكير به بالتفكير في قدرتنا أو عدم قدرتنا على تجنّب المصير الذي يرسمه لنا الإنذار. مثل هذا التفكير كان سيفضي إلى قرار واحد: إقفال المعهد ومغادرة الجو الملعون، وهذا هو ما تجنبنا التفكير فيه.

استفهمنا عن ناقل الإنذار. وأسعفنا التقصّي الذي أجرته ريم. فتأكد لنا أن الرجل واحد من فريق المتعاونين مع إسرائيل، وأن صلته بالإسرائيليين تتجاوز الشؤون الصحافية. وتمعّنا في دلالة إقدام إسرائيل على توجيه إنذار بنسف المعهد، هي القادرة على نسفه بدون إنذار. ونسبنا توجيه الإنذار إلى الرغبة في إخافتنا وحملنا على الرحيل من تلقاء أنفسنا، لأن إسرائيل، وهي التي عانت من تأثير مجزرة صبرا وشاتيلا على سمعتها، تتردد في ارتكاب جريمة نسف معهد دراسات. وهنا، بالذات، في هذا الاستنتاج الرغبي، ظهر التأثير القاتل لإهمالنا لبّ الموضوع، وهو أن إسرائيل فعلت ما فعلته، في صبرا وشاتيلا وفي غيرهما، وهي تعرف أنه سيسيء إلى سمعتها، ولم تمتنع عن فعله. الافتتان بقدراتنا، وبضمنها القدرة على التحليل الصائب، كان قد تلبسنا وانتهى الأمر، فرحنا نتنبأ بأن إسرائيل ستواصل تخويفنا بوسائل أخرى إن لم ننصع للإنذار، وما علينا إلا

الثبات: "نتخذ ما يمكن اتخاذه من احتياطات السلامة، ونشدّد اليقظة، لكن لا نستسلم". هكذا أوجز الأستاذ عوني ما توصلنا إليه بعد نقاش طويل.

ولما كان على لبنى أن تُسافر لتجلب شهادة القائد العام بشأن الحصار، فإننا قدّمنا موعد سفرها، وصار عليها أن تنقل إلى القائد ما وَصلْنا وما توصلنا نحن إليه وتعود بأعجل ما تستطيع ومعها تعليماته. وفيما نحن في انتظار عودة لبنى، أعدنا تفحص تدابير الحماية التي اتخذناها. فتبين أن التدابير المتخذة داخل المبنى، بدءً من مدخله، محكمةٌ، وأن ناس أمننا المتخفّين، المسؤولين عن هذا الداخل، يقظون ومستعدون لتشديد يقظتهم بعد الإنذار. نقطة الضعف كانت حيث لا سلطة لنا، في الشارع مما يلي المدخل. فالسلطات اللبنانية التي هي المسؤولة عن الحماية خارج المبنى تتولى هذه المهمة ولا تجيز لنا المشاركة فيها. ومن أجل مبنى يؤمه كل يوم عشرات الزوار فضلاً عن عشرات العاملين فيه، خصّصت هذه السلطات جنديين اثنين ليس أكثر، يقيمان حيث يعملان ويتشاركان أو يتناوبان مراقبة الحركة في الشارع. ولم يكن بيدنا أن نحسّن هذا الوضع، ولم تستجب السلطات لطلبنا تحسينه. وكلّ ما استطعنا أن نفعله بعد الإنذار كان ذلك القليل الذي فعلناه سراً: تكليف ناس أمننا

أن يظل واحد منهم خارج المبنى في مكان يرى منه المدخل ولا يُلفت وجوده فيه نظر الجنديين، فيراقب الحركة لينذر زملاءه في الداخل إن رأى ما يُريب.

شيء آخر اهتديث إليه أنا وتبناه الأستاذ عوني: أن نرسل جانيت إلى السفارة الأميركية لتقصّ عليهم حكاية الإنذار. أردنا أن يعرف الأميركيون أننا عرفنا أنهم يعرفون الحكاية، فلعلّ في هذا ما يُحرج دولتهم العظمى، فيزيد حرج إسرائيل التي تصورنا أنها مترددة في الإقدام على تنفيذ إنذارها. نقلت جانيت الرسالة، وجعلث الأمر واضحاً: "طلبوا مني في المعهد الفلسطيني أن أبلغ هذه الحكاية إليكم".

لبنى رجعت بعد ثلاثة أيام فقط ومعها شهادة القائد العام التي سجلتها، وتعليماته. وقد طلب المعنيّ بسلامتنا أن نبدأ على الفور عمل ما يلزم لبناء المقرّ المحصّن، المقرّ الذي نصحنا هو قبل مغادرته بيروت بأن نبنيه. وذكّرتنا تعليمات القائد المجدّدة بما لم نكن قد نسيناه: ألا ننشغل بحساب النفقات.

فكرة بناء مقرّ محصن استهوت الأستاذ عوني هذه المرة، فخصّص جلّ وقته لها، وأوكل جلّ عمل المعهد إليّ. وبحميته التي تتقد كلما

واجه تحدياً. اكتظ وقت مدير المعهد بالمواعيد، مع المهندسين المعماريين، والوسطاء العقاريين، ومقاولي البناء، وخبراء تحصين المباني، فيما انشغلتُ أنا معظم الوقت في العمل الكثير الذي صار أثقل من أن يُمكنني تصريفه دون عناء شديد. ومع انهماكنا في ما انهمكنا فيه، وهن تأثير الهواجس الطارئة التي اقترنت بالإنذار.

في غضون ذلك، تلقت جانيت اتصالاً من السفارة الأميركية، وقيل لها إن مسؤولاً أميركياً رسمياً سيصل إلى بيروت، وأن موعداً قد خُصص لها للالتقاء به. ولما قالت جانيت إنها لم تطلب أيّ موعد، فإن المتصل بها قدّم إيضاحاً: "تحدّد الموعد ليس لأنك صحافية، بل بسبب الرسالة الفلسطينية التي نقلتها أنت إلى السفارة".

سرني أن يتحقق ما قصدته. ولتأكيد المغزى ذاته، أقنعتُ جانيت بأن تُبلغ الحكاية كلها إلى الصحافيين الذين تلتقيهم، وتعممها على أوسع نطاق بين معارفها، وبهذا يتأكد للسفارة أن كثيرين عرفوا أن الأميركيين يعرفون.

ما أسرع ما سيعنّيني بلبال موجع بسبب ما سيقع لجانيت التي اقحمتها أنا في هذه الحكاية! كان بلبال الأميركية الحساسة بشأن انفصام الشخصية قد غاض بعد أن غرقت بكليتها في العمل

الصحافي وبرزت فيه. وكان البريطاني قد كفّ عن المجيء إلى بيروت، لأن المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي للبنان اشتدت وصار ناسها أشدّ يقظة تجاه جواسيس الدول التي تدعم إسرائيل. وكان تعلقنا، جانيت وأنا، واحدنا بالآخر، قد اكتمل، وصرنا نتشاور حول كل شيء، ونتعاون في كل مجال. وكانت جانيت قد اعتذرت عن قبول عرض الأستاذ عوني أن تعمل مستشارةً لمعهدنا، وذلك لأن العمل الصحافي اجتذبها أكثر مما يجتذبها العمل الأكاديمي. غير أن التي ربطت حياتها بالفلسطينيين لم تكفّ عن ما ألفته، وهو ما سمّته هي دور المستشارة المتطوعة ليس للشؤون الدولية وحدها، كما طلب الأستاذ عوني، بل لكلّ شأن.

وحين شاع في الوسط الصحافي أن مسؤولاً في وكالة المخابرات المركزية الأميركية قادم لبيروت، استوقف النبأ جانيت. فالرجل قادم ليرأس اجتماعاً لمسؤولي الوكالة الأميركية في خمس دول، إسرائيل والدول العربية الأربع المحيطة بها. وتوقيت وجود الرجل في بيروت يشمل الوقت الذي حُدّد لجانيت لتلتقي مسؤولاً قادماً من واشنطن. وقد حدست التي شحذت الخبرة قدرتها على الحدس أن الموعد المرتقب سيكون، إذاً، مع مسؤول المخابرات هذا، وتهيأت لمواجهته بما تختزنه من الملاحظات والشكاوى.

ذهبت جانيت إلى اللقاء في الموعد الذي حُدد لها، ودخلت مبنى السفارة وهي في أتم حيوتها، لكنها لم تخرج منه كما دخلته، بل خرجت أشلاء جسدها في صندوق. ولم يعرف أحد منا ما إذا كانت المتطوعة لمساعدتنا قد قابلت الذي واعدها أو لم تقابله، فالذي واعدها ومرؤوسوه الخمسة وآخرون وجدوا حولهم كما وجدت جانيت خرجوا كما خرجت هي، أشلاء ضمتها صناديق.

كان اليوم الذي ذهبت فيه جانيت إلى السفارة الأميركية هو اليوم الذي اختاره المقاومون اللبنانيون لتفجير رجال المخابرات الأميركية المجتمعين فيها. وكان وقت دخول جانيت الجناح الذي انعقد الاجتماع فيه هو الوقت الذي انفجرت فيه سيارة ملغمة أفلح المقاومون في إيصالها إلى أحد جدران المبنى في الجهة التي انعقد فيها هذا الاجتماع. ويبدو أن التي صرعها الانفجار دون أن تكون مستهدفة كانت قد أدخلت إلى هذا الجناح بانتظار الذي سيفرغ من الاجتماع ويتفرغ لها. وهذا هو الجناح الذي دمّره الانفجار تدميراً كاملاً وقضى على كلّ من وجد فيه. نبأ رحيل جانيت أسلمني إلى حالة قلّما عانيتُ مثلها: الطريقة الشنيعة التي صُرعت بها المرأة الأثيرة إلى قلبي؛ والملابسات، خصوصاً هذه الصدف التي شوهت إسمها حين أدرج في قائمة صرعى انفجار ضمت مجموعة من أحطّ

أعداء المقاومة. وقد أنسى أشياء كثيرة، غير أني لن أنسى أن زياد اتصل يومها بي لأول مرة منذ فارقني: لقد تباهى صديقي بأنه كان على حق حين حذرني من أن جانيت جاسوسة أميركية. تباهى بدل أن يعزيني، أنا الذي كنت بحاجة إلى التعزية.

بعد أسابيع ليست كثيرة، فيما أنا، المسكون بالغمّ، منهمك في العمل، وقع ما كانت هواجسنا بشأنه تعتمل في نفوسنا وكنّا نحن نتحايل لتهوين تأثيرها علينا. كنا في يوم سبت. وكان السبت هو اليوم الذي ننصرف فيه من العمل أبكر مما نفعل في أيّ يوم عمل آخر، وذلك لنطيل عطلة نهاية الأسبوع التي تمتد حتى صباح الاثنين. والذين أعدّوا الواقعة أخذوا في اعتبارهم موعد انصرافنا هذا، الواحدة بعد الظهر، لأن من النادر أن ينصرف أيّ منا قبله، ورتّبوا ما رتبوه كي يصطادوا المعهد ونحن جميعنا فيه. راقب هؤلاء المكان جيداً ورصدوا عاداتنا، ووضعوا خطتهم بحيث لا ينجو أحد ولا يسلم شيء.

كان في أسفل المبنى، على مستوى الشارع، مكان بين الأعمدة يتسع لوقوف سيارتين. وكان هذا هو المكان الوحيد الذي يمكن لسيارة ملغمة لو انفجرت فيه أن تُسقط المبنى عاليه على سافله وتفتك بمن فيه كلّهم. وفي تنبهنا لتدابير الحماية الوقائية، حرصنا على أن لا

تقف في هذا المكان سيارة غريبة. وإمعاناً في الحرص وحتى لا تقتحم ايّ سيارة المكان اقتحاماً، اجزنا وقوف سيارتين اثنتين فيه: واحدة هي سيارة المدير، والثانية هي سيارة أحد رؤساء الأقسام. معدّو الواقعة لاحظوا أن هاتين السيارتين تشغلان المكان طيلة أوقات العمل كلّ يوم، ما عدا يوم السبت، ففي هذا اليوم يُغادر رئيس القسم المبنى بسيارته عشرين دقيقة قبل الواحدة، لأنه مرتبط بالتزام دوري يتواتر كلّ سبت في هذا الوقت.

ولكي يمكن وضعُ سيارة ملغمة في المكان الذي يشغر قبل الواحدة، ولكي يوهنوا يقظة الجنديين اللبنانيين اللذين يوجدان معاً وقت الانصراف وتشتد فيه يقظتهما، اختار الذين قرّروا الفتك بنا سيّدة لبنانية من عميلاتهم، وتعمدوا أن تكون هذه السيدة فتية، وجميلة، وأنيقة، وذربة اللسان، وذات وجه بشوش ونظرات تبثّ على الدوام بروق وعود تفتن ايّ رجل. وأوكل هؤلاء لسيدة هذه هي مزاياها مهمة تدبر وضع السيارة القاتلة بين الأعمدة في اللحظة المناسبة، دون أن يمنعها جنديا الحراسة اللذان سيكونان أول الضحايا حين تنفجر السيارة.

ترددت السيدة بسيارتها على المكان مرات كثيرة. في المرة الأولى، جاءت في وقت شغور مكان السيارة، قبيل الواحدة في يوم سبت،

ورجت الجنديين أن يأذنا لها بوضع سيارتها في المكان الشاغر، وقالت إنها لن تغيب إلا لبضع دقائق توصل خلالها حاجة إلى عمتها التي تسكن في بناية مجاورة. فلما قال الجنديان إن هذا ممنوع حسب التعليمات، فإن المرأة التي فتنهما جمالها وبروق عينيها اظهرت أتمّ الانصياع، وحادثتهما لوقت قصير، مستحوذة على افتتان الجنديين بتهذيبها أيضاً. وتكرّر مجيء المرأة بعد ذلك، للسبب ذاته، حين يكون المكان مشغولاً بالسيارتين. وكانت تتوقف كل مرة للحظات إزاء جنديي الحراسة وتلاغيهما وتمازحهما ثم تتركهما باسمة، لتوقف سيارتها في أيّ مكان شاغر في الشارع، وتدخل هي بناية قريبة تغيب فيها وقتاً لا يطول. وقبل أن ينقضي أسبوعان، أفلحت المدرّبة على الإيقاع بالرجال في إلغاء الكلفة بينها وبين الجنديين، وصار حضورها مألوفاً، حتى ليمكن للمرء أن يحزر أنهما صارا يترقبانه بشوق.

في السبت الذي وقعت فيه الواقعة، جاءت هذه السيدة إلى المكان دقائق قبل الواحدة. وكان في السيارة طفلٌ رضيعٌ ممدد وهو غارق في النوم على كرسي أطفال مربوط إلى مقعد السيارة الخلفي. وكان طرفا الشارع على امتداده كلّه مشغولين بسيارات واقفة وخالية من أصحابها، ولم يكن في الشارع مكان لوقوف سيارة أخرى، الأمر الذي

سنعرف بعد فوات الأوان انه تمّ يومها بفعل فاعلين. وكعادتها، أوقفت السيدة سيارتها إزاء الجنديين، وحيتهما دون أن تسترسل في ملاغاتهما، وأظهرت التي خالفت بهذا العادةَ التي تشوق الجنديين أنها على عجلة من أمرها. بعد هذا، عبرت السيدة الشارع بسيارتها، ثم دارت دورة رجعت بعدها إلى حيث يقف الجنديان ووضعت سيارتها إزاء مدخل مبنانا، وخرجت منها، لتطلب من الجنديين أن يأذنا لها بالوقوف تحت الأعمدة في المكان الذي تتوقع هي أن يكون شاغراً، وذلك لأنها لم تجد في الشارع مكاناً آخر توقف سيارتها فيها. فاجتذب المبتهجان المرأة الفاتنة نظر هذه السيدة إلى أن المكان ليس شاغراً، وطلبا منها أن تبتعد بسيارتها عن مدخل البناية. ففي ذلك اليوم بالذات، طرأ ما ألغى التزام رئيس القسم بموعده الدوري خارج المعهد، ولم يكن الرجل قد انصرف بعد. ويبدو أن التي كانت تعرف دون شك ما تحمله السيارة التي تقودها هي، وتدرك أن ليس أمامها فسحة وقت لأي مناورة، لم تتردد في الفرار بنفسها. والذي حدث، وهو ما رآه رجل أمننا المتخفي ورواه في التحقيق الذي جرى بعد الواقعة، أن هذه السيدة ألقت مفاتيح سيارتها إلقاء نحو واحد من الجنديين، وقالت وهي تبتعد: "ولو يا طوني، ما الذي تخافُ منه، الطفل في السيارة، والمفاتيح معك، سأغيب دقيقة واحدة"، وغابت في البناية القريبة. وفي تلك اللحظة

وقع ما وقع.

في ذلك اليوم، كانت ثلاثة شهور قد انقضت منذ استعدنا معهدنا من الذين نهبوا محتوياته. وكانت لدينا مناسبة نحتفل فيها بتثبيت لبنى وزميلة جديدة أخرى استكملتا فترة التدريب وتقرر تثبيتهما دارستين محترفتين. جرى الاحتفال في العاشرة، في وقت الاستراحة في الكافيتريا. ولئن أوجب الظرف أن يكون احتفالنا متواضعاً، فإن اقتران التثبيت بمناسبة أخرى جعله بهيجاً. فزميلة لبنى كانت ستحتفل بزواجها في مساء ذلك اليوم. وبهذا تحول الاحتفال بالتثبيت إلى احتفال بالمناسبة السعيدة أيضاً. وبعد الاحتفال رجعتُ إلى حجرة مكتبي، وانهمكتُ في العمل الكثير الذي صار عليّ أن أنهيه قبل عطلة نهاية الأسبوع. وكنتُ مستغرقاً في تحرير نصّ مضطرب الصياغة أرسله قائد فلسطيني لأنشره في مجلتنا، ولبنى هي التي انتزعتني من استغراقي. وقفتِ الصديقة التي لا مثيل لها عند باب حجرتي ومعها زميلتها التي احتفلنا بها، وقالت إنها ذاهبة مع نجوى، وهذا هو اسم الزميلة، لتعاونها في اختيار الورود اللازمة للعرس. وعقّبت نجوى: "أثق بذوقها". فقلت أنا مازحاً: "مع ابنة الباشا، يا بختك"! ثم طلبتُ من لبنى أن لا ترتبط بأي التزام في مساء اليوم التالي: "سنحتاج إليك، ريم وأنا". وكتمتُ عن

التي لن أراها بعد هذا، لا في ذلك اليوم ولا في غيره، أننا أعددنا احتفالنا الخاص بتثبيتها. وحين انصرفتْ لبنى ونجوى نحو المصعد، تفقدتُ الوقت في ساعتي، فأشارت العقارب إلى الثانية عشرة وسبع وخمسين دقيقة، فقررتُ أن أكمل الفقرة من المقال التي شرعتُ في تحريرها، حتى أتوقف عند بداية فقرة أخرى. واستغرقني العمل في النص المضطرب من جديد.

وحين بلغت الساعة الواحدة، كنتُ جالساً إلى مكتبي في الطابق الخامس، محنياً عليه، وكنتُ البس قميصاً شتوياً حملته لبنى إليّ من دمشق، هدية من أبنائي، وقالت إنهم اختاروه ليحميني من البرد، أنا الذي يخشون هم أن أهمل نفسي بعد أن صرتُ وحيداً. وكان هذا قميصاً مصنوعاً من قماش دمشقي صوفيّ سميك، فكانت ياقته، مع حشوتها الداخلية، إذاً، شديدة السماكة. أتذكر هذه التفاصيل عن المقال والقميص، أو لأقل إنها انحفرت في ذاكرتي حفراً، لأن لها صلة بنجاتي مما وقع في ذلك اليوم.

السيارة الملغمة بربع طن من الديناميت المدمّر والهكسوجين الحارق انفجرت في الساعة الواحدة بالضبط، ليس قبل وليس بعد، فكأن مؤقت التفجير زُبط على عقارب ساعة بيغبن. قدّر الذين أخضعونا لمراقبة متأنية أن العاملين كلّهم سيكونون في هذه اللحظة قد

غادروا مكاتبهم وتوزعوا بين المصعد والأدراج والمدخل. وقدّر الذين شاءوا أن تنفجر السيارة تحت المبنى أن المبنى سينهار فوق الجميع، وإذا نجا أحد من العاملين، بالصدفة، كان يضمه فراغ داخل الركام، فستشويه حرائق الهكسوجين أو يخنقه الدخان. والصدفة التي جعلت السيارة تنفجر عند المدخل، وليس تحت المبنى، هي التي أبطلت هذا التقدير. وحقيقة أننا كنّا نهجس بأن نتعرض للعدوان الذي من هذا النوع، وأننا تدربنا على ما يلزم لمواجهته، مكنتنا من تقليص عدد الضحايا. فحتى مع فشل مُعدّي العدوان في وضع السيارة بين الأعمدة، كان من الممكن أن نهلك جميعنا، أو، في الأقل، أكثرنا، لو أن الحرائق المتفرقة التي أحدثهاالانفجار في كل بقعة في طوابق المبنى الست اتصلت بعضها ببعض. والواقع أن الديناميت دمرّ كلّ شيء داخل المبنى. وأن الهيكسوجين انتثر في كلّ ناحية وأشعل فيها حرائق. التدريب، اليقظة، الاستعداد لمواجهة الطوارئ، هذا كله دفع كلّ من بقي قادراً على الحركة إلى محاصرة الحرائق وإطفائها. والذين أصيبوا وأقعدتهم إصاباتهم تلقوا الإسعاف والرعاية من الآخرين.

حين وقع الانفجار لم أحس به إلا كما يُحس الإنسان بالبرق. لو أن أحداً قال لي إن الصوت يبرق مثل الضوء لما صدقته. لكني خبرتُ

هذا في يوم السبت ذاك بنفسي. برق الصوت للحظة، لأجزاء من لحظة، ولم أحس بما عدا هذا. وما نبّهني لوقوع انفجار كان الدمارُ الذي اكتنفني. انتزع الانفجار أطر النوافذ والابواب، كما انتزع النوافذ والأبواب ذاتها. وحين انتبهتُ إلى وجود حرائق، خففتُ إلى أنبوبة الإطفاء وشرعتُ في العمل الذي تجنّد له الآخرون. واقتلع الانفجار باب الحمام المقابل لباب حجرتي، فلم يلبث أن ظهرت في المشهد زميلة كانت جالسة على المرحاض فأسقط الانفجار السيفون المعلق على الحائط عليها وأضرّ بها كثيراً، فهرعتُ لإسعافها. ولمحتُ الأستاذ عوني وهو منهمك في نشاط مماثل، وتلاقت العيون. فتفاهمنا دون كلام: علينا أن نقدّم القدوة، في التماسك، وفي المبادرة إلى تقليص الضرر.

بعد السيطرة على الحرائق، ركّزنا جهدنا في العمل لإخلاء المصابين المحتاجين لإسعاف لا توفره وسائل الإسعاف الأولي التي كانت في حوزتنا. كان الانفجار قد التهم مدخل المبنى، دمّر هذا المدخل واشعل فيه حريقاً لا تمكن السيطرة عليه، وملأ بيت الدرج بالدخان واللهيب، فتعذر أن نتبين ما حلّ به، ولم نعرف ما إذا ظل بيت الدرج قائماً أو تهدم. ولهذا، لم نجازف بإخلاء المصابين عبر هذا المدخل. البديل وفّرته وسائل الدفاع المدني التي هرعت للمساعدة.

فاستخدمنا شرفة كبيرة في الطابق الخامس لإخلاء جميع من احتجزهم الانفجار في طوابق المبنى كلها؛ جعلنا الشرفة قاعدة للإخلاء. وامتدت سلالم سيارات الدفاع المدني حتى هذه الشرفة. وتولينا، الأستاذ عوني وأنا، إدارة عملية الأخلاء، إلى أن لم يبق على الشرفة أحد سوانا. وكان من المنطقي أن نلحق نحن الاثنان اللذان لم يصابا بما يحوجهما إلى المساعدة بالآخرين الذين هبطوا قبلنا سلالم الدفاع المدني. غير أن شيئاً في نفسينا، شيئاً نبت في النفسين في آن واحد، جعلنا نحجم عن تعريض نفسينا لكاميرات التصوير التي قد تظهرنا في هيئة الفارّين. كنا نرى من الشرفة حشداً كبيراً ملأ الفراغات التي تكتنف المبنى. وكنا نُقدّر أن في الحشد متعاطفين معنا، دون أن يخلو من آخرين جاءوا ليشمتوا بنا ويظهرونا في أقبح صورة. ومن دون تبادل أيّ مشورة، خلصنا إلى الاستنتاج ذاته: أن نهبط على الأدراج، نجازف باختراق الدخان واللهب، نتحسس طريقنا تحسساً عبر بيت الدرج الذي نجهل ما حلّ به، وليكن ما يكون، إلا المهانة.

غمزنا، كلانا، ملابسنا بالماء. وهبطنا متّبعين ما تقترحه أقدامنا التي تتحسس ما بقي سالماً من الأدراج وأكفّنا التي تتحسس الجدران. وحين بلغنا لجّة الحريق المشتعل في الطابق الأرضي، حيث تمتد

ألسنة اللهب وتغمر أطول الناس قامة، اخترقنا كتلة النار جارين جرياً على غير هدى، فتلقفتنا أذرعُ الذين طال انتظارهم لظهورنا وخشوا أن لا نخرج من الحريق أحياء.

هنا، عرفنا ما الذي حلّ بالذين كانوا لحظة وقوع الانفجار في المدخل أو في الشارع، والذين كانوا في المصعد وعلى الأدراج، أو في الطوابق الدنيا. فعشرة من هؤلاء، بضمنهم جنديا الحراسة اللبنانيان قضوا نحبهم، والآخرون جميعهم، جميعهم بغير استثناء، تعرضوا لإصابات شديدة.

وهنا، عرفتُ أني فقدتُ لبنى إلى الأبد، وأن نجوى وثلاثة زملاء آخرين كانوا معهما في المصعد فقدوا حيواتهم. وعرفتُ أيضاً، أن الموجودين في طوابق المعهد جميعهم، ما عداي أنا والأستاذ عوني، قد تعرضوا لإصابات، بعضها شديد الخطورة، وبعضها خطر، وقليل منها هيّن. أما عدد الضحايا من المارة العابرين والجيران الذين تصادف وجودهم في الشارع قرب مبنانا، ففاق عدد ضحايا العاملين في المعهد، فاقه بكثير. وكما يحدث كلما امتزج الشخصي والعام، انتصب أمامي هذا السؤال: أأستسلم للحزن، أم أنهمك في معالجة آثار المصيبة الماثلة. والحقيقة أني لم أفكر في الإجابة، لم أحتج إلى التفكير، ولم أختر سلوكي بوعيي. فالحدث الجارف يجرفك دون

اختيار. وفي المصائب العامة تسوقُك التداعيات سوقاً كما تسوق الآخرين جميعهم.

كان من السهل أن اندرج أنا نفسي بين ضحايا هذا الانفجار. وإذا كنتُ قد نجوت من الهلاك مع من هلكوا في المصعد أو على الأدراج أو عند المدخل، فلأني تأخرتُ في مغادرة حجرتي بسبب انشغالي في تحرير المقال مضطرب الصياغة الذي استبقاني فيها. وأما ما جنّبني موتاً محققاً أو شللاً مقعداً وأنا في حجرتي، فكانت ياقة القميص السميكة. فمن شظايا زجاج الشرفة التي أديرُ ظهري إليها وأنا جالس إلى مكتبي، وهو الزجاج الذي حطّمه الانفجار، انغرزت في هذه الياقة، عند النقطة الموصلة إلى المخيخ بالذات، شظية لها شكل الحربة وحِدّة سنانها. وكان من شأن هذه الشظية المدفوعة بقوة الانفجار العاتية أن تفتك بي لو لم تكن الياقة شديدة السماكة. وبهذا، في مرّة أخرى من المرات المماثلة التي لم أحص عددها، نجوتُ من الموت بالصدفة، وأمكن أن أستمر على خطّ الحياة.

الأستاذ عوني نجّته هو الآخر صدفٌ من هذا القبيل. وبحميته التي تتأجج في الملمات، انهمك الناجي في ما ينبغي لمدير مسؤول أن ينهمك فيه. وبمساعدتي، أنا الذي اجتزتُ وإياه حلقة النار، استُكمل نقل المصابين إلى المستشفيات، وتمّ التعرف على أصحاب الجثامين

المتفحمة، كما تمّ تجميع مزق الأجساد التي فتّتها الانفجار ونثرها في دائرة بلغ قطرها ألف متر. وترتب علي أنا، بين اشياء أخرى بالطبع، أن أبلغ إلى أسر الضحايا القاطنة خارج بيروت، أو خارج لبنان كله، ما حلّ بأعزائهم، فيما انهمك الأستاذ عوني في الإشراف على توفير العلاج لكل مصاب في المستشفى الذي نقل إليه وتأمين الأكلاف اللازمة لهذا لعلاج. ولكي أقوم بالمهمة، كنتُ بحاجة إلى هاتف. فتطوع أحد أصدقائنا الذي خفّ إلى الاطمئنان علينا بأخذي إلى منزله. وفي المنزل، عالج هذا الصديق ما حلّ بي مما لم أكن قد انتبهتُ إليه، فنظف شعر راسي من نثار الزجاج العالق به، ثمّ أسلمني إلى حمام تحررتُ فيه من السخام الذي غيّر لوني، وأعارني هذا الصديق ملابس أرتديها بدل الملابس التي جار الانفجار عليها فجعلها زرية. وبعد هذا، أخلى مضيفي بيني وبين هاتفه.

أوجع ما خبرته في حياتي عانيته حين تحدثتُ مع أهل لبنى في عمان. وهل يمكن أن يكون الوجع إلا مما يفتت الأكباد حين يتوجب عليك أن تصطنع نبرةً رسمية وتُبلغ إلى ابٍ او امّ او اخٍ نبأ مصرع الابنة التي هي اقرب أصدقائك إليك وأحبهم إلى قلبك. ادرتُ رقم الهاتف، طلبتُ التحدث مع سعادة الباشا، فأجابني صوتُ من سأعرف انه أخو لبنى الأكبر بأن والده صار في مطار عمان ليستقّل الطائرة

التي ستنقله إلى بيروت. وكان بالإمكان ان اكتفي بهذا. غير أن محدثي الذي لم أكن قد ذكرتُ له إلا إسمي حدس شيئاً، وقال بنبرة من يجتهد في السيطرة على مخاوفه: "هل يمكن أن أعرف لماذا تطلب الوالد"؟ ولم يعد ممكناً بعد هذا أن أزوغ. مع ذلك، ترددتُ. وقبل أن أقول شيئاً، تساءل الأخ: "عندك ما تقوله عن لبنى، هل حزرتُ"؟ وفي لحظة، جاءني بدل صوت الأخ صوتُ سيدة ملهوفة قالت لي دون مقدمات: "أنا أم لبنى، لا تُطل عذابي، قل ما عندك"!

صار عليّ أن أصب النبأ في أذن أمّ بدا لي أنها ظلت حتى تلك اللحظة تُعلل نفسها بالأماني وتتارجح بين حال وحال. وما أن افرغتُ النبأ في أذن الأمّ حتى سمعتُ قرقعة أظهرت أن سماعة الهاتف سقطت من يدها. ولم يلبث أن عاد صوت الأخ: "ماذا قلت للوالدة، هل..."؟ ولم يكمل السؤال. ومن جانبي، أنا الذي فقدتُ القدرة على التجلد، قلتُ بأعجل ما استطعتُ: "نعم، البقية في حياتك". فنقلت السماعةُ إليّ نحيب الأخ المفجوع، فتعجلتُ إقفال الخط، لينطلق نحيبي الذي لم أعد، بعد، قادراً على حبسه.

بوجودها في المعهد، توثقت علاقتي بالتي كانت علاقتي بها وثيقة قبل هذا. صرنا نعمل معاً، ونتشاور حول كل شأن. فلما انقضى يوم دون أن نلتقي خارج وقت العمل، وحدنا أو مع آخرين. وفي الأيام

التي لا تكون هي خارج بيروت، كنّا نكاد لا نفترق. صُحبتنا جعلتها شريكة لي، أنا رئيسها، في حمل عبء العمل الثقيل الذي نتولاه، كفاءتها، قدرتها الفذّة على التواؤم مع ظرفنا الجديد، مثابرتها، جَمعها بين نبض بيروت وبين نبض الذين رُحلّوا عنها، هذا، جميعه، اكسبها احترام الجميع ومحبتهم، وجعل حتى غريمها الأستاذ عوني يُوثق علاقته بها بعد أن أدرك مزايا الصداقة التي حلّت محلّ الجفوة. وفي غضون ذلك، تأكد دور كلٍ منا باعتباره كاتم أسرار الاخر. اطّلعتْ هي على تطور علاقتي مع جانيت، وكنت أنا الوحيد الذي تُطلعه هي على دقائق علاقتها المعقدة بسامر، والوحيد الذي تكاشفه بسبب إبائها الاستجابة لعرض الزواج الذي قدمه يوم مغادرته بيروت وكرّره بالمراسلة بعد ذلك اليوم. هل وقعتُ أنا الاخر في حبّ لبنى، هل كبتُّ حبّي إياها لأني أخشى إباءها، هل كانت مثابرتي على اكتساب حبّ جانيت وسيلتي للتحايل على حب لبنى الذي لا أقرّ حتى لنفسي بأنه موجود؟ رحيل لبنى الفاجع، بعد رحيل جانيت الفاجع هو الاخر، أخرج هذه الأسئلة من عتمة اللاشعور. وفيما أنا أنتحبُ بعد حديثي مع أسرة لبنى في عمان، أدركتُ أن الحزن يعتصرني في هذا النحو لأني فقدتُ عزيزة لم أدرك من قبل أنها عزيزة عليّ إلى هذا الحد.

نحيبي الحارق قطعهُ اتصال من مكتب القائد العام. حدث أن كلمتُ أنا الجريدة التي لم أزرها منذ وقت طويل، وذلك كي أطلب منهم رقم هاتف أحتاجه، فقالت عاملةُ المقسم إن مكتب القائد العام الفلسطيني سأل عني بعد وقوع الانفجار وطلب رقم الهاتف الذي يمكن أن يكلموني عليه، فوعدتهم هي بأن تدبّره، فأمليتُ عليها رقم الهاتف الذي أتحدث منه. وها هم قد طلبوني.

تلقى القائد البعيد تقريري، واستقصى أدقَّ التفاصيل، خصوصاً ما يتعلق بالضحايا، وأبلغ إليّ ما طلب أن أبلغه بدوري إلى الأستاذ عوني: "صدرت تعليماتي إلى الإدارة المالية كي تُلبي ما تطلبونه، فاطلبوا كلّ ما يلزم، لا تبخلوا بالمال، خصوصاً ما يلزم منه للعلاج وأسر الضحايا"! وبعد هذا، قال القائد ما بدا لي أنه بحث عني ليقوله لي: "أنت مفوض بتقديم التعازي باسمي لأسر الشهداء جميعهم، وتمنياتي الشفاء العاجل للجرحى". أبنائي اتصلوا، ثلاثتهم معاً. كانوا في منزل صديقي الدمشقي حيث دُعي ثائر للانضمام إلى أختيه هناك وتناول الغداء معهما ومع هذا الصديق وأسرته. فسمعوا النبأ الذي تناقلته الإذاعات، وشاهدوا الصور على شاشة التلفزيون، فهرعوا إلى الهاتف وأجروا مكالمات كثيرة إلى أن اهتدوا إليّ. عبر وسائل الإعلام، عرف القلقون على أبيهم أني نجوتُ، وعلموا أني لم

اجـرح. وهكـذا، ما أن سـمع ثائر صـوتي حتـى بادر إلى تـهنئتي بالسـلامة. وتكـرّرت التهنئة من غزّة ويافا، ومن صـديقي وزوجتـه. تلقيتُ هـذه التـهاني وأنـا فـي مزاج يُوجعنـي معه فـرح الفـرحين بسلامتي. فداهمتني الحاجة إلى البكاء وخنقتْ صوتي. ولكي أداري أسـى يصعبُ إيضاح سـببه على الهاتف، قطعتُ المحادثة. لكن لم يلبث أن خشيتُ أن يُسيئوا هم الفهم، فبادرتُ إلى الاتصال، فجاءني صوت صـديقي، فطلبتُ أن يُعطي السماعة لثائر أو لأيّ من اختيه، لكنه هو الذي ردّ: "إنهم يبكون، اختصارك الحديث، كيف أقول، نبههم، نبهنا كلنا، فرحُنا بنجاتك أنسانا الانتباه إلى المصيبة التي لا مجال معها لأي فـرح". قـال الصـديق المتفهم هذا، واعتـذر، وتوالت بعده اعتذارات الآخرين.

وما أن أكلمتُ الاتصالات المؤسية حتـى توجـهت إلى مسـتشفى الجامعـة الأميركيـة. ففـي هـذا المسـتشفى بالـذات، احتشـد معظم المصـابين. وجـدتُ الأسـتاذ عونـي هنـاك، ربّان سـفينة حطّت عليها صاعقة مدمرة فلم يفقد القدرة على التصرف السديد. وإلى جانب الأسـتاذ عونـي، وقـف رجل ذو مهابة يجلّله أسىً يتجلّد لمداراته. وحين قُدّم إليّ الرجل، عرفتُ أني إزاء والد لبنى. فقدمت تعزيتي للوالد الحزين، ثم قلتُ إن القائد العام كلّفني أن أنقل تعازيه بالراحلة

التي خسرها الشعب الفلسطيني كما خسرها الشعب الأردني، تعازي للوالد وللأسرة. وتلقى الرجل هذا كله وهو صامت. ثم شكرني بعبارات أظهرت تماسكه، وطلب أن أنقل شكره للقائد العام. استخدمنا، كلانا، صياغات رسمية، كلفني اضطراري إلى استخدامها مع تنحيه مشاعري الشخصية جهداً غير عادي. ولأنه لم يبق ما أقوله، فقد انسحبتُ منذ استأنف المدير والوالد ما كانا قد شرعا فيه: مناقشة ترتيبات نقل جثمان لبنى إلى عمان: فهذا حديث يتعذر أن أصغي إليه دون أن تفيض دموعي.

في اليوم التالي، وكان أساي قد اشتد كما يشتد إحساس تغالبه فيغلبك، ترتّب على أن أقوم بواجب تقديم التعازي لأسر شهداء الانفجار المقيمة في بيروت. وصحبتني زميلة كانت قد أصيبت إصابة تمت معالجتها. لم يكن أساي وحده هو الذي اشتد، بل اشتد ألمٌ أحسستُ به منذ اليوم السابق في ركبتيّ ولم آبه له لأنه بدا خفيفاً. ويبدو أن قوة الانفجار كانت قد رفعتني عن الكرسي الذي أجلس عليه، فاصطدمت الركبتان بسقف مكتبي الحديدي، وتلقتا رضةً راح ألمها يشتد أولاً بأول. بالرغم من هذا الألم، خجلتُ من ان أنكص. ففي الظرف الذي كنا فيه، بدا لي الألم أهون من أي نكوص.

ما أشق أن تعزي أسرة حوّلت العزاء إلى احتفال! عانيتُ هذه المشقة

في منزل أسرة نجوى في مخيم صبرا الذي عفرته الحياة من جديد، المنزل الذي كان قد هُيء للاحتفال بزفافها إلى عريسها فتحوّل الاحتفال بزفاف العروس إلى احتفال باستشهادها. اكتظ محيط المنزل بزوّاره. فاخترقنا، زميلتي وأنا، الحشد بصعوبة، وولجنا باب المنزل. هنا، كان الاكتظاظ أشد. واقتضى الأمر أن نطوف أرجاء هذا المنزل، زميلتي بالأربطة البيضاء التي تلفّ أكثر من عضو من أعضاء جسدها، وأنا بخطوي الذي جعله ألم الركبتين وئيداً، فقدّر لي أن أشهد كيف أبقيث زينات الزفاف كلها، لم ينقص منها إلا الورود التي حال الانفجار دون إحضارها. وحين تعرّف أحدهم علينا وهمس: "من معهد الدراسات"، أخلي لنا كرسيّان، فجلسنا. وفيما نحن صامتان، قَدمت نحونا سيّدةٌ ترتدي الثوب الفلسطيني المطرز بالحرير الذي حزرتُ أنه هيء ليوم العرس. ومع السّيدة التي لم يصعب أن أحزر أنها أمّ نجوى، جاءت طفلةٌ تُظهر ملامحها أنها إبنة إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة، وبين يديها طبق فاخر فيه الحلوى التي أعدت من أجل العرس. وكانت الطفلة التي حزرتُ أنها أخت الراحلة ترتدي هي الأخرى الثوب المطرز بزيّه الذي يُعدّ للطفلات. وقبل أن أتمكن من قول شيء مما يُقال في العزاء أو العرس، اصطنعت السيدة ابتسامة أحسستُ أن لها في داخلي وقع سيخ محمى ينغرس في كبدي، وقالت: "أنتم ترون، لم نتكلّف كلفةً جديدة للاحتفال باستشهاد

الغالية، كل شيء كان محضراً لعرسها". بعد هذا، رجتنا التي ادهشني ثباتها ان ناكل من الحلوى، وحين رات ترددنا اضافت: "كرمى للشهيدة، الم تكن عزيزة عليكم".

انتحبتْ زميلتي. واحتجتُ أنا إلى جلادة مائة إنسان جلد كي لا أخيّب رجاء الأمّ. اما هذه الأمّ فتابعت ما بدأته، الحديث بنبرة عادية كأنها تتلو نصاً تُشكل تلاوته جزءاً من طقوس الاحتفال: "نجوى الآن في الجنة، فكيف نُفوّتُ الاحتفال بهذه المناسبة". ولا بدّ من أن مشاعري التي أغالبها انعكست على وجهي. لكن التي بدت فخورة بقدرتها على التجلد تجاهلت نحيب زميلتي وما بثته تعابير وجهي، واضافت، بالنبرة العادية ذاتها، جديداً لم أكن اعرفه عن الأسرة: "اخو نجوى الكبير استشهد في عملية فدائية داخل فلسطين قبل عشر سنين، أخوها الثاني استشهد على الحدود قبل اربع سنين. اخوها الثالث استشهد في قلعة الشقيف في بداية الغزو الأخير، قبل شهور، نجوى وأنا وأختها نجونا من المجزرة الرهيبة، لأننا كنا بالصدفة خارج المخيم. الآن رحلت هي، ولم يبق لي غير هذه الصغيرة التي ولدت يوم مات أبوها، فاصبروا عليها حتى تكبر"! قالت هذا وأشارت إلى الصغيرة التي تحمل طبق الحلوى.

عدت إلى شقتي قبيل حلول المساء، ثُقْل ألمُ الركبتين. اما أوجاع

روحي فصارت طاغية. ولأني عجزتُ بعد صعود الدرج عن بلوغ السرير، فإني ألقيتُ نفسي إلقاء على الصوفا القريبة من المدخل. ومع ألم الجسد وأوجاع الروح، حضرتْ الهموم، قديمها ومستجدّها، وانداحت الأفكار. هل كان قرار البقاء في بيروت صائباً؛ هل تُساوي فوائد بقاء المعهد في عاصمة اللبنانيين الثمن الذي تكبدناه، نحن وهم، والأثمان التي أتوقع أن نتكبدها؛ روح التحدي التي تلبستنا هل أنبتتها حاجاتٌ لا غنى عنها حقاً، أو إن المكابرة هي ما أنبتها؛ وما الذي يستطيع المعهد أن يفعله بعد خسارتنا من خسرناهم وما خسرناه؛ ومن الذين سيبقون معنا من الناجين؛ وهل يمكن أن نعثر على ناس جدد يقبلون الانضمام إلينا؛ وما دام قد اتضح أن بطاقة العمل في المعهد صارت بطاقة لركوب عربة الموتى، فهل يحق لنا إن نلوم أيّ إنسان ينأى بنفسه عنّا.

لم أدرِ كم انقضى من الوقت حين رنّ جرس الباب الذي لم أكن قد أقفلته. وبسبب الألم الذي أثقل حركتي، هتفت دون أن أنهض: "الباب غير مقفل، فادخل"! فانفتح الباب، وانتصبت قبالتي قامة يُظهرها النور القادم من خلفها من ناحية الدرج. وكانت تلك هي قامة زوجتي التي غاب وجودها كلّه عن بالي منذ شهور.

سمعتْ ياسمين النبأ منذ وقوعه، ورأت المشاهد على الشاشات،

وتعرفتْ على صورتي بين الناجين من الموت، دون أن تتيقن مما إذا كنت قد جُرحت أم لم اجرح، ورات ان من الواجب ان تهرع إليّ. حكت هي هذا بنبرة من تُدلّ بوفاء تتمتع هي به وافتقرّ انا إلى مثله: "اتيتُ لأكون بجانبك، بالرغم من أنك لم تستلم رسالتي ولم تتصل بي أبداً". كانت هي في القاهرة حين وقع ما وقع، وتعجلت الملهوفة الوصول إليّ، لكنها لم تُفلح في الحصول على مقعد في الطائرة إلا بعد ظهر ذلك اليوم. ومن المطار، توجهتْ ياسمين إلى الشقة التي لم تعرف اني أخليتها، فاستقبلها زوج ريم الذي لا يعرفها والذي أنكر انه يعرف مكان إقامتي، فطرقتْ هي باب نورما. وقد أبقت نورما الطارقة عند الباب وحكت لها، كما قالت ياسمين لي بنبرة متهمة، أشياء وأشياء. وبعد نورما، ذهبت ياسمين إلى الجريدة وقابلت رئيس التحرير، وهو الذي هداها إليّ: "لففتُ بيروت كلّها كي أصل إليك، وها أنت ذا، لم تكلّف خاطرك حتى أن تنهض لاستقبالي"! كانت أمامي ياسمين غير التي فارقتني. الجسد المتهالك اكتسى من جديد عافيته السابقة، والروح المتطامنة استعادت عنفوانها، والمزاج المستسلم حلّ محلّه مزاجها القديم الاقتحامي والعدواني. حضرت ياسمين إذاً وأحضرت معها كلّ ما سبب اضطراب علاقتنا قبل الحصار وكل ما أنضاف إليه بعده.

ومع ملاحظتها عدم نهوضي لاستقبالها، انتبهتُ إلى أني بقيتُ وهي تحكي ممدداً على الصوفا. فتحاملتُ على الألم بنيّة أن انهض، لكن شدّة الألم جعلتني أتحرك ببطء، واستطعتُ، بالكاد، ان اجلس، ثم عجزتُ عن النهوض. والتي لم تعرف سبب ثقل حركتي أساءت الفهم، وساءها خصوصاً أن أظلّ جالساً، مع انها توقعت ان يغمرني الامتنان لمبادرتها، فأهبّ، كما قالت، واقفاً، وآخذها بالحضن. وبالاستياء الذي شدّده سوء الفهم، واصلت ياسمين اللوم: "أرسل لك رسالة فلا تُكلّف نفسك تعب استلامها؛ نفترق خمسة شهور فلا أسمع منك كلمة؛ أجيء إليك ملهوفة فتستقبلني بهذا البرود".

ولكي اقطع سياقاً لم اشأ ان يتصل، قلتُ: "لماذا لا تجلسين، بإمكاننا أن نتحدث عن كل شيء دون أن نتلاوم". قلتُ ما قلته بنبرة جعلها الحال الذي أنا عليه هادئة، دون أن أتعمد هذا. ويبدو أن التي ثارت في وجهي توسمت خيراً في بقائي هادئاً. فهي لم تجلس كما طلبتُ منها، بل ذهبت إلى ما هو أبعد، فشرعتْ في التصرف كما تتصرف سيّدة البيت الراجعة من سفرة عاديّة. حملت ياسمين حقيبتها الكبيرة إلى حجرة النوم، وفتحتها بنية أن تضع ملابسها في الخزانة، ما وشى بأنها تعتزم المكوث معي. هنا، صار لا بدّ من ان اقطع سياقاً آخر لا أوافق عليه. فقلتُ بالنبرة الهادئة ذاتها: "تبدّلت أشياء كثيرة

منذ افترقنا، فعلينا قبل أي شيء آخر أن نتحدث. لا أقبل أن تتصرفي كأن شيئاً لم يكن"! ومع العبارة الأخيرة، من مجلسي على الصوفا، أشرتُ إلى الحقيبة.

أغلقت ياسمين حقيبتها وصمتت وسكنت. غير أن الصمت والسكون لم يطولا، إذ ما لبث أن رجعت لتقف إزائي مرةً أخرى ومعها الحقيبة: "أجيء إليك بنيّة أن نعود كما كنّا، فتعاملني معاملة من يريد أن يعقد صفقة. نتحادث؟ ما الذي تُريد أن نتحادث حوله. إهمالك إيّاي شهوراً بطولها؛ ما تفعله في بيروت أنت الذي ما إن غبتُ عنك حتى ألقيت نفسك إلقاء على قدمي جارتي وصرت تنتقل من حضن امرأة إلى حضن امرأة أخرى غيرها وتدّعي أنك باقٍ في بيروت لخدمة القضية العامة...".

لم يبق مطرح للهدوء. ومع أن صوتي ظل واهناً فإن نبرته صارت باترة الدلالة: "جوهر الأمر هو هذا. أنت لم تتحمّلي البقاء في جوّ الأخطار الذي تفرض حياتي المضطربة أن أبقى فيه. وأنا لا ألومك، لم ألمك ولن ألومك. لكن لأن الجو لم يتبدل وإن تبدل فنحو الأسوأ، فلا حياة لنا معاً. إذا لم يكن لديك مكان تمضين الليلة فيه، فلك أن تمضيها هنا، على أن تعرفي أن حياتنا معا لن تعود".

تلقت ياسمين ما قلته وهي هادئة تماماً، أما توترها فبرق للحظة ليس أكثر: نترت حقيبتها، وصفقت الباب في نحو ارتجت معه الشقة كلها، وبعدها، هدأ كل شيء من جديد.

(14)

لم يبق من معهدنا إلا ما أبقاه الانفجار. كشط الانفجار المدّمر والحارق ما كان يكسو هيكل المبنى من أبواب ونوافذ، ودمّر أو أحرق ما كان في طوابقه الستة من أثاث ومكائن وأدوات وملفات وكتب وموجودات أخرى، وكسث الحرائق المبنى كله، من خارجه ومن داخله، لونا فاحماً، فجعلته شنيعاً شناعة تجعلك تتوجع إن وقعت عيناك عليه. والعاملون تقلص عددهم. فإلى من حصد الانفجار أرواحهم ورحّلهم عن دنيانا كلّها، استسلم آخرون للمخاوف فقطعوا صلتهم بالمعهد، ومنهم من رحل عن بيروت، وقعد كثيرون في المستشفيات أو في منازلهم أسرى إصابات سيطول أمد معالجتها، أو أسرى عاهات أفقدتهم القدرة على العمل. وبالإحصاء، لم يزد عدد الراغبين في الاستمرار من القادرين على العمل عن عشرين، ثلثهم لبنانيون والبقية من الفلسطينيين، خصوصاً المقيمين في لبنان. ولم يبق ممن وفدوا إلى البلد بعد إنشاء المعهد أحدّ سوى ثلاثة أشخاص، أنا والمدير وباحث سوري لاجئ إلى لبنان.

كان هذا وضعاً لا يتفق مع الحاجة لإعادة بناء المعهد بدءاً مما صار دون الصفر، ولا يُجيز الاستمرار في العمل. فكان من المنطقي، إذاً، أن

نتوقف، وأن نبحث عن بدائل. كان نفكّر بتأسيس المعهد من جديد في بلد غير لبنان. إلا أن العشرين الباقين، وبضمنهم أنا نفسي الذي طالما أعلى شأن المنطق، اتخذوا القرار الذي أملته روحُ التحدي والمكابرة. اتُّخذ هذا القرار بالإجماع: الاستمرار في العمل بالعدد الذي تقلّص، والسعي لإعادة بناء المعهد حيث نحن. وزيادة في التحدي، أعلنّا قرارنا بجلبة توخينا أن تكون شديدة. استبعدنا البحث في خيارات أخرى، لا لشيء إلا أننا رفضنا أن نشهر الاستسلام.

وغير بعيد عن المبنى الذي صار من المتعذر إصلاحه، كان في حوزتنا شقة صغيرة نخزن فيها منشورات معهدنا المعدّة للتوزيع ونسميها شقة التوزيع. وهذه هي الشقة التي قررنا أن نعمل فيها إلى أن نتمكن من إيجاد مقر ملائم جديد. ولأن المكان ضيّق، وتحوطاً لهجوم آخر، قلّصنا ساعات العمل، كما قلّصنا عدد من يوجدون معاً في وقت واحد. وصار على العاملين أن يجيئوا إلى الشقة متفرقين، وأن لا يمكثوا فيها إلا الوقت اللازم لمناقشة ما عُمل وما ينبغي عمله، على أن يُنجز الواحد منهم العمل في منزله.

البحث عن مقرّ جديد بدأ فور انتهاء أيام العزاء الثلاثة، ثم استمر دون توقف، وكذلك دون طائل. لم يقبل أحدٌ أن يؤجرنا مبنى. خفّضنا طلبنا، وبحثنا عمن يؤجر طابقين أو حتى طابقاً واحداً، فلم يقبل

أحد. كانت دوافع الرفض متماثلة، تراوحت بين الكره لنا وبين الخشية من ضرر التعامل معنا. أما التعبير عن الرفض فتموّج بين التصريح والتلميح، بين الفظاظة والتأدب. فكّرنا في استخدام واحد من المقرّات التي أخلاها المرحلون مما كان ملكاً لشاغليه. فاكتشفنا أن أملاك المرحّلين صارت في حوزة ناس خفّوا إلى إشغالها، ولم يبق شاغراً منها إلا ما كان قد تضرر أثناء الحصار ضرراً يتعذّر إصلاحه. جدّدنا التفكير ببناء مقرّ محصن، فلم نجد من هو مستعد للتعاون معنا من أجل إنجازه. في غضون ذلك، تابعنا العمل في شقة التوزيع وفق النظام الذي وضعناه. فعلنا هذا بتأثير روح التحدي والمكابرة، الروح التي حولتنا من مغامرين دوافعهم مفهومة إلى مغامرين دوافعهم تشبه دوافع المقامرين. وحين كنّا نُسأل من مشفقين علينا أو كارهين لنا عما يُبقينا على خط المكابرة، كنّا نجيب بأننا نؤدي باستمرارنا في العمل واجب الوفاء لزملائنا الذين ضحّوا بأرواحهم من أجل استمراره. أما في قرارة النفس، فكنّا نُحس بعبثية الاستمرار، وإن لم نكفّ عن تصور دوافع جليلة ننسبُ استمرارنا إليها.

كنّا الفريق الذي نجا من ركاب سفينة تحطمت في لجّ البحر، فامتطى لوحاً من حطامها، وترك للريح والأمواج أن تُطوّح به. كان وضعنا

يؤسينا لكننا ظللنا نتعزى، نستحضر حقيقة أننا ما نزال في قيد الحياة، ونُعلق الآمال على ظرف قد يأتي، أو صدفة قد تقع، فيتبدل حالنا. كفَّ حتى من كانوا أقرب الناس إلينا عن زيارتنا. فعل بعضهم هذا خوفاً من أخطار متوقعة أو متوهمة، وفعله آخرون بدعوى ضيق المكان. والذين كنّا نوفر لهم قبل الانفجار شتى الخدمات تعلّلوا بأن ما دفع العدو إلى تفجير معهدنا كان هو تحوله إلى ملتقى للناشطين الفلسطينيين وتوفيره هذه الخدمات لهم. وقال هؤلاء إن من الخير لنا، كما هو لهم، أن يتوقفوا عن المجيء إلينا حتى لا نتعرض لانفجار جديد، انفجار ما أسهل أن يُعدّ بعد أن صرنا بغير حماية من أي نوع. كان وضعنا، بكلمات أخرى، مما يحمل على اليأس. بالرغم من هذا، أمكن أن نقوم ببعض العمل. فمن الذي قال إن على اليائس أن يكفّ عن أيّ عمل. بالطبع، لم نستعد مستوى فعاليتنا السابق، ولم نقترب منه، ولم نتمكن من الاحتفاظ بالمستوى العالي الذي كان لمنجزنا العلمي والثقافي. غير أننا لم نُصز بغير فعالية وبغير منجز، بل أمكن أن نفعل شيئاً، وأمكن، خصوصاً، أن نمارس دوراً إعلامياً، فنفضح ما يتعرض له الفلسطينيون في لبنان من قمع وما طال مخيمات لاجئيهم ومؤسساتهم المدنية مما هو مخالف للاتفاق.

في هذا السياق، قررنا مواصلة إصدار مجلتنا الشهرية. كان الانفجار

قد أتلف بعض ما أعددناه للنشر. لكن المواد التي كانت في المطبعة نجت، ونجت كذلك مواد كنتُ قد حملتها إلى شقتي لأحررها هناك. وفي المحصلة، هيأنا للنشر عدد مجلة ضمّ عدداً من الدراسات، بينها الدراستان اللتان أعدتهما لبنى ونجوى قبل استشهادهما، كما ضمّ شهادة القائد العام عن الحصار. وضمّ العددُ تقريرين لكل منهما أهمية خاصة: واحد عن عملية تفجير المعهد وما توفر لنا من معلومات عن مرتكبيه؛ والثاني هو التقرير الذي أعددناه، الدكتور عزيز صابر وأنا، والذي أوجزنا فيه ما استخلصه بحثنا الميداني في صبرا وشاتيلا. والتقريران كلاهما أظهرا أن الذين خطّطوا مجزرة المخيم هم أنفسهم الذين خططوا مجزرة المعهد، وأن الذين نفذوا الأولى هم أنفسهم الذين نفذّوا الثانية: وزير الدفاع الإسرائيلي وأعوانه، من جهة؛ وقادة فريق الرئيس اللبناني المصروع وميلشيا هذا الفريق، من الجهة الأخرى.

صدر عددُ مجلتنا هذا في آخر أيام الشهر الذي فُجّر معهدنا في أيامه الأولى. وفي اليوم التالي، في العاشرة صباحاً، طوقتْ وحدةٌ من وحدات الجيش أللبناني المبنى الذي فيه شقة التوزيع، وداهم عسكرها الشقة. وقتها، كنتُ أنا هو المسؤول المناوب، وكان معي سبعة من الزميلات والزملاء. وكنّا قد سمعنا ضجّة الآليات العسكرية

دون أن نُدرك انها قادمة نحونا، فلم نأبه لها. لكن مشاعرنا استُنفرت منذ سمعنا وقع الخطوات العسكرية الصاعد نحو شقتنا في الطابق الثاني. وحين اقتحم العسكر الشقة التي لا نسدّ بابها، كنّا، جميعنا، قد صرنا قريبين من هذا الباب، وكان المداهمون يوجهون فوهات بنادقهم نحو صدرونا، وصوت ضابطهم يأمرنا بأن نصطف إلى الحائط ووجوهنا موجهة نحوه وأذرعنا مرفوعة. لم نعرف أيّ حائط يقصده الضابط، ولم يكن في الشقة حائط واحد خالٍ، لأن الحيطان كلها مكسوة بأرفف عريضة شُتفت عليها علبٌ كبيرة فيها ما ينشره المعهد. وحين تساءلت زميلة من زميلاتنا عن الحائط المقصود، لم يُكلّف الضابط نفسه عناء مخاطبتها، بل همر همراً بأمر وجهه إلى عسكره: "اروا اولاد الكلب هؤلاء اين يصفّون". فتبارى العسكر في دفعنا دفعاً بأعقاب بنادقهم نحو أقرب الرفوف وأفهمونا بالزجر وأعقاب البنادق كيف نصطفّ في النحو الذي أرضي ضابطهم. بعد هذا، حلّ صمتٌ لم يلبث أن قطعة صوتُ الضابط: "من هو المسؤول هنا"؟ فالتفتُ لأجيب. غير أن الضابط زجرني قبل أن أفوه بأيّ كلمة: "وجهك للحيط ويداك لفوق، يا خرا"!

في الالتفاتة السريعة التي قطعها الزجر والشتيمة، التقط نظري بروق الحقد التي تشعّ من عيون العسكر والنذرَ التي تبثها فوهات بنادقهم.

ولأقر، فما التقطه نظري لجم ردّ فعلي. فالمرء لا يُجازف بحياته ذاتها من أجل الردّ على شتيمة إلا إذا كان أحمق. ومن وراء ظهري، هدر صوتُ الضابط بالإنذار الذي فاجأني: "معك خمس دقائق ليس أكثر لتقول لي أين تخزنون المتفجرات. وإلا، أنت تعرف، لن يبقى أحدٌ منكم حيّاً".

سؤال الضابط عن متفجرات أراحني، من حيث لم يدر هو. فالسؤال بيّن لي سرّ هذا الإنذار، أنا الذي ظننتُ أننا دوهمنا بسبب التقرير المنشور في المجلة عن مجزرة صبرا وشاتيلا. ففي اليوم السابق، انفجرت قرب الكومودور سيارة فيها ثلاثة، لبنانيان وفلسطيني، من مقاومي الاحتلال الإسرائيلي، فأودى الانفجار بحياتي اثنين منهم وجرح الثالث. وكان التحقيق قد أظهر، وفق ما أذيع عنه، أن السيارة كانت تنقل عبوة متفجرة وضعها المقاومون بأنفسهم. وخلال استنطاق الجريح من قبل مخابرات الجيش، أقر المقاوم الناجي بأنهم يلتقون في مبنى معهد الدراسات الفلسطيني ويخزنون فيه متفجراتهم. وكنتُ أنا قد سمعتُ النبأ في نشرة أخبار صباحية ولم أبه لهذا الإقرار. فمبنى المعهد بالنسبة لي، وكما استخلصتُ بسهولة، هو ذاك الذي جرى تفجيره ولم تعد لنا أيّ صلة به. ومن موقفي، ووجهي إلى الرف، اجتهدتُ في أن أجعل الأمر مفهوماً للضابط. غير

ان المفتون بفظافته أبدى أنه مصرّ على أن لا يفهم. وفي تعقيبه على حكيي، قال الضابط: "نحن واثقون من معلوماتنا. فلا تتهرب! بلغت الساعة الآن العاشرة وعشرين دقيقة، سأبدأ الحساب من جديد، الدقائق الخمس ليس أكثر، وإذا صدر عن أي منكم حركةٌ أو صوت، أنتم تعرفون ما ينتظركم".

الإنذار المتجدد أرغمني على الصمت. هم، إذاً، لا يبحثون عن متفجرات، بل عن ذريعة لتصفيتنا. تصورتُ أن هذا هو الأمر، ولم أهتد إلى ما يمكن عمله لتجنبه. وفكرتُ: ما دام أن لا بدّ من تلقي الرصاصة القاتلة، فلأمت بكرامة. ولأن مثول خطر الموت أثقل من أن يُحتمل، ولكي لا يخذلني جسدي إن أوهنه الرعبُ، فإني شغلتُ نفسي عن التفكير في الموت بالتفكير في أبنائي. استحضرت حقيقة أن صغاري كبروا ونضجوا، وأن عيشهم في دمشق ودراستهم ماضيان في نحو مُرضٍ، وأن القائد العام الذي يعرفني والرجل الثاني في القيادة الذي يعرفهم وكلّ مسؤول يعرفني أو يعرفهم سوف يعتنون بأبنائي بعد رحيلي. بالراتب الشهري الذي تحصل عليه أسرة كلّ شهيد، وبالعناية الخاصة من قبل القادة، سيتوفر لأبنائي في غيابي ما هو متوفر لهم في حضوري وأكثر، وستتيسّر لهم فرصُ إكمال تعليمهم.

استغرقني التفكير الذي صنع مستقبلاً بهيجاً لأبنائي، فلم أنتبه لما هو قائم خلفي. وما انتزعني من استغراقي كان صوت زميل لبناني لم يستسغ الإذعان لضابط العسكر. تصور هذا الزميل أن مواطنيته اللبنانية توفر له حصانة، فراح يجهر بالاحتجاج. فلما لم يتلقَّ المحتج أيّ رد فعل، فإنه اغتاظ مما عدّه استهانة به، هو الذي عرّف نفسه بما هو من أهل البلد. وتحدى المغتاظ أمر الضابط، فانفتل بقامته كلها معتزماً مواجهة المستهين به، فلم يواجهه سوى الفراغ. كان العسكر قد انسحبوا بأتمّ الهدوء، وتركوا للخوف من الموت أن يبقينا ملتصقين برف الكتب. هو، إذاً، إنذار وجهه إلينا المتعاونون مع إسرائيل، "بروفة" إعدام علينا أن ندرك مغزاها: لا مجال لأن يبقى معهدكم في البلد، وإن عاندتم متشبثين باتفاق لا يتشبث به أحد سواكم، فسيصيبكم ما أصاب زملاءكم الذين فتك بهم الانفجار. والواقع أننا أدركنا في دخائلنا المغزى بتمامه. غير أنها كانت روح التحدّي والمكابرة، وكانت هذه تشتد كلما اشتدت الضغوط علينا، وهي التي جعلتنا نأبى أن نُعلن الاستسلام في أي ظرف. وبدل الانصياع لما لا بدّ من الانصياع له، واصلنا المكابرة، وقررنا مواصلة التحدّي.

يومها، عقدنا مؤتمراً صحافياً، وروينا ما جرى، وادنّا سلوك السلطة

الجديدة وجيشها. ولأن عدد الصحافيين الذين لبّوا دعوتنا إلى المؤتمر كان أقل مما يُرضينا، فقد أعددنا تقريراً وزعناه على وكالات الأنباء والصحف والإذاعات ومحطات التلفزيون. وأعددنا ترجمات انجليزية وفرنسية وروسية للتقرير ووزعناها على السفارات ومكاتب المنظمات الدولية. نشرنا الخبر على أوسع نطاق. وأغوت حكاية إيقاف عاملين في معهد دراسات على حائط إعدام إعلاميين كثيرين، داخل لبنان، وخارجه، خصوصاً خارجه، فتفنن هؤلاء في عرضها.

في المساء، فيما أنا والأستاذ عوني في جلسة تشاور لتقويم وضعنا، اتصل القائد العام. كان الذي أقلقه ما وقع لنا موجزاً وحازماً: "ليأت واحد منكما إليّ بأعجل ما يستطيع"! وبوجود جواز السفر الجزائري الخاص في حوزتي، وقع الاختيار عليّ. وفي الجلسة ذاتها، استعرضنا ما ينبغي أن أقوله للقائد العام، ما أقوله في وصف الوضع في لبنان ووصف وضعنا نحن فيه، وما نتوقعه، وما نقترحه، وما نطلبه. ولكي لا أنسى أيّ شيء مما ينبغي قوله، كتبتُ رؤوس أقلام لأرجع إليها من أجل تنشيط الذاكرة. وكلما كان عليّ أن أشير إلى نقطة حساسة، استخدمتُ ألفاظاً وتعابير رمزية أعرف أنا وحدي مدلولاتها. فعلتُ هذا تحسباً لأن يقع ما أكتبه في أيد لا يجوز أن

تصل إليها. وزيادة في التحوط، تقرر أن أحمل مبلغاً من المال يكفي ليدعم رواية الفناها تاليفاً لأسوّغ بها سفري، إن تعرضت للاعتقال. وكانت هذه الرواية تقول أني مسافر إلى هنغاريا لإتباع دورة علاج فيزيائي طويلة أحتاج إليها. واشتريت لي تذكرتا سفر منفصلتان: واحدة من بيروت إلى بودابست، والثانية من بودابست إلى حيث ينتظرني القائد العام.

وفي ظهيرة اليوم التالي، صحبني حتى المطار واحد من الزملاء الموكلين سراً بأمننا. وهناك، انتظر هذا الزميل إلى أن اكتملت إجراءات سفري، وعاين بنفسه توجّهي إلى مراقبي الجوازات، ورأى كيف خُتم جواز سفري، ثم رآني وأنا أعبر الباب المفضي إلى قاعة الترانزيت، ولم يُغادر هو المطار إلا بعد أن اطمأن إلى أني مغادر لا محالة.

وقبل إقلاع الطائرة، فيما هم يبثّون النداء الأول لركابها كي يتوجهوا إليها، أحاط بي وأنا متوجه نحو بوابة الإقلاع رجلا أمن لبنانيان يرتديان ملابس مدنية. وأنذرني كبير الرجلين بأن أنصاع لهما بهدوء فلا أثير ضجة لن تنفعني. واقتادني الرجلان من قاعة الترانزيت إلى البهو الذي جئت منه. وهناك، وضع صغير الرجلين قيداً ربط يدي اليمنى بيده هو اليسرى، وسار بي الرجلان إلى أن بلغنا سيارتهما.

وفي هذه السيارة، وصلتُ وأنا مسربل بهواجسي إلى مبنى إدارة الأمن العام. عندها، فارقنا كبير الرجلين بعد أن أشرف بنفسه على تسجيل اسمي في مكتب الدخول، واقتادني شريكي في القيد عبر ممرات المبنى الكبير الذي خلا في تلك الساعة من المراجعين والذي كانت أبواب حجراته مغلقة، إلى أن بلغ باب حجرة يقف إزاءه حارس يلفُ وسطه بحزام يتدلى منه مسدس، وسلمني إلى هذا الحارس. وبما يُذكِّر بتعبير لمح البصر، فتح هذا الحارس الباب. وبركلة من قدمه وخبطة من يده، دفعني الرجل إلى الداخل دون أن يدخل هو، وأقفل الباب بأسرع حتى من لمح البصر.

ألقتني الدفعة الفظة وسط حشد الموقوفين الذين تكتظ بهم الحجرة. ووجدتني أعتذر، فالدفعة المفاجئة جعلتني أسقط بطولي على عدد من هؤلاء. غير أن اعتذاري لم يجتذب انتباه أحد، لا من الذين سقطت فوقهم ولا من الآخرين. فكما اتضح لي في ما بعد، ألف هؤلاء أن يسقط أحدٌ ما على بعضهم كلمًا فُتح الباب.

واحد ممن سقطتُ عليهم، هو الذي حطّ وجهي إزاء وجهه، سدّد نحوي نظرة أدركتُ معها أنه تعرّف عليّ، فتأملتُ وجه هذا الذي بدا لي انه حريص على ان أدرك انه عرفني دون ان أجهر بهذا. فتذكرتُ اني رأيت هذا الوجه من قبل. وبعد ان جلستُ بجانبه لأنه افسح لي

مجالاً أجلس فيه، تأملتُ الرجل بإمعان: وجه تشي تقاسيمه بسماحة طبع صاحبه ويبثّ تعابير تظهر أن الرجل جلدٌ ومن الممكن الركون إليه؛ وعينان، العينان بالذات، توحيان بأن هذا الإنسان يملك خبرة يُعتدُّ بها وتحثان على الثقة به. وفي غضون ذلك، وذلك هو ما استغرق دقيقة أو اثنتين، تشكل شيء في الذاكرة، فهذا وجهٌ طالما رأيته في مقرّ اللجنة العلمية الفلسطينية الذي كنت أزوره لألتقي رئيسها. وحين أدرك الذي لم يظهر في ذاكرتي ما يدل على الوظيفة التي يشغلها أني تذكرت من هو، أذن الرجل لنفسه بأن يتناول حقيبة الأوراق الصغيرة التي كانت معلقة بمعصم يدي اليسرى دون أن افطن أنا أو يفطن رجلا الأمن لوجودها. وبما يُشبه كذلك لمح البصر، أخفى الرجل الحقيبة عن العيون بحركة لا يتقنها إلا محترف. فانفتحت الذاكرة: إنه أحمد، ضابط الأمن المسؤول عن سلامة رئيس اللجنة العلمية الفلسطينية، الضابط الذي كنت أراه في مقرّ اللجنة كلما زرت هذا الرئيس.

اخذ أحمد حقيبتي بعد أن ضغط على يدي ضغطة متواطئة: فاختفت الحقيبة دون أن ألحظ أين أخفاها. الحقيبة التي لا يزيد حجمها كثيراً عن حجم محفظة كان فيها المبلغ من المال الذي تزودّت به، والأوراق التي كتبتُ فيها رؤوس الأقلام عن التقرير الذي

سأقدمه للقائد العام، والتعابير المرمزة التي لا يعرف غيري مدلولها. ولكم شعرتُ بالراحة والاطمئنان لأن أحمد بادر إلى إخفاء هذه الحقيبة. وحين همس هو متساءلاً عما إذا كان في الحقيبة نقود، همست بإجابة حرصتُ على أن لا يسمعها سواه: "ألفا دولار، وأوراق"، وهمس هو: "مفهوم"!

أُلقيتُ في حجرة الموقوفين، دقائق قبل الرابعة من بعد الظهر. وكانت الرابعة هي الساعة التي يستأنفون فيها، بعد استراحة الغداء، استدعاء الموقوفين المطلوبين للتحقيق. ومنذ استقرت جلستي بجانب أحمد، رحتُ أتمعن في ما حولي: حجرة لا تزيد مساحتها عن عشرين متراً مربعاً، نوافذها مقفلة ومغطاة بألواح خشبية قاتمة اللون حلّت محلّ زجاجها وحجبت عمن في الحجرة رؤية الخارج أو تلقي ضوء النهار الطبيعي؛ وأربعون موقوفاً أو ما يزيد عن الأربعين محشورون في الحجرة وهم متكومون على بُرُشٍ بليت من طول الاستخدام؛ وصمتٌ إن اخترق فبأحاديث هامسة يتبادلها من يثقون بعضهم ببعض، أو بتأوهات وتعابير أخرى عن الضيق يُطلقها من اشتد ضيقهم أو أثقل عليهم السأم دون أن يوجهوها لأحد بعينه أو جهة بعينها.

أما ما استرعى انتباهي أكثر من أي شيء آخر، فوجود رجل واقف

عند الباب وظهره إلى الآخرين، في وضع من يتوقع أن يخرج ويتعجل الخروج. وقد منّاني شيء في قامة الرجل بأني أعرفه، فأبقيت نظري موجهها نحوه. ومن حسن حظي أن متعجل الخروج تحرك في نحو مكّنني من ان ارى جانب وجهه، وإذ بي أهتف دون تدبّر: أبو خالد!

كان أبو خالد سياسياً سورياً أخرجه خلافه مع حكام بلده من البلد والجأه إلى بيروت، فاستقبلته صحيفة أنشئت في عاصمة لبنان لمناوئة هؤلاء الحكام. وكغيره من كتّاب الصحف، كان أبو خالد يتردد على معهدنا للاستفادة من محفوظاته، وكان يصدف أن ألقاه، لكنني لم أوله عناية خاصة ولم أسع لإقامة علاقة معه. هذا الوضع تبدّل بعض الشيء منذ اكتشفتُ أن أبا خالد يسكن في بناية قريبة من الشقة التي انتقلت إليها، وأنه من معارف ريم.

سألني أبو خالد عن سبب وجودي في هذا المكان، فسألته عن سبب وجوده هو فيه، فعرفتُ أنه جاء لمراجعةٍ دورية تتعلق بتجديد إذن إقامته في البلد، وأنهم طلبوا منه ورقة لا يحملها لكنها موجودة في منزله. ولم يُجز ناس الأمن للسوري الذي جاء إليهم بنفسه أن يذهب إلى منزله لإحضار الورقة، بل ضمّوه إلى الموقوفين بعد أن استقدم هو واحداً من أصحابه وأعطاه مفتاح شقته ليجلب هذه الورقة، وهو

يتوقع أن تنتهي الحكاية في أيّ لحظة ويُطلق سراحه. هي، إذاً، فرصة وقد اغتنمتها دون تردد. فطلبتُ من الرجل أن يهتف فور خروجه لواحد من اثنين أو لهما كليهما إن أمكن: الأستاذ جلال أو الأستاذ عوني، وافهمته أن خلاصي مما أنا فيه متوقف على ما سيفعله هو.

الموقوفون بمعظمهم كانوا من الفلسطينيين، ألقي القبض عليهم للاشتباه بأنهم من مؤيدي هذا أو ذاك من الفصائل الفلسطينية النشيطين. وفي الرابعة تماماً، فُتح الباب، فخرج منه اثنان: أبو خالد المفرج عنه، وفلسطيني من مخيم شاتيلا اقتيد إلى التحقيق. ثم تواتر فتح الباب. وكان الحارس يلقي في كل مرة موقوفاً جديداً أو الموقوف الذي أنهوا وجبة التحقيق معه ويسحب من حلّ دوره لينال وجبته. رجل شاتيلا كان، بالطبع، أول من رجع، وكان التعذيب قد هدّه وأدماه وأعجزه حتى عن الشكوى. ولم يختلف حال أيّ من الذين رجعوا بعده عن هذا الحال. مع تواتر سحب الموقوفين وهم أسوياء وإرجاعهم مهدودين مُدميين، اشتد قلقي، أو لأقل إن ما اشتد كان هو خوفي من أن أتعرض لما تعرضوا له. أن يُعذبك محقق تعذيباً جسدياً ليس هذا مما يتعذر احتماله. أما أن تنقضي ثماني ساعات وأنت تترقب دورك في التعذيب دون أن تعرف متى سيحلُّ

هذا الدور، ودون أن تتيقن مما إذا كنت ستعذب أو لا، فإن هذا كلّه كان أشق من أي تعذيب جسدي.

في منتصف الليل، تماماً في هذا الوقت، أعيد آخر من حقق معهم، ثم أقفل الباب دون أن يأخذوا أحداً. وكأنما كانت تلك إشارة فرج للذين كانوا مثلي يترقبون دورهم، إشارة نشطت في الحجرة حركة عامة مباغتة لي. وقتها، قال أحمد دون همس: "لك الآن أن تنام كما سينام الجميع، عمل الليلة توقف، وإذا استدعوك في الصباح فهذا يعني أنهم لن يعذبوك". وحكى أحمد ما كتمه عني حتى تلك اللحظة، فمنذ الصباح حتى نهاية وقت العمل الرسمي، في الثالثة بعد الظهر، يكتظ المبنى بموظفيه الكثيرين ومراجعيه الأكثر. والموكّلون بالتحقيق يتجنبون أن ينتبه الذين لا يعنيهم الأمر إلى أن محققي الأمن يخالفون قوانين الأرض والسماء ويمارسون ما حظره الخالق والكثيرون من خلقه.

النوم غير المريح وسط المتحاشرين الكثيرين في المسافة الضئيلة المتاحة، وأنين الذين عذبوا، وأصوات الشخير، كلّ هذا أسلمني إلى إغفاءات متقطعة، ثم أبقاني مفتوح العينين غير قادر على الإغفاء، فيما أنا غير قادر، أيضاً، على التحرك. وفي السادسة صباحاً، فُتح الباب بصخب أيقظ من لم يكونوا قد استيقظوا. وأطل علينا شخص

معه إبريق كبير وكؤوس صغيرة، وقدّم لكل منا كاس شاي وتقاضى ثمنه، ولا فطور. وفي الثامنة، فُتح الباب من جديد، وهتف الحارسُ بإسمي. فنظرت ناحية أحمد نظرة حمّلتها امتناني له هو الذي افهمني مسبقاً اني لن أعذّب إن استدعيت في هذا الوقت. وردّ هو بنظرة وابتسامة تباركان نجاتي من التعذيب.

وأدخلت حجرة بحجم الحجرة التي قضيت الليل فيها، يتصدرها مكتب كبير يجلس إليه رجل في منتصف العمر. تلقاني الرجل بوجه جادّ التعابير، وأشار بحركة مقتضبة من يده إلى كرسيٍ قائم قبالته، داعياً إياي بهذه الإشارة إلى الجلوس. ومنذ بدأ الرجل مخاطبتي، اضاف لقب أستاذ إلى إسمي، فأدركت أن من ندبتهما للتدخل قد افلحا في عمل شيء، واسترخت أعصابي، بينما أشتد تنبهي إلى ما يقول المحقق، حتى لا يفوتني التعرف على أفخاخ الكلام التي ينصبها المحققون. "إيه أستاذ، أنت لن تقول لي إنهم في الجزائر يُعطون جواز السفر الخاص هذا لكل إنسان". استخدم المحقق نبرة متذاكية، متوقعاً، كما بدا لي، أن ادعي اني دبلوماسي جزائري، فيجبهني هو بما يكشف ادعائي. وأول ما استخلصته هو أن الرجل لم يفطن إلى أن إشارة تجديد الجواز مزورة، فليس علي، إذاً، أن اتوقع مواجهة شاقة معه. وشئت أن ابيع الرجل واحدةً تريحه

وتظهرني بمظهر الساذج الذي يُوقع نفسه بنفسه. فقلتُ بنبرة تعمدتُ أن تبدو متباهية: "بالطبع، لا. لو لم أكن مسؤولاً عالي الرتبة في منظمة التحرير الفلسطينية لما منحتني الجزائر جواز سفرها".

هذه الواحدة حققت هدفها. فتيسر لي أن أتصنع السذاجة طيلة الوقت دون أن يفطن هو إلى أني أتصنع. اطمأن المحقق المتذاكي إلى أني الساذج الذي يبوح بما لا يبوح به إنسان فطن، وتعامل معي على هذا الأساس.

سأل الرجل عن كل صغيرة وكبيرة في عملنا في المعهد، وعن دوري فيه، وركّز أسئلته على موضوعين: من الذين يتعاونون معنا من خارج المعهد، خصوصاً اللبنانيين من هؤلاء؛ وكيف تجرأنا على نشر تقريرنا عن المجزرة واتهام الفريق الحاكم بأن ميليشياه هي التي نفذّتها. في الموضوع الأول، واصلتُ ما بدأت به: بوح الساذج الذي لا يبوح في واقع الأمر بشيء ذي بال. وفي الموضوع الثاني، واصلتُ، أيضاً، التظاهر بالسذاجة، وأضفتُ التنويه المتكرر بمزايا لبنان. انطلقتُ من استخلاصي أني إزاء رجل ينتمي إلى الفريق المعتزّ بلبنانيته والذي يتصور أن لبنان هو أهم بلد في العالم ويُحبّ أن يقر الآخرون بتميّز هذا البلد. نوّهت بحرية التعبير المتوفرة في البلد، ونسبتُ إليها اختيار مؤسسي معهدنا الأوائل بيروت، دون غيرها من

عواصم العالم، لتأسيس المعهد فيها: "حرية التعبير هذه هي التي جعلتنا نجيزُ لأنفسنا نشر تقرير بهذه الخطورة". وقبل أن يُحاججني المحقق، قلت للمأخوذ بإمعاني في الإشادة ببلده: "هل سألت نفسك لماذا بقينا هنا، تُعرّضنا للملاحقة، لكواتم الصوت، للتهديد بالتدمير والقتل، دُمرّ مقرنا، وقتل منا من قتل، ولم نغادر". ثم الححتُ مكرراً مرة أخرى ما بدأته: "اسأل نفسك عن السبب فإذا لم تهتد إليه فأنا أدلك عليه، بقينا لأن حريّة التعبير في هذا البلد راسخة"! وهمّ هو بأن يقول شيئاً، لكني استوقفته: "إن كنتم راغبين في إلغاء حرّية التعبير فقولوا هذا، ولك عليّ أن نغادر بلدكم في اليوم التالي"!

بعد أن طوّقتُ في هذا النحو من ظن أني ساذج، لم يقل هو شيئاً، ولم يطرح أسئلة أخرى، بل نهض عن كرسيه بحركة متثاقلة وهو يقول: "لنر ما يوجد في حقيبتك". وللحظة، ظننتُ أن المحقق يقصد حقيبتي الصغيرة، فجعلني هذا الظن المزعج أرفع يدي اليسرى لتفقد مكان الحقيبة المألوف. ولحسن حظي، لم ينتبه المحقق لمغزى هذه الحركة، ولعله لم يرها. نفّذ الرجل ما اعتزمه، فدار حول مكتبه واتجه نحو زاوية في الحجرة فتبعته بنظري، أنا الذي وقفتُ منذ نهض هو عن كرسيه. ولدهشتي، وقع نظري على حقيبة ملابسي مركونة في تلك الزاوية. كنت قد نسيتُ هذه الحقيبة بعد أن

تصورت في اليوم السابق أنها بقيت في الطائرة، أما هم فإنهم لم ينسوا.

إزاء هذه المفاجأة، وجدتني مستعداً للتضحية بأي شيء حتى لا يطلّع المحقق على أشياء في الحقيبة سيتعرض كثيرون للأذى لو اطلّع عليها، ولن أنجو أنا من التعذيب كي أقرّ بمصادر هذه الأشياء وسبب وجودها معي، ولن تنفعني أيّ شفاعة. لحظتها، استحضرتُ ما فعله أحمد بعد أن جلست بجانبه. فضابط الأمن المحترف فطن إلى أني قد أتعرض في التحقيق لموقف أحتاج معه إلى تقديم رشوة للمحقق أو لرئيسه. وبعد أن استفهم عما إذا كنت أحمل نقوداً، استلّ أحمد من حقيبتي المخبأة لديه أوراقاً مالية لم أدر كيف حسبها، ودسّ الأوراق في جيب بنطلوني، وهمس: ألف دولار". وشرح لي سبب ما أقدم عليه. وقبل أن يبلغ المحقق مكان حقيبتي الكبيرة، صرتُ أنا أمامه، وواتتني الجرأة، فدسستُ في يد الرجل رزمة الأوراق المالية، وهمستُ: "هي ألف دولار". وما كان أسعدني بردّ فعل الرجل، فقد وقف لحظات عدّ خلالها أوراق المئة العشرة، ثم انتقل راجعاً إلى مكتبه، واستعاد قعدته على كرسيّه، ووجه نحوي ابتسامة متوددة، واستخرج من أحد الأدراج محفظة نقود ووضع المال فيها، ثم قال: "في حياتي، حققتُ مع ألوف الناس، وفي الشهور الأخيرة،

حققتُ مع كثيرين من ناسكم. أنت الوحيد بين الجميع الذي صدّقته منذ بدا يتكلم".

بعد هذه المجاملة، كتب الرجلُ محضراً وجيزاً ختمه بعبارة قرأها لي: "بالإطلاع على حقيبة المحقق معه، اتضح أن فيها ما يلي:" وما تلا هذه العبارة كان ما عدّدتُه أنا من محتويات حقيبتي والأوصاف التي وصفته بها، أمليت وكتب. بعد هذا، وضع المحقق المحضر في الملف الذي كان أمامه طيلة الوقت، ثم تناول سماعة الهاتف وأدار أرقاماً قليلة.وحين انفتح الخط من الجهة الأخرى، قدّم المحقق تحية أدركتُ معها أنه يتحدث إلى رئيسه: "التحقيق انتهى، سيدي، الرجل متعاون، وهو يُحب البلد، ولا يوجد سبب لنشك فيه". وبعد أن أصغى لكلام صدر عن الطرف الآخر، قال الذي اكتسى صوته نبرة من يجيب على سؤال ذي أهمية: "نعم سيّدي، أكثر مما توقعت". وأعاد السماعة إلى مكانها، والتفتَ نحوي وقد انفردتْ أساريره كما تنفرد أسارير إنسان أنهى لتوّه مهمة معقدة وظفر بأكثر مما يريد: "الرئيس يريد أن يراك".

أدخلت بصحبة المحقق على رجل بدا لي أنه لم يبلغ الأربعين. كان هو الرئيس، وكان يشغل حجرة فاخرة الأثاث، ويلبس بذلة مدينية وربطة عنق وقميصاً كلّها من أحدث طراز، ويجلس على مكتب تشعَ

منه النظافة والأناقة. ومع أول عبارة تفوه الرجل بها، أدركتُ أن التحقيق قد انتهى فعلاً. فقد قال وهو يُشير إلى الصوفا المريحة المقابلة لمكتبه: "تفضل، أستاذ"! ومع الفارق الهائل بين أناقته المفرطة وبين زراية ملابسي، بين وجهه الطافح بأمارات العناية والعافية وبين وجهي الذي جار عليه طول احتباسي في الهواء الفاسد، ومع التباين بين وضعي وبين وضعه، تصرفتُ أنا كما لو كنتُ زائراً وليس موقوفاً. وهكذا، نصبتُ قامتي إزاء الرجل قبل أن أجلس، ومددتُ يدي للمصافحة، باغتُّه بهذه الحركة مباغتةً، فامتدت يده بحركة عفوية، وتصافحنا. وعلى الصوفا، اتخذتُ قعدة متبسطة. وفيما الرئيس يقلب أوراق الملف، وقعتْ عيناي على علبة سجائره متروكة على طاولة الوسط المحاذية للصوفا، فتساءلتُ وأنا أشير إلى العلبة: "سجائري نفدتْ، هل تأذن لي بسيجارة من علبتك"؟ لم يَبدُ رئيس الأمن سعيداً بهذا التبسط، لكنه لم يتجاهل طلبي: "دخِّن"! كلمة واحدة واصل بعدها تصفح أوراق الملف، ثم كتب شيئاً على ورقة أضافها إلى هذا الملف، وأعاد كلّ شيء إلى المحقق الذي بقي كلّ الوقت صامتاً.

توقعتُ أن يقول لي هذا الرئيس شيئاً بعد أن فرغ من الملف، غير أنه لم يبد في عجلة من أمره، فقد أسند ظهره بحركة متندة على ظهر

كرسيه، ورفع يده اليسرى إلى جبهته، وراح يُمسّد حاجبيه كليهما معاً بإبهام هذه اليد ووسطاها، بينما احتفظت يده اليمنى بالقلم. ودون أن يُنزل اليد التي على جبينه حتى بعد أن كفّ عن التمسيد، وجّه الرجل نحوي نظرةً رخوة، وقال بنبرة رخوة هي الأخرى: "ذكرتَ في التحقيق أنك مسافر من أجل العلاج، قلت إن علاجك يحتاج ما بين شهر وشهر ونصف. رح مطرح ما بودّك. لا أحد يعرف ما الذي سيحصل للبلد حتى ذلك الوقت، لا أنا عارف، ولا أنت، ولا أحد"!

تساءلت بعد أن التقطتُ أهمّ ما عناني من كلام رئيس الأمن: "هل أنا، الآن، حرّ"؟ فردّ هو بنبرة لم تعد، بعد، رخوة: "عُوملتَ معاملة خاصة، وأنا أقول لك إن بإمكانك أن تسافر، فما الذي تريده أكثر من هذا". وفي عبارته الأخيرة، أحسستُ رغبة هذا الرئيس في لومي. أما التقريع فجاء بعد أن تساءلتُ، أنا الذي تصورت أني صرت حراً، عما إذا كان بإمكاني أن استخدم هاتفه لأكلم مدير معهدنا. فإزاء هذا الطلب، عدّل هو قعدته على كرسيّه، وبثّت نظرته إليّ التقريع قبل أن ينطق به لسانه: "غريب أمركم كلكم، نعاملكم معاملة راقية فتطلبون معاملة أرقى". ودون أن يُنحّي نظره المسلط عليّ، وضع المستفز يديه على المكتب بهيئة من يهم بالنهوض، لكنه لم ينهض، بل مال ناحيتي بجسده وشدّد النظرة المسلطة عليّ: "عندنا تقارير عنك، كان

يمكن أن... كان يمكن أن نُبقيك عندنا إلى أن تقتنع بأنك لست من اهل الدار، أن نرسلك إلى محكمة، أن... لكن، كرمى لصالب بك، هل حزرتَ أن دولته تدخل من اجلك"؟

صالب بك، هذه، إذا وردت على لسان اي لبناني دون حاجة إلى ذكر إسم العائلة، فهي تعني لبنانيا واسع النفوذ هو أشهر السياسيين الذين تعاقبوا على رئاسة الحكومة في البلد. وإذاً، فكرتُ، هو الأستاذ جلال الذي لم ينس صحبتنا القديمة، وهو من اتصل ابو خالد به، فاتصل بدوره بالزعيم نافذ الكلمة. هذا الاستنتاج جعلني اشدّ جرأة في التعامل مع رئيس الأمن الذي رشوتُ مرؤوسه لتوّي، والذي لم اشك في انه سينال حصته من الرشوة. إن فينا هذا الشيء: أن تحتاج للتجرؤ على من أرغمك على فعل شيء تمجّه، إذا واتتك الفرصة. والواقع أن اضطراري لتقديم رشوة كان بالنسبة لي فعلاً ممجوجاً. فقلت للذي قرّعني:"كلامك عن سفري جعلني اتوهم اني لست موقوفاً، الآن أعرف...". فلم يُجز لي الذي كان قد نهض عن مقعده ان أكمل عبارتي المتشكية، بل انتهرني انتهاراً: "موقوف او غير موقوف. سنرحّلك على أول طائرة مغادرة حتى لو أخذتك إلى جهنم، هذا هو قراري، راعيتُ خاطر دولة صالب بك، فلا تجعلني أقرر ما تستحقه انت فعلاً"!

ما أضيق فرصة التمرد المتاحة لموقوف، وما أقصر مفعول الرشوة حين يقدمها مغلوب على أمره لغالبه! التقريع الذي تضمن الإنذار حملني حملاً إلى التطامن. فتساءلت، حريصاً على أن لا أضع سؤالي في صيغة اعتراض على قرار التسفير الإجباري، عن حوائجي التي في الشقة، عن أوراقي التي في المكتب، عن زملاء العمل الذين ينبغي أن يعرفوا مصيري. ولم يأذن هو بان أتمّ سلسلة أسئلتي، بل أشار بيده إشارة حازمة الدلالة تطلب أن أسكت، وأدار رقماً على هاتفه، وسمعته يسأل عن أول طائرة مغادرة ومتى ستغادر، ثم أعاد السماعة إلى مكانها، وقال دون أن يُوجه نظره نحوي: "بعد ساعة، هناك طائرة مغادرة إلى لارنكا، قبرص ليست بعيدة، سنوصلك إليها".

لم تكن محفظة الأوراق الصغيرة قد غابت عن بالي، فاحتجتُ إلى مزيد من التطامن حتى لا أفقدها: "عليّ أن أقرّ، كنتم كريمين معي، وأرجو أن تأذن لي بواحدة، أريدُ أو أودّع الذين أمضيتُ ليلتي معهم، تعرف، صحبة الـ...". وبلعتُ الكلمة، فلم أقل صحبة السجن. وكان هو قد كفّ عن الإصغاء، وتحرك معتزماً مغادرة الحجرة. وفيما هو متجه نحو الباب، خفّ المحقق ليفتحه له وهمس بشيء في أذنه، فسمعتُ هذا الرئيس يقول: "ليودّع من يشاء، على أن تُعجلوا إيصاله إلى المطار، لا نريد أن نؤخر إقلاع طائرة من أجل هذا الـ...". ولم أسمع

بقية الكلام.

احاطني احمد بذراعيه وهو يُودعني. وحين انفصلتُ عن هذا الإنسان الذي لا يُنسى، كانت حقيبتي الصغيرة معلقة في معصم يدي اليسرى. وفي الممرّ، أمام باب الحجرة، وجدتُ في انتظاري رجليّ أمن جديدين كُلفا مهمة اصطحابي إلى المطار ومعهما حقيبة ملابسي. ولأن الرجلين لم يرياني من قبل، فما من احد اثار وجود الحقيبة الصغيرة ريبته.

أخذتُ إلى المطار مقيّد اليدين. وأجلستُ هناك بقيدي في مكتب للأمن بعيد عن الغادين والرائحين، وأبقيتُ في هذا المكتب تحت رقابة واحد من الرجلين إلى أن فرغ زميله من استكمال إجراءات تسفيري. ثم طُولبتُ بأن انهض، وأمرتُ بأن اسير بين رجليّ الأمن في ممرات خالية أفضى آخرها إلى أرض المطار. وكانت في الانتظار سيارة شرطة فيها سائقها وحده. فحشرني رجلا الأمن في مقعد السيارة الخلفي وجلسا معي، أحدهما على يميني والثاني على يساري. هذه السيارة أوصلتنا إلى السلم المفضي إلى باب الطائرة الأمامي، فصعدناه ثلاثتنا، إلى أن بلغنا الباب حيث كان في انتظارنا أحد مساعدي قائد الطائرة. ودخل أحد الرجلين قبلي ثم شدني شداً من سلسلة القيد كي أتبعه. ودخل الثاني ورائي.

كان الركاب قد شغلوا مقاعدهم. والمضيفون الذين أنهوا التحضيرات التي تسبق الإقلاع كانوا واقفين في انتظار لوصولي لم أدر كم طال. ومرةً أخرى، شدّني الممسك بسلسلة القيد شداً ومضى بي ببطء حتى صفّ المقاعد الأخير، فيما بقي زميله مع مساعد الطيار عند الباب. وبهذا، رأى الركاب كلّهم أن الذي تأخر إقلاع طائرتهم بسببه قدم إلى الطائرة مُقيد اليدين. وعند المقعد المخصص لي، فكّ رجل الأمن قفل القيد وحرّر يديّ منه، ثم ضغط براحتيه كلتيهما على كتفيّ كليهما ضغطة باغتتني، فوجدتني أحطّ على مقعدي. وبقي الرجل، حتى بعد هذا، واقفاً بقربي إلى أن طلبت سماعات الطائرة من الركاب ربط الأحزمة. وقتها، وقتها فقط، ناولني الرجل جواز سفري، ثم فارقني دون أن يفوه بكلمة.

صدر للمؤلف

- روايات

1 - المحاصرون.

2 - بير الشوم.

3 - سمك الجة.

- دراسات

1 - الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤ - ١٩٧٤.

2 - العمل العربي المشترك وإسرائيل، الرفض والقبول: ١٩٤٤ - ١٩٦٨.

3 - جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨ - ١٩٤٨.

4 - تقاسيم زمار الحي.

- شهادات

1 - دروب المنفى ١، الوطن في الذاكرة.

2 - دروب المنفى ٢، الصعود إلى الصفر.

3 - دروب المنفى ٣، زمن الأسئلة.

4 - دروب المنفى ٤، الجري إلى الهزيمة.

5 - دروب المنفى ٥، أين بقية الحكاية؟

6 - الحنين، حكاية عودة.